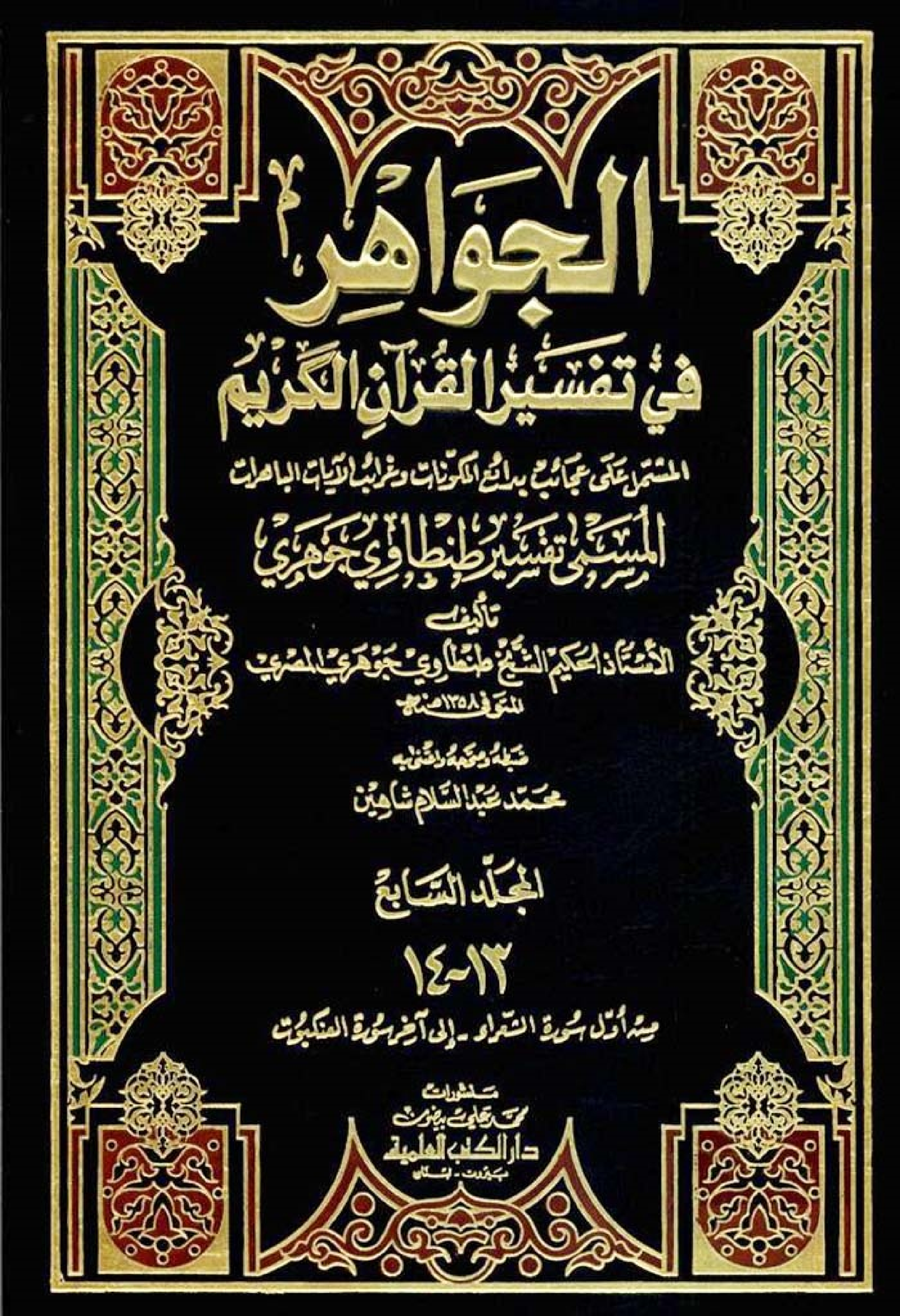


الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى في ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد السابع
١٣-١٤
من أول سورة الشعراء - إلى آخر سورة العنكبوت
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

# الجواهر

## في

# تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

## ١٣ - ١٤

المحتوى:

من أول سورة الشعراء - إلى آخر سورة العنكبوت

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]

## سورة الشعراء مكية

إلا آية: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾[الآية: ١٩٨]

ومن قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[الآية: ٢٢٥] إلى آخر السورة فمدنية

## وهي ٢٢٧ آية: وهي سبعة أقسام

**القسم الأول**: مقدمة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على إعراضهم عن الدين، وفي الاستدلال على الله بعجائب الطبيعة.

**القسم الثاني**: في قصة موسى عليه السلام وفرعون.

**القسم الثالث**: في قصة إبراهيم عليه السلام.

**القسم الرابع**: في قصة نوح عليه السلام.

**القسم الخامس**: في قصة هود وعاد وثمود وصالح عليهم السلام.

**القسم السادس**: في قصة قوم لوط وشعيب عليهم السلام.

**القسم السابع**: خاتمة السورة، في وصف القرآن بأنه نزل به جبريل، وأنه شهد به علماء بني إسرائيل، وأنه لا يقدر على مثله الشعراء الخ. يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام».

### القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## التفسير اللفظي

﴿طسٓمٓ﴾ تقدم تفسير البسملة في «الفاتحة»، و﴿طسٓمٓ﴾ في أول «آل عمران»، وسيأتي هنا، ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: هذه الآيات التي في هذه السورة آيات القرآن الظاهر إعجازه، المبين بالحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ قاتلها، ولفظ «لعل» للإشفاق، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك، وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: خيفة امتناع كونهم مؤمنين، والمراد بهم قريش، وكان حريصاً على إيمانهم محبة لهم فلا تجزع يا محمد ﴿إِن نَّشَأۡ﴾ إيمانهم ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان، ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين، لما وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم وظل الماضي في معنى المضارع؛ كما تقول: إن زرتني أكرمتك، أي: أكرمك كما قال الزجاج، ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ﴾ طائفة من القرآن ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يوحيه إلى نبيه ﴿مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على الكفر، ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ أي: بالذكر بعد إعراضهم، وأمعنوا في التكذيب حتى استهزؤوا ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾ إذا مسهم العذاب يوم بدر أو يوم القيامة ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فيعرفون أحق كان فيصدّق أم باطل فيكذّب ويستهزأ به، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أولم ينظروا إلى عجائبها ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود كثير المنفعة، فإن النباتات بلغت أنواعها ٣٢٠ ألف نوع ولكل منها منافع ومناظر وخواص وطبائع وعجائب تخالف الثاني، والإنسان الذي هو أرقى المخلوقات على الأرض له في كل نبات منفعة: فمنه الدواء، ومنه الغذاء، ومنه الروائح العطرية، ومنه خشب السقف، ومنه شبابيك المنزل، وبعض السفن في البحر، والزيت، والفاكهة الزيت منها، والعطري والمائي والحمضي والسكري والمزّ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنبات تلك الأصناف وفي كل واحد منها ﴿لَأٓيَةٗ﴾ على أن الخالق تام الحكمة عليم سابغ النعمة واسع القدرة، وقد علم الله أن أكثرهم قد طبع على قلوبهم فلا يرجى إيمانهم، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن آمن منهم وتاب. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول، وهاهنا لطيفتان:

## اللطيفة الأولى

### في معنى: ﴿طسٓمٓ﴾[الآية: ١]، ومعنى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١]

هذا ما فتح الله به في فجر يوم الأحد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٨ في معنى: ﴿طسٓمٓ﴾، وفي معنى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ومعنى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ لم يخطر لي إلاّ في هذا الصباح، وذلك أن المقصد من هذه الحروف توجيه النفوس إلى المعاني المهمة في السورة من تعليم وتهذيب، فترى أن:

### الكاف

تشير إلى أن تذكر قصة زكريا في أول السورة، وأنه دعا الله أن يجعل له ولياً يكون نافعاً لبني إسرائيل بعد وفاته، فأجيب دعاؤه، والسبب في الإجابة أن هذا الدعاء قصد به العموم لا الخصوص،

فليعلم المسلمون أن الإنسان لا تتم إنسانيته إلاَّ بأن يوجّه همّته للمنافع العامة كما في أمر زكريا، وهذه المعاني استنتجت من هذه القصة لمكان «الكاف» في ﴿ زَكَرِيَّآ ﴾[مريم: ٢] و﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾[مريم: ١٦]، وأما «الكاف» في ﴿ رَبُّكَ ﴾[مريم: ٩] فكأنه يقول سبحانه: إن ربهم هو ربك أيها المسلم، فلتفعل ما فعلوا فإن الله يعينك كما أعانهم، وهذا هو المقصد من القصص، فإن القصص إنَّما يراد للتذكار والقدوة.

## الهاء

قد جاء في قوله: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾[مريم: ٢٥]، القصد من هذا أن تكون الأمم الإسلامية قائمة بأعمال الظاهر وتوجّه الباطن، فتوجّه الباطن تقدم في قصة زكريا واستجيب دعاؤه، وإليه الإشارة بلفظ «كاف»، وتوجّه الظاهر هو الأعمال الظاهرة من عمارة الأرض ونظام الجمهور من الإمارة والصناعة والزراعة والتجارة، وهذه يشار لها بقوله: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾، ليعتدل الناس في أعمالهم، ومعنى هذا أن الحياة ترجع لنفوس تتوجّه وأجسام عاملة، فكما أن الحياة ترجع للروح والجسم، هكذا أعمال الناس ترجع لعمل الأرواح وعمل الأجساد، والأرواح عملها مقدّم على عمل الأجسام كما تقدمت قصة زكريا على قصة مريم التي هزّت جذع النخلة.

## الياء

هي الياء في ﴿ يَحۡيَىٰ ﴾[مريم: ٧] تذكيراً بما له من المزايا الشريفة، إذ هو أخذ الكتاب بجد واجتهاد، وكان رؤوفاً وطاهراً وتقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، وهذه الصفات أوجدت له السلام، فليكن المسلم متصفاً بهذه الأوصاف فإنه ينال عون الله له، والقصد من هذا الاتصاف بمحاسن الأخلاق الباطنة.

## العين

وهي في ﴿ عِيسَى ﴾[مريم: ٣٤] و﴿ عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٣٠]، ولا جرم أن أهم ما في قصة المسيح أنه عبد الله، وذلك هدم لما يزعمه النصارى، وهذا ملخص ما ذكر في أمر عيسى، وكل ما ذكر فيها من تاريخه وتاريخ الأحزاب واختلافهم بعده، يرجع أنه عبد، فمتى قلنا إنه عبد فقد ذهبت جميع الأوهام في أمره.

## الصاد

حرف «الصاد» جاء في ﴿ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[مريم: ٤١]، وفي ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[مريم: ٥٩]، وفي ﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦]، وفي ﴿ صِلِيًّا ﴾[مريم: ٧٠]، وهذا كله راجع للأعمال الصالحة من صلاة وصدق في علم وعمل وصلاح وتقوى، وجاءت «الصاد» أيضاً في أول ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ [طه: ١٣٢] فالصبر والصلاة والصدق والصلاح هي التي عليها مدار دين الإسلام.

إذن هذه الحروف تجمع فضائل الأعمال في هذه السورة، وقد ذكرت مرتبة في الأغلب على ترتيب هذه المعاني التي رجع ملخصها إلى أن التوجّه للمصالح العامة يستجاب الدعاء فيه، مع أنه لا بد من إحكام الأعمال الظاهرة الدنيوية البحتة، وإلا كان نقصاً، كما فعلت مريم بهزّ الجذع، ثم لا بد من تطهير العقيدة بنبذ الاتكال على المخلوق كعيسى، وكل تقي صالح في الأرض، فإنهم عباد الله، ومتى طهرت العقائد وأخرج منها التوجّه لمخلوق ما من المخلوقات مثل عيسى وغيره، هنالك لا بد

من الصلاة والصلاح والصبر والصدق، فهذه أهم الأعمال الظاهرة، إذن دين الإسلام يجمع بين الدعاء بتوجّه القلب، والعمل في الدنيا، وعبادة الله وحده، والقيام بالعبادات الظاهرة كالصلاة، والأخلاق الباطنة كالصدق.

إذن هذه الحروف في أول سورة «مريم» أنزلها الله تذكيراً للمسلمين في زماننا هذا، وبيانه أنهم ظنوا أن الإسلام لا يعنى بأمور الدنيا، فقال: «ها»، وظنوا أنه لا فضيلة إلاّ في الأعمال الظاهرة فقال: كلا، الصدق والصلاة والصبر كلها من وادٍ واحدٍ، فلا الصلاة وحدها كافية عن الصبر والصدق كما يظنه الجهلة من المتعبدين، ولا الصدق والصبر بمغنيين عن الصلاة كما يظنه الملحدون في عصرنا الذين يكتفون بالمنافع العامة وحدها ويهجرون الديانات. هذا ما ظهر لي اليوم وفتح الله به في: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

أما: ﴿طسٓمٓ﴾ فإن «الطاء» قد جاءت في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾[الشعراء: ٤٩]، وفي ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢]، وفي ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا﴾[المائدة: ٨٤]، ولا جرم أن هذين المعنيين هما أهم المقصود من قصة موسى وفرعون في هذه السورة، فإن القصة مسوقة لكافر يطغى على مسلم، وآخر عمل يعمله معه أن يقطع يديه ورجليه، فما كان من المسلمين ـ وهم السحرة ـ إلاَّ أنهم رضوا أمر الله وطمعوا في المغفرة، فإن هذه الإنسانية مغموسة في هذه الأرض غارقة في حمأتها، فبهذا التعذيب يطمعون في رحمة ربهم، وهذه هي التي بها عمل عمار وصهيب وبلال وغيرهم ممن عذبهم أهل مكة فصبروا، وبعضهم مات من التعذيب كما ذكر في أمر سحرة فرعون، إذن «الطاء» تنبيه على العبرة في هذه القصة، ولا جرم أن قصة إبراهيم بعد موسى فيها هذا المعنى وإن لم يصرح به في السورة، فهم أرادوا تعذيبه ولكنه صبر وطمع في رحمة الله فرحمه، فالنار التي أرادوا إلقاءه فيها في سور أخرى قد نجاه الله منها، وهذا الاضطهاد عرفه الغفران المفهوم من قوله: ﴿أَطْمَعُ﴾[الشعراء: ٨٢] الخ، ومثله نوح، أُهين فطمع في رحمة الله فنالها، وهود وصالح ولوط وشعيب، إذن «الطاء» التي في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾[الشعراء: ٤٩] و﴿أَطْمَعُ﴾[الشعراء: ٨٢] و﴿أَطِيعُونِ﴾[الشعراء: ١٠٨] تضمنت المقصود من هذه القصص كلها.

أما «الميم» فهي للدلالة على الرحمة الشاملة في العوالم كلها لأنه بعد كل قصة يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٨-٩]، فذكر «الرحيم» المختتمة بـ«الميم» لأمرين: الأول: الإشارة إلى الفاصلة المكررة. الثاني: الإشارة إلى أن الرحمة غالبة على العباد مع معاصيهم، فالله خلق الكافر والمسلم وعمّ الجميع بالرحمات الدنيوية فوق ما أعطى المؤمن من المغفرة الدنيوية.

وأما «السين» التي بين «الطاء» و«الميم» فذلك للإشارة إلى أن أهل الأرض قسمان:

قسم له السلطان فيها بقوة رحمانية، وهم العباد المخلصون من الأنبياء وغيرهم المشار إليهم بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩] المبدوءة بحرف «السين».

وقسم لا سلطان له إلاّ بالأكاذيب كالشياطين والسحرة ورجال السياسة الذين ينشرون الأخبار الكاذبة ليستعمروا الأمم، ولا جرم أنك ترى كثيراً من دول أوروبا يتعمدون إدخال الحشيش والخمر والكوكايين والمواد المخدرة كلها وينشرون الخلاعة، ولقد شاهدت ذلك بنفسي في بلادنا المصرية، فإنني

كنت ليلة في عرس دعيت إليه، وقد أحضر صاحب هذا العرس موسيقى الجيش، فرأيت العسكر في الموسيقى يغنون بمغاني أجهل البنات وذكر الوصل والحب وكل المغاني السافلة الدنيئة، فخاطبت رئيسهم وقلت له: إن هذه المغاني تورث أحقر الصفات في الشعب مع أن رجال الجيش هم أعلى مثل للشجاعة، فأخذته العبرة وبكى بكاء مراً، وقال: هكذا أمرنا رئيسنا في الجيش الإنكليزي ولما عارضته عاقبوني، وذلك حصل أيام أن كان لمصر هيئة «برلمان» مصرية، ولكن لا حول ولا قوة، فهذا نوع من إلقاء السمع.

فلا فرق بين تعليم رجال الدول المستعمرة في الشرق وبين إلقاء الشيطان في قلوب الناس، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾[سورة الناس]، فالله جعل الوسواس الخناس الموسوس في صدور الناس طائفتين: طائفة هم الجن، وطائفة هم الناس، فوسوسة الناس هي أعمال المستعمرين الذين يقولون: لا بد من إضلال الأمم المحكومة حتى يكونوا دائماً تحت إمرتنا. إذن «السين» تشير إلى الساجدين والذين يلقون السمع، فالأولون هادون والآخرون مضلون، والشعراء من القسم الثاني، والحمد لله رب العالمين، كتب يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٨.

## اللطيفة الثانية

يقول الله: لا تجزع يا محمد ولا تحزن لعدم إيمانهم، أفتريد أن أنزل عليهم صواعق من السماء أو أسقط السماء عليهم كسفاً حتى يظلوا خاضعين لها ويؤمنوا كما آمن فرعون عند وقوع العذاب؟ إن الإيمان عند وقوع العذاب لا يفيد، إني لا أفعل ذلك معهم لأني سأخلق منهم قوماً يؤمنون بي، ولئن كذبوا بآيات القرآن اليوم فسأنزل عليهم غضبي فيعرفون الحق إذ ذاك، وكيف يكفرون بي وقد نصبت لهم الدلائل الواضحة والآيات الباهرة في النبات، وأبنت هذا لهم يشاهدونه صباحاً ومساءً وهم عنه غافلون، وكيف يغفلون عن العوالم المشاهدة لهم ويعيشون وهم لا يفهمون.

إن هذا القرآن نزل لارتقاء العقول فلا حاجة إلى تلك المزعجات السماوية والصواعق النارية، لأننا أنزلناها على الأمم الغابرة والأجيال البائدة فما أغنت عنهم ولا انتفعوا بها ومات أكثرهم وهم كافرون، أما هذه الأمم المستقبلة فشعارها الحكمة والعلم، فانظروا أيها الناس للنبات فكم خلقنا فيه من زوج بهيج، أي: نوع أو صنف حسن، ثم قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾[الشعراء: ٨] أكد بـ«إن» و«اللام» والجملة الاسمية، ونكر الآية للتعظيم.

ومن المحزن والمؤلم أن يمر المسلم على هذه الآية وهو غافل عن النبات، فيا أيها الذكي المطلع على هذا التفسير سألتك بالله الذي أنزل الكتاب وخلق النبات أن تكون مرشداً للمسلمين لهذا العلم، فخذ أصدقاءك وأصحابك وادرسه دراسة هذه صورتها: «اذهب إلى الحقل واقرأ هذه الآية، ثم تقدم إلى أنواع النبات وانظر إلى تنوعها واختلافها، وإياك أن تكتفي بالظواهر، إياك أن تقول: أنا آمنت بالله وكفى، فهذا قول العامة، بل الإيمان بالله يقتضي التغلغل في النظر إلى عجيب إتقان صنعه»، فإذا ذهبت إلى الحقل رأيت آيات:

## الآية الأولى: تنفس النبات

إن الإنسان والحيوان يتنفسان، وهكذا النبات يتنفس، إن الإنسان يخرج بتنفسه من غاز حامض الكربونيك كل يوم ٢٥٠ جراماً من الكربون الصرف، وعلى ذلك لو دام الإنسان والحيوان يتنفسان على طول الزمان للزم أن الهواء الجوي ينفد ويموت الإنسان والحيوان بعد زمن وإن كان طويلاً، لأن الأكسوجين الذي يمتصه الجنس البشري في السنة الواحدة ١٦٠,٠٠٠ مليون متر مكعب. ويقال: إن الحيوانات الباقية تتنفس أربعة أضعافه، فإذا كان هذا هو الذي يمتصه الحيوان وكان ما يخرجه من الفحم بالمقدار المتقدم بحيث يكون سكان القطر المصري وحدهم يخرجون من أفواههم في السنة ٤٠٠,٠٠٠ طن من الفحم في السنة، فإذا تصورنا عموم ذلك في كل حيوان وإنسان تصورنا كيف يمكن فناء هذه الأحياء بعد حين، ولكن انظر إلى عجائب الصنعة الإلهية، انظر إلى حكمة بديعة وآية غريبة، ذلك أن النبات يحتاج في تركيبه إلى الفحم، وذلك الفحم إنّما يأخذه مما لفظه الحيوان وهو حامض الكربونيك، وفيه أكسوجين وكربون، أي: فحم، فانظر كيف صار ذلك الحامض الكربونيك من الحيوان إلى النبات ودخل في جسمه وحلل هناك بعملية تحت تأثير الشمس ولفظه النبات إلى الجو، ألا تتعجب معي كيف تركب الأكسوجين والكربون في جسم الإنسان والحيوان وكيف لفظه الحيوان فدخل في جسم النبات فتحلل هناك بتأثير الشمس، ومتى تحلل خرج الأكسوجين إلى الهواء فدخل في أجسام الناس والحيوان بصفة عملية التنفس، أليست هذه آية من آيات الله وعجائبه.

يا رب إن الناس غافلون، بل ربما يمر عالم النبات على هذا وهو غافل عن تركيب هذه الدنيا، نعيش ونحن لا ندري أن هناك معامل تحلل لنا حامض الكربونيك، وتلك المعامل في النبات، ولا ندري أن لطف الهواء بالأكسوجين، والأكسوجين يأتي من النبات، ونعيش ولا نعلم أن أنفاسنا تخرج في الهواء فحماً، وذلك الفحم يصير في النبات الذي نلبسه ونوقد به النار ونتغذى به ونتداوى وغير ذلك.

## الآية الثانية

اعلم أن النبات لا يتنفس الأكسوجين النافع لنا إلاَّ تحت تأثير الشمس، ألا ترى أنك لو وضعت عشباً نامياً تحت إناء زجاجي يسمونه في علم الطبيعة «قابلة وضعية»، وهذا الإناء بشكل أسطواني، فإذا وضعته مقلوباً وهو مملوء ماء في إناء فيه ماء بحيث يبقى الماء غامراً العشب في القابلة وعرضته للشمس فلا تلبث أن ترى فقاقيع غاز صغيرة تظهر على سطوح الأوراق، ثم تصعد إلى أعلى القابلة وتدفع الماء تحتها ولا يزال الغاز يجتمع هناك حتى تمتلئ القابلة منه، وهذا هو غاز الأكسوجين الصرف، فلو أدخلت فيه شمعة مشتعلة لزادت نوراً شديداً، وهذا دليل على أن هذا هو الأكسوجين، أما إذا كان ذلك بالليل فإن النبات لا يتنفس الأكسوجين بل يخرج بالليل حامض الكربون، كما يفعل الحيوان لأنه لا يستخرج الأكسوجين إلاَّ بتأثير الشمس، فإذا نام الناس في غرفة مقفلة فيها عشرة أعشاب حية، فإن هواء الغرفة يفسد بتنفسها كما يفسد بتنفس عشرة أشخاص، واعلم أن تنفس النبات بالليل ليس كثيراً كتنفسه بالنهار، فلا يلزم من ذلك فساد التناسب بينه وبين الحيوان في التبادل فافهم.

## الآية الثالثة

اعلم أن النبات يتصاعد منه بخار كما يتصاعد من البحار والبحيرات، ولذلك يقول العلماء: إنه كلما كثر الشجر في بلد زاد المطر لأن البخار يذهب إلى الجو كما يذهب من البحار ويكون سحاباً، وقد جرب ذلك الأستاذ «موشتبروك» في «ليدن»، فإنه غطى العشب بقابلة من الزجاج باحتراس، فرأى على سطوح الأوراق قطرات من الماء وهي المسماة بالندى، وعلى ذلك استنتج العلماء أن أكثر ما يراه الناس على النبات من الندى ليس من السماء، وإنما هو من البخار المتصاعد من النبات، ولذلك وجدوا أنه يتصاعد من بعض النبات مضاعف وزنه ماء في اليوم والليلة.

وهناك نباتات تقدم ذكرها في هذا التفسير تسمى «نباتات الأباريق»، تنتهي بأقداح أسطوانية تمتلئ ماء به يسقي الناس ويغاثون من الهلاك، فتعجب من صنع الله تعالى.

انظر كيف كانت الشمس مرسلة أشعتها على البحر وعلى النبات فماذا فعلت؟ أطارت من البحر بخاراً فصار سحاباً، وحللت من النبات أكسوجيناً فلطف الجو فتنفسنا. فانظر كيف أثارت الشمس البخار من البحر والأكسوجين من النبات فكان المطر لحياتنا والأكسوجين وهم الأهم لتنفسنا، فيا ليت شعري، هل للإنسان دخل في تحليل الأكسوجين أو في صعود المار بخاراً؟ إن الإنسان في الحالين يقول ما يقوله المسلم في الصلاة عند الرفع: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا رادّ لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

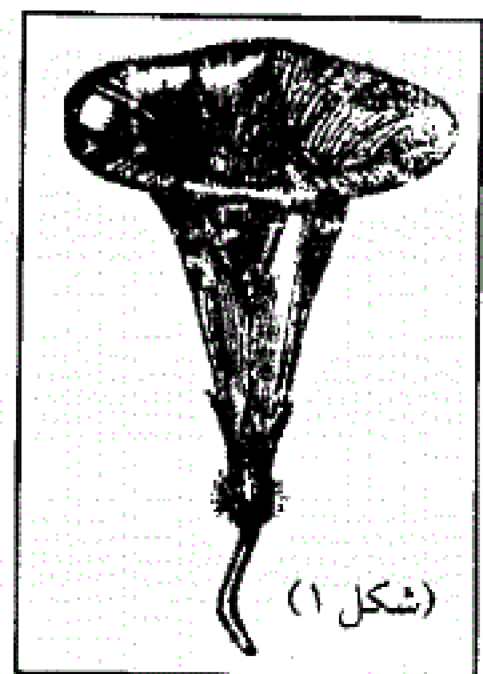
يعيش الإنسان ويموت وهو في جو من الأكسوجين حللته الشمس من النبات، وفي نعمة النبات والحيوان والماء بسبب خروج البخار من البحر بحرارة الشمس، وبخروج البخار من النبات فيرتفع إلى أعلى فيصير سحاباً وقد تطاير بخاره من النبات الذي هو المخزن البري للماء كالبحر.

## الآية الرابعة: الزهرة

قلت لك في أول هذا المقام: خذ أصحابك واذهب إلى الحقول والزهر والبساتين. قلت لك ذلك ولكن لم أشرح لك شيئاً في الحقل، إنما ذكرت لك أشياء عامة، فهاك ما تدرسه وأنت في الحقل، وبهذه الدراسة درست سورة «الشعراء» ومقصودها، ودرست علوم القرآن، ودرست علوم حب الله تعالى، ودرست الدين، ودرست التوحيد، وكنت في نفس الوقت عابداً.

كلا، كلا، فأنت أفضل من ألف عابد، لأنك بعد هذا الدرس الآتي ستكون عالماً حقيقياً مطلعاً على آثار جمال الله الظاهر البديع المدهش. انظر معي ألهمك الله العلم وعشقك في الحكمة وحبيك في لقائه والنظر إلى وجهه الذي من مقدماته دراسة المخلوقات بشوق ولهف وحب. انظر شكل ١ وشكل ٢ وشكل ٣ وشكل ٤ وشكل ٥.

انظر إلى الشكل (١) فإن الزهرة قطعة واحدة ونراه في حقولنا المصرية كثيراً. وشكل (٢) ترى فيه الزهرة مفصلة أوراقها.


(شكل ١)

(شكل ٢)



(شكل ٣)

وفي شكل(٣) ترى عضو الإناث مكوناً من خيط ينتهي من أعلاه بجسم مفرطح يسمونه السمة وأسفله يسمونه المبيض، وهذا المبيض فيه بويضات صغيرة وهي أصول البذور يتكون منها بعد التلقيح الثمر.

(شكل ٤)

وشكل(٤) عضو الذكور، وأعضاء الذكور تكون حول عضو الإناث، وهي خيوط صغيرة يعلوها جسم صغير منتفخ يسمى بالأنثير أو فيه مسحوق وهو الطلع، ووظيفته كوظيفة المني، وقد تتعدد أعضاء الذكور في الزهرة حتى إذا فسد بعضها قام الباقي مقامه، والذكور حول الأنثى كأنها تحفظها، وهذه الذكور تحيط بها أوراق التويج للحفظ وللزينة، وأوراق التويج تحيط بها أوراق الكأس لحفظها من حوادث الجو.




(شكل ٥)

وشكل (٥) هو الشكل الذي رسمناه في سورة «الأنعام» ونعيده هنا لزيادة الفائدة، فالزهرة الكاملة مؤلفة من حافظ لشكلها محيط به، ووساط داخل في ذلك المحيط، والمحيط بها مؤلف من طبقتين، والأوراق الخضر المسماة بالكأس، والأوراق الملونة التي في داخلها المسماة بالتويج وهي ملونة بألوان بهجة تسر الناظرين، وتسمى أوراق الكأس بسلاً، وأوراق التويج بتلاً، والذي هو في الوسط قسمان: أعضاء التذكير وهي المسماة بالأسدية جمع سداة، والسداة كما رأيت في الشكل مركبة من خيوط تنتهي بجزء منتفخ فيه طلع، وهذا الانتفاخ يسميه النباتيون «الأنثير» والذي عليه هو الغبار أو الطلع أو البلن، والقسم الثاني أعضاء التأنيث وهي المسماة بالمدقات جمع مدقة، كما رأيت في الرسم، وهذه المدقات تنشأ من قاعدة الزهرة وهي المسماة «التخت»، وأسفل المدقة يقال له مبيض وأعلاه يسمى السمة، وما بينهما يسمى «القلم»، وقد تقدم إيضاح هذا في سورة «الأنعام» وفي سورة «طه».

فإذا ذهبت إلى الحدائق والحقول فأتقن هذه الأربعة واعرفها، فإن الكأس والتويج هما الحافظان، والأسدية والمدقات هن المقصودات بالذات، فانظر وتعجب تر المدقات تقوم مقام الإناث في الحيوان، والأسدية تقوم مقام الذكور، ولذلك تجد كل أنثى قد عطفت على الذي بجانبها، وهو قد انعطف نحوها كما رأيت في الرسم وكيف يكون التزاوج بينهما، كيف يكون ذلك وأكثر الناس لا يعلمون، يقول الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣] تناقض واختلال. انظر تجد أن الطلع وهو الغبار المسمى «البلن» يقع من «الأنثير» على «السمة» في أعلى «المدقة» فيلقح بذورها في المبيض بأسفل المدقة.

إن البلن المذكور غبار دقيق إذا بحثناه بالآلة المعظمة وجدنا أشكاله هندسية منها الكروي والهرمي والبيضي والمستطيل والمثلث، ومنها الأملس والمخطط والشائك، وإذا أمكنك بحث دقيقة من ذلك الغبار وجعلتها تحت المنظار المعظم وجدتها عبارة عن حويصلة لها غلاف مزدوج، وفي جوفها سائل تسبح فيه كريات تعد بالملايين سموها «الأحياء الأثيرية»، فالأسدية والمدقات تجتمع في زهرة واحدة كما رأيت، ويقع الغبار على السمة فيتعلق بأهداب لها هناك، ثم ينزل الغبار المذكور وله نتوء يستطيل ويخترق القلم حتى يصل إلى أسفل المدقة وهو المبيض، وفي هذا المبيض جراثيم البذور، فإذا لامسها ذلك النتوء النازل من الطلع تلقحت ونمت وصارت بذراً، إذا بلغ وغرس في الأرض نبت وأثمر، هذا إذا كان في زهرة واحدة وهي القاعدة العامة وذلك كالورد والبنفسج والآس والرمان والشقيق والدفلة، وقد تكون سلاة واحدة ومدقة واحدة في الزهرة كما في نبات مائي يسمى «ذنب الفرس»، وقد تكون الأسدية على زهرة والمدقة على زهرة أخرى في النباتة الواحدة، وذلك كالخيار واليقطين والكستنة والكوسا والقرع وقثاء الحمار، وقد تكون الأسدية على شجرة والمدقة على أخرى كما في الصنوبر والصفصاف والبطم والتين.

## الزهرة الكاملة

الزهرة الكاملة هي التي لها كأس وتويج وسداة ومدقة كما رأيت، وإن فقد منها واحد فأكثر فهي غير مستوفية.

## الزهرة القانونية

هي الزهرة التي تشابهت فيها أقسام الكأس والتويج كالخوخ والكرز واللوز، وإن اختلفت سميت الزهرة غير قانونية مثل البسلة ورأس السمك.

## الزهرة المنتظمة

هي التي أوراق الكأس والتويج والأسدية فيها على عدد واحد أو مضروب عدد واحد، إذا فقدت الزهرة الأسدية والمدقات فهي عقيمة لا يكون لها بذور، كبعض الزهور البستانية الزاهرة النمو وكالورد البستاني.

إذا فهمت ما ذكرته لك عرفت كيف قسموا النبات إلى أجناس وأنواع ورتب وفصائل الخ، ذلك التقسيم على حسب الزهرة منتظمة وغير منتظمة، وقانونية وغير قانونية، كاملة وغير كاملة، وأجزاء التويج وأجزاء الكأس أهي متصلة أم منفصلة، وهل اتصلت بالصف الذي يليها أم انفصلت عنه، وما عدد أوراق كل من الكأس والتويج والأسديات والمدقات وما أشبه ذلك، فبهذا الاختلاف أمكن تقسيم النبات إلى أنواع بلغت آلافاً وآلافاً، فتعجب من العلم والحكمة.

## زهر العليق

الزهرة قانونية الكأس خمس قطع متصلة عند قواعدها، التويج خمس كذلك، لكنها متبادلة الوضع مع القطع التي في الكأس، الأسدية كثيرة ولكنها موضوعة على التويج، والمدقة مؤلفة من عدة جويفات.

## الخبازى

الزهرة قانونية ذات خمس فلوس، الكأس خمس قطع متصلة، التويج خمس قطع منفصلة متبادلة مع قطع الكأس، الأسدية كثيرة، المدقة عدة جويفات متصلة وعدة أقلام وعدة سمات مختلفة.

## جمال العلم والحكمة

اعلم أنه قد يقع على السمة الواحدة التي في أعلى المدقة ألوف الألوف من الغبار الدقيق المنتشر عليها من السداة، ومعلوم أن الواحدة منها فيها ملايين من مخلوقات سابحة كما قدمنا، ومع ذلك فهي لا تحتاج إلاّ إلى واحد من ذلك كله، فهذه كلها أشبه بخطاب جاؤوا إلى عروس واحدة، فتقبل واحداً وترفض الباقين.

## الآية الخامسة: اهتزاز النبات عند التلقيح

قد لاحظ الأستاذ الفسيولوجي «بورداخ» أن النبات يهتز في أثناء التلقيح اهتزازاً خاصاً، فتنعطف السداة نحو السمة، وقد تشاركها هذه فتنعطف نحوها كأنهما تتعانقان. ثم إن الحرارة تعظم في أثناء التلقيح، وبعض النبات لا تعرف اشتداد حرارته عند التلقيح إلاّ بمقياس دقيق، وبعضها تظهر بالترمومتر المعتاد، وبعضها ترتفع وتشتد الحرارة حتى إذا لمست الزهرة شعرت بحرارتها وعجبت كيف لا تحترق الزهرة بهذه الحرارة، وذلك كزهرة النبات المسمى «أرام» بلسان الفرنجة، ومنه نوع في إيطاليا تبلغ حرارته ٦٢ بميزان سنتكراد، وهذا النبات أسديته في زهرة ومدقته في زهرة أخرى وكلاهما على شجرة واحدة كالخيار. ثم إن تلقيح النباتات التي هي مفردة الجنس يكون بالهواء أو بالحشرات كما هو واضح في هذا التفسير فيما تقدم.

## الآية السادسة: النبات يحس ويتحرك

قد ظهر لك مما تقدم أن في الحيوان مبدأ الحس والحركة. قال «بيشا» العالم الفيسيولوجي الفرنساوي المتوفى سنة ١٨٠٢م: إن في النبات حساً بالسموم فهي تشله، والكهربائية تميته، وبعض النبات إذا سقي الأفيون نام نوماً عميقاً.

وهكذا العلامة «جوبرت» و«مقار»: إن الحامض البروسيك يسم النبات بسرعة، كسرعة سم الحيوان به، وأيضاً يلاحظ الناس أن النبات الحساس ينكمش إذا لمسته مادة مهيجة.

وقال «كارودوري»: إنك إذا هيجت أطراف ورق الخس درت بعد عصارتها، إن بعض النباتات التي يستنبتها الناس في القاعات تكون يانعة أثناء النهار، ولكنها في الليل تطبق أزهارها وترخي أغصانها وتنام، هكذا السنط الحساس متى لامست بعض أوراقه انطبق بعضه على بعض وذبل، فالحس في هذا النبات تبعته الحركة كما علمت، وهناك نبات هندي اسمه «دسموديا» إذا أشرقت الشمس عليه تحركت ورقتان فيه بالتقارب والتباعد على الدوام كعقرب الدقائق في الساعات، وإذا قطعت غصناً منه ظلت أوراقه تتحرك بعد القطع مدة طويلة، وربما كان ذلك بضعة أيام، ومنها «مصيدة الفأر» وهو نبات له غدد إذا وقعت فيها ذبابة انطبقت أهدابها عليها ولسعتها بأشواكها، فإذا حاولت الذبابة الفرار انقضت الكأس عليها حتى تخمد أنفاسها، وإذا أردت فتح الكأس بيدك عنوة تمزقت ولم تنفتح، وإنّما تنفتح من تلقاء نفسها متى ماتت فريستها.

## الآية السابعة

يشاهد في كثير من الأزهار أن «السداة» عضو التذكير و«المدقة» عضو التأنيث ـ كما فهمت ـ في زمن اللقاح يهتزان اهتزازاً ظاهراً أحدهما نحو الآخر لإتمام اللقاح، وقد تنعطف إحداهما دون الأخرى، وبعض الأزهار المائية تطفو نهاراً على سطح الماء فإذا جاء الليل غاصت في قاع البحر.

## الآية الثامنة

إن العلماء رأوا أن الطلع وهو المسمى «البلن» الذي عرفته فيما تقدم قد يكون له في بعض النبات أجنحة أو أهداب يسبح بها على الماء أو يطير في الهواء لإتمام العمل الذي خلق له.

## الآية التاسعة: شجر المسافرين

في «مداغشكر» شجرة تسمى «شجرة المسافرين»، وهذا النوع تحمل كل واحدة منه ٢٤ ورقة، وطولها يختلف ما بين متر وثمانين سنتيمتراً، وقد يكون مترين وخمسين سنتيمتراً، وعرضها من متر إلى متر وثمانية سنتيمترات، وهي أشبه بمظلات، وتحت كل ورقة منه ما يشبه القارورة، وفيه نحو لتر من الماء الصافي، ويكثر هذا الشجر في الصحاري وينفع المسافرين أيام القيظ حيث لا يوجد ماء فيشق تلك القارورة فينسكب منها الماء الصافي فيروي عطشه ثم يتركها فتعود كما كانت، أي: يلتحم مكان الشق.

## الآية العاشرة وهي الأخيرة: شجرة اللبن

هذه الشجرة توجد في بلاد أمريكا، وأهل المكسيك يستخرجون لبنها، وقد كشف هذه الشجرة «إسكندر همبولت»، وقد حلل العلماء لبنها فوجدوه كاللبن الحيواني وهو أكثر شبهاً بالقشدة، وفيه أيضاً مقدار كبير من شمع يشبه شمع العسل، وأشاروا بتربية هذا الشجر للانتفاع بشمعه، وهذه الشجرة من الفصيلة الدفلية تنبت في أواسط أمريكا وتبلغ في الارتفاع ثلاثين متراً، وينمو في «فنزويلا» حيث تقل الأمطار، وقد تمر على الشجرة أشهر لا تصيبها قطرة ماء حتى ترى كأنها ميتة، فإذا جرحتها بمدية انسكب منها سائل أبيض كبير الشبه باللبن، رائحته بلسمية خفيفة وطعمه يشبه القشدة المحلاة، وهو مغذٍّ يمكن تناوله بكميات كثيرة صباحاً ومساءً، ولا يحصل منه ضرر مطلقاً، وهو لزج القوام، إذا عرض للهواء غشيته مادة صفراء متجمدة كالجبن. ثم إن بعض النبات يفرز مادة مثل «سن الفيل». فانظر كيف أخرج النبات سن فيل ولبناً وشمعاً وهو أيضاً يضيء كما تقدم في سور قبل هذه ويسقي الناس ماء في الصحراء.

أيها الذكي، هذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[الشعراء: ٧]، يقول الله لجميع الناس؛ ومنهم المسلمون لأن القرآن تذكرة لنا؛ معاشر المسلمين: أعميتم أيها الناس فلم تنظروا عجائب النبات المذكورة ؟ وذلك بعد أن أنذر بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤]، فكأن الله بهذا الكلام يقول للعقلاء: إن لم تفكروا في آياتي وتعقلوها كالآيات التي في النبات فإني أهلككم كما أهلكت أهل أمريكا الأصليين وكما أهلكت أهل أستراليا، فأنا لا أبقي في أرضي إلاَّ الذين يبحثون فيها عن عجائب صنعي، إن نشأ ننزل عليهم بلية من السماء ولكن أبقيناهم عسى أن يفكروا فيما خلقنا فيصلحوا لعمارة

أرضنا فلا نهلكهم، هذا هو مقصود القرآن على ما يقتضيه الزمن، ومن العجب أن القسم الثاني من السورة ينحو هذا النحو. ألم تر إلى نبأ موسى المذكور فيه كيف كانت محاجة موسى لفرعون على هذا النمط؟ فإنه لما سأله: ﴿ مَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣]؟ لم يجبه بالعصا ولا باليد، بل ابتدأ بما ابتدأ فيه في أول السورة، فقال: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾[الشعراء: ٢٤]، فلما راجعه ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الشعراء: ٢٦]، فلما راجعه ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فجعل عماد الدعوة راجعاً لخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والمشارق والمغارب التي كانت من نتائج النور وما بينهما من نبات وحيوان وإنسان، فرجع الأمر إلى النظر في هذا العالم، فتبيّن من هذه الأساليب القرآنية أن هذا الدين جهله أهله، وسيظهر أمرهم، ويعلو شأنهم، ويرتقي المسلمون بالعلوم والمعارف والكمال.

فمن هذا فليفهم المسلمون قوله تعالى في سورة «ق»: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾[ق: ٧-١١].
فانظر أيها المسلم الذكي كيف قال: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾، وقال: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾، فإذا كان المسلمون لا يقرؤون هذه العلوم فقد أعرضوا عن التبصرة والذكرى وأعرضوا عن الرزق لأنه قال: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾، فهما أمران: علم وغنى. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، فهاهنا إعراض عن الذكر وعن الذكرى فتكون المعيشة ضنكاً.

أيها الذكي قل للمسلمين: هذا كلام ربكم، يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه: ١٢٤]، أي في الدنيا، ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه: ١٢٤-١٢٦]، وآيات الله منها ما ذكر هنا؛ وهو إخراج النبات وما فيه من كل زوج كريم، والله يقول: إنه جعله ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق: ٨] وجعله: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾[ق: ١١]، فالمعرضون عن هذه العلوم والتحريض عليها أعرضوا عن ذكر ربهم وتكون لهم عيشة ضنكاً. فالعقول خاوية والدور خالية من الثروة وهذا هو الذي حصل للمسلمين اليوم، فالبصائر نائمة والأمم تريد اقتناصهم لجهلهم، وتأخذ أموالهم وهم غافلون لأنهم ليسوا مستبصرين كما أمر ربهم، ولم يحافظوا ولم يبحثوا عما خلقه ربهم لهم من الرزق، فخلت العقول من العلوم والجيوب والدور من النقود، فعليك أيها الذكي أن تعلن هذه الآراء للمسلمين بما وهبك الله من قوة بيان. وكيف يتسنى للمسلم أن يدرك قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، وكيف يتسنى له ذلك إلّا إذا درس أمثال ما كتبناه هنا وتفكّر فيه، فيحسّ بأن دافعاً يدفعه إلى ربه مشتاقاً إلى لقائه ومعرفته، كما أحسست في نفسك وأنت تقرأ هذه الآيات العشر وقد دهشت مما رأيت من عجائب ربك، فمن هنا فليفهم لم قال الله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾، ومن هذا تفهم بعض أسرار القرآن التي عجز عنها كثير من الناس، أوليس من هذا السر أن التعبير بـ«الزوجين» يرجع إلى حال الذكورة والأنوثة في النبات؟ أوليس هذا هو الذي عليه المعول عند علماء النبات في

تقسيمه؟ انظر إلى ما كتابه العلاّمة «لينيو» إذ شاهد أن الزهر في النبات متميز، وفي أقله إما غير متميز بتاتاً أو متميز لكن على غير الهيئة التي يتميز بها في أكثر النبات، ثم أمعن النظر في المتميز فترى أنه إما خنثى وإما ذكر وإما أنثى، وأن الزهر الخنثى يختلف في العدد والوضع واجتماع أعضاء التذكير والتأنيث وأن الزهر سواء أكان ذكراً أو أنثى إما أن يكون ذا مسكن واحد أو مسكنين أو كثير المساكن، وعلى ذلك قسم النبات إلى ٢٤ رتبة.

**الأول**: أحادي أعضاء التذكير.

**الثاني**: ثنائي أعضاء التذكير.

**الثالث**: ثلاثي أعضاء التذكير، **والرباعي**، **والخماسي**، **والسداسي**، **والسباعي**، **والثماني**، **والتساعي**، **والعشاري**، وذو **أحد عشر** عضو تذكير.

**الثاني عشر**: أعضاء التذكير فيه زائدة عن ١٩ مندغمة في التويج.

**الثالث عشر**: أعضاء التذكير الزائدة عن ١٩ مندغمة في أسفل المبيض.

**الرابع عشر**: له أربعة أعضاء ذكور، اثنان أطول من اثنين.

**الخامس عشر**: له ستة أعضاء ذكور، أربعة أطول من اثنين.

**السادس عشر**: أعضاء التذكير المجتمعة حزمة؛ بواسطة خيوط الحشفة.

**السابع عشر**: فيه أعضاء الذكور اجتمعت حزمتين؛ بواسطة خيوط الحشفة.

**الثامن عشر**: فيه أعضاء الذكور اجتمعت حزماً؛ كثيرة بواسطة خيوطها.

**التاسع عشر**: فيه أعضاء الذكور اجتمعت حزماً؛ بواسطة «الأنثيرا» وقد عرفتها فيما تقدم.

**العشرون**: فيه أعضاء التذكير التصقت بعضو التأنيث.

**الواحد والعشرون**: فيه أعضاء تذكير وتأنيث وخناثى في نبات واحد.

**الثاني والعشرون**: فيه أعضاء ذكور وإناث في نباتين.

**الثالث والعشرون**: فيه أعضاء ذكور وإناث في نبات واحد أو أكثر.

**الرابع والعشرون**: نباتات خفية أعضاء التناسل.

هذه هي الرتب، والرتب تنقسم إلى أجناس عالية، والجنس العالي يشتمل على أجناس، والجنس على أنواع.

## الحروف الهجائية والزهرة

أفلست ترى أن الزهرة بما فيها من كأس، وتويج، وعضو تذكير، وعضو تأنيث، واتّحادها عدداً، واختلافها، وافتراقها، واجتماعها، وما أشبه ذلك، كوّنت رتباً، وأجناساً، وأنواعاً عدها العلماء فبلغت ٣٢٠ ألفاً؟ أليس هذا العدد كله نتج من اختلاف هذه الأعضاء وجوداً وعدماً، وكثرة وقلة، واجتماعاً وافتراقاً على آراء بعض العلماء، فأشبهت الزهرة فم الإنسان فإنه جمع ٢٨ حرفاً أو ٢٥ أو أقل أو أكثر، وبهذه الحروف كوّن لغات، فالحروف المعدودة كوّنت لغات، والأعضاء المعدودة في الزهر باختلافها كوّنت رتباً، وأجناساً، وأنواعاً، وأصنافاً في النبات، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

انتهى الكلام على القسم الأول من السورة.

## القسم الثاني

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ
ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٩) قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ
أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ
إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦)
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم
مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ
أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ (٤٦)
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا
رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
(٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ

كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ أي: واذكر وقت ذلك ﴿ أَنِ ٱئْتِ ﴾ أي: ائت ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بكفرهم واستعبادهم بني إسرائيل وإذلالهم، ثم أبدل منهم ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ أي: ائتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهذه الجملة مستأنفة للحث والإغراء ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ الخوف: غمّ يلحق الإنسان لأمر سيقع، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾ بتكذيبهم إياي، معطوف على «أخاف»، ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ وذلك للعقدة التي كانت على لسانه ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ ليؤازرني ويعينني، ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ ﴾ أي: دعوى ذنب وهو قتله القبطي، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به، ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ أي: لن يقتلوك، ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ سامعون ما تقولون وما يقال لكم، ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الرسول يكون بمعنى المرسل فيثنى ويجمع، ويكون بمعنى الرسالة كما هنا وهي مصدر يستوي فيه المفرد والجمع، فهو مصدر وصف به، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أي: برسالة.

وقوله: ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ بمعنى أي أرسل، لأن معنى الرسول يتضمن الإرسال، والإرسال فيه معنى القول، فتكون «أن» مفسرة، يقول: خلّ بني إسرائيل يذهبوا معنا إلى فلسطين، فأتيا فرعون فقالا: أرسل معنا بني إسرائيل، ﴿ قَالَ ﴾ فرعون جواباً لموسى: كيف تنكر نعمتنا عليك ونحن غذيناك وربيناك وعلمناك، ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ أي: ألم تكن صغيراً فربيناك، ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين سنة، ثم بقي بعد الغرق خمسين، ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، قال ذلك توبيخاً له بعد تعداد النعم عليه، ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بنعمتي إذ قتلت أحد خواصي. وهذا القول من فرعون يتضمن أمرين: الأول: المنّ على موسى بالتربية وهو طفل. الثاني: توبيخه بأنه كفر نعمته بقتل القبطي، فأجاب عن الثاني لأنه أهم، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من الجاهلين أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكز، لأنه أراد به التأديب فجاء القتل خطأ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ ﴾ إلى مدين ﴿ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ حكمة ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فليس ذلك قدحاً في نبوتي كما يظهر من كلامك. وأجاب عن الأول بقوله: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ أي: أوتلك نعمة

﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ وهي ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وتركتني، وحذف همزة الاستفهام هنا كحذفها في قول عمر بن أبي ربيعة :

لم أنس يوم الرحيل وقفتها وطرفها من دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة تتركني هكذا وتنطلق

يقول : وهل تلك نعمة تمنها علي وهي أنك استعبدت بني إسرائيل وتركتني فلم تستعبدني؟ وكيف تمنّ علي بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه فقد ذلّ، فاستعبادك بني إسرائيل أحبط إحسانك إلي، ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم لم أرفع إليك حتى تربيني وتكلفني، ولكان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم . وهذه الأجوبة الشريفة السديدة يجب أن تكون أجوبة الشرقيين لأهل أوروبا، فقد استعبدوا أمراءهم، والأمراء يخوفون الأمم ويذلونهم بما نالوا من المال والجاه على أيدي أهل أوروبا، فليقل كل مسلم للأوروبي الذي له عليه يد : كيف تَمُنّ علي وأنت أذللت أممنا، ولولا إذلالك لها لم تعطني تلك النعم؟ فتلك الخيرات من بلادي ولا فضل لك إلاّ كما تفضل فرعون على موسى .

إن الله ما قصّ هذا القصص إلاّ للاعتبار والادكار، وتفهيم الأمة الإسلامية كيف تكون المحافظة على العشيرة وعلى الأهل، وكيف يقاوم الغاصبون الظالمون، وكيف يجب أن يقلب الناس لهم ظهر المجن إذا أساؤوا معاملة الأمم المظلومة، وأن ينكروا إنعامهم، فإنّما إنعام الأمم الغاصبة كإنعام المومس ببناء مسجد، كما قال الشاعر :

بنى مسجداً لله من غير حله فكان بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها فويلك لا تزني ولا تتصدق

ولما سمع فرعون الجواب، ورأى أن موسى لم يرعَوِ بما خاطبه به، شرع في الاعتراض على دعواه ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : إنك تدعي أنك رسول رب العالمين فما هو؟ ﴿ قَالَ ﴾ موسى مجيباً له : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ طلب فرعون الحقيقة، والحقيقة إن كانت للأنواع فالتعريف، وإن كانت للأفراد فإنها بالتحليل، والمسؤول عنه هنا لا أجزاء له لأنه مركب، فلذلك أجاب بأظهر الخواص وهو أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي : إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل، فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً، والإيقان هو العلم الذي يستفاد بالاستدلال، ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من أشراف قومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ معجباً قومه من جوابه، يقول : يا قوم تعجبوا من موسى، سألته عن الحقيقة فأجاب بذكر الأفعال، فأجاب موسى مستدلّاً بما هو أقرب إلى أنفسهم؛ وهو التناسل المستمر في النبات والحيوان والإنسان؛ والعجائب التي تقدمت في القسم الأول وشرحناها بما تقرّ به أعين أهل العلم، وذكر ما هو أهمها وما كان القصد الأكبر منها وهو الإنسان وأجياله، ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ومن نظر في علم الأجنة وعلوم الأمم وعلوم التشريح وعلوم الطب أدرك نظاماً بديعاً يدهش العقول، فبقي فرعون في موقفه يريد الإجابة بالحقيقة لا بالأفعال، ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أساله عن شيء

ويجيئني عن آخر، فأجاب موسى بعجائب الشمس وشروقها وغروبها وانتظام مداراتها وتنوع المشارق والمغارب كل يوم بحيث لا يختلّ لحظة، يشير بذلك إلى علوم الفلك وجميع العلوم الرياضية كما أشار قبله إلى العلوم الطبيعية، وبالأول إلى العلوم العامة وهي علوم ما وراء الطبيعة، ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك، لأن دراسة العلوم الطبيعية التي كان من أشرف نتائجها خلقكم وخلق آبائكم الأولين، ودراسة العلوم الرياضية ومنها الفلكية، لمعرفة شروق الشمس وغروبها، واستكمال سائر العلوم ونظامها إجمالاً بعلم ما وراء المادة، كل ذلك دلالة على أن هناك إلهاً صوّر هذه العوالم كلها وأبدعها وزيّنها ورتّبها وحسبها ونظمها، فلما رأى فرعون ذلك عدل عن البراهين إلى استعمال القوة، كما فعل الذئب مع الحمل إذ شرب الذئب من ماء النهر والحمل المسكين واقف في أسفل المجرى، فقال له: أيها الحمل، قد كدرت الماء، فقال الحمل: أنا في أسفل المجرى فليس من المعقول أن يجري الماء إليك، بل هو يجري نحوي من عندك، فقال: أنت كنت شتمتني في العام السابق، فقال: لم أخلق إذ ذاك، فقال: لعل أباك أو أخاك هو الذي شتمني، وانقضّ عليه وأكله.

هذه هي الحجج التي يحتج بها الأقوياء، فإذا ما ضعفت الحجج استعملوا القوة، هكذا هنا في محاجة فرعون لموسى، فإنه لما لم تفد الحجج لبس جلد النمر و﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وهذه أيضاً عينها ما تفعله الأمم القوية مع الأمم الضعيفة؛ كأهل أوروبا مع المسلمين؛ الذين يريدون الانقضاض عليهم ونهب بلادهم وتسخيرهم، وقوله: ﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ «أل» فيها للعهد، أي: الذين تعدهم وهم في أشد حالات الضنك، فهذا أشد من قوله: لأجعلنك مسجوناً، فاضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية ويذكره بالمعجزات وخوارق العادات، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أتفعل ذلك ولو جئتك بحجة بينة لأحوالكم وزمانكم؛ لأنكم قوم مغرمون بالسحر، والمغرم بالسحر منصرف عما عداه من العلوم العقلية، لأن السحر صرف النفوس عن الحقائق إلى أمور اخترعها الوهم وأبرزها الخيال، فأما الحقائق فإنها مستورة محجوبة عن هذه الطائفة، فحجتي من جنس علومكم. وإذا كان الله ما أرسل رسولاً إلاّ بلسان قومه؛ هكذا ما أرسل رسولاً إلاّ بحجج من جنس ما يزاوله قومه، فترى أمة العرب مغرمة بالبلاغة فجاء القرآن معجزاً لهم، وكانت الأمم المصرية مغرمة بالسحر فأرسل موسى لهم ليعجزهم فيما هم فيه، وليست الفصاحة ولا السحر هما الأمران الجوهريان، بل هما عرضيان لفضل النبوات اقتضتهما حال الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل، وإلا فالحقائق أولى بالبحث وأجدر بالتنقيب.

يقول موسى: لئن أهملتم العلوم العقلية والنظر الصحيح في هذه العوالم المشاهدة فدونكم ما اعتدتموه من السحر، ونظيره في سورة «البقرة» قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[البقرة: ٢١-٢٣].

فانظر وتعجب من المحاورتين محاورة موسى مع فرعون، ومحاورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه، فأنت ترى موسى يقول الله على لسانه لما لم يفكر فرعون في العوالم المحيطة بنا كما تقدم في هذه الآيات، ولم يتذكر السماوات والأرض، والشروق والغروب، وخلقه وخلق الآباء الأولين الذين لا يعيشون إلاّ بعالم الطبيعة، قال له هنا: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾، يقول له: يا فرعون أنت أعرضت عن التفكير بعقلك والرجوع للحقائق بفكرك، أتنصرف عن الحقيقة ولو أتيتك بشيء مقبول عندك لما انصرفت عما يقبله العقلاء ألا وهو العلو عليك في السحر، هكذا في سورة «البقرة» ذكر الله القوم، ذكرهم الله بخلقهم وخلق آبائهم الأولين مثل ما هنا تماماً، وذكر السماء والأرض كما ذكرها هنا، وذكر إنزال الماء من السماء، وهذا لا يكون إلاّ بحرارة الشمس التي تغرب وتشرق، ولما لم يفدهم ذلك قال لهم: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣].

ألا تتعجب أيها الذكي؟ ألا ترى إلى ما يرمي إليه القرآن وما يقصد به؟ ألا ترى أن المقامين متشابهان، مقام موسى مع فرعون ومقام محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه؟ ألا ترى أن العلوم الكونية هي مقصود القرآن، وأن البلاغة والسحر ليسا مقصودين؟ أفلا ترى بعد هذا أن الله لما أنزل القرآن جعل المقامين متشابهين، أتدري لماذا؟ لأنه علم أن المسلمين سيغرمون بقولهم: من عرف البلاغة عرف سر القرآن وهو المعجزة الوحيدة، نقول نعم معجزة وحيدة عند من هم أهل البلاغة من العرب أو من نحا نحوهم، ولكن هذه البلاغة جعلها الله حجة عند طائفة مخصوصة، أما الأمم كلها وأرباب العقول فقد جعل الله الحجة القائمة عليهم هذا النظام البديع والخلق العجيب، ومن عرف اللغة العربية وبلاغتها ووقف عند هذا الحد فهو مغرور مغفل، لأنه قصر القرآن على ما يعرفه العرب الجاهليون، وهذا جهل فاضح، فإن القرآن باب لفتح العقول وفهم العلوم وإدراك أسرار الكون، فإذا وقف البليغ عند هذا الحد فهو نائم ساه، بل عليه أن يدخل العلوم من أبوابها وأن يأمر الأمم الإسلامية بمعرفة سائر العلوم، لأن القرآن هو بابها، ولعمري ما البلاغة إلاّ حلية الكلام فأين حلية العقول إذن؟ حلية العقول هي العلوم. إن في مثل هذا المقام يظهر إعجاز القرآن، يذكر السحر وإبطاله بعد اليأس من فهم العوالم المحيطة بنا، ويذكر البلاغة بعد اليأس من التعقل إذ يقول: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٣].

بمثل هذا فليدرس القرآن، وبمثل هذا فليستيقظ المسلمون، وإلا فإني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فليقرؤوا هذه العلوم فقد أوضح القرآن مناهجها وأبان طرقها وأظهر مسالكها وبيّن أن الكلام على البلاغة وعلى السحر بعد اليأس من فهم المعقولات الكونية، فقال الله هنا: ﴿ قَالَ ﴾ فرعون مجيباً لموسى: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في أن لك بيّنة، فإن من يدّعي النبوة لا بد له من حجة، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر ثعبانيته، يقال: إنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، فقال: بالذي أرسلك إلاّ أخذتها، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت، فقال: وهل غيرها؟ قال: نعم، وأراه يده ثم أدخلها في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء من غير برص، لها شعاع كشعاع الشمس، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

حينئذ ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِلْمَلَإِ ﴾ حال كونهم مستقرين ﴿ حَوْلَهُۥ ﴾ ومقول القول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فائق في علم السحر ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾، وهذا التعبير الذي أفاد أن فرعون مع ادّعائه الربوبية قد تشاور مع قومه، يقصد منه في القرآن أن الشورى يجب أن تكون في الإسلام لأنه إذا قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[آل عمران: ١٥٩] وزاد على ذلك أن فرعون مع ادّعائه الألوهية تشاور مع قومه، فإن ذلك دلالة واضحة أن الشورى أمرها جليل عظيم، وأن الأمم الكافرة لما جعلت الشورى في أعمالها دام ملكها أمداً طويلاً، كما نرى من الآثار المدهشة لقدماء المصريين الدالة على ملك عظيم دام آلافاً وآلافاً من السنين، فالشورى إذن أمرها عظيم، فلما شاورهم ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي: أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة، ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ شرطاً يحشرون السحرة ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾، والتعبير بـ«السحار» ليبينوا لهم أنهم أقوى من موسى في سحرهم، ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة، ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ هذه الجملة تفيد الاستبطاء والحث على الإسراع، كما قال تأبط شراً:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا  أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أي: ابعث أحدهما إلينا سريعاً.

ثم قال: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا، ومعلوم أنهم على دينهم فذكروا اتباعهم على سبيل الكناية يقصد بها أنهم لا يتبعون موسى، وإلا فهم في ذلك الوقت على دين المصريين، ومنهم السحرة فكيف يتبعونهم من جديد، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ وذلك بعد أن قالوا له: ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[الأعراف: ١١٥]، ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ المدهونة بالزئبق الذي تفرقه حرارة الشمس فيتطاير، ويقال: إن الحبال كانت فوق سبعين ألفاً وكذا العصي، ﴿ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وهذا القسم مبني على اعتقادهم في أنفسهم ولأنهم أتوا بأقصى ما لديهم من السحر، ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبونه عن وجهه بالتمويه والتزوير، حتى إنهم جعلوا الناس يتخيلون العصي والحبال حيات تسعى، ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لأنهم علموا أن هذا منتهى التخييل السحري. ولما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا فوق العلوم فآمنوا وخرّوا ساجدين لأنهم علموا أن هذه قوة فوق قوة الناس، وليس فوق الناس إلاّ الله وهو الذي أرسل موسى، ومقتضى اللغة أن يقال: خرّوا ساجدين، ولكن عبّر بالإلقاء أولاً للمشاكلة، وثانياً ليدلّ على أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهشة العلمية، فكأنهم أخذوا فطرحوا، وهذه أعجب ما يكون من جهة البلاغة اللسانية، ثم أبدل من قوله: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ قوله: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ وذلك إشعار منهم بعزل فرعون عن الربوبية، وبأن سبب الإيمان ما أجراه الله على يدي موسى وهارون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء،

أو تواطأ معكم، وإنّما كان ذلك من فرعون ليلبس على قومه، ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال ما فعلتم، ثم بيّن ذلك الوبال فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك في الدنيا ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي: لأننا نتقلب أي نصير إلى ربنا في الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا ﴾ أي: لأن كنا ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من أتباع فرعون، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج، أي: أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر، بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم.

وجاء في التوراة في سفر الخروج في الإصحاح الحادي عشر أن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة ذهب وأمتعة فضة، وأن الله سيميت كل بكر في أرض مصر من الإنسان والحيوان، وأمرهم أن يذبح كل أهل بيت شاة يوم الرابع عشر من شهر الخروج، ويلطخون القائمتين والعتبة العليا من الدار، ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير، وأمرهم أن يأكلوه بعجلة ويأكلون الرأس مع الأكارع والجوف، هذا هو المسمى « فصح الرب »، وهذا الدم علامة على بيوت بني إسرائيل حتى يحفظ كل بكر من بني إسرائيل، ويتخطاهم الموت إلى أبكار المصريين، ويكون أكل الفطير سبعة أيام، ويكون هذا فريضة أبدية تذكاراً بالخروج من مصر من يوم ١٤ إلى ٢١ من الشهر كل سنة. وهكذا أمر موسى قومه بذلك ففعلوا كل هذا ونجا أولادهم، وصار ذلك سنة أبدية. ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان في جميع بلاد مصر نصف الليل اشتغل الناس بالأموات، وبني إسرائيل أخذوا غنمهم وبقرهم، وأخذوا عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم، وفعل بنو إسرائيل ما أمرهم الرب، وارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت ستمائة ألف ماش من الرجال ما عدا الأولاد، وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز ملة فطيراً، وكانت إقامة بني إسرائيل في مصر ٤٣٠ سنة، فهذه الليلة هي عيد الفصح إلى الأبد.

وكان الخروج في شهر أبيب، فهذه سبعة أيام يؤكل فيها الفطير تذكاراً لخروج بني إسرائيل من مصر، ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبر بسراهم ﴿ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ وهم الشرط يحشرون الجيش ليتبعهم، قال: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ لأنهم ستمائة ألف، وهم قليلون بالنسبة لجيوشه، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ لفاعلون ما يغيظنا، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أو حذرون من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور، ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم ﴾ أي: خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه ﴿ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وهي المنازل الحسنة والمجالس الجميلة، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم، ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ أي: أورثنا جنسها أي: جنس الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهي أرض المعاد التي هم سائرون إليها. يقول الله: كما حملنا المصريين على الخروج من هذا النعيم حملنا بني إسرائيل أن يرثوا نظيره في أرض المعاد، فساروا ليلاً، ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي: لحق فرعون وقومه موسى وأصحابه ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ وقت شروق

الشمس ليصلوا إلى ما أعد لهم من أرض الموعد، ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ بحيث رأى كل منهما الآخر، ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ لملحقون، ﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ طريق النجاة منهم، ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ القلزم ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ أي: فضرب فانفلق وصار اثني عشر فرقاً بينها مسالك ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره، فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ وقربنا ﴿ ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ بحفظ البحر على الهيئة المذكورة إلى أن عبروا، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ لعبرة عجيبة لا توصف، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا القبط الباقون في مصر آمنوا بها، ولا بنو إسرائيل، فإنهم بعدما نجوا عبدوا العجل وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[البقرة: ٥٥]، ولم يؤمن إلاّ القليل، فكما لم يكن أكثر العرب مؤمنين وقد رأوا ما في الأرض من النبات في القسم الأول، هكذا هؤلاء لم يؤمنوا بالمعجزة التي وقعت على يد موسى وهو انفلاق البحر، فبهذا تبيّن أن الالتجاء إلى خوارق العادات لا يفيد إلاّ أولي العلم كسحرة فرعون، فرجع الأمر إلى أن الإيمان النافع إنّما يكون للعلماء؛ كعلماء الطبيعة والفلك والنبات وعلماء السحر، وهم المتبحرون فيه لأنهم لم يخرجوا عن تبحرهم في أسرار الطبيعة، فأصبح الأمر راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فأما الذين يقلدون أو يظنون أن خوارق العادات كافية فهم غافلون، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

**وهاهنا خمس لطائف:**

**اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:** ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾[الآية: ١٨].

**اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:** ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الآية: ٢٠].

**اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:** ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الآية: ٢٢].

**اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[الآية: ٣٤].

**اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:** ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[الآية: ٥٧].

ولأقدم قبل هذه اللطيفة جوهرة في قصص القرآن.

## جوهرة في قصص القرآن

من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه، ومن كلام علماء العصر الحاضر

**(١) ما يقوله الإمام الشافعي في قصص القرآن:**

جاء في الإحياء في الجزء الأول صفحة ٢٣ ما نصه:

«وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً، وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع، والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه، وقال للشافعي يوماً: أيّما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رضي الله عنه: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين

إلاَّ بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عزَّ وجلَّ امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه؟ وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه؟ وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه؟ وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكاً عظيماً؟ والتمكين أفضل الدرجات. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٦]، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن، قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٤] الآية».

فهذا كلام الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء، وكل ذلك من علوم الآخرة.

وقيل للشافعي رحمه الله تعالى: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم فعلمه، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فيها، فعند ذلك يكون عالما، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجتمعة، فقال: إنَّما المقصود منها واحد، وإنَّما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل. فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة. انتهى بالحرف من الإحياء للإمام الغزالي.

أقول: إن الشدة خير مهذب للنفوس، فانظر ما جاء في كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول، عن أبي هريرة قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد، فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فسألهما عن خروجهما فقالا: أخرجنا الجوع، فقال: وما أخرجني إلاَّ الجوع، فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التيهان فأمر لهم بشعير فعمل، وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقاً عندهم في نخلة، ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال صلى الله عليه وسلم: لتسألن عن نعيم هذا اليوم»، أخرجه مسلم ومالك والترمذي.

وعن علي رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا مصعب بن عمير رضي الله عنه ما عليه إلاَّ بردة مرقعة بفرو، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة، ثم قال: «كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة أخرى، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة»؟ قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم، نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة، فقال: «بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ» أخرجه الترمذي.

فاعجب لهذا الحديث الصحيح الذي أماط اللثام عن حال المسلمين في جميع العصور، فإنهم لما مالوا للمال والدعة والترف حرمهم الله الملك، ولما كانوا هداة للأمم نافعين لهم مكنهم الله في الأرض، وهذه قاعدة عامة، فإذا رأيت الله عزَّ وجلَّ يذكر قصص القرآن فاعلم أنها رمز إلى أمثال هذا، وترى «قابس» اليوناني المتقدم ذكره في سورة «البقرة عند الآية ١٥٥»: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يقول: إن السعادة لا تكون إلاَّ بعد معاناة الشقاء والصبر في هذه الدنيا، وكذلك ما يقوله عالم آخر في كتاب «الكوخ الهندي».

أقول: وإنّما نقلت هذا ليكون نصب أعين أولي العلم عند قراءة قصص القرآن، فهذه القصص نموذج لما يفعله الله عزَّ وجلَّ بالمصلحين في الأمم الإسلامية، فهو يبتلي بالمحنة، ثم يلهم الصبر، ثم يعطيهم التمكين وقليل من الناس من يوفق للتمكين.

إن قصص الأنبياء إذا لم تلاحظ فيها هذه الآراء والمعاني، لم تؤثر في العقول، ولم تهذب النفوس، ولم تعط فكرة، فمن هذا الباب فليلج المسلمون، ومنه فليدخلوا لإصلاح النفوس ومداواة عللها وأسقامها، وإذا يكونون خير أمة أخرجت للناس.

(٢) **ما يقوله علماء العصر الحاضر في علم التاريخ**، فهناك ما جاء في بعض المجلات العلمية للكاتبن «جون مادوكس» دكتور في الفلسفة من جامعة «بال» بأمريكا وها هو ذا:

سمع أحد علماء الرياضة أديباً كبيراً يتلو قصيدة «ملتون» الخالدة وهي «النعيم المفقود» بصوت مرتفع، ولم يكد تاليها يفرغ من إنشادها حتى سأل العالم الرياضي من حوله: أي شيء تجدي هذه القصيدة في عالم الحقائق؟ ولما أخفق في الحصول على جواب يخلق في نفسه الاقتناع، صرح بأن الشعر لا جدوى منه، وبالتالي هو منتوج لا قيمة له، ولا ريب في أن عقيدة العالم الرياضي في الشعر وهي عقيدة المعارضة أشبه بعقيدة رجل الأعمال في التاريخ، إذ يرى ثانيهما أن قارئ أية قطعة تاريخية عما فعل الإنسان في ماضي الحقب لا يخرج منها مهما كانت متسقة الأسلوب بأية قاعدة علمية معينة يستطيع بها أن يشيد جسراً، بل ولا يحصل منها على أية فائدة تجديه في مشروعاته العلمية، وسرعان ما يصرح مؤكداً أن دراسة التاريخ لا تؤدي بصاحبها إلى أي غرض نافع، وأن الوقت المبذول فيها ضائع هباء، وبديهي أن إثبات القيمة العملية من قراءة التاريخ يتوقف طبعاً على تفسير كلمة «عملي» فإن كان معناها لا يفيد إلاَّ الدنانير والدراهم والاستيلاء على الأكداس منها؛ فيجب أن يتقرر في الأذهان أن دراسة التاريخ لا تعلم الإنسان تعليماً مباشرة كيف يحصل على المال، وإذا كان في معنى كلمة «عملي» ما يدل على شيء آخر غير التنقيب عن الذهب فقد اختلف الحال عن سابقتها، أما إذا أفاد معناها إثارة جهود الإنسان للعمل مندفعاً إليه بتأثير مثل من الأمثلة السابقة النبيلة، أو أن يكون معناها توسيع نظرات الإنسان إلى الحياة، أو تجريبه على واجبه منها بأدق الوسائل وأتقنها، أو ترقية مستوى معلوماته، إذا كان هذا فإن قراءة التاريخ أعلى قيمة وأجدى على الأذهان من أية دراسة أخرى. وبديهي أنني حين أحبذ دراسة التاريخ فإنني أقصد بهذا تحبيذ التاريخ المسطور حديثاً بدقة علمية، ذلك لأن الاطلاع عليه يشفي مواضع الدهشة منا فيما يختص بالماضي، ولولا أن إنساناً في العصور البائدة قد سبق في الطريق المؤدي إلى تحقيق ما يدور بخاطره من الأطماع، وما يتلهف إلى إدراكه منها، لبقينا إلى اليوم على حالتنا الهمجية الأولى نعيش في المغاور، ونرتدي الثياب المتخذة من جلود الحيوان، وحينما صار أجدادنا على اهتمام بإيجاد أحسن الوسائل لأداء الأعمال، وثارت في نفوسهم عوامل الرغبة في الوقوف على ما ابتكرته الشعوب الأخرى من الطرق لتأدية تلك الأعمال نفسها، لعب التقدم دوره الحقيقي في عمران الحياة.

إن في دراسة التاريخ منظاراً لا غنية لنا عنه لنفهم العصر الذي نعيش فيه ولنتمكن بواسطته من التفريق ما بين العناصر الأولية في الحياة اليومية وبين تلك العوامل العارضة الزائلة، وإذا عرفنا التاريخ معرفة وثيقة فإننا نصبح كما يقول الكاتب الإنجليزي «مورلي» أشبه كل الشبه بالطائر الذي يحلق في أعلى طبقات الجو، كما يستطيع أن يرى سلسلة من الجزائر بحيث تكون نظرته إليها كأنها أجزاء من سلسلة جبال واحدة قد طغت عليها الأمواه، وليست كأنها قطع منفصلة كل الانفصال عن اليابسة.

وإذا قارنا الحاضر بالماضي فسرعان ما نجد أن العصر الحالي يفوق سابقه في النواحي المادية والعقلية والأدبية، فقد زالت العبودية والرق، وأخذت قوة الرجال الجسمية والعقلية في قوامتهم على النساء تقل وتتناقص، بينما قد اتسع نطاق الشعور بمساعدة الضعفاء والعطف عليهم، وسرت روح العدالة والرحمة بين كل شعب بل وبين الشعوب قاطبة بعد أن كانت لا تتجاوز قلوب الأفراد في الأسرة أو القبيلة الواحدة، فكيف نستطيع أن نفهم نواحي التقدم في هذه الحالات؟ لا يتسنى لنا ذلك إلاّ بدراسة الماضي الذي تمخض عنها.

لقد كان « فون سيبل » السياسي الألماني والمؤرخ المحقق قبل الحرب السبعينية يقول دائماً في الكلام عن الشؤون السياسية: إن من يعرف « من أين » لا بد أن يعرف « إلى أين »، ولا ريب في أن الساسة غير الواقفين على حقائق الأمور يرتكبون الأغلاط دائماً لأنهم لا يعرفون ماذا أحدث في الماضي تلك الخطط السياسية التي ينتهجونها في حاضرهم.

إن دراسة التاريخ تزودنا بالمعلومات الضرورية للحصول على فهم صحيح عن الجماعات الإنسانية العامة، ولا سبيل إلى أن نقف على منشأ أوضاع حكوماتنا ولغاتنا، أو مصدر حبنا للحرية وأفكارنا ومبادئنا الأدبية إلاّ بقراءتنا للتاريخ، وبغيره لا نفقه شيئاً من كل هذا، وتراثنا النفيس في عصرنا الحالي بل إن التاريخ ليمدنا بالوسائل التي نستطيع بها التكهن عن المستقبل والتأهب لملاقاة الأيام، ولأضرب لذلك مثلاً بحادث وقع على مشهد مني أيام الحرب العالمية، فقد تساءل ذات يوم أحد الجنود قائلاً: ماذا سيكون مصير إمبراطور ألمانيا في نهاية هذه الحرب؟ هل حقاً سيشنق؟ ألقى الجندي هذا السؤال وأردفه بالصمت برهة عرض فيها لذاكرته حوادث الماضي، ثم قال: كلا، إنه لا يشنق ولكن سينفى، وبذلك يحال بينه وبين جلب الأذى والأخطار على العالم مرة أخرى، ومثله مثل نابليون بونابرت في خاتمة أيامه، وبديهي أن هذا الجندي ليس على موهبة التنبؤ، ولولا درايته بالتاريخ وما وقع فيما مضى من أمثال هذه الظروف والحالات، لما تسنت له هذه المقارنة التي تضمنتها إجابة على نفس سؤاله.

إن الدراية بالماضي وما وقع فيه ذات جدوى عظيمة ليست في معاونتها إيانا على حلّ المسائل العامة الأهمية فحسب، ولكنها أيضاً تعاون الأفراد على معالجة شؤونهم الخاصة، وأن الذين يحطمون سفن آمالهم حيث طاحت آمال غيرهم من قبل لا يلومون إلاّ أنفسهم، فقد كان واجباً عليهم محتوماً أن يدرسوا تجارب سواهم من الرجال، والتاريخ لا يعيد نفسه البتة إعادة دقيقة، إذ أن العوامل لن تكون هي نفسها في كل زمان ومكان، وبذلك لا يكون تحليلها دقيقاً، ومتى ثبت هذا تجلت قيمة المقارنة ما بين الحاضر بحوادثه وبين الماضي وما تم فيه. وأزيد من هذا أن دراسة التاريخ تبعث من نفوسنا الهمة على أداء واجباتنا التي أنيطت بنا، فإن الأمثلة السامية التي نقتبسها مما فعل الأبطال في الماضي تولد النشاط لدى الناهضين بأعباء الحاضر، ولا ريب في أن ما فعل « ليونيداس » ومواطنوه الإسبارتيون من أجل اليونان في مضيق « ثرمبولي »، ولا بد وأن يحفظ على كل وطني شجاعته في الدفاع عن وطنه، بل ويكون بمثابة المحرك لأعصاب ذراعه، بينما أن وقوفنا على كيفية نهوض الرومانيين وتفوقهم في الانتصارات التي لم يسبق لها مثيل على يدي « هانيبال ». كل هذا يلهب حماسة الذائدين عن أوطانهم إلى النهاية.

يجب أن ندرس التاريخ، فإذا ما استوعبناه ووقفنا على خفاياه امتلأت أذهاننا بصور جمة عن الغرائز والصفات، وبمناظر يتجسم فيها مصير الأفراد والجماعات، بل والأمم وبالأفكار العظيمة عن النظام الاجتماعي وارتقائه، وبذلك نشعر بأنفسنا وقد كبرت، وبعقولنا وقد اتسع نطاقها. ويقول اللورد «بيكون» اقتباساً عن أحد مؤرخي اليونان: «إن التاريخ فلسفة تعلمنا بالأمثلة، بل إن مثله مثل كل علم جليل القيمة إذا درسناه بدقة ونظام، خلق فينا ذاكرة يسهل عليها الرجوع إلى الحوادث مهما يبعد بيننا وبينها الأمد، وعيناً دقيقة الملاحظة، وقدرة على تفهم العلاقات بين الأسباب والنتائج».

انتهت الجوهرة.

## اللطيفة الأولى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[الآية: ١٨]

## واللطيفة الثالثة: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الآية: ٢٢]

اعلم أن هذا القول قصه الله علينا ليعلمنا كيف تكون المحافظة على الأوطان وحب الإخوان، فإن فرعون لما منّ على موسى بأنه رباه، قال موسى: كيف تمنّ عليّ بذلك وأنت لولا استعبادك لنا ما تسنى لك ذلك؟ وقد وضح هذا المقال في تفسير الآية، وإنّما جعلتها لطيفة ليتفكر فيها الأذكياء.

## اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لم يعقه ما اتفق له من قتل القبطي خطأ عن المضي في الأعمال النافعة، وإنّما جاء ذلك القصص لنا لنضرب الذكر صفحاً عما مضى من الأعمال، ونتجه إلى أعمالنا العالية الشريفة، ولا نجعل ما اتفق لنا من الخطأ بحسب ما يظنه الناس عائقاً عن الأعمال النافعة، فليجدّ المسلم في عمله، وليقم بما وجب عليه، وليتذكر أن سيدنا موسى عليه السلام لما وكز القبطي فمات لم يعقه ذلك عن ترقية بني إسرائيل وإسعادهم.

## اللطيفة الرابعة: السحر عند الفراعنة

لقد ذكرت هذه القصة في القرآن مراراً وتكراراً، وفيها ذكر السحر عن قدماء المصريين، وفيها أن البحر انفلق لموسى، فلأسمعك ما جاء عن قدماء المصريين من السحر لتطلع على عقائدهم وآرائهم، ولتعلم أن قصة موسى وفرعون وراءها من الأخبار كل عجيب وغريب، لأنقل لك ما وجد على ورق البردي وفي الآثار المكتوبة على الأحجار لتعجب من الأمم ومن علوم الأوائل، ولتعلم أن الله عزّ وجلّ له في الأمم عجائب وغرائب.

قال المرحوم أحمد باشا كمال ما ملخصه: «قد كان السحر له تأثير غريب قبل اليوم بخمسة آلاف سنة، ولم يكن لطبيب أن يداوي بالعقاقير إلاّ بعد أن يداوي بالعزائم السحرية، فالعزيمة مقدمة على الدواء المادي، وقد ذكر حادثة في الأسرة التاسعة عشرة وهي أن «فتاة» ابنة ملك «بختن» ـ قال ولعلها «بغداد» ـ طلب أبوها من رمسيس الثاني أن يرسل لها أحد المعبودات المصرية، فأرسل لها المعبود «خونسو»، فوصل «خونسو» إلى الملك وطلب منه أن يخرج العفريت من ابنته المسماة «بنت رشت»، فأخرج الجني، وهذا الجني شرط قبل خروجه أن يصنعوا له مهرجاناً لوداعه، فأجابوه لذلك وجعلوا له يوماً عظيماً مشهوراً، فأحب الملك أن يبقى المعبود المصري عنده دائماً، ولكن بعد مدة

مرض وحار الأطباء في أمره فجاء له « خونسو » ليلاً كأنه باشق من ذهب، وألح عليه أن يرده إلى بلده، فلما طلع النهار أرجعه إلى بلده فشفي من مرضه ».

وكانوا يعتقدون أن الجن تشفي من الدودة الوحيدة، ومن رمد العين، والالتهاب وغيره، وقد دونوا في رسائل الطب كيفية إخراج الجان المؤذية وطردهم إلى أسفل سافلين لينجوا من أذاهم، وذكر ـ رحمه الله ـ عزيمتين اشتهرتا بحسن الإجابة والقبول، وكان الأطباء يتلونهما على كل مرض، ولشهرتهما صدروا بهما ورقة « أبيروس الطبية »، وهاك ترجمة العزيمة الأولى وهي تكرار بالدقة مراراً متى وضعت الأدوية على أي عضو مريض لكي يزول عنه سبب المرض والعين إذا كان استعمال العلاج من الظاهر، وأنا رأيت ألا أذكرها بنصها لعدم فائدتها، وإنما أقول: إن ملخصها يرجع إلى الاستغاثة بالآلهة « أشوريس » التي خلصت « حوريس » من الأشياء الرديئة التي فعلها أخوه « ست » حين قتل أباه « أسوريس »، والاستغاثة أيضاً بالآلهة « أسيس » المعبودة الكبيرة يستغيث بها أن تخلصه من معبود الآلام ومن معبودة الآلام ومن الموت ومن الموتة ومن المصرع والمصرعة، ويقول: يا شمس تكلمي بلسانك « يا أشوريس » تشفع بتدخلك، الشمس تكلمت بلسانها و« أشوريس » تشفع بتدخله فإذن عليك أن تخلصني من كل شيء رديء. انتهى.

أما العزيمة التي تتلى إذا كان الدواء من الباطن فهاك ملخصها: « بعد شرب الأدوية يخاطب الأدوية يقول: هلمي أيتها الأدوية واطرحي الأوجاع من قلبي ومن أعضائي، العزيمة طيبة لأجل الأدوية والأدوية طيبة لأجل العزائم، ثم يرجع ويقول كلاماً كالسابق، إذ يقول: إن « موريس » و« ست » جيء بهما إلى البناء الكبير بعين شمس، وحصلت المحاكمة بينهما ففاز « موريس » لأنه كان على الأرض يفعل ما يشاء كالمعبودات معه، ويكرر هذا القول مراراً وهو يتعاطى الجرع ».

ولهم عزائم أخرى لإبعاد الهوام والدبيب، وعزائم للمحبة والقبول، ويمثلون شخصاً على هيئة العدو ويتلون العزيمة ويضربون ذلك التمثال بالمدية، فإن العدو يحصل به ما حصل بصورة الشمع على زعمهم، وكانوا يتخيلون أنهم يرون الشمس نصف الليل ويستحضرون الشياطين الذين يجلبون لهم ما يريدون. هذا ملخص ما ذكر الباشا في مجلة « الموسوعات ».

وهاك ما ترجمه أستاذي في علم التاريخ والجغرافيا المرحوم أحمد بك نجيب عن اللغة الألمانية؛ المترجمة عن الورق البردي المصري ترجمة حرفية، إذ نقل رحمه الله محادثة بين الملك « خوفو » أحد ملوك الأسرة الرابعة ـ وهو الباني للهرم الأول بالجيزة سنة ٣٧٠٠ قبل الميلاد ـ إن هذا الملك جمع أولاده الثلاثة وألزم كل واحد منهم أن يقص حكاية من أغرب التواريخ المصرية فامتثلوا أمره، وإني لأخلص لك حكاياتهم، لماذا؟ لأن هذا أغرب التواريخ فالاطلاع على تاريخهم، وأيضاً إن القرآن ذكر سحرهم، فهاك سحرهم لتقف على عجائب الدنيا وخرافات الأولين، ولتعلم كيف ذكر هذا السحر في القرآن، ولماذا ذكر، وكيف كانت هذه الدنيا ومنشؤها، وإذا رأينا أنفسنا متعجبين من خرافاتهم التي كانوا يزعمونها حقائق فربما جاءت أقوام بعدنا فعدونا مخرفين، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

## الحكاية الأولى

## أعجوبة حصلت أيام الملك نيقا

وهو من الأسرة الثالثة، ومات سنة ٣٩٠٠

قال ابنه الأول: وقف الأمير «خفرع» الباني للهرم الثاني، وقال لأبيه «خوفو»: أنا أقص عليك أعجوبة حصلت مدة أبيكم «نيقا» ـ ومعنى الأب هنا السلف ـ حينما ذهب إلى معبد المعبود «فتاح سيد عنخ توري» ـ مكان بمدينة منفيس به المعبد ـ وزار أكبر علماء السحر، وكانت زوجته تحب رجلاً من أهل المدينة وكانت ترسل إليه خادمتها كل يوم وهو يجلس معها في البستان منشرحاً مسروراً، وأرسلت له يوماً صندوقاً فيه ملابس لطيفة، فأتى مع الخادمة ومضى على ذلك جملة أيام، فلمح ذلك المدني منزلاً خلوياً في بستان زوجها فطلب منها أن يكونا معاً فيه، فأمرت أمين المنزل أن يهيئ لهما هذا المنزل في البستان لينشرحا فيه، ففعل وجلسا معاً فيه كما يشاءان، أما الخادم الأمين فإنه أخبر صاحب البستان وهو زوجها كبير القراء وهو الكاهن، فقال الكاهن لهذا الأمين: أحضر لي شمعاً من الصندوق المصنوع من الأبنوس والفضة المذهبة، فصنع تمساحاً من الشمع طوله سبعة أشبار ثم طلسم عليه بالسحر، ثم قال للأمين: متى جاء المدني ليغتسل كما كان يغتسل كل يوم في هذا الماء فألقي عليه التمساح الذي من الشمع، ثم جاء المدني وجلس معها على عادته وشربا في هناء وسرور، وجاء العاشق لزوجة الكاهن ليغتسل في البركة فألقى الأمين عليه التمساح من الشمع، فانقلب إلى تمساح حقيقي بنفس الطول وخطف المدني وغاص في قاع الماء، وكان اسم هذا الكاهن «ويبايوتر»، وبقي «ويبايونر» الكاهن المذكور سبعة أيام مع الملك والمدني غاطس في البحر في جوف التمساح، ثم طلب منه أن يريه عجيبة في رجل مدني في زمانه، فتوجه معه للبركة وتلا العزيمة على التمساح أن يحضر الرجل المدني، فأحضره فغضب الملك وقال: كيف تعذب هذا الرجل بهذا التمساح؟ فأخذ الكاهن التمساح إذا هو شمع كما كان وليس حيواناً، وقص عليه قصص زوجته وهذا المدني، فغضب الملك وأمر أن يرجع الكاهن التمساح كما كان وينزل في الماء، وقد تم ذلك وأمر بإحراق المرأة في جانب البستان.

فلما أتم الأمير «خفرع» هذه الحكاية قال لأبيه «خوفو»: هذه حكاية حصلت مدة أبيك «نيقا»، فقرب الملك «خوفو» ألف رغيف خبز ومائة قدر بوزه «الجعة»، وأمر بذبح ثور وكذلك أمر بحقين من الروائح العطرية، كل ذلك لروح الملك «نيقا»، وقدم أيضاً إلى روح أول القارئين طعاماً وقدراً عظيماً من البوزه، وقطعة لحم كبيرة، وحقاً من الروائح العطرية.

## الحكاية الثانية

## أعجوبة وقعت في أيام الملك خوفو نفسه

ترجمت حرفياً من اللغة الألمانية

وهي مترجمة من اللغة المصرية القديمة حرفياً أيضاً

عند ذلك قام الأمير «هرد داف» ابن الملك «خوفو» وقال: إنك لم تسمع إلاَّ ما كان في الزمن الماضي ولم نشاهده بأنفسنا فهو يحتمل الصدق والكذب، ولكني أخبرك عن شيخ فلاح مصري يعيش ١١٠ سنة ويأكل كل يوم ٥٠٠ رغيف، ويشرب مائة قدر من الجعة ويأكل رقبة ثور، وهو يقدر

أن يرد رأس الإنسان المقطوعة إلى مكانها، فهو يحيي الموتى، وإذا جر حبلاً على الأرض خلفه خضع له الأسد ومشى خلفه مدة ما يجر الحبل، وإنه يعرف حساب «ابت» وفيه الأسرار المكنونة للمعبود «توت»، ويقال: إن هذا الحساب وحدة المقاييس لتصوير الحيوان والإنسان، فإن هذه الصور العجيبة التي صنعوها والهياكل التي اخترعوها لا بد لها من مقاييس، فهو إذن «ابت»، فقال الملك: يا «هرد داف» أحضره لي وكان اسمه «ددي»، فركب زورقاً في النيل وسافر إلى بلدة «ددي» في إقليم «دوسنفرو»، ولما وصل «هرد داف» إلى الجسر تركه وسار محمولاً على كفة من خشب الأبنوس وقوائمه من خشب أرز لبنان مشبك بكلاليب من الذهب، فلما وصل إلى منزل «ددي» سلم عليه بسلام لا نعرفه الآن، وكان «ددي» راقداً على سرير فوق مسطبة وخادم يروّح على رأسه بمروحة وآخر يغمز ـ يكبس ـ رجليه، وهذه صورة السلام: السلام عليك، حالتك حالة كل من صار في دور الشيخوخة والهرم، في دور الاحتضار والموت، في دور النزول في القبر، في دور الدفن والمواراة في التراب الذي تصير إليه عاجلاً أنت أيها الفاضل المحترم، وإني أتيت إليك من بلاد قاصية لأناديك ومعي رسالة من أبي جلالة الملك «خوفو»، وإنك متى حضرت تأكل أكلاً فاخراً يقدمه لك الملك أبي ويواليك بمثله فتصير وأنت في هذه العيشة الراضية حتى تلحق بآبائك المرتاحين في قبورهم. فقال «ددي»: سلام سلام يا «هرد داب» يا ابن الملك، يا من يحبه أبوه ويكافئه ويجعل قدره ويرفع شأنه فوق الكبراء والشيوخ، وإن «قاك» حية، ومعنى «قاك» يعني صورتك الخيالية بعد الموت التي كانوا يعتقدون أنها تسكن في الصورة التي يصنعونها على هيئة جسم الميت ويقدمون لها صور الخبز وكل مأكول، ويزعمهم أن هذا يجعل تلك الصورة حية، ثم إن الأمير «هرد داف» ساعده على القيام وسافر معه على الجسر، فقال «ددي»: مر لي بزورق وأحضر أولادي كلهم مع كتبي، فأمر له بزورقين مجهزين بجميع لوازمهما.

ولما وصل الأمير «هرد داف» هو و«ددي» إلى «منفيس» ـ وهي «ميت رهينة» الآن ـ دخل «ددي» على والده الملك، فقال له الملك: هل ما يقال إنك تحيي الميت حق؟ قال: نعم أحيي الإنسان والحيوان، فقطع رأس إوزة أمامه فأخذ الإوزة وجعلها في الجهة الغربية من الإيوان وجعل رأسها في الجهة الشرقية منه، وأخذ يتلو العزائم السحرية فقامت الإوزة تمشي وتتبختر، وكذا الرأس صار يقفز نحو الجثة فالتقيا، ولما وصلت لها وقفت الإوزة وجعلت تصيح، فقال له الملك: أصحيح أنك تعرف حساب «ابت» في الأسرار المكنونة للمعبود «توت»؟ قال: لا أعرفه ولكن أعرف مكانه، إنه في علبة مصنوعة من حجر ريسي «كذا» مجودة بمنزل اسمه «سبتي» بمدينة الشمس «عين الشمس» ولست أنا الموعود بها بل الموعود بها أكبر أولاد المرأة «رددت» امرأة الكاهن المسمى «را» الخادم للمعبود «سخيو»، والمعبود المذكور وعدها أن يعطي أولادها أكبر الوظائف في القطر، وأكبرهم يكون هو الكاهن الأعظم لمدينة الشمس، وهذه المرأة تلد في الخامس عشر من شهر تي «طوبه»، وأكرم الملك هذا الساحر إكراماً كثيراً ورتب له كل يوم ألف رغيف من الخبز ومائة قدر من الجعة وثوراً ومائة ربطة من البقول والخضر. انتهى.

## الحكاية الثالثة

## هي أعجوبة وقعت في أيام الملك سنفرو

لما انتهى الأمير « خفرع » من كلامه قام أخوه الأمير « بيوفرا » وتقدم للكلام أمام أبيه الملك « خوفو »، وهذه الحكاية ملخصة فيما دار بين المؤلف وبين تلميذ بمدرسة عالية، وقد نشر هذا الحديث في جريدة الإخلاص تحت عنوان « السحر في وزارة المعارف » وهاك نص الحديث :

س ـ لقد جاء في الكتب السماوية وفي العلوم الأثرية أن قدماء المصريين كانوا بارعين في السحر، فهل بقي من هذا العلم شيء الآن؟ .

ج ـ إن السحر اليوم في وزارة المعارف .

س ـ عجباً كيف تقول هذا وأنت كنت مدرساً بها وأنا تلميذ ؟ بل أنا كنت تلميذك بالمدرسة الخديوية، أجداً تقول أم أنت من الهازلين؟ .

ج ـ إني لا أمزح، وإنّما أقول لك حقاً إن وزارة المعارف قد عمها السحر من أولها إلى آخرها، وهذا السحر قد أنام العقول .

س ـ أوضح فإني لم أدر ما تريد؟ .

ج ـ إن كل شيء يصرف العقول عن الحقائق يسمى سحراً، ألا ترى أن المنوِّم ـ بالكسر ـ يأتي في المراسح العامة ويضع سكراً في فم المنوَّم ـ بالفتح ـ ويقول له : هذا حنظل فيلفظه المنوَّم ويقشعرّ، وإذا عكس الأمر استحلى الحنظل وابتلعه وهو قرير العين. هذا أحد أنواع السحر فقد صرف المنوَّم عن الحقائق حتى صار الحلو مراً والمر حلواً، أوَلست ترى أن الرجل يقول له المنوِّم ـ بالكسر ـ أنت امرأة، فيفعل فعل المرأة ويسمي نفسه باسم المرأة، ثم يقول له : أنت ملك فيفعل فعل الملوك وهو مصدق ذلك في كل حال، والناس يشاهدونه في المراسح، إن هذا نوع من السحر بلا جدال .

س ـ وهل هذا التنويم يدرس في المعارف؟ .

ج ـ لا، ولكن التنويم في المعارف أشد وأشد، لا جرم أن كل ما صرف العقول عن الحقائق حكمه حكم التنويم، فإذا رأينا فعلاً يؤدي إلى هذه النتيجة عددناه سحراً؛ وإن لم يسمه العامة ولا القاموس سحراً. إن المقام مقام حكمة وعلم، وهل لك أن أقص عليك عجيبة من مرويات قدماء المصريين السحرية المكتوبة على ورق البردى؛ سواء كانت على الحقيقة أو خرافية؛ ذلك أن الأمير « بيوفرا » وهو أخو الملك « خفرع » قام أمام أبيه الملك « خوفو » وقص عليه أعجوبة وقعت وقد ظهرت على يد أكبر العلماء المسمى « ززام عنخ »، ذلك أن الملك « سنفرو » كان منقبض الصدر، فوصف له أكبر العلماء أن يتوجه جلالته إلى بركة قصره ويجعل فيها زورقاً مصفحاً بالذهب جميلاً فيه عشرون فتاة بكراً يجدفن فيه بمجاديف من خشب الأبنوس المحلى بالذهب، وهن محليات بالقلائد والعقود ولابسات ملابس « شبيكة »، ففعل وركب فسرن به في الزورق ونظر جمال الزورق ومن فيه، وجمال الأشجار والأزهار حول البركة فانشرح صدره، وكانت الفتيات صفين لكل صف قائدة، فوقع حجر دهنج من قرط إحدى القائدات في الماء فارتاعت لذلك وتوقفت عن العمل هي ومن معها، فضمن لها الملك مثل حجر قرطها، فقالت : لا أبغي سواه، وهذا الحجر أخضر زاهي اللون

كالزمرد، فتكدر الملك فأغاثه أكبر العلماء المذكور وقرأ العزيمة على الماء وان عمقه اثني عشرة ذراعاً، فانطبق أحد نصفي الماء على النصف الثاني وصار عمقه أربعة وعشرون ذراعاً وصار مكان النصف يبساً فوجد حجر الدهنج في الأرض على سقف من الزجاج فالتقطه وناوله لصاحبته، ثم تلا العزيمة مرة أخرى فرجع الماء لحالته وانشرح قلب الملك هو وفتياته.

س ـ وما فعلت المعارف من هذا؟.

ج ـ إن أكبر العلماء أشبه بحكماء أوروبا في كلياتهم، والملك «سنفرو» وفتياته أشبه بملوك أوروبا وجنودهم، والماء أشبه بالعلم فكلاهما للحياة، والحجر الواقع من قرط الفتاة هي النعم والخيرات المخبوءة في أرض مصر مثلاً، وما فيها من النعم. أما العزيمة فهي أن أولئك الفلاسفة والحكماء في أوروبا يعطون التعاليم للمدرسين ولولاة الأمور الأوروبيين، فيعلنون أهل البلاد يقولون: لغتكم لا تصلح للتعليم وأخلاق آبائكم وآدابهم، كل ذلك نقص، وينقضون على العلوم فيحذفونها ولا يبقى إلاّ قشورها، ألم تر أن التلاميذ قبل زمن الاحتلال وفي أوائله كانوا يدرسون علم الأشياء في الابتدائي، والفلك والحيوان والإنسان والنبات في التجهيزي، ألم تحذف هذه العلوم من البلاد؟ أليس الإنسان يرى بعينه النبات، ويرى الحيوان، وأجسام الناس، ويرى الكواكب؟.

س ـ بلى، ولكن لا يدرسها لأنه ليس في منهج الدراسة.

ج ـ هذا هو السحر الحقيقي، وما فعل سحر أكبر علماء «سنفرو» ولم يفده إلاّ حجراً هو قرط ولكن سحر أوروبا الآن أفادها قطراً كبيراً، والقطر خير من القرط، بل فيه ما يساوي الآن ألف حجر من هذا. ومن تلك العزيمة قول الدول المحتلة: أعطينا التلميذ الشهادة، فيغتر المتعلم بذلك وكفى بالغرور جهلاً، وأما الماء الذي ارتفع عن أحد نصفي البركة فهو هذه العلوم انقشعت من البلاد بالتدريج في زماننا والناس في مصر ساهون لاهون مسحورون، وأما الحجر فهو مال مصر كله، وأما الآخذ فهي أوروبا فإنها لا تجرؤ على نهب أموالنا ونحن علماء إنّما تأخذه ونحن جهلاء، فإذا أزاحت العلم انكشفت لها كنوز مصر وأخذتها، وإلا فلماذا تدرس هذه العلوم في مدارسها؟ ولماذا نرى أمتنا المصرية كانت تدرسه قبل قدوم الإنجليز وأصبح ذلك نسياً منسياً؟ بل ما بالنا نرى الكتب الإنجليزية التي كانت تدرس فيها بعض هذه الأشياء غيرت وحل محلها قصص كحكايات العجائز والأطفال.

س ـ إذن الساحرون من أوروبا؟.

ج ـ نعم والناس اليوم مسحورون يسيرون في الحقول وينظرون النبات والحيوان وينظرون نوع الإنسان وينظرون النجوم وهم غافلون لأن المنوم قال لهم هذه هي شهادة العلوم فغفلوا.

س ـ وهل الوزراء المتعاقبون شاركوا الإنجليز؟.

ج ـ لم يكن للوزراء قبل الاستقلال أمر، أما بعده فالوزراء رجالات الأمة فيغيرون ويرجعون الأمور إلى نصابها وما ذلك عليهم بعزيز، وأما إذا رجعت مصر إلى عهدها الاحتلالي ـ لا سمح الله ـ فالسحر يستمر والجهالة تدوم وليس للمصريين إلاّ أن يفكروا جميعاً. انتهى الحديث وبه تم الكلام على الحكايات الثلاث.

## تقديس كتب السحر وأكابر السحرة عند قدماء المصريين

جاء في كتاب « أدب الدين والدنيا » عند قدماء المصريين ما نصه بصفحة ١١٨ : كانت كتب السحر داخلة في العلوم المقدسة، ومندرجة أيضاً من علوم البيان وكتب الطب والحكمة، وكانت هذه الكتب تحفظ في دور الكتب الملكية المجاورة للمعابد والهياكل، ومن المحفوظات الآن في مدينة لندن ورقة بردية في السحر، كشفها كاهن في القاعة الكبرى من معبد « كنتوس » مذكور على جوانبها أن الأرض كانت مظلمة حتى ظهر القمر فجأة وأضاءت أشعته سطحها، فأتى ذلك الكاهن بهذه الورقة إلى « خوفو » أحد ملوك الأسرة الرابعة.

أما السحرة فكانوا ينقسمون إلى طائفتين : الواحدة قانونية، والأخرى غير قانونية، فالقانونيون هم الذين كانت تأذن لهم الحكومة بمباشرة السحر، وتعتمد عليهم وتعول على آرائهم في الطوارئ، ولذلك كان لهم النفوذ الأكبر والمقام الأسمى أمام الفراعنة والرعية، واشتهر في هذا العلم كثير من أبناء الملوك والأمراء كـ « امنحتب بن حابي » وزير الملك « امنحتب » الثالث الذي نبغ في السحر حتى أقاموا له تمثالاً محفوظاً اليوم بالمتحف المصري تحت نمرة ٣. وممن اشتهر بالنبوغ في هذا الفن الملك « سيزوستريس » حتى فاق جميع السحرة في عصره.

وكانت الفراعنة يجلون هؤلاء السحرة ويثقون بهم، ويلقبونهم بكتبة بيت الملك وكتبة الحياة ويدعونهم لتفسير أحلامهم والانتصار بهم على أعدائهم بإظهار أعاجيبهم المدهشة، كما حصل في قصة سيدنا موسى عليه السلام، أو لعمل الألعاب السحرية لتسليتهم ورياضة أفكارهم، وكان الساحر لا ينبغ في هذا العلم إلا بعد التمرن الطويل ومضي مدة طويلة في حسن السيرة ومقاومة شهوات النفس والتمسك بالطهارة والعفاف والامتناع من أكل اللحوم والأسماك، والانفراد والانزواء في الخلوة كل أيام حياته، ولا يجوز أن يحترف أية حرفة أخرى حتى تشغله عن مهمة وظيفته.

وقد أتقن السحرة هذا العلم وتفننوا في أساليبه وأحكموها حتى لم يتركوا غاية جهدهم فيه، ورسخت قواعده في أذهانهم حتى كان يأتي بأكبر الخوارق التي تبهر الأبصار والبصائر بدون تكلف أنها ألعوبة صبيانية، ومما ذكر عنهم أنهم فلقوا البحار وقطعوا رأس رجل وفصلوها عن جثته ثم أعادوها إليه بدون أن يشعر بأذى، وجعلوا التماثيل والأشباح المصنوعة من الشمع تتحرك بحركات مختلفة طوع إرادتهم، وكانوا يختفون عن الأبصار وهم جلوس في المجلس فلا ينظرهم أحد، حتى إن الداخل لا يعتقد أنهم موجودون في هذا المجلس، ويقرؤون الرسائل المطوية داخل ظروفها فيخبرون بما فيها بدون أن يفضوها، ويخبرون الناس بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

ومن أعجب أمر أقاصيصهم أنهم قلبوا نظام الطبيعة حتى صنع أحدهم من الشمع تمثال تمساح صغير، ثم تلا عليه صيغة سحرية فتحرك هذا التمثال وسلطه على رجل زان استحق العقاب فابتلعه وألقاه في البحر. اهـ.

هذا ما جاء في الكتاب بنصه وفصه، ولست أذكره على أنه حقيقة، ولكن أقول هكذا كان القوم يعتقدون، والحمد لله رب العالمين.

## جمال العلم وبهجة الحكمة

اعلم أيها الذكي أن ما كتبته الآن لا يفيد فائدة يحسن السكوت عليها، ولولا أنه قد جاء مكتوباً في الورق البردى ما كتبته، فلأريك الآن جمال العلم، وبهجة الحكمة، ونور الله المشرق في هذه الدنيا، وسره الظاهر وعجائبه المدهشة.

اللهم إنك أنت الظاهر والباطن وأجمل الأنوار وأبدع الأسرار، هذه النفوس الإنسانية التي سكنت أجسامنا وزينتها بحواسنا وكرمتها بعقولنا وأقدرتها أن تعرف الكائنات علويها وسفليها.

اللهم إنك أنت الذي أبدعت أرواحاً علوية أدارت الكواكب، ودبرت الأشباح الأرضية، وخلقت أخرى أصغر منها كالنفوس الإنسانية وشوقتها إلى أن تطلع على كل عجيب وغريب، ذلك لأنها قبسة من نورك وسر من أسرارك، فهي أبداً تحن إلى الجمال والكمال وتصبو إلى إدراك الأسرار، ومن عجب أننا نحن من أجلّ الأسرار وأبدع العجائب لكننا نجهل أنفسنا ولا نفطن لما فيها من الجمال البديع والنقش الغريب.

يا الله كأنك حكمت علينا بالحبس في الجهل حتى تدفع ثمن علمنا بأنفسنا غالياً كما يدفع الرجل مهر عروسه، ما ذلك المهر إلاّ دراسة هذا الوجود وعجائبه، وتحلي النفس بالأخلاق الفاضلة، وهنالك تتجلى لها معانيها فتعرف أنها قبسة من نورك، فتطير فرحاً إلى لقائك وتموت فرحة بمشاهدتك.

أمامي الآن كتابان كنت دائماً أحافظ عليهما لألخصهما في هذه السورة المناسبة قصة سحرة فرعون، فهاهي ذه الآن تطبع ولم يوقظني لذلك إلاّ بعض الإخوان قبل أن تضيع الفرصة، فعلمت أن هذا الإيقاظ أمر إلهي نبه في النفس ما كان خاملاً، والكتابان أحدهما يسمى «السحر الحلال في الألعاب السماوية وبعض فوائد صناعية مجربة» والثاني يسمى «المختار في كشف الأسرار»، أما أولهما فهو مؤلف مستخرج من العلوم الحديثة وفيه فوائد فائقة وعجيبة، ويظهر لي أنها كلها صحيحة أو قريبة من الصحة، والكتاب الثاني مؤلفه يسمى الشيخ «زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي» كان في القرون الوسطى، فلأسمعك ما اصطفيته من كتاب «السحر الحلال»، ثم أقفي ببعض ما اصطفيته من كتاب «المختار في كشف الأسرار» لترى جمال الله المخبوء في العناصر، وتنتفع بفوائد ومنافع في الحياة، ولطائف تفرح الخلان وتؤنس الجلاس، وأخرى للاعتبار والاحتراس من الناس.

أما كتاب «السحر الحلال» فقد اصطفيت منه ٣٢ فائدة وهاك بيانها:

**الفائدة الأولى**: كيفية جعل رأس عجل مطبوخ يعج على المائدة كأنه حي.

الطريقة في ذلك: هي أن تأخذ ضفدعة وتضعها في أسفل الرأس من جهة الحنجرة تحت طرف اللسان الداخلي، ويكون وضعها عند إخراج الرأس من الطنجرة حالاً وهو شديد الحرارة، بحيث إن حرارته تلذع الضفدعة فتصرخ هناك فيخرج صوتها من فم ذلك الرأس نظير صوت العجل تماماً، واحترز أن لا تضعها إلاّ عند إرادة استعمال ذلك قبل أن يبرد الرأس أو تموت الضفدعة.

**الفائدة الثانية**: كيفية إطفاء شمعة مشعلة، وإشعال شمعة أخرى مطفأة في وقت واحد.

أولاً: ينبغي أن تكون الشمعتان كاملتين وفتائلهما جديدة لم تمسها نار. ثانياً: أن تشق طرف الفتيلة التي تريد أن تشعلها بواسطة دبوس ونحوه، وتضع في ذلك الشق قطعة من الفوسفور بقدر حبة

حنظة، واجعل المسافة بينها وبين الشمعة المشعلة مقدار خمس أقدام، وخذ بيدك غدارة وأطلقها على المشعلة فيطفئها البارود بعزمه ويشعل الثانية التي في رأسها الفوسفور.

**الفائدة الثالثة: كيفية عمل برق في حجرة.**

ينبغي أن تكون الغرفة التي تريد أن تصنع فيها البرق صغيرة ومظلمة، ولا يكون فيها منفذ إلى الخارج يدخل منه الهواء، ثم تأخذ إناء من نحاس أو نحوه فتشعل فيه شيئاً من العرق مع الكافور، وتتركه في غليانه حتى يحترق العرق والكافور برمتهما ولا يبقى شيء في الإناء، وحينئذ إذا دخل أحد إلى تلك الحجرة وبيده شمعة موقدة يرى في الحال لمعان برق شديد في المكان، وذلك البرق لا يخشى منه ضرر لا للإنسان الذي يغشاه البرق ولا البيت الذي يسطع فيه.

**الفائدة الرابعة: كيفية إظهار شبه قوس قزح.**

طريقة ذلك أن تملأ فمك ماء، وتقف في باب أو في شباك حجرة نافذ منها نور الشمس إلى الداخل، وتجعل ظهرك موجهاً إلى أشعة الشمس، ثم تنفخ ذلك الماء بخاً بحيث يكون نور الشمس واقعاً عليه، فيظهر للناظرين قوس منحن نظير قوس السحاب.

**الفائدة الخامسة: جعل الورق غير قابل للاحتراق.**

عليك أن تأخذ قطعة من ورق الكتابة الاعتيادي وتغمسها بماء الشب، ثم تجففها، وتعيد ذلك عليها مرتين أو ثلاث مرات وتجففها في كل مرة جيداً، فإذا وضعتها بعد ذلك على لهب الشمعة لا تحترق أصلاً.

**الفائدة السادسة: تكييف شراب حتى يضيء في الظلام.**

عليك أن تأخذ قطعة من الفوسفور بقدر الحمصة الصغيرة وتقسمها إلى قطع، ثم تضعها في وعاء من فخار يكون فيه مقدار ثلاثة فناجين اعتيادية من الماء، وتغلوه على نار خفيفة، وخذ زجاجة طويلة بيضاء لها سدادة من جنسها تكون مضبوطة، وافتحها وضعها في ماء حار، ثم ارفعها وأفرغ فيها مقداراً من ذلك الماء الذي كانت فيه، وأضف إلى الماء المغلو بالفوسفور حالاً، واغمس السدادة في الغراء وسد بها القنينة بالسرعة لكي لا يدخل الهواء كلياً، فيبقى هذا الماء لامعاً مضيئاً ليلاً مدة جملة أشهر، فإذا وضعتها في مكان مظلم احترز من أن تحركها، وإذا كان وقت حر وجفاف فهز القنينة فترى حينئذ لمعاناً أشبه بلمعان البرق في وسط السماء.

**الفائدة السابعة: طريقة لإبقاء الزهور محفوظة زماناً، وإبرازها في غير أوانها.**

خذ زهراً من أي نوع شئت بشرط أن يكون كأس الزهرة سالماً ممتلئاً، وتويجها قريب التفتح، واقطعها بمقراض تاركاً لها عنقاً طويلاً ما أمكن، ولبس طرفها المقطوع بقطعة من الشمع الأحمر وعندما تجف لفها بقطعة ورق ناشفة وضعها في محل ناشف، فإذا أردت بعد حين أن تبرزها أخرجها واقطع منها محل الشمع الأحمر وضعها في ماء به قليل من ملح البارود أو الملح الاعتيادي واتركها حتى تنفتح وتأخذ نضارتها.

**الفائدة الثامنة: طريقة لغليان حامض النتريك من دون نار.**

ضع في زجاجة كمية قليلة من حامض النتريك وزدها قليلاً من برادة النحاس الأصفر، فترى الحامض في غليان شديد ضمن الزجاجة، حتى إنه من قوة حرارته يلذع لذعاً مؤلماً.

**الفائدة التاسعة**: إظهار ماء في لون وتحويله إلى لون آخر بدون صباغ.

الطريقة لذلك: أن تأخذ قنينة بيضاء جلية، وتفرغ فيها مقداراً من روح القلي، وتحل فيها كمية من برادة النحاس الأصفر، فيزرقّ حينئذ السائل، فإذا سددت القنينة اختفى لونه، فإذا أردت إظهار اللون ثانية افتح القنينة بالثاني فيزرقّ، وهكذا.

**الفائدة العاشرة**: طريقة لتغيير هيئة جماعة في مكان.

تأخذ كمية من الملح، وأخرى من الزعفران، وتغليهما في قليل من العرق، وبعد أن يتم مزيجك هذا خذ قطعة من القطن واغمسها فيه حتى تتشرب منه جيداً، ثم أشعل طرفاً منها وأشعل بها المصابيح الموجودة في المحل، فكل شخص أبيض يقع عليه هذا الضياء يصير لونه أخضر، وتستحيل حمرة الخدود إلى لون زيتوني مشرب.

**الفائدة الحادية عشرة**: طريقة لتغيير لون طائر أو تويج زهرة.

لإجراء ذلك ينبغي أن تستحضر زجاجة واسعة يمكن أن تسع الطائر الذي تريد أن تحول لونه، واستحضر لها سدادة من الفلين مجوفة على قدر غلظ عنق الطائر الذي ينبغي أن يكون رأسه خارجاً، والأجود أن تكون الفلينة منقسمة إلى شطرين يقع بينهما التجويف بحيث يمكن ضمها على عنق الطائر من دون أن يتأذى أو يجرح، وبعد أن تكون هيأت ذلك تأخذ الزجاجة وتلقي بأسفلها أوقية من الكلس الجديد وثلاث دراهم من ملح النشادر، وعندما ترى الغليان قد ابتدأ في الزجاجة تسرع بوضع السدادة مركباً فيها عنق الطائر حسب التفصيل المتقدم حتى تكون جثته ضمن الزجاجة ورأسه في الهواء، وينبغي أن تكون الزجاجة طويلة لئلا يلحق الطائر إلى أسفلها فيتأذى، وتبقي الطائر على هذه الحالة نحو دقيقتين إلى ثلاث دقائق، فيتغير لونه الطبيعي إلى لون آخر، واحترس أن يبقى أكثر من ذلك فإنه يتألم وربما يموت، وكذلك تصنع إذا أردت أن تغير لون زهرة ما، ولكن يكفي أن يكون في القنينة ثقب بحيث يدخل فيه عند الزهرة.

**الفائدة الثانية عشرة**: كيفية جعل صينية القهوة تدور من نفسها على الجلاس.

تأخذ سلحفاة وتلصق بظهرها قطعة من الشمع العسلي إلصاقاً محكماً بالتسخين، ثم تأخذ الصينية فتلصقها بتلك الشمعة على ظهر السلحفاة بعد تسخين مكان الإلصاق من الصينية بحيث تتمكن جيداً، وبعد ذلك تغطي الصينية بقطعة من القماش ترسلها حول أطرافها لئلا تظهر السلحفاة من تحتها، وتضع عليها الفناجين وتوجهها إلى الجلاس، ومن طبع السلحفاة أن تدور فتسعى هكذا من واحد إلى آخر بحيث يظهر للناظرين أن الصينية تدور من نفسها.

**الفائدة الثالثة عشرة**: كيفية وضع شيء في العين وإخراجه من الفم.

تأخذ قطعة من الرصاص أو نحوه بطول قمحتين وغلظ قمحة أو أقل، مستديرة من قوامها وطرفيها بحيث لا يبقى لها حرف يخدش داخل العين، وتأخذ قطعة أخرى على هيئتها تماماً، فتضع الواحدة في فمك خفية ثم تأخذ الثانية فتدخلها أمام الناظرين في عينك في «الماق الأنسي» أي: في طرف العين الذي من جهة الأنف، وهكذا تغيبها تحت جفنك الأسفل بالتدريج مع الرفق، منحرفاً بها إلى الجهة الوحشية، فإذا غابت بأجمعها أجر إصبعك من عند العين إلى جهة الخد مدير إياه بالتدريج

أيضاً كأنك تضغطها تحت الجلد حتى توصلها إلى الفم، ومتى وصل إصبعك إلى قرب فمك ألق منه القطعة الثانية التي وضعتها أولاً، فيتخيل للناظر أن القطعة التي خرجت من فمك هي التي وضعتها في عينك. وهكذا يمكنك العكس أيضاً فتعيد تلك القطعة إلى فمك وتدير إصبعك منه إلى العين عكس ما فعلت أولاً، ومتى انتهى إصبعك إلى العين تضغط به تحت الجفن ضغطاً منحرفاً إلى جهة الأنف مرتين أو ثلاثاً، فتخرج القطعة وتسقط، وأبق القطعة الثانية في فمك ولا تخرجها إلاَّ خفية لئلا يكشف سر الصناعة، ولكي لا يسمع لها صوت عند اصطكاكها بأسنانك أو يتغير منطقك بسببها، ينبغي أن تضعها وراء اللثة مما يلي الأنياب ما دامت في فمك.

**الفائدة الرابعة عشرة:** كيفية تحويل نصل سكين من الفولاذ إلى نحاس أصفر.

خذ أوقية من صفائح النحاس الأصفر الرقيقة وطهرها على النار حتى تنقى، وبعد أن تقسمها إلى قطع صغيرة ضعها في كأس زجاج وأرق عليها ثلاث أواق من حامض النتريك واتركها خمس أو ست ساعات، فيذوب النحاس وينحل، وبعد أن يسكن من غليانه اغمس فيه نصل السكين فيكتسي غشاء من النحاس المحلول.

**الفائدة الخامسة عشرة:** طريقة يظهر بها الفولاذ كأنه سائل.

تأخذ قطعة من الفولاذ أو الحديد وتحميها إلى درجة الاحمرار الكامل، ثم تمسكها بملقط باليد الواحدة، وتأخذ باليد الثانية عصا تضع في رأسها قطعة من الكبريت وتلقيها على قطعة من الفولاذ المحمرة، فيذوب الكبريت ويسيل عن قطعة الفولاذ التي يظهر للناظر كأنها هي السائلة.

**الفائدة السادسة عشرة:** إخراج عشرين طلقة من قنينة نظير صوت الغدارة.

خذ قنينة من الزجاج الأسود متينة الجدران، وضع فيها مقدار نصف لتر من الماء مع خمسة وتسعين جراماً من برادة الحديد وستين جراماً من زيت الزاج، وسد القنينة واتركها حتى تسخن، ومتى سخنت افتحها وأدن إليها من جهة فمها قطعة ورق ملتهبة فيخرج منها طلقة، ثم أعد السدادة، وهكذا تكرر هذه العملية فيخرج منها عشرون طلقة.

**الفائدة السابعة عشرة:** كيفية اصطناع الجليد من الماء في فصل الصيف.

خذ قنينة أو شبهها من الفخار واملأها ماء مغلياً، ثم أضف إليها ثمانين جراماً من ملح البارود وعشرين جراماً من عرق الطيب، ثم سدها سداً محكماً وأنزلها في بئر عميقة وأبقها هناك نحو ثلاث أو أربع ساعات، ثم أخرجها بعد ذلك واكسر القنينة فتجد الماء قد تجمد.

**الفائدة الثامنة عشرة:** سر خاص في عدد ٣٧.

أيّ عدد من الأعداد الآتية ضربت فيه عدد (٣٧) يحصل ثلاثة أرقام متشابهة أخذت بالنسق من (١) إلى (٩) حسب نسق الأعداد المضروب فيها، وهي هذه (٣-٦-٩-١٢-١٥-١٨-٢١-٢٤-٢٧)

وهذه صورة العمل:

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ | ٣٧ |
| ٣ | ٦ | ٩ | ١٢ | ١٥ | ١٨ | ٢١ | ٢٤ | ٢٧ |
| ١١١ | ٢٢٢ | ٣٣٣ | ٤٤٤ | ٥٥٥ | ٦٦٦ | ٧٧٧ | ٨٨٨ | ٩٩٩ |

**الفائدة التاسعة عشرة**: طريقة للكتابة بحبر يظهر ويخفى.

تأخذ مقداراً من تراب الزرنيخ وتحله بالماء المحلل، وتضيف عليه شيئاً من الماء الاعتيادي، ثم تكتب على الورق فلا يظهر له لون، فإذا سخنت الورقة على النار ظهرت الكتابة بلون أخضر، ومتى رفعت عن النار يذهب اللون وهكذا. وهناك طريقة أخرى لإظهار الحبر السري على الورق بعد الكتابة به، وهي أن تأخذ كمية قليلة من البصل الاعتيادي مع جزء من عصير الليمون الحامض وتمزجهما معاً في وعاء من زجاج وتكتب ما شئت على الورق، وبعد أن تجف الكتابة اعرضها على الحاضرين فلا يرونها إلاّ ورقة بيضاء، وعند ذلك يمكنك في أي وقت شئت إظهار الحبر وذلك بعرض الورقة لحرارة النار فتظهر لك الكتابة بلون ذهبي لا يمحى.

**الفائدة العشرون**: طريقة لأجل الكتابة بلا حبر.

غطس ورق الكتابة في محلول الزاج الأخضر، أي: كبريتات الحديد، وانشره على خيطان منصوبة حتى ينشف تماماً، ثم خذ من مسحوق العفص الناعم جداً وافرك به الورق بكرة تصنعها من خرق نظيفة، ثم أزل ما بقي على الورق بلا التصاق بفرشة ناعمة، ثم اصنع منه دفتراً، فإن بللت قلماً أو قشة بماء أو ببصاق ورسمت به على هذه الورقة تظهر لك الرسم أسود كما لو استعملت حبراً، وبهذه يستغنى عن الدواة وقلم الرصاص.

**الفائدة الحادية والعشرون**: كيفية منديل يدل على المطر.

خذ منديلاً وصوّر عليه صورة رجل حامل شمسية مصبوغة بكلوريد الكوبلت، فإن كان الطقس حسناً ناشفاً ظهرت الشمسية زرقاء، وإن اختلف صارت رمادية، وإن أمطر صارت بيضاء، وإن غسلت زال لونها تماماً.

**الفائدة الثانية والعشرون**: منديل غير قابل الاحتراق.

خذ شباً ونوشادراً واعجنهما بزلال بيض واطل بهما منديلاً، فإذا ألقيته بالنار لا يحترق.

**الفائدة الثالثة والعشرون**: طريقة لأجل إمساك النار.

خذ زرنيخاً أصفر مورقاً وشباً يمانياً، وامزجهما بزلال البيض، وادهن بهذا يدك، فإذا مسكت النار لا تحرقك.

**الفائدة الرابعة والعشرون**: طريقة لجعل بيضة تطير لذاتها.

خذ بيضة حمام واثقبها وأفرغ ما فيها واملأها من الندى ثم سدها بقليل من الزفت واطلها بدهان أبيض نظير لونها، وحينما تريد تطيرها ضعها في الشمس فتراها تطير لذاتها.

**الفائدة الخامسة والعشرون**: طريقة لعمل حبر سري.

خذ من حليب التين واكتب به على الورق، وبعد أن تنشف الكتابة اعرضها على حرارة النار فتظهر الكتابة بلون ذهبي غامق.

**الفائدة السادسة والعشرون**: طريقة لعمل حبر لا ينظر إلاّ في الليل.

خذ نوشادراً وحله في حليب واكتب به فيظهر في الليل ولا يظهر في النهار.

**الفائدة السابعة والعشرون:** طريقة لنزع الحبر عن الثياب.

خذ نوى المشمش اللوزي ودقه ناعماً وافرك به القطعة الملطخة فيزول الحبر عنها.

**الفائدة الثامنة والعشرون:** طريقة لإهلاك البراغيث.

انقع مسحوق الكبريت الأصفر في خل كاف يغمره مدة ثلاثة أيام، ثم رش به الموضع المطلوب، فتفر البراغيث منه ولا ترجع إليه أبداً ما دامت تتنشق رائحة الكبريت «مجربة».

**الفائدة التاسعة والعشرون:** طريقة لإهلاك البق.

خذ ١٦ جزءاً من الصابون وجزأين من الزرنيخ الأحمر وجزءاً من الكافور، وضع الجميع في مقدار كاف من العرق حتى يصير المزيج كالمرهم، وادهن به الموضع القاطن فيه البق فيجمد لا محالة «مجربة».

**الفائدة الثلاثون:** طريقة لإهلاك الصراصير.

امزج قليلاً من مسحوق الزرنيخ بتفاحة مشوية وضعها في المحلات التي تكون فيها الصراصير فتهلك لا محالة، ولكن يجب الاحتراس من أن يصل إليها الأولاد فيأكلوها فيسموا.

**الفائدة الحادية والثلاثون:** طريقة لطرد النمل الصغير «الذر».

امزج ملء ملعقة صغيرة من الطرطير المقيئ بملعقتين من الدبس، وضع المزيج في ماء وحركه واجعله حيث رأيت النمل، وفي الصباح تجد نملاً كثيراً ميتاً على وجهه والبقية قد ارتعبت وهربت، ثم اهرق النمل الميت عن وجه المزيج وأعد هذا العمل في كل مكان يظهر فيه النمل فتهلكه بأقرب وقت.

**الفائدة الثانية والثلاثون:** ضوء الفوسفور.

امزج (١٢) قمحة من الفوسفور و(٤) دراهم من زيت الزيتون في قنينة صغيرة، ثم تسد هذه القنينة سداً غير محكم وتضعها في وعاء فيه ماء مسخن حتى يذوب الفوسفور فتسد القنينة حينئذ سداً محكماً وتهز حتى تكاد تبرق، فكلما فتحت بعد ذلك أضاءت إضاءة تكفي لإظهار الكتابة وتدوم إضاءتها هذه بضع سنين. اهـ ما أردته من الكتاب الأول.

وأما الكتاب الثاني: فإن مؤلفه يقول إنه عمله للملك المسعود، ذكر فيه حيل المتنبئين والشيوخ الكاذبين والأحبار والرهبان وأصحاب الكيمياء وطلاب الكنوز وهكذا. فلأذكر لك ما فيه من فوائد للاعتبار والاتعاظ.

## القصة الأولى: في كشف أسرار من ادعى النبوة

قد كان ظهر في آخر خلافة السفاح بأصفهان رجل يعرف بإسحاق الأخرس، فادعى النبوة وتبعه خلق كثير، وملك البصرة وعمان وفرض على الناس فرائض وفسر لهم القرآن على ما أراد، ثم قتل، وكان حديثه أنه نشأ بالمغرب فتعلم القرآن ثم تلا الإنجيل والتوراة والزبور وجميع الكتب المنزلة، ثم قرأ الشرائع، ثم حل الرموز والأقلام ولم يترك علماً حتى أتقنه، ثم ادعى أنه أخرس وسافر فنزل بأصفهان وخدم قيماً في مدرسة وأقام بها عشر سنين وعرف جميع أهلها وكبراءها. ثم بعد ذلك أراد الدعوة فعمل له أدهاناً ودهن بها وجهه حتى لا يمكن أحد النظر إليه من شدة الأنوار، ثم نام في المدرسة وأغلق عليه الأبواب، فلما نام الناس وهدأت الحواس قام فدهن وجهه من ذلك الدهن، ثم أوقد شمعتين مصبوغتين لهما أنوار تفوق السرج، ثم صرخ صرخة أزعج الناس ثم أتبعها ثانية وثالثة

ثم انتصب في المحراب يصلي ويقرأ القرآن بصوت أطيب ما يكون وبنغمة أرق من النسيم، فلما سمع الفقهاء تواثبوا وأشرفوا عليه وهو على تلك الحالة، فحارت أفكارهم من ذلك ثم أعلموا المدرس بذلك، فأشرف عليه وهو على تلك الحال، فلما رآه خر مغشياً عليه، فلما أفاق عمد إلى باب المدرسة ليفتحه فلم يقدر على ذلك، فخرج من المدرسة وتبعه الفقهاء حتى انتهى إلى دار القاضي ؛ والأخبار قد شاعت في المدينة ؛ فأخبر القاضي بذلك فخرج القاضي واتصل الخبر بالوزير واجتمع الناس على باب المدرسة وهو قد فتح الأقفال وترك الأبواب غير مفتحة، فلما صار القاضي والوزير وكبراء البلد إلى الباب اطلع عليه الفقهاء وقالوا له: بالذي أعطاك هذه الدرجة افتح لنا الباب، فأشار بيده إلى الأبواب، وقال: تفتحي أيتها الأقفال، فسمعوا وقع الأقفال إلى الأرض، فدخل الناس إليه وسأله القاضي عن ذلك، فقال: إنه منذ أربعين يوماً رأى في المكان أثر دليل واطلع على أسرار الخلق ورآها عياناً، فلما كان في هذه الليلة أتاني ملكان فأيقظاني وغسلاني ثم سلما عليّ بالنبوة فقالا: السلام عليك يا نبي الله، فخفت من ذلك وطلبت أن أرد عليهم السلام فلم أطق وجعلت أتململ لرد الجواب، فلم أقدر على ذلك، فقال أحدهما: افتح فاك بسم الله الأزلي، ففتحت فمي وأنا أقول في قلبي: بسم الله الأزلي، فجعل في فمي شيئاً أبيض لا أعلم ما هو، أبرد من الثلج وأحلى من الشهد وأذكى من المسك، فلما حصل في أمعائي نطق لساني، فكان أول ما قلت: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالا: وأنت رسول الله حقاً. فقلت: ما هذا الكلام أيها السادة؟ فقالا: إن الله قد بعثك نبياً. فقلت: وكيف ذلك والله تعالى قد أخبر عن سيدنا محمد أنه خاتم النبيين؟ فقالا: صدقت ولكن الله أراد بذلك أنه خاتم النبيين الذي هم على غير ملته وشريعته. فقلت: إني لا أدعي بذلك ولا أصدق ولا لي معجزات. فقالا: يوقع في قلوب الناس تصديقك الذي أنطقك بعد أن كنت أخرس منذ خلقت، وأما المعجزات التي أعطاك الله عزّ وجلّ فهي معرفة كتبه المنزلة على أنبيائه ومعرفة شرائعه ومعرفة الألسن والأقلام، ثم قالا: اقرأ القرآن، فقرأته كما أنزل، ثم قالا: اقرأ الإنجيل، فقرأته، ثم قالا: اقرأ التوراة والزبور والصحف، فقرأت الجميع كما أنزل، ثم قالا: قم فأنذر الناس، ثم انصرفا عني وقمت أنا أصلي، وهذا آخر خبري، فمن آمن بالله وبمحمد ثم بي فقد فاز، ومن كذب فقد عطل شريعة محمد وهو كافر، والسلام، فعند ذلك سمع له خلق كثير واستقام أمره وملك البصرة وعمان وغيرهما، واستفحل أمره ولم يزل كذلك حتى قتل، وله شيعة بعمان إلى يومنا هذا قبحهم الله.

## القصة الثانية

ظهر في سنة تسعين وخمسمائة صاحب من الإسماعيلية يقال له «سنان» ونزل بمساط وحكم فيها وفيما لها من القلاع، وكان خبيراً بالحيل والنواميس الأفلاطونية، وسمع به أهل تلك الجبال وأطاعوه طاعة لا حد لها، حتى إنه كان يقول: أريد الساعة عشرة من الرجال تصعد على السور ويرمون أرواحهم، فيسارعون إلى تلف أرواحهم، وهذا رباط لا يقدر عليه أحد، وكان يعمل لهم مثل هذه الحيل كثيراً وهذا مشهور عن سنان وهي صفة عمل أهل النار، ومن جملة حيله أنه كان حفر في مجلسه المصطبة التي كان يجلس عليها حفيرة بمقدار ما إذا جلس الإنسان فيها جاءت إلى رقبته، ثم حسنها ويلطها وعمل لها غطاء من الخشب الرقيق مقوّراً على مقدار ما يسع رقبة الرجل، ثم أخذ

طبق نحاس وقوّره في وسطه ثم جعله مصراعين ولم يطلع عليه أحد، فكان إذا أراد أن يفعل ذلك أخذ من يجتازه من أصحابه بعد أن يهبه الأموال العظيمة ثم يوصيه بما يقول وينزله في الحفرة ويغطي عليه ويخرج رأسه من القوارة ثم يأخذ الطبق المقوّر فيجعله في رقبته ثم يسقط عليه السواقط فلا يظهر منه شيء إلاّ رأسه، ثم يجعل في طبق شيئاً من الدم ثم يشيع أنه قد ضرب رقبته، ثم يدعو أصحابه إليه فإذا حضروا أمرهم بالجلوس، فإذا جلسوا واستقر بهم الجلوس قال لمملوكه: اكشف هذا الطبق، فيكشفه فيجدون فيه رأس صاحبهم، فيقول له: حدث أصحابك بما عاينت وما قيل لك، فيحدثهم بما أوصاه فتذهل عقولهم من ذلك، ثم يقول في آخر الكلام: أيّما أحب إليك الرجوع إلى أهلك وإلى ما كنت فيه من الدنيا أو السكنى في الجنة؟ فيقول: وما حاجتي بالرجوع إلى الدنيا، والله إن خردلة مما أعد لي في الجنة ما أبيعها بمثل هذه الدنيا سبع مرات، فانتبهوا يا أصحابي وأنتم عليكم سلامي وأرجو أن تكونوا في جواري في الجنة، فالله الله والحذر من مخالفة هذا الصاحب الذي هو خليفة الإمام، وهو الحاكم في الموقف كما قال لي الخالق جلت قدرته والسلام، فإذا سمعوا ذلك صدقوا ثم ينصرفون، فإذا انصرفوا عنه أطلعه من الحجرة وحجبه إلى الليل، فيضرب رقبته ويدفنه، فهذا الخبيث قد استعبد أهل تلك الجبال مدة حياته، وإلى يومنا هذا الرباط باق.

## القصة الثالثة: في كشف أسرار من ادّعى النبوّة أيضاً

ظهر في خلافة المعتز بالديار المصرية رجل ادّعى النبوّة، ونزل «تنيس»، وكان يعرف بفارس ابن يحيى السباطي، وسلك مسلك عيسى ابن مريم عليه السلام، وادّعى إحياء الميت وإبراء الأبرص والأجذم والأعمى، وبنى له صومعة بـ«تنيس» على البحر شمالي البلد، وهي باقية إلى يومنا هذا، ثم أحيا لهم الميت أيضاً، ثم ذكر طريق الغش والإيهام فلا نطيل به، وإنّما نذكر بعض معجزاته التي يقول إنه كشف أسرارها، قال: إنه كان يمشي على الماء على ساحل البحر فيطلع السمك إليه من البحر ويقبل أقدامه، وذلك أنه كان يأخذ من خرء الآدمي جزءاً ومن الباذروج جزءاً ومن حب القثاء جزءاً ثم يدقها ناعماً ويعجنها بدهن الياسمين ويلطخ به أقدامه، ثم يمشي على ساحل البحر فيطلع السمك على رائحة الدواء ويلحس أقدامه، فيتوهم فيه الأوهام بالنبوة وغيرها. ولأكتف بهذا القدر في ادعاء النبوة.

## القصة الرابعة: الشيوخ الكاذبون

ثم ذكر الشيوخ فأثنى على الجنيد، وإبراهيم بن أدهم، والحسن البصري، وسريّ السقطي، ومعروف الكرخي، وأبي سليمان الداراني وغيرهم، فهذه هي الدرجة الأولى.

أما الدرجة الثانية: فهم أصحاب الرياضات والعلم بالأسماء، مثل: عبادان، وبهلول، والشيخ أبي العباس. قال: وقد ظهر سنة ثمان وثلاثمائة رجل يعرف بالحسين بن منصور الحلاج، وكان يدعو الناس إلى عبادة الله فوشوا به إلى علي بن عيسى الوزير، فأحضره وضربه ألف عصا، وقال: إنه كان ينشد هذا الشعر:

وحرمة الودّ الذي لم يكن     يطمع في إفساده الدهر

ما نالني عند نزول البلى     جهد ولا مسني الضر

ما قدّ لي عضو ولا مفصل     إلاّ وفيه لكم ذكر

قال: وأما الدرجة الثالثة من المشايخ فهم أصحاب الدخن المختلفة والتباخير، فهذه الطبقة هي المذمومة، وإنّما نذكرها هنا لنوقظ المسلمين إلى الشيوخ الكاذبين الذين يجعلون الدين وسيلة للدنيا، وهذا الكتاب قد جعله الله من السيوف المرهفة لقطع دابر هذه الطبقة من بلاد الإسلام، وهذا مناسب للسحر في القرآن لأن ما ستسمعه هنا ملحق بالسحر فليحترس المسلمون منه.

## القصة الخامسة

قال: فمن المشايخ أصحاب الزوايا من أهل هذه الدرجة، فمنهم من يتعاطى النزول في التنور وقد أوقد فيه قنطار من الحطب فينزل فيه، ثم يغيب ساعة ويطلع وعلى يده طاجن فيه سمك مقلي أو دجاج محشو أو خروف مشوي أو ما اتفق من ذلك، فيذهل الناس ويخرق عقولهم، وذلك أن هذا التنور يكون مربص «كذا» الأعلى، فتكون حرارة من أعلاه وأسفله بارد، إلاَّ أن التنور يكون محكم البنيان وله صاج من الحديد في أسفله، ولذلك الصاج خلو في الحائط مهندس محكم بحيث إن النار جميعها تكون في الصاج، وبمقدار ما يضع يده على حافة التنور يصبح ذلك الصاج بما عليه من النار في ذلك الخلو فيبقى أسفل التنور خالياً من النار بارداً، فيقعد فيه ويكون قعوده بقدر ما يعلم أن الخروف مثلاً قد استوى، فإذا طلع أخذه معه وأطعمه لمن قد حضر، وإذا كان هو أسفل التنور فإن أعلى التنور لا يقدر أحد أن يقابله من وهج النار.

## القصة السادسة

ومنهم من يفعل غير ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ فينزل في النار وقد روبص جميع جسده بالترابيص التي تمنع من النار وفعلها، ولنذكر الترابيص التي يعملونها لمنع النار، فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت ولا يبقى له أثر، ثم يرفع عن النار حتى يبرد، فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء، فيأخذ ذلك الدهن ثم يضيف إليه شيئاً من البارود الثلجي، ثم يلطخ به جسده وجميع أعضائه، ويدخل النار فإنها لا تضره شيئاً.

ومنهم ـ أخزاهم الله ـ من إذا عمل السماع أخلى الزاوية من الماء فإذا رقصوا عطشوا فيشكون للشيخ ذلك فيقول: هاتوا شيئاً وخذوا ماء للشرب، فيعطونه إبريقاً أو غيره، فيأخذه بيده ثم يفتح باعه ويدور في الطابق ثم يدفع لهم الوعاء ملآن ماء مبخراً بمسك، فيقول: هذا من نهر الكوثر ـ أخزاه الله ـ فيشرب الجماعة من ذلك الماء وقد حارت عقولهم من ذلك.

وكشف ذلك أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله، ثم ينقعه بماء الورد سبعة أيام، وبعد ذلك يأخذه فيربط طرفه الواحد ربطاً جيداً، ثم يجعل في طرفه الآخر عقدة قصب، ثم ينفخه في الهواء حتى يجف، فإذا جف رفعه عنده، فإذا أراد العمل به أخذه ثم ملأه ماء، وقد جعل فيه قليل مسك وماء ورد، ثم جعله في قميصه وقد عمل له حمالات من تحت قبة القميص من كمه الشمال إلى كمه اليمين، فإذا أراد أن يسقي الجماعة جعل رأس المصران في فم الوعاء وهو دائر من حيث لا يعلم به أحد، ثم يفك رأس المصران بظفره فينزل الماء في الوعاء ثم يدفع لهم الوعاء ويدعي ما أراد. ويقع منهم غير ذلك.

## القصة السابعة

ومنهم من يكون في السماع، ويتقدم إلى الشمعة أو إلى المصباح، فيمد يده ويشعل أصابعه العشرة فتشتعل كما يشعل الشمع، فإذا أشعلها أطفأ ما يكون من الشمع، ولا يزال يرقص وأصابعه تشعل حتى يضج الخلق، ثم يدني الشمعة فيشعلها ويطفئ أصابعه، وهذا ناموس عظيم. والسر في كشف ذلك أنه يأخذ من الدواء الذي ذكرناه في نزول التنور فيلطخ أصابعه جميعها إلى العقد ويدعها حتى تجف، ثم يأخذ النفط ويلبسه على ذلك الدهن ثم يشعله في النار، فلا يزال يشعل حتى ينفذ النفط ولا يدرك يده شيء من الحرارة فافهم. ومنهم من يدهن يده بالدهن ثم يعمل له عشرة قموع من اللبد الأحمر الطالقاني، ثم يلبسها أصابعه العشرة ثم يسقيها بالنفط ويشعلها فتشعل ولا تضره شيئاً.

ومنهم من يكون جالساً في الزاوية وعنده جماعة فيشتهي كل واحد منهم على الشيخ شهوة، فيحضر شهواتهم على الوصف الذي طلبوه، وقد كنت اجتمعت في بلاد الحجاز بشيخ يعرف بسليمان وكان من أهل المغرب، فكنا عنده ثمانية أنفار، واشتهى كل واحد منها شهوة، فقام إلى بيت الخلوة يصلي ويدعو ثم خرج فلم نشعر إلاَّ والذي طلبناه قد حضر فخرق عقول الناس، وشاع ذلك عنه، وجاءته الفتوحات من كل إقليم، وكشفت عن هذا السر فوجدت للشيخ قعيدة في المدينة، وعنده في بيت الخلوة طائر يأتي بيت القعيدة، فإذا اشتهى كل واحد ما في قلبه قام الشيخ إلى بيت الخلوة ثم كتب جميع ما طلبته الجماعة في بطاقة ثم علقها على الطير ثم أرسله، فجميع ما يكون قد طلب منه ترسله القعيدة فلا يشعرون إلاَّ وقد حضر فيذهل من كان حاضراً، فافهم أسرار هؤلاء القوم ودهاءهم.

ومنهم الذين كراماتهم أكل الحيات والنار، فوالله لو فعل هذا أمام أطفال لضحكوا على من يفعله، فيا عميان القلوب أهذه كرامات الصالحين؟ فانتبهوا يا نيام وتيقظوا.

## القصة الثامنة: في كشف أسرار كذبة الوعاظ

ثم تكلم عن الوعاظ فقال: ومن دهائهم أن أحدهم يصعد على المنبر بخشوع وسكينة، فإذا شرع في الكلام وذكر أهوال يوم القيامة بكى بدموع أحر من الجمر، فإذا أراد ذلك يأخذ الخردل فيسحقه ثم ينقعه بالخل يوماً كاملاً ثم يمسح به وجهه ثم يتركه حتى يجف، فإذا حصل على المنبر مسح وجهه بذلك المنديل تنزل دموعه مثل المطر، وهذا أول ما لهم من الدهاء. ومن ذلك أنهم يجهزون بعض نسائهم في زيِّ أرباب البيوت فيظهر أنها قد أختى عليها الزمان ولا تقدر تبذل وجهها في السؤال إلى الخلق فيعطف عليها القلوب، ويردد الكلام في ذلك المعنى ويورد فيه أخباراً وحكايات، ثم يخلع ثوبه ويرويه عليها ويقول: والله لو ملكت يدي شيئاً من النفقة لكنت أنا أحق بهذه المثوبة، ولكن العذر واضح فهذا ثواب يساق إليكم، فإذا رأت الجماعة ذلك لم يبق أحد حتى يردفها بشيء على قدره ومكنته، وما يحصل فهو للشيخ الواعظ.

## القصة التاسعة: في كشف أسرار كذبة الرهبان

اعلم أن بعض هذه الطائفة أعظم الأمم كذباً ونفاقاً ودهاء، وذلك أنهم يلعبون بعقول النصارى ويستبيحون النساء وينزلون عليهم الباروك ولا يعلم أحد أحوالهم، وهم أضرّ الخلق وأخس من غيرهم لأنهم إذا خلوا بأنفسهم يعترفون بأنهم على ضلالة، وقد غيروا الأحوال والأفعال والأقوال، ولهم

أعمال عظيمة لا تعد ولا تحصى، وهم يأكلون الأموال بالباطل ويرتبون الكذب وزخارف القول وهم أكذب الخلق على كل حال، فمنهم من عمل لديره عيداً وجعل له ناموساً من بعض النواميس يأكل به أموال النصارى، وهاأنا ذا أثبت الآن لك شيئاً من ذلك فأقول: اعلم أن هؤلاء القوم أعظم ناموس لهم قنديل النور في كنيسة قمامة بيت المقدس وهو من عمل الرهبان، وقد ارتبط عليه جميع النصارى وأسباطهم وأجناسهم، وقد كان الملك المعظم ابن الملك العادل قدس الله روحه دخل إلى القمامة يوم سبت النور فقال للراهب: لا أبرح حتى أبصر هذا النور كيف ينزل، فقال له الراهب: أيّما أحب إليك هذا المال الذي يتحصل من هذا الوجه أو اطلاعك عليه، فإنك إن كشفت سره عدمت هذا المال فاتركه مستوراً مصاناً واربح هذا المال العظيم، فلما سمع ذلك علم باطل قول الراهب فتركه على حاله وخرج، وهنا ذكر أن الراهب يضع الكبريت في حق في رأس قبة الكنيسة والحق معلق في سلسلة وهي تدهن بدهن البيلسان، وبيّن كيفية ذلك فلا نطيل به.

## القصة العاشرة: أهل الكيمياء

وذكر أهل الكيمياء قال: ومن أعظم ما وقفت عليه أن السلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي جرى له حديث يكتب بماء الذهب ملخصه: أن رجلاً أعجمياً جاء إلى دمشق ومعه ألف دينار جعلها في بنادق وصرها في مخلاة وسماها «طبرمك خراساني»، وقال لعطار: هذه تنفع للسموم، وباعها له بخمسة دراهم، ثم لبس أفخر الثياب وأخذ يحسن للناس ويجالس العلماء ويقول: أنا أقدر أن أستخرج الذهب، ولكن ذلك يكون لمنفعة المسلمين في الجهاد، وهو في ذلك الوقت ينفق باليمين والشمال، فبلغ خبره الملك فاختلى به وأخذ عليه العهد لنصر المسلمين بالمال، وقال له: لا بد من «الطبرمك الخراساني»، فبحث الجيش والوزراء في جميع الدكاكين وهو معهم إلى أن وصلوا إلى الدكان المعلوم، فاشتراها الملك منه ثم وضعها بنفسه في البودقة فخرجت سبيكة ذهب، فأعطاه الملك مالاً وجهزه بستين جملاً منها شراب عمل «تنيس» و«دمياط» ومن عمل «إسكندرية» ومنها سكر بالأحمال والأجمال والجمالين، ثم أعطاه خيمة ومطبخاً وفراشين ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم، وكتب معه كتباً إلى سائر البلاد بالمراعاة والخدمة والإعانة، ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه، وراح وقد وصل هذا إلى الحجر المكرم وحصل له الإكسير الأعظم.

ومن أعجب ما في هذه القضية أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المغفلين المخرفين، فسمع بهذه القضية فكتب في رأس جريدته «السلطان نور الدين محمود رأس المغفلين»، فشاع ذلك ولم يعلم أحد باطن القضية حتى قيل للسلطان: قد كتبك رأس المغفلين، فقال: أي شيء أبصر من تغفلي حتى يكتب اسمي «هاتوه»، فنزلت إليه الجند وقالوا له بسم الله كلم السلطان، فأخذ الجريدة في كمه ومشى معهم، فلما وقف قدام السلطان قال: أنت فلان الذي تكتب أسماء المغفلين؟ قال: نعم، وهذا اسمك ثم أظهره، فقال: وما ظهر لك من تغفيلي حتى كتبتني، فقال: ومن يكون أغفل منك؟ جاءك أعجمي نصاب عمل عليك حيلة ودكّ عليك ألف دينار أخذ بها مال المسلمين وراح، فقال: راح يأتي بطبرمك وكأنك به وقد جاء ومعه الطبرمك نعمل منه أموالاً لا تحصى، فقال له: يا خونذان رجع الأعجمي وجاء محوت اسمك من الجريدة وكتبت اسمه وما يكون في الأرض أغفل منه، فلما سمع

السلطان ذلك ضحك وقال : أعطوه شيئاً ينفقه عليه ، فأعطوه شيئاً وراح ، وكان كلما أفلس أخذ الجريدة ووقف على باب القلعة ، فإذا ركب السلطان فتح الجريدة يقول ما جاء وهذا اسم السلطان مكتوب ، فيضحك ويطلق له شيئاً . فانظر إلى هذا الدك والجسارة على بيع ألف دينار بخمسة دراهم ، فأقام السلطان على هذا حتى توفاه الله والطبرمك لم يأت .

وأختم هذا القول بما جاء فيه من كشف أسرار الصيارف وتلاعبهم ، قال : اعلم وفقك الله أن هذه الطائفة من جملة اللصوص وقطاع الطرق ، ولهم أمور لا يعلمها إلاّ كل فاضل ، وأحوال لا يطلع عليها إلاّ راجح العقل ، وهم أشد الناس إجراماً وأصنعهم في أخذ أموال الناس مع أن فيهم متميزين وذوي هيبة ووقار ، ولهم في الدك أبواب ، فأول ما رأيت في الهند رجلاً صيرفياً له من الحشمة شيء عظيم ، وجميع التجار تورد إليه أموالهم ، ويستدينونها منه قليلاً قليلاً ، ورأيته قد صنع شيئاً لم يسبق إليه ، وذلك أني رأيت في يده خاتماً بفص وعليه نقش فأدمت الجلوس عنده وأدمت النظر إلى ذلك الخاتم فرأيته إذا قبض الذهب من التاجر يجعل فص الخاتم من قدام لسان الميزان إلى ناحية الصنج ، وإذا دفع للتاجر الذهب حوّل فص الخاتم إلى قدام لسان الميزان ، فإذا قرب الخاتم لعب بلسان الميزان لعباً زائداً ، فعلمت أن هذا الخاتم فيه شيء من الدك ولم أزل أبحث عنه وأفكر فيه . ففي بعض الأيام انقدح لي فيه شيء فقلت : هذا والله دك لم يسبق إليه ، وإذا فص الخاتم من حجر المغناطيس فإذا قبض الذهب أدار الخاتم إلى ناحية الصنج فيأخذ لسان الميزان هواءه ويمنع من النزول بمقدار ما يجذب من الحجر فيكون في الوزنة زيادة مثقال وأكثر من ذلك . انتهى ما أردته من الكتاب الثاني .

هذا ما اخترته من الكتابين ونقلته ، ولكني لم أجرب شيئاً منه ، وإنّما أردت بالسحر الحلال أن يدل ما صح منها على جمال الله وبدائع صنعه ، وأما ما اخترته من الكتاب الثاني فذلك ليعلم المسلمون كيف كان الغش والتدليس في بلاد الإسلام ليحترسوا منه الآن ، والحمد لله رب العالمين .

ولما انتهيت من هذا المقام حضر إليّ عالم ذكي ، فقال : ما القصد من هذه الحكايات الخرافية؟ فقلت : لقد أوضحته فيما مضى ، وهاأنا ذا أوضح المقام فأقول : إن القصد من هذه الحكايات

أولاً : أن نعطي التفسير حقه فنذكر السحر عند قدماء المصريين .

ثانياً : أن نذكر ما كانوا يزعمون أنهم يفلقون البحر بالعزائم ، فلئن ضرب سيدنا موسى البحر بعصاه فهي معجزة ، ولكن هؤلاء يزعمون أنهم يفرقون البحر بالعزيمة ، فيكون موسى عليه السلام أتى بمعجزة تبهرهم .

ثالثاً : أن هذا التفسير ما هو إلاّ روضة من رياض العلم ، فإذا كان أهل ألمانيا ينقلون عجائب قدماء المصريين ومزاعمهم وقد بقيت هذه الحكايات في بطون النواويس المصرية آلافاً من السنين ، ثم احتفظ بها أهل أوروبا من ألمانيا وغيرها ، فكيف لا نذكر الناس بها ، لا سيما أن القرآن قد أشار إليها واعتنى بها ، ومدح سحرة فرعون وشرفهم بالإيمان لأنهم محققون في العلوم .

رابعاً : أن البراعة في العلوم فرض كفاية ، وقد قدمنا في سورة « البقرة » أنواع السحر ، وأن بعض السحر الآن يجب تعليمه فهو فرض كفاية ، راجع ما كتبناه في « البقرة » فافهم هناك كيف يقول الله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾[البقرة:١٠٢] الخ .

خامساً : أن علم السحر المذكور متنوع بعضه خرافة وبعضه له أصل ، ولتعلم أننا لا نهتم بالتفاصيل وإنّما نذكرك بما مضى في هذا التفسير في سورة « البقرة » فقد ذكرت لك هناك كيف يؤثر المنوِّم على المنوَّم ، وقد تبيّن لك ذلك في الحكاية الثالثة المتقدمة ، فتأثير زيد في عمرو أمر له وجود اليوم في المسارح العامة ، يراها الناس في الشرق والغرب .

واعلم أن للنفوس الإنسانية قوة كامنة إذا استثارها الإنسان نفعته ، قال اللورد « افبري ان كمبنلا » الشهير العالم بالفراسة : بلغ من شدة صرف قوى عقله في نقطة واحدة أن استطاع أن ينسى جميع أوجاعه فلا يشعر بها ، وهذا يصدق على جميع الذين يستطيعون أن يتحكموا في إرادتهم ، فإنهم بذلك يتمكنون من تحرير نفوسهم في ربقة الأوجاع الصغرى وانتعاشهم ، وبعبارة أخرى إنهم يصلون إلى حيث يمتلك العقل قيادة الجسم ، ويصبح السيد المطلق الآمر الناهي . اهـ. هذا ما يقوله اللورد « افبري » الإنجليزي .

ويقول الفلاسفة : « إن النفس الإنسانية لها تأثير في بدنها مثل كيفيات الفرح والحزن ، وكالتوهم الذي يجعل الماشي على الحائط يسقط مع أنه لو مشى عليه وهو على الأرض سقط ، ومتى قوى عزيمته مشى على الحبل على الحائط ولا يسقطون ، لأنهم أذهبوا عنهم هذا الوهم » .

ويقولون : « إن النفس الإنسانية كما تؤثر في جسمها تؤثر في غيرها ، لأنها أرقى من عالم الماديات ، والسحر عندهم لا يحتاج الساحر فيه إلى معين ، وصاحب الطلسمات يحتاج إلى معين كروحانية الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في العالم العنصري ، والفرق بين السحر والمعجزة أنها قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير ، فالنبي مؤيد بروح الله على فعله ، والساحر إنّما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وإمداد الشياطين له في بعض الأحوال ، ونحن نعرف الفرق بينهما بأن المعجزة لصاحب الخير والسحر لصاحب الشر » .

ولبعض المتصوفة خوارق للعادات ، وإذا قدر أحدهم على فعل الشر فلا يأتيه لأنه مقيد بالأمر الإلهي ، ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله ، ومن الطلسمات أعمال قوم قابلهم ابن خلدون بالمغرب يعرفون بالبعاجين ، وهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيخترق ، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ، ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج ، هكذا قال ابن خلدون لأنهم أكثر ما ينتحلون من السحر بعج الأغنام ، وهم يخيفون بذلك الأغنياء فيعطونهم من أموالهم ، قال : وهم لهم وجهة رياضية بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى « الخنزيرية » ، قال : وقد شاهدت أعمالهم الكفرية وهي حقيقية . انتهى ملخصاً .

أقول : واعلم أن هؤلاء البعاجة قد أخبرني بهم أحد أبناء « طيطوان » ، وقال : إنهم يجلسون على هيئة الصوفية في جهة مراكش ، ويدعون أنهم على طريقة شيخ زاهد ، ومتى جلسوا في مكان وأخذوا يتلون أقوالاً مخصوصة أمكن أحدهم أن يطير فوق القبة التي فوقهم ، وإذا كان وحده لا يقدر ، وإذا أهدى إليهم أحد شاة بقروا بطنها بأيديهم وسكاكينهم ثم شووها بجلدها وأكلوها ، فلما سمعت هذه الحكاية قلت إنهم من أولاد أولئك البعاجة تسموا باسم الصوفية تستراً ، لأن هذا عمل من لا دين له .

واعلم أيها الذكي أن طوائف كثيرة من الذين ينتسبون للصوفية يخيفون الناس بأنهم يؤذونهم وهم في ذلك كاذبون يريدون أن الناس يعطونهم الطعام وهم نائمون في بيوتهم، وهذا ظلم مبين فيجب إزالة هذه الطوائف من المسلمين، وإذا وجد لساحر تصرف أو لشيخ في الطريق فلا قوة لهم على إيذاء العاملين، وكفاك معجزة موسى وعصاه وكيف كانت تلقف ما يأفكون.

واعلم أن الأمة الإسلامية يجب عليها أن تعلن هذه الحقيقة، وأن لا تدع أهل الطرق يعبثون بالمسلمين ويخيفونهم، فهذا ضياع للأمة ولا تأثير لأحد على أحد، والرجل النافع للأمة يغلب آلافاً من أولئك الساحرين والذين يدعون أنهم صوفية وما هم بصادقين، وقد تبينت هذا بنفسي وعلمت أن الخداع عمّ الأمم الإسلامية، و﴿ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[يوسف: ٥٢].

## حقيقة

اعلم أنه لا فرق بين أولئك الذين يقاتلون الناس بالمدافع والغازات الخانقة أو يدسون لهم السم في الطعام، والذين يأتون بالعقاقير الطبية ويقتلون الناس بها سراً، واللصوص والسارقين وأمثالهم، وبين الذين يستمعون السحر أو يتصرفون في الناس أو يخبرون بالمغيبات حقاً أو باطلاً لأجل أخذ أموال الناس بالباطل، فكما أننا نمقت الطبيب الذي عرف السم فقتل به الناس، ونمقت الذين يحاربون بالغازات الخانقة ويميتون الناس أو يعمونهم، هكذا يجب علينا أن نقاتل السحرة والذين يبعجون الغنم كما قاله ابن خلدون، وأولئك الذين يقرؤون أدعية ويخيفون الناس بأنهم قادرون أن يؤثروا فيهم، فهذه الطائفة من المسلمين الذين يقولون نأكل أموال الناس بطريق إخافتهم من دعائنا عليهم وكرامتنا لا فرق بينهم وبين السحرة، فكلهم يحتقرون لأن الله لم يجعل الكرامة وسيلة لجلب الطعام، وإنّما جعلها وسيلة للهداية، فإذا وجدنا من يفعل هذا حقرناه وعلمنا أنه هو والساحر سواء لا فرق بينهما وهما يريدان أكل أموال الناس بالباطل. واعلم أن الله أنزل هذه الآيات ليرينا أن الحق يغلب السحر، لأن عصى موسى ابتلعت عصي السحرة، هكذا يجب على علماء الإسلام أن يزيلوا هذه الخرافات من المسلمين، وليعلموا أن القرآن جاء لإزالة السحر لا لتقويته، ومن عمل بالسحر وزعم أنه كرامة فهو ملعون، واعلم أنك إذا تصديت لرقي الأمة الإسلامية لا يؤثر فيك مؤثر البتة وتغلب كل من يناوئك، والإسلام محتاج إلى مصلحين، والله هو الولي الحميد.

وما مثل النفوس إلا كمثل النبات فمنها السام ومنها المغذي، فلنفعل مع النفوس الساحرة والتي تصيب بالعين ما نفعل مع الحشائش الضارة بزرعنا ومع الحيوانات الصغيرة المسماة بالمكروب فإنا نجتهد لإبادتها فلا فرق بينهما وبين النفوس المنحرفة. واعلم أن هذه الدنيا دار اشتبه فيها الباطل بالحق، ألا ترى أن أكابر العلماء يقولون إنها دار خيال، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص: ٨٨]، ويقول بعضهم: «هالك» اسم فاعل وهو حقيقة في المتلبس بالفعل، فكأن الدنيا هالكة الآن، ويقولون: إن ما في هذه الدنيا من سماوات وأرضين ونبات وحيوان وضياء كل هذا له حقائق غير هذه، وإنّما هذه ظل حقيقة، ويقولون: فهذه ظلال الحقيقة والحقيقة وراءها، ولقد تمادوا في ذلك حتى أوضحوه، وهذه تسمى نظرية «أينشتين»، فقد جاء في بعض الجرائد المصرية يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٢٥ ما يأتي:

## جبابرة العقول

## أينشتين ونظريته : الزمان والمكان

في عام ١٩١٥ والحرب العظمى في أشد أدوارها خطراً أعلن نابغة الألمان الدكتور « أينشتين » الجزء الخطير من نظريته وهي النسبية العامة التي تبحث في هندسة خاصة بالكون، ليست بالإقليدية ودخل ضمناً في هذا البحث أمر الجاذبية، وظل ما يقال عن النسبية العامة محصوراً في داخل حدود ألمانيا إذ كانت منعزلة عن العالم في هذا الأوان، فلما وضعت الحرب أوزارها خرجت النسبية العامة خارج ألمانيا، وحدث أن كان الكسوف الكلي للشمس عام ١٩١٩م وهو عام الهدنة، وفيه تحققت بعض آمال « أينشتين » فانتشرت النظرية انتشاراً عظيماً في هذا العام وفي الأعوام التي تليه، حتى إنك قلما ترى مجلة لا تذكرها أو جامعة لا يلقى فيها محاضرات عنها، وانتشرت الكتب الإنجليزية والأمريكية وأعطيت جوائز لمن يشرح النظرية شرحاً ممتعاً مختصراً، فأنت ترى أن عام ١٩٢٠ و١٩٢١ وما بعدهما هي أعوام الثورة الفكرية في الخارج، أي : خارج ألمانيا، والحمد لله، فحركة الاهتمام بالنظرية قائمة بين أبناء مصر الآن.

ولنرجع بعد هذه الكلمة القصيرة إلى النسبية العامة التي ذكرناها، فنقول : إن أمر خطورتها يتعلق بشيء واحد وهو النظر إلى الكون بعين غير العين التي ألفنا أن ننظر بها، كنا ننظر إلى الكون قبل « أينشتين » بمنظار مجسم، فنقول : هذا شيء، ونعني به كل ما نلمسه أو نراه، أما نابغة الألمان فيقول : يا قوم ليست هذه حقيقة، ما هي الحقيقة إذن ؟ مسألة من أخطر المسائل تلك هي السؤال عن الحقيقة، هل لو قلت لك إن الشمس طالعة وهي في رائعة النهار وكان لك عينان ترى بهما تلك الغزالة، أليست هذه حقيقة؟ يقول العلم الحديث : كلا، يا للهول أليست تلك الكتلة النارية التي أراها شمساً؟ يقول العلم الحديث : العالم مظلم ساكن لا صوت فيه، وإنّما العقل هو الذي يصنع كل ذلك، فليس السر في العالم، بل السر في هذا الذي تحمله بين عظام جمجمتك، ما معنى هذا؟ معناه في نظر فلاسفة الكون الآن أن هذا الفضاء الواسع فيه تموجات مختلفة الطول، فإن كانت هذه التموجات الأثيرية بحالة خاصة وطول خاص أثرت على أذنك فقلت عنها صوتاً، وإن كانت بحالة أخرى وطول آخر غير السالفة قلت إنها ضوء إذ ميزتها عيناك، فأنت ترى أن الأمواج تملأ هذا الأثير من الفضاء وهي لا تضع صوتاً ولا تحدث ضوءاً، أشبه بأمواج ماء البحيرة الراكد ماؤها، وإنّما عقلك هو الذي اخترع كل هذه الكلمات من نور وصوت، ما معنى خرير الماء لنفس الماء؟ وما معنى حفيف الريح للأغصان إن لم تكن أنت واقفاً هناك بالغاب، أليس الصوت والضوء أشياء وأموراً خاصة بك دون الطبيعة.

وتزيد الفلاسفة اليوم على ذلك أنه قد يكون في أثير هذا الفضاء الواسع موجات أخرى تختلف في سرعتها عن تموجات الضوء والصوت، ولكنا لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً، إذ ليس لنا من الحواس غير الخمس، وبعد كل هذا ما هي الحقيقة؟ إن كان العالم مظلماً هامداً صامتاً وإن كانت كل هذه الأشياء التي نراها هي صنع أعيننا أو من صنع عقولنا كما يقولون، إذ أن مركز الإبصار في المخ، وبه وحده نرى صور الكون على استقامتها بعد أن تكون معكوسة على شبكية العين، أي أن الشمعة الموقدة ترسم على الشبكية معكوساً نورها إلى أسفل، ومركز الإبصار في المخ هو الكفيل باعتدالها.

والآن فلنرجع إلى الحقيقة وأمرها في نظر « أينشتين »، الحقيقة في نظره ليست كل هذه الأشياء التي نراها، إذ أنها مهما تجسمت فهي ظواهر فقط، وفرق كبير بين الظاهرة والحقيقة. نعم هذه الأشياء التي أمامنا هي ظل الحقيقة كما يقول العالم الألماني « منكوسكي » والذي منه استمد « أينشتين » آراءه في النسبية العامة، فقد قال « منكوسكي » في مجمع علوم بمدينة « كولونيا » عام ١٩٠٨ قبل ظهور النسبية العامة الخاصة بالمكان والزمان ما يأتي بالحرف:

يجب علينا من الآن أن نعتبر أن الفضاء قائم بنفسه أو الزمان قائم بنفسه، ظل الحقيقة التي ما هي إلاَّ اتّحاد المكان بالزمان وإيجاد عالم منهما يحدث فيهما الحوادث وهي الأشياء، فالأشياء في نظر هؤلاء الجبابرة ما هي إلاَّ حوادث ناشئة من تقاطع أربعة إحداثيات، ثلاثة منها للمكان وواحد للزمان، فالقوانين التي تحكم هذا الإطار المكزمني هي الحقيقة بعينها. اهـ.

فانظر رعاك الله كيف كان علماء هذا العصر يقولون: إن هذا العالم ظل الحقيقة، وإن حقيقة هذا الإنسان وهذا الثوب وهذا الحجر وهذه الشموس إن هي إلاَّ حركات في الأثير لا أكثر ولا أقل، وهذه الحركات تختلف، فتختلف الآثار على حواسنا الخمس، فحواسنا هي الشبكة التي بها اصطدنا هذا العالم فإذا متنا كان العالم في نظرنا غير هذا.

انظر للأثر المشهور: « من مات فقد قامت قيامته »، وانظر للكاهن المصري المذكور فيما تقدم الذي صنع من الشمع تمساحاً والتمساح ابتلع الرجل، فلما أخذه مرة أخرى صار شمعاً، وكأن الله أوجد هذا في الدنيا سواء أكان خرافة أم صدقاً ليبعث فينا فكراً جديداً، وكما أصبح التمساح الصناعي شمعاً هكذا تصبح هذه الشهوات والنزوات الحيوانية شيئاً لا قيمة له في النظر الحقيقي، بل هذه العوالم ما هي إلاَّ حركات بالنظر الحقيقي العصري، وذلك الفكر الجديد أن هذه الدنيا لو كشف عنا حجابها لوجدنا الهموم والغموم والأحزان والطمع والمال والولد والغنى والفقر وما أشبه ذلك، إنّما هي عوارض جاءت بها الحواس وهي التي خدعتنا، ونحن بها مخدوعون، ألا ترى أن الناس يتعاطون المخدرات ليغيبوا عن الحواس، ولكن تلك سبيل ضلال، والصراط المستقيم معرفة الحقائق حتى نرى الأشياء على ما هي عليه، بل ليس في الوجود سوى واجب الوجود وسواه فإنّما هي شؤونه، فانظر كيف كانت هذه الجملة مقولة لحكماء المسلمين، ثم انظر كيف جاء علماء العصر الحاضر فقالوا: إنَّما الوجود خداع الحواس. قال الشاعر:

ففز بعلم تعش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

## خطاب للأمم الإسلامية: إن هذه العلوم واجبة وجوباً كفائياً

عرفت الشر لا للشـ ... ـــر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه

أيها المسلمون هذه صفحة من تاريخ الشعبذة والشعوذة في الأمم الإسلامية، فالشعوذة أمثال ما ذكرناه هنا من إيهام الناس بوضع الإبرة في العين وإخراجها من الفم وبالعكس، وهي ترجع لخفة اليد، والشعبذة ترجع للعلوم الطبيعية مثل مسألة البيضة التي تطير بخاصة صيرورة الماء بخاراً فيها بحرارة الشمس كما تقدم.

هذه صفحة من تاريخ أولئك الذين اتخذوا الدين سلماً للمال وللملك، كما ترون في مسألة الذي أوهم الناس أن الرأس بعد قطعها أخبرت بأنه مختار من الله كما رأيتم، وبهذه الوسائل المضلة استعبدوا الأمم الإسلامية قديماً وجعلوهم كالأنعام يمتطونهم بل هم أضل من الأنعام، لمثل هذا نزلت قصة السحرة في القرآن، نزلت قصة السحرة ليذكّر الله المسلمين بالتفكر لئلا يضلوا، فوالله لا منجى من هذا إلاَّ بالعلوم والمعارف، ليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والكيمائية طلباً لمنافعها واحتراساً ممن يتخذونها ذريعة لطمس العقول واستضعاف الأمم الإسلامية.

إن الأمم الأوروبية قد نبغت في كل علم وكل فن، ولما عرفوا أمثال هذه العجائب اتخذوها ذريعة للغلبة في الحرب، فاصطنعوا الغازات الخانقة والمميتة لفتح الممالك الأخرى، ولم يجعلوها وسيلة للتدليس على أممهم حتى يجعلوهم دواب يمتطونهم كما فعل أولئك الرؤساء المضلون الذين جعلوا أتباعهم غنيمة لهم وتركوهم في غيابة العماية والجهالة، فضاعت تلك الممالك ولم يبق لها شرف ولا فخار، هذا هو السبب في انحطاط الأمم الإسلامية اليوم قد خدرها الرؤساء تخديراً دام أثره إلى هذه الأجيال.

ولقد تقدم في سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] أن حسن بن الصباح منع أتباعه من العلم تخديراً لعقولهم وتحذيراً من الاطلاع على ما يكنه قلبه من إضمار تعميم الجهالة، فهاك ما قاله «سديو» الفرنسي في صفحة ١٣٧ في الكتاب المترجم بالعربية عنه قال ما نصه: «كان لأبي عبد الله - آخر رؤساء الكرمانية - التصرف المطلق في المتعصبين لمذهبه، فنهج نهجه رجل يسمى حسن بن الصباح - انظر مذهب أحد أتباعه في زماننا بالهند الذي قدم أتباعه عريضة فيه نشرت في الأهرام وذكرتها في سورة إبراهيم - سافر كثيراً وتبحر في العلوم وعرف فرق الدين المحمدي، وأخذ في نهاية القرن الحادي عشر من الميلاد يعظ الناس ويحثهم على اتباع مذهب جديد يغلب على الظن أنه قريب من مذهب «الكرمانية»، فتبعه جموع غفيرة ملك بهم عدة قلاع وحصون، واستوطن حصون الموت المشيد على هضبة قرب «قزوين»، فلقب بشيخ الجبل، وأعلن العداوة للنصارى والمسلمين، ورأى نفسه بينهم بمنزلة الإله الثاني الذي شغله الاقتصاص من الظالمين للمظلومين، ونفذت أوامره فيمن معه، فكان إذا أمر بقتل أحد منهم بادر بإلقاء نفسه من شاهق جبل على أسنة الرماح أو طعن بطنه بخنجر أو بقتل أحد من غيرهم، بادروا بقتله ولو وزيراً أو سلطاناً أو خليفة عباسياً، إنه أخبر قومه أن شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس فكانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب أكبر الكبائر، ولذلك سماهم المؤرخون «الحشاشين» لا الحساسين، أي: القتالين، كما زعمه الفرنجة، كلا، وأذن لهم في النهب، فنهبوا وجالوا بأسلحتهم في الشام حتى بلغوا جبل لبنان، وبنوا في الشام أماكن محصنة، ونهبوا جميع القوافل التي تمر بأرضهم، وقطعوا الطرق، وملكوا في غرة القرن الثالث عشر من الميلاد كثيراً من المنازل في العراق والشام، وحصوناً أخرى قرب دمشق وحلب، وتواطنوا من ابتداء سنة إحدى وستين ومائة وألف ميلادية بالعراق الفارسي فبذل «الملك شاه» عزائمه في إعدامهم، ولم يبالوا بذلك، بل يقال إن نظام الملك الذي كان الوزير الأعظم لهذا السلطان قتله أحدهم لشدة تعصبه وغيرته على مذهبه الديني، وكان

هؤلاء الحشاشون مع الفاطمية كحزب واحد لشدة مخاصمتهم وإدمان مشاجرتهم مع أهل السنة. انتهى بالحرف.

ولقد تقدم كما ذكرت هنا في سورة «إبراهيم» أن أغا ممنون بالهند الآن يقول أتباعه إنهم معه أشبه بأتباع حسن بن الصباح له، وإنهم سائرون على منهجهم حذو القذة بالقذة، وأن العبادة له هو لا لله، وقد أرسله الإنجليز إلى الديار المصرية أيام غياب عباس باشا حلمي الخديوي السابق ليكون ملكاً لمصر باعتبار أن الفاطمية كانوا بها سابقاً، وهذا من أتباعهم فكان ذلك سبباً في أن المغفور له السلطان حسين باشا كامل رضي بتولي الملك في مصر.

فانظر لأمم أوروبا الذين يقرؤون التاريخ ويأخذون منه ما يوافق سياستهم، فلينظر المسلمون في ماضي تاريخنا فإن قصة السحرة ما جاءت إلا لنحترس من المدلسين، ولكن الجهل هو الذي أوقع آباءنا في أيدي المضلين الماكرين، وأنا أحمد الله الذي جعل هذا التفسير كحد فاصل بين زمان العرفان الآتي وبين القرون المتأخرة التي أورثتنا ضلالة، وملأت بلادنا بالمضلين من الشيوخ الذين اتخذوا الدين وسيلة لجمع المال ولحوز الملك وللاتحاد مع الحكام الأجانب أو غيرهم، كل هذا لأن الله يحاسب الناس على ضياع عقولهم ونبذ نوره الذي وهبه لهم وذكائهم، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٦].

وقال «سديو» أيضاً في صفحة ١٢٢ ما نصه: ظهر في زمن الأموية عدة فرق دينية تعبوا في إزالتها كالخوارج والقدرية والأزارقة والصفرية، وفي عصر العباسية فرقة المعتزلة وفرقة الراوندية الزاعمة أن الخلفاء يعبدون كعبادة الإله، وتعتبر دورهم كعبة جديدة، وقاتلهم المنصور فقابلوه بأعظم ما يكون من الشجاعة والبأس ليعبدوه قهراً عنه، وظهرت أيضاً فرقة الزيدية القائلة بحرمة أكل الحيوان وتملك الإنسان شيئاً لخاصة نفسه. اهـ.

أليس هذا كله من سحر العقول بالتأثير والإيهام والتغرير، وليس ينجي المسلمين من هذا إلا قراءة كل تاريخ وكل علم وانتهاج الخطة المثلى وتعميم التعليم، وإلا حقت كلمة العذاب.

هذا هو الذي جاءت لأجله قصة السحرة في سورة القرآن، فانظر إلى المنصور أيام صولة الدين وعزته كيف قاتل من يعبدونه. وانظر إلى حسن بن الصباح وإلى بعض شيوخ الطرق اليوم كيف يجعلون أنفسهم في مصاف المقدسين كأنهم معبودون وكأنهم هم المختصون بالشفاعة وكيف يحرم بعضهم أن ينظر أتباعه لوجهه، بل لا يسلمون عليه إلا وهم مطأطئون رؤوسهم، وكيف كثرت هذه الخرافات في أمم الإسلام وخالف الناس أخلاق الصدر الأول، لهذا انحطت المدارك وذهبت الأمم الإسلامية ضحايا الجهالة، وقد أنذرت وحذرت، والله هو الولي الحميد. تم الكلام على القسم الثاني من السورة.

## القسم الثالث والرابع

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ

أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧)
ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ
ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦)
وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ
(٨٩) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ
(٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ
(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ
(١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)
۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
(١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ
(١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢) ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ على مشركي العرب ﴿ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي: أيّ شيء تعبدون، وهذا الاستفهام للاستخفاف بما يعبدون وأنه لا يستحق العبادة ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أي: نقيم على عبادتها ليلاً ونهاراً، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أي: دعاءكم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ هل يجيبكم الآلهة إذا دعوتموهم ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ في معايشكم إذا أطعتموهم ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ في معايشكم إذا عصيتموهم، ﴿ قَالُوا۟ ﴾ لا ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ﴾ ولكن وجدنا

﴿ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ يعبدونها، فنحن نعبدهم مقتدين بهم، ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴾ وما كان يعبد آباؤكم الأولون ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ أي: أعداء لعابديهم لأن عبادتهم أضر على العابدين من الأعداء، وإنّما نسب الأمر لنفسه ليكون أدعى إلى القبول، وأفرد العدو لأنه في الأصل مصدر أو أريد به الجنس ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن رب العالمين.

ثم وصفه بثمان صفات ترجع إلى إفاضة الخير والنعمة على العبد فإنه: أولاً خلقه من نطفة. (٢) ثم هداه لثدي أمه ولما بعده من أمور المعاش والعلم وإصلاح نفسه. (٣) وأنعم عليه بالطعام. (٤) والشراب لبقاء بدنه. (٥) وأنعم عليه بالشفاء إذا مرض وذلك إما بالعقاقير وإما بإجابة الدعاء حتى إذا دنا أجله (٦) أماته، فإذا جاء اليوم المعلوم (٧) أحياه، وإذا جاء دور حسابه غفر له خطاياه وأدخله الجنة، فملخص ذلك أن إبراهيم دعا قومه إلى الله بما دعا به موسى وبما دعا به محمد صلى الله عليه وسلم، ألا ترى أن نبينا صلى الله عليه وسلم جاء على لسانه في أول السورة: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾[الشعراء: ٧]، وإلى موسى كيف ذكر السماوات والأرض وخلقهم وخلق آبائهم الأولين والمشرق والمغرب وما بينهما، وهنا ذكر خلق الإنسان وتطوره في جميع أحواله من يوم الولادة إلى الوقوف بين يدي الله تعالى، فرجع الأمر إلى العلوم الطبيعية التي هي المنفذ الوحيد للسعادة في الحياة من حيث منافعها، وفي الموت من حيث التفكر فيها، فانظر كيف جعل الله سعادة الآخرة متوقفة على التفكر فيما به حياتنا من غذاء وشراب ودواء وهداية لذلك ولغيره، انظر كيف ذكر خلقنا، وذلك عينه هو علم الأجنة وعلم التشريح، وذكر الهداية وذلك منوط بعلوم الحكمة وعلوم الدين والشرائع، وذكر طعامنا وذلك متوقف على درس الأشياء المحيطة بنا والاجتهاد في استثمارها، وذكر السقي وذلك يكون بالماء وهو ينزل من السحاب الجاري بالهواء المتحرك بالحرارة السارية من الشمس الجارية في مدارها الجاذبة لما حولها من السيارات المجذوبة بغيرها من الشموس، وذكر المرض وهو أنواع كثيرة تختلف اختلافاً كثيراً تحتاج إلى دراسة خاصة، وعلماء يختصون بها، وذكر الشفاء منه وذلك بدرس جميع العقاقير الطبية والمناسبة بينها وبين الأمراض وآثارها في أجسامنا واختلاف الآثار باختلاف الأقاليم والفصول والأشخاص، وأن هذا تشتد الحاجة إليه في المدن، وتقل في البدو لجودة الهواء وقلة أنواع الغذاء وعدم تكاثرها الموجب تعفن الأخلاط في الجسم، فهم أقرب إلى الصحة من أهل المدن، كما أن الحيوانات الوحشية تقل فيها الأمراض وتكثر في الحيوانات الأهلية كما تكثر في الناس لفساد الهواء والازدحام في المدن والحياة التكلفية والأمور العارضة، كل ذلك يستوجبه ذكر الشفاء، ثم إذا جاء أجل الإنسان مات ليخلو وجه الأرض لمن بعده، لأنه لو بقي الناس بلا موت لازدحموا ولعسرت الحياة، فالموت نعمة على الأموات وعلى من بعدهم من الأحياء، وكراهة الموت ناشئة من جهل هذا الإنسان وعدم إلمامه بعلم الحكمة ونظام هذه الدنيا، ولو فكر العقلاء وأدركوا الحقائق لفرحوا بالموت وكيف لا يفرحون بما هو نعمة عليهم. إن النعمة والرحمة حاصلتان في حسن النظام العام، والنظام العام لا يتم ولا يكمل إلاّ بأن يرحل قوم من الأرض لتخلو لمن بعدهم

لأنهم لو بقوا معهم لكانت الحياة لا تطاق. فبهذا الاعتبار كان الموت من النعم العامة كالحياة، وربما كان قدماء المصريين قد أدركوا هذه الحقائق، ألا ترى إلى خطاب ابن الملك للكاهن في الحكايات المتقدمة في هذه السورة وقوله له: إنك بلغت الحال التي لا حياة بعدها، وإنك عن قريب ستوضع في القبر، إلى آخر ما هذا معناه، فارجع إليه فيما تقدم. (٨) ثم يبعث الإنسان بعد الموت لينال جزاء ما عمل في الحياة الدنيا، والبعث نتيجة هذه الحياة.

فهذا القول استدلال على الله وعلى الآخرة بعلم الطبيعة، كما فعل موسى وكما جاء في أول السورة عند دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه المعاني الثمانية هي قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، ثم أخذ يدعو الله بدعوات خمس متدرجاً فيه من حال الحياة إلى حال الموت على منوال ما تقدم في كلامه، فأولاً طلب من الله أن يهبه ﴿حُكْمًا﴾ أي: كمالاً في العلم والعمل ليستعد بذلك لخلافة الله ورياسة المخلوقين، وذلك هو صفة الصالحين التي تلحق الإنسان بهم، ولذلك أعقبها بالثانية فقال: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح بحيث لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، وذلك متى حصل يعقبه الصيت والذكر الحسن، وهو قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ إلى يوم الدين، ولذلك ترى جميع الأمم محبين لإبراهيم عليه السلام، وقد جاء من ذريته نبينا صلى الله عليه وسلم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى التوحيد كما دعا إليه، ولما كان ذلك ليس بعده إلا ثواب الآخرة، قال: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة فانظر كيف طلب الكمال في العلم والعمل وذلك يلحقه بالصالحين، وذلك يورثه الصيت والذكر الحسن، وبعد ذلك تكون الجنة فلم يبق إلا أن يدعو لأقرب الناس إليه بعد أن أتم الدعاء لنفسه، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريق الهدى، وهذه الدعوة للوفاء بوعد أبيه كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآية [التوبة: ١١٤]، ثم أتبع ذلك بدعوة يريد بها وصف أحوال الآخرة فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ولا تخزني بمعاتبتي على ما فرطت أو بنقص مرتبتي، والضمير في «يبعثون» للعباد لأنهم معلومون، ثم أخذ يبين حال البعث فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ كثرة المال ﴿وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الذنب وحب الدنيا أي: لا ينفعان أصلاً إلا مخلصاً سليم القلب من العيوب وكبائر الذنوب فإن مثل هذا يجعل المال فيما خلق له ويرشد البنين إلى الحق ويعلمهم الخير ليكونوا مطيعين لله، ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فصارت لهم منزلاً ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين ثم أخذ يصف ما يعانيه هؤلاء من قذفهم في النار وطرح بعضهم على بعض وحشر الآلهة معهم والجن، وتخاصمهم مع المعبودين عندما ظهر الحق، وقولهم: كيف نعدلكم برب العالمين وما دعانا إلى عبادتكم إلا المجرمون، ثم إعلانهم اليأس من كل شافع وكل صديق، ثم تحسرهم وتمنيهم بعد اليأس أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا من الأصنام ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يمنعونكم من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم

﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ جمعوا وقذفوا وطرحوا بعضهم على بعض ﴿فِيهَا﴾ في جهنم ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الذين أغووهم وهم الآلهة والجن ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أتباعه ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع آلهتهم ورؤسائهم وذرية إبليس ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾ إنه أي: الحال والشأن كنا ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ويخلق الله السمع في الأصنام كما يخلق النطق ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في استحقاق العبادة ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ ما صرفنا عن الإيمان ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء والعلماء الذين أفاضوا عليهم العلم في الدنيا فانتفعوا بالعمل في الآخرة، فكانت الشفاعة، وقوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ذي قرابة يهمه أمرنا، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «لو» للتمني، أي: يا ليت لنا رجعة، وجواب التمني ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ أي: إن فيما ذكر من قصة إبراهيم لحجة وعظة للمستبصرين، فإن ما جاء في هذه السورة مقوّ للتعقل واتباع الحكمة والعلم، فقد استبان لك كيف شرح حال الحياة الإنسانية من خلق وهداية وطعام وشراب ودواء وموت وحياة، ووصف أحوال السعداء والأشقياء وتخاصمهم، وكيف يختصمون عند ظهور الحقائق، ويلقي بعضهم التبعة على بعض، وكيف أبان أن الحياة الآخرة لا خير فيها إلاَّ لمن أخذ المقصود منها وهو سلامة القلب من حبها ومن الكفر والنفاق، ثم كيف أظهر القوم اليأس وتمنوا أن يرجعوا إلى الحياة كرة أخرى، وانظر كيف كانت الآية هنا مؤيدة لآية موسى، إذ صرف العقول إلى الحكمة والعلم، ولم يعبأ إلاَّ بالنظر في الكائنات، ولم يكن لمعجزة العصا واليد سبيل إلى الهداية إلاَّ عند السحرة الذين هم علماء، فأصبحت قصة إبراهيم وموسى ومبدأ السورة في مستوى واحد، ولم يذكر في هذه السورة من قصص إبراهيم غير ذلك، كل هذا نبذ لطريق السحرة ولطريق الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، بل الشعر الذي به تحسين اللفظ وإحداث الصور التخيلية التي ذكرها علماء البيان والبديع والمعاني جعلت لفتح باب الخيال، فهي مقدمات لولوج باب الحكمة والعلوم الطبيعية، فمن ظن من الأمة الإسلامية أن علم الشعر مقصود لذاته فقد جهل وضل ضلالاً مبيناً، نعم على الشعر وتاريخه من عصور الجاهلية إلى عصرنا الحاضر والنظر في تطوره وتطور الأمم التي كان فيها الشعراء، والاعتبار بما كان في تلك الدول من ظلم وعدل وخفض ورفع، كل ذلك نافع في اتساع عقول المسلمين كما أخذ بذلك المسلمون في مصر بدار العلوم وغيرها في هذه الأيام، وسنتم هذا البحث إن شاء الله في آخر السورة عند ذكر الشعراء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: أكثر قومه مؤمنين به كما حصل لموسى ولمحمد صلى الله عليهما وسلم، وكل واحد منهما دعا قومه بالنظر والعلم الصحيح، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو ذريتهم.

## جوهرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

اعلم أن شفاء الله للأمراض مثله كمثل الرزق، فكما أن الرزق يعوزه علم الإنسان وعمله كذلك الطب، وإذا وجدنا الناس شرقاً وغرباً اشتركوا في أمور الرزق من حيث النظام العام، هكذا نجد الأولين والآخرين من بني آدم اتحدوا وساعد بعضهم بعضاً في الطب، علم بذلك العلماء ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فسأذكر لك ما حاولته أمة اليونان وما نحوها في الطب، ثم أتبعه بما أفادنا به قدماء المصريين في الكشف الحديث، ثم أتبعه بشروط حفظ الصحة، ثم الكلام على العلاج الطبيعي.

يقول الله عزَّ وجلَّ على لسان إبراهيم: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، نسب الشفاء لله ليفتح لنا باب البحث والنظر في أمر الشفاء وعلم الطب، وقد جاء في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[النحل: ٦٩].

اعلم أن العلماء لما بحثوا في أصل الطب من أين جاء تحيروا، ولكن بعد اللتيا والتي وجدوه لا يعدو ثلاثة أحوال: الحال الأولى: التجربة. الحال الثانية: الإلهام. الحال الثالثة: المصادفة والاتفاق، فهذه الأحوال الثلاث هي أصول الطب.

## الحال الأولى

(١) يقولون: إن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بأمراض كثيرة، منها: ضعف المعدة، ومنها: امتلاء الصدر بأخلاط رديئة، ومنها: احتباس حيضها، فاتفق أنها أكلت «الراسن» مراراً كثيرة بشهوة، فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت إلى صحتها، فلما سمع به الناس استعملوه فبرئوا من ذلك المرض.

(٢) وقال جبيش الأعسم: إن رجلاً اشترى كبداً طرية من جزار، ومضى إلى بيته فاحتاج أن ينصرف في حاجة أخرى، فوضع تلك الكبد المشتراة على أوراق نبات مبسوطة كانت على وجه الأرض، ثم قضى حاجته وعاد ليأخذ الكبد فوجدها قد ذابت وسالت دماً، فأخذ تلك الأوراق وعرف ذلك النبات وصار يبيعه دواء للتلف حتى فطن به وأمر بقتله. قال صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء بعد ما ذكر هذه الحكاية: إنها كانت في زمن «جالينوس». وروي عنه أنه قال: وأمرت أيضاً في وقت مروره إلى القتل أن تشد عيناه حتى لا ينظر إلى ذلك النبات أو أن يشير إلى أحد نحوه فيتعلمه منه.

(٣) وأيضاً قال: حدثني جمال الدين النقاش السعودي: أن في لحف الجبل الذي بناحية «اسعرد» عشباً كثيراً، وأن رجلاً نام على نبات هناك فلم يزل نائماً حتى رآه الناس والدم يسيح من أنفه ومن مخرجه، فتعجبوا حتى ظهر لهم أن ذلك من النبات الذي نام عليه. قال صاحب الكتاب: إن جمال الدين أخبره أنه خرج إلى ذلك الموضع ورأى النبات وذكر أنه أشبه بـ«الهندبا» وهو مرّ المذاق، وقال له: إنه شاهد كثيراً من الناس يقربونه من أنوفه ويستنشقونه مراراً فيحدث لهم رعاف. قال ابن أبي أصيبعة: ولم يتحقق عندي أهو الذي أشار له «جالينوس» أم غيره. قال ابن المطران: إن النفس الفاضلة تنظر وتقول إن الدواء فعل ذلك الفعل فلا بد أن يكون هناك دواء آخر ينفع هذا العضو، وحينئذ نأخذ في التجربة ونطلب كل يوم حيواناً فنعطيه الدواء الأول ثم الثاني وهكذا، وأخذ يضرب الأمثال، وملخصها أن أمثال هذه الحوادث تنبه الأذكياء إلى البحث والتنقيب حتى يركبوا أدوية كثيرة باجتهادهم، هذا ملخص أمر التجربة في الطب.

## الحال الثانية

## الإلهام، وذلك بالرؤيا الصادقة

حكى «جالينوس» في كتابه في الفصد إذ فصد العرق الضارب لما أمر به قال: إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى، فلما أصبحت فصدت

هذا العرق وتركت الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه، لأني كذلك أمرت في منامي، فكان ما جرى أقل من رطل، فسكن عني بذلك المكان وجع كنت أجده قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب، وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاماً.

(٤) وقال «جالينوس»: رأيت رجلاً عظم لسانه وانتفخ حتى لم يسعه الفم فتحايلت في مداواته، ففي ليلته رأى قائلاً يقول له: امسك في فمك عصارة الخس، فاستعمل هذه العصارة كما أمر في المنام وبرأ برءاً تاماً. ثم قال «جالينوس» في شرحه لكتاب الإيمان لأبقراط ما نصه: وعامة الناس يشهدون أن الله تبارك وتعالى هو الملهم لهم صناعة الطب من الأحلام والرؤيا التي تنقذهم من الأمراض الصعبة، وذلك أنا نجد خلقاً كثيراً ممن لا يحصى عددهم أتاهم الشفاء من عند الله تبارك وتعالى بمثل ذلك.

(٥) قال «أريباسيوس» في كناشه الكبير: إن رجلاً عرض له في المثانة حجر عظيم، قال: وقد داويته بكل دواء فلم ينجح، فلما أشرف على الهلاك رأى في النوم إنساناً أقبل وفي يده طائر صغير الجثة، فقال له: هذا الطائر يكون بمواضع السباخات والآجام، فخذه واحرقه وتناول من رماده حتى تسلم، فلما انتبه فعل ذلك فخرج الحجر من مثانته مفتتاً كالرماد وبرأ برءاً تاماً.

(٦) قال ابن أبي أصيبعة: إن بعض خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلاً وتداوى كثيراً فلم ينتفع بها، فرأى في بعض الليالي النبي صلى الله عليه وسلم في نومه فشكا له ما يجده، فقال صلى الله عليه وسلم: ادهن بلاً وكل ولاً تبرأ، فلما انتبه من نومه بقي متعجباً من ذلك ولم يفهم ما معناه ولم يعرف المعبرون عنه شيئاً إلاً علي بن أبي طالب القيرواني فإنه قال: يا أمير المؤمنين إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فتبرأ، لأن الله يقول: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[النور: ٣٥]، فلما استعمل ذلك صح وبرأ.

(٧) قال: ونقلت من خط علي بن رضوان في شرحه لكتاب «جالينوس» في فرق الطب ما نصه: «قد عرض لي منذ سنين صداع مبرح من امتلاء في عروق الرأس، ففصدت فلم يسكن، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله، فرأيت «جالينوس» في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء، فقرأت عليه منها سبع مقالات، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال: فنسيت ما بك من الصداع وأمرني أن أحجم «القمحدوة» من الرأس، ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان».

(٨) وقال عبد الملك بن زهر في كتاب التيسير: إنني كنت قد اعتل بصري من قيء بحراني أفرط عليّ فعرض لي انتشار في الحدقتين دفعة فشغل بذلك بالي، فرأيت فيما يرى النائم من كان في حياته يعنى بأعمال الطب، فأمرني في النوم بالاكتحال بشراب الورد، وكنت لم أزل طالباً لم يكن لي حنكة في الصناعة، فأخبرت أبي فنظر في الأمر ملياً ثم قال: استعمل ما أمرت به في نومك، فانتفعت به، ثم لم أزل أستعمله إلى وقت وضعي هذا الكتاب في تقوية الأبصار، هذا أيضاً كثير مما يحصل بالرؤيا الصادقة، فإنه قد يعرض أحياناً لبعض الناس أن يروا في منامهم صفات أدوية ممن يوجدهم إياها فيكون بها برؤهم، ثم تشتهر بالمداواة بتلك الأدوية فيما بعد. انتهى الكلام على الحال الثانية.

## الحال الثالثة

أن يكون قد حصل لهم شيء بالاتفاق والمصادفة مثل ما حصل لأندروماخس وغيره فيما تقدم في آخر سورة « النحل »، إذ ذكرت لك هناك كيف عرف الأطباء بالاتفاق كون سم الحيات يشفي بلحومها، هكذا كل سم لحيوان يمنع ضرره لحم ذلك الحيوان، وهكذا يشفى كل مرض مزمن قوي بلحوم الحيات، كالبرص والجذام، فارجع إليه إن شئت هناك لتعرف هذه الأحوال الثلاث وهي التجربة والأحلام والمصادفات والاتفاق، وإنّما ذكرت لك ذلك لتفهم قوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠].

إن الشفاء من الله فإنه إما أن يلهم الناس في أحلامهم وهذا منه تعالى، وإما أن يلهمهم في اليقظة فيتفكرون كما في الحال الأولى وهذه هي التجربة، وإما أن تقع لهم الأشياء مصادفة فيفكرون فيها، فسواء أكان بالأحلام أم بالاعتبار والبصيرة، فكل هذا من الله، ولتعلم أن الله عزَّ وجلَّ لا يحب أن تكون جميع علومنا بالأحلام والرؤى ولا بوحي الأنبياء، لأن الأحلام إنّما هي موقظات فقط، ثم إن الناس عليهم أن يجدوا بأنفسهم ليرتقوا، أما الأنبياء عليهم السلام فإن الله جعلهم قليلاً في الأرض، هكذا النابغون في الأمم والحكماء، ذلك لأن الله يريد أن يجعل هؤلاء الأنبياء موقظين فيوحي إليهم قولاً إجمالياً ويطلب من أتباعهم أن يفكروا فيه، فلو أن الناس أتت لهم جميع أعمالهم بطريق الرؤى أو كان الأنبياء معطين الناس كل علم وكل حكمة بحيث لا يفكرون ولا يدرسون وإنّما يعيشون على أحلامهم الصادقة وأنبيائهم الصادقين، لكان ذلك وبالاً، ولذلك تجد الأحلام الصادقة قليلة جداً والأنبياء قلوا والعلوم التي أتوا بها تحتاج إلى التعقل والتفكر حتى لا تموت عقول الشعوب التابعة لهم بالاتكال على ما سمعوه، وعلى كل فالشفاء من الله إما بالرؤيا وإما بالجد والاجتهاد والتفكر، والأول مبادئ وما بعده هو الأغلب الأكثر الأعم.

## الحال الرابعة

وهي ما يشاهده الناس في الحيوان مثل الذي ذكره الرازي في كتاب الخواص أن الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان مضى فجاء بحجر اليرقان ـ وهو حجر أبيض صغير يعرفه ـ فجعله في عشه فيبرأ، وأن الإنسان إذا أراد ذلك الحجر طلى فراخه بالزعفران فيظن أنه قد أصابهم اليرقان فيمضي فيجيء به فيؤخذ ذلك الحجر ويعلق على من به اليرقان فينتفع به « هكذا يقول ابن أبي أصيبعة والله أعلم بالحقائق ».

وكذلك من شأن العقاب الأنثى أنه إذا تعسر عليها بيضها وخروجه وصعب حتى تبلغ الموت ورأى ذكرها ذلك طار وأحضر حجراً يعرف بالقلقل، لأنه إذا حرك تقلقل في داخله، فإذا كسر لم يوجد فيه شيء، وكل قطعة منه إذا حركت تقلقلت مثل صحيحه، وأكثر الناس يعرفه بحجر العقاب، ويضعه فيسهل على الأنثى بيضها، والناس يستعملونه في عسر الولادة على ما استنبطوه من العقاب، ومثل ذلك أيضاً أن الحيات إذا أظلمت أعينهن لكمونهن في الشتاء في ظلمة بطن الأرض وخرجن من مكامنهن في وقت ما يدفأ الوقت، طلبن نبات « الرازيانج » وأمررن عيونهن عليه فيصلح ما بها، فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته إذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه.

وذكر « جالينوس » في كتابه في الحقن عن « أرودوطس » أن طائراً يدعى « ايبس » هو الذي دل على علم الحقن، وزعم أن هذا الطير كثير الاغتذاء لا يترك شيئاً من اللحوم إلاَّ أكله، فيحتبس بطنه لاجتماع الأخلاط الرديئة وكثرتها فيه، فإذا اشتد ذلك عليه توجه إلى البحر فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم أدخله في دبره، فيخرج بذلك الماء الأخلاط المحتقنة في بطنه ثم يعود إلى طعامه الذي عادته الاغتذاء به.

## الحال الخامسة

أن يكون حصل شيء منها أيضاً بطريق الإلهام كما هو لكثير من الحيوانات، فإنه يقال: إن البازي إذا اشتكى جوفه عمد إلى طائر معروف يسميه اليونانيون « ذريفوس »، فيصيده ويأكل من كبده فيسكن وجعه على الحال، وكما تشاهد عليه أيضاً السنانير فإنها في أوقات الربيع تأكل الحشيش، فإن عدمت الحشيش عدلت إلى خوص المكانس فتأكله، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تغتذي به أولاً، وإنّما دعاها إلى ذلك الإلهام لفعل ما جعله الله تعالى سبباً لصحة أبدانها، فإذا أكلته تقيأت أخلاطاً مختلفة قد اجتمعت في أبدانها، ولا تزال كذلك إلى أن تحس بالصحة المأنوس إليها بالطبع فتكف عن أكله، وكذا أيضاً متى نالها أذى من بعض الحيوانات المؤذية ذوات السموم أو أكلت شيئاً منها فإنها تقصد إلى السيرج وإلى مواضع الزيت فتنال منه، وعند ذلك يسكن عنها سورة ما تجده.

ويحكى أن الدواب إذا أكلت الدفلى في ربيعها أضر ذلك بها، فتسارع إلى حشيشة هي بادزهر للدفلى فترتعيها ويكون بها برؤها، ومما يحقق ذلك حالة جرت من قريب وهي أن بهاء الدين بن نفاذة الكاتب حكى أنه لما كان متوجهاً إلى الكرك كان في طريقه بالطليل ـ وهي منزلة كثيرة نبات الدفلى ـ فنزل هو وآخر في مكان منها، وإلى جانبهم هذا النبات، فربط الغلمان دوابهم هنالك وجعلت الدواب ترعى ما يقرب منها وأكلت من الدفلى، فأما دوابه فإن غلمانه غفلوا عنها فسابت ورعت من مواضع متفرقة، وأما دواب الآخر فإنها بقيت في موضعها لم تقدر على التنقل منه، ولما أصبحوا وجدت دوابه في عافية ودواب الآخر قد ماتت بأسرها في ذلك الموضع.

وحكى « ديسقوريدس » في كتابه أن المعز البرية بـ« أقريطس » إذا رميت بالنبل وبقيت في أبدانها فإنها ترعى النبات الذي يقال له « المشكطرامشير »، وهو نوع من الفوتنج، فيتساقط عنها ما رميت به ولم يضرها شيء منه.

وحكى القاضي نجم الدين عمر بن محمد بن الكرندي أن اللقلق يعشش في أعلى القباب والمواضع المرتفعة، وأن له عدواً من الطيور يتقصده أبداً ويأتي إلى عشه ويكسر البيض الذي للقلق فيه، قال: وإن ثم حشيشة من خاصيتها أن عدو اللقلق إذا شم رائحتها يعمى فيأتي بها اللقلق إلى عشه ويجعلها تحت بيضه فلا يقدر العدو عليها.

وذكر أوحد الزمان في المعتبر أن القنفذ لبيته أبواب يسدها ويفتحها عند هبوب الرياح التي تؤذيه وتوافقه. وحكى أن إنساناً رأى الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم عنها إلى بقلة تتناول منها ثم تعود لقتالها، وأن هذا الإنسان عاينها فنهض إلى البقلة فقطعها عند اشتغال الحبارى بالقتال، فعادت الحبارى إلى منبتها ففقدتها وطافت عليها فلم تجدها فخرّت ميتة فقد كانت تتعالج بها. قال: وابن عرس

يستظهر في قتال الحية بأكل السذاب، والكلاب إذا دودت بطونها أكلت السنبل وتقيأت واستطلقت، وإذا جرح اللقلق داوى جراحه بالصعتر الجبلي، والثور يفرق بين الحشائش المتشابهة في صورها ويعرف ما يوافقه منها فيرعاه، وما لا يوافقه فيتركه مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه، ومثل هذا كثير، فإذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها ألهمت مصالحها ومنافعها، كان الإنسان العاقل المميز المكلف الذي هو أفضل الحيوان أولى بذلك، وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب إنَّما هو إلهام وهداية من الله سبحانه لخلقه، وبالجملة فإنه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة أكثر ما حصلوه من هذه الصناعة ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه وأدتهم إليه فطرهم فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التي حصلت لهم بهذه الطرق المتفننة المختلفة أشياء كثيرة، ثم إنهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عللها والمناسبات التي بينها، فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادئ منها يبتدأ بالتعلم والتعليم، وإلى ما أدركوه منها أولاً ينتهي، فعند الكمال يتدرج في التعليم من الكليات إلى الجزئيات، وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات إلى الكليات. اهـ.

هذا ما اصطفيته من كتب المتقدمين، وقد ظهر منه أنه ليس لمن قبل اليونان طب، ذلك لأن سلسلة التاريخ الطبي لم تظهر بين الأمتين في التاريخ فانظر ماذا جرى؟ الذي جرى أن مدرسة الطب المصرية قد مضى لها منذ تأسيسها ١٠٠ سنة، وصادف أن ذلك وقت طبع هذه السورة، أي: قبيله بقليل، والأمة المصرية كثر عددها فوجب توسعة المدرسة، فهنالك أخذت الحكومة تبني لها بناء جديداً، واجتمع مؤتمر طبي لهذه المناسبة ووضع الحجر الأول بحضورهم، وبهذه المناسبة كتبت الجرائد المصرية تاريخ الطب، فرأيت أن ما كتبته الآن ليس أول الطب في العالم المعروف، بل ظهر أن قدماء المصريين كان الطب عندهم منذ آلاف السنين مشابه للطب الحديث الآن كل المشابهة، فبينما نرى هؤلاء الأطباء الذين ذكروا هنا لا يزالون ينتظرون الطب من الرؤى في المنام ومن التجاريب، إذا قدماء المصريين قبلهم بآلاف السنين قد وصلوا لما وصل إليه الناس الآن. فهاك ما جاء في إحدى المجلات العلمية بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٨م و٨ رجب سنة ١٣٤٧هـ، وهذا نصه: (شكل ٦).

(شكل ٦)

## مخطوطات هيروغليفية

منقولة عن ورق البردي المعروفة بورقة «ايبر» التي اكتشفها العلامة «جورج ايبر» سنة ١٨٧٥ ويرجع تاريخها إلى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد، وهي تبيّن أول أقر باذين عرف في تاريخ العالم فإلى اليمين إحدى عشرة وصفة لعلاج التهاب القرنية المصحوب بإفراز، ويحتوي على مرهم «فرديجري» ويعرف بالمرهم المصري، ومن محتوياته بذور خاصة تنبت في الوجه القبلي، وأكسيد الرصاص وعسل بكميات متساوية، وفي الوسط أربع وصفات لطرد الديدان من الأمعاء تؤخذ في مدة أربعة أيام، وإلى اليسار ثلاث وصفات لعلاج الإسهال تحتوي على عنب وعسل وبصل وتين ورصاص أخضر (؟) ودقيق وزلال بيض، والقراءة من اليمين إلى اليسار. اهـ.

وقد جاء في وزارة المعارف البريطانية أنه ثبت من علم الآثار أن الكهنة المصريين القدماء كانوا قسمين: الأطباء والصيادلة، على نحو ما هو جار الآن، وأن بابل نقلت منهم هذا التقسيم، واستمر الحال إلى يومنا هذا، حيث يصف الطبيب الدواء فيحضره الصيدلي وكلاهما يفهمان بعضهما، ولا يمكن للغريب عن هذه الدائرة فهم مخطوطاتهم حتى يقول العامة: «خط الطبيب لا يقرؤه سوى الصيدلي»، يقول العامي ذلك وهو متعجب ويتمنى أن يتمكن من حل هذه الألغاز ويقصد إلى من يعرف القراءة جيداً، ولكن على غير جدوى لأن الأخير يتعجب بدوره لعدم إمكانه قراءة الوصفة، هكذا كان الأطباء من الكهنة القدماء يكتبون وصفاتهم على ورق البردي إلى الصيادلة من الكهنة أيضاً الذين يحضرون بدورهم الدواء للمريض، والمريض بين الاثنين مذهول، فنشأ عن ذلك الاعتقاد بأن الكهنة يعملون بالسحر.

إن الله عزَّ وجلَّ قد أذن لهذا التفسير أن ينال حظاً عظيماً، فبينما نحن نقرأ في كتبنا القديمة أن الطب كان مبتدئاً في أزمان قريبة، إذا بحادثة مدرسة الطب المصرية قد قربت البعيد ونشرت هنا النصوص المصرية القديمة مع نصوص الأدوية.

إذن علمنا أن العلم قديم وتام أيضاً، وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨] وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨].

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يسألني في الأمور الهامة، فقال: هاأنت ذا ذكرت أقوال الأطباء المتقدمين من أمم اليونان والإسلام، ولما عثرت على أن الطب أقدم من ذلك أظهرته، فما هذا التطويل؟ فهل التفسير أصبح تاريخاً للعلوم؟ إن هذا لشيء عجاب.

اللهم إن هذه الطريقة مما يزهد القارئ في القراءة، فيقول: إنه بأدنى مناسبة يطيل الشرح والقول ويخرج القارئ عن المقصود من الكتاب الحكيم. فقلت: لننظر ما يقول الله هنا، إنه يقول على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٧٨-٨٠]، ثم أتبع هذا بالموت والبعث، فهنا ستة أحوال: الخلق، الهداية، الإطعام، السقي، المرض، الشفاء. أما الخلق فقد تقدم في أول سورة «المؤمنون»، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢]، فكرر الخلق ٦ مرات، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[الإنسان: ٢]، فالخلق وهي الحال الأولى ملازم الابتلاء

والاختبار مع الأخلاط، لأن الإنسان مخلوق هو والحيوان والنبات من عناصر مختلطة وكل مركب متوقف على كل جزء من أجزائه، وهذه الأجزاء دائماً في الذوبان والتحليل، ألا ترى رعاك الله إلى ما تقدم في سورة «النور» وكيف استبان هناك أن هذه الأجسام كلها راجعة إلى الجوهر الفرد، والجوهر الفرد يرجع إلى كهرباء سالبة وكهرباء موجبة، أي أن العوالم التي نعيش فيها ومنها خلقنا ما هي إلاّ حبيبات مضيئة نورية كهربائية، السالبة تجري حول الموجبة وتدور كما تدور الكواكب حول الشمس وذلك بسرعة ملايين في الثانية الواحدة، فاقرأه هناك محققاً، فأشبهت في نورها وفي جريها أحوال الكواكب السيارات الجاريات حول الشمس، وهذه النقط الضوئية الجاري بعضها على بعض من سالبة وموجبة باختلاف أبعادها وسرعتها وكميتها تختلف العناصر المركبات منها كالحديد والنحاس والذهب والأكسوجين والأودروجين، وهكذا مما وصل عدده إلى ٨٠ فأكثر، هذه هي العناصر وهذه هي التي خلق الله فيها أجسام الحيوان والنبات، وخلق الإنسان من أمشاج كما خلق كل نبات وكل حيوان.

إذن الإنسان مكون من أشياء قد خلط بعضها ببعض، والجسم والعقل فيه مرتبط بهذه البنية، لذلك ترى الله كما جعل خلقه أخلاطاً وضع فيه وفي كل حيوان نوعاً من الهداية، والهداية مقدرة بقدر على مقتضى الحاجة، فإذا كان النبات من أخلاط فله هداية تخصه كما في إلقاحه ونموه، انظره في سورة «الحج» وغيرها، وإذا كان الحيوان أرقى من النبات، والإنسان أرقى من الحيوان، فإنك ترى الله ألزمهما قوى باطنة فطرية فطرهم عليها، مثال ذلك الإحساس بالجوع وبالعطش وبالمرض وبالخوف من العدو وبالغيرة من القرين وبالحسد وبالغيظ وبالحب وبالشبق وبالذل وبالفخر، كل هذه عواطف خلقت مع أنواع الحيوان تقل وتكثر على حسب الحاجة، ولولا هذه الإحساسات لم يبق حيوان ولا إنسان على وجه الأرض، أفلا ترى أن هذا الإحساس المنوع إلى هذه الأنواع هداية، هذا هو معنى قوله تعالى هنا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، فعبر بـ «الفاء» إشارة إلى أن الهداية مقترنة بالخلق ملازمة له ملازمة تامة، فالخلق من المركب يلزمه هداية لحفظ هذا المركب، ولذلك نجد كل حيوان يحس بألم الجوع وألم الشبق وألم العطش وألم المرض، فلماذا هذا؟ هذا لحفظ ذلك المركب، فإن لم يكن هذا الألم أو هذا السوط المؤلم أو هذه المقامع من حديد تساق بها النفوس إلى حفظها ما عاشت، فهذا والله عذاب أريد به الرحمة، وشقاء أريد به النعيم، وذل أريد به العز، وإهانة أريد بها الإكرام. إن العوالم التي في أرضنا ناقصة بالنسبة لعوالم أخرى، والله لم يسلط عليها هذه الآلام نكاية بها ولا إذلالاً لها، ولكن سلطها عليها ليحفظ كيانها ويجعل لها حياة، ولم يكن من الممكن بالنسبة لها أن تخاطب بخطاب ألطف من هذا لتهتدي به، فهذه المؤلمات هي اللغات الإلهية التي ليست بحرف ولا صوت، ركبت في طباعها وغرست في نفوسها، تهدي بها إلى المطاعم والمشارب والأدوية، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

فلما سمع ذلك صاحبي قال: لقد والله شرحت صدري، ما أجمل العلم! هاأنا ذا أصبحت بعد هذا أقرأ في الهرة وفي الجمل وفي الإنسان علوماً هي أمامي مكشوفة، ولكني لم أفك طلاسمها ولا رموزها، ولكني الآن أخذت أفك رموزها وطلاسمها، وقد ظهر لي أن هذه الدواب وهذا الإنسان فضلاً عن مساعدة الجميع بعضهم لبعض هم صحائف منشورة تقرؤها نفوس أعلى من نفوس أهل

الأرض، فإن هذا القول يظهر لي أن وراءه ما هو أعلى منه وأجمل وأبهج وأشرف مخبوء لم يظهر لنا معاشر بني آدم في الأرض، فأرجو أن تتمّ القول فإنه جميل، وهو حقاً في نفس القرآن وفي نفس الآيات في هذه السورة. فقلت: الحمد لله الذي شرح صدرك لما أقول، وإني أشعر أن ما ترضاه أنت يرضاه جميع أحبائي قراء هذا التفسير، ويشعرون بما تشعر به أنت شعور سعادة ومحبة وسرور.

فلأتم هذا المقام فأقول والله المستعان: إن الهداية في الآية على قسمين: هداية فطرية، وهداية تعليمية. فأما الهداية الفطرية فهي ما قلته لك من الجوع والعطش وما تلاهما. وأما الهداية التعليمية فأنها تظهر أولاً في الحيوان، وترتقي في الإنسان، وأضرب لك مثلاً الغراب، إنه من أكالة اللحوم فإن لم يجدها حية أكل الرمم، وهو يأكل الدود والفراش والخنافس وصغار الحيوان، وقد يسرق عش الطائر مع أفراخه الزغب، ويخطف قطعة الجبن ولقمة الخبز، وهو جبان، وإذا صاح أحدها اجتمعت منها جماعات كثيرة، وهو يقوم مبكراً، كل ذلك بغريزة فيه، فانظر ماذا ترى، تراه يعلم صغاره الطيران فهو يأخذها خارج العش ويطير بها، هاهنا أيها الذكي وصلنا إلى المقصود وهو أن الحيوان ارتقى بعضه طبقاً عن طبق حتى كان منه ما وصل إلى درجة في بعض شؤونه استعملها الإنسان، فإننا نشاهد الضباط يمرنون العسكر على الكر والفر واستعمال السلاح والمشي والاصطفاف، فهاهو ذا الغراب لم يقف عند حد الهداية الفطرية، بل أخذ يمرن صغاره على الطيران كما فتحت الأمم في أيامنا مدارس للطيران.

الجراد لا يربي صغاره، والعقرب الذكر يموت غالباً قبل وضع صغاره، وأنثى العقرب تموت متى قويت أبناؤها، كما ترى شرحه في سورة «المائدة» عند آية الغراب، فهاهو ذا الغراب أخذ يعلم، أي أنه انتقل من الهداية الفطرية إلى الهداية التعليمية، الله يقول: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾[الليل: ١٢-١٣]، فالله تولى هداية خلقه كلهم، فالهداية الفطرية عامة، أما الهداية التعليمية فهي التي جعلت خاصة، وترى مثلها في الغراب، ومثلاً آخر في النمل، فقد تقدم في هذا التفسير أن النملات الصغيرات إذا كانت في شرنقتها «فيلجتها» وأرادت الخروج منها عند تمام مدتها حضرت لنجدتها وإخراجها النملات الكبيرات كأنهن الأطباء أو القابلات، فيمزقن الأربطة التي تستعصي على صغارها لتخرجها من محبسها، كما تساعد القابلة الأم في استخراج جنينها من رحمها.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أنا الآن عرفت الفرق بين الهداية الفطرية والهداية التعليمية، ولكن أرى الفرق بينهما عسراً، فما المانع من أن يكون تعليم الغراب لابنه الطيران غريزة؟ أي فطرة تعليمية، فيا ليت شعري ما الفرق بين الغريزة والتعليم؟ هذا ما لا أتعقله. فقلت: إن الفرق بينهما عسر كالفرق بين الحيوان والنبات، فانظر في سورة «الحج» وفي غيرها تجد عند قوله تعالى: ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الحج: ٦٣] أن الفرق بينهما عسر، كذلك الفرق بين الغريزة والتعليم عسر دقيق، وإنّما يمكننا أن نقول: إن هناك ارتقاء عن الغريزة شيئاً فشيئاً، يبتدئ ذلك في الحيوان ويرتقي في الإنسان، وكلما كان الإنسان أرقى كان أكثر تعقلاً وفعل باختياره ولم يتكل على غريزته، إن الإنسان كما أعطي غريزة كالحيوان ارتقى ونال هداية أعلى من الغريزة، وهذه الهداية تبتدئ في طعامه وشرابه ولباسه والهواء والضوء، فالناس غرقوا في الهواء وفي الضياء، واحتاجوا إلى الماء وإلى الغذاء وإلى الدواء، فهم في ذلك كالحيوان، ولكنهم لما كانوا أتم تركيباً أعطوا قوة عاقلة، وهذه القوة العاقلة

سلطوها على أنواع النبات التي تعد بمئات الألوف، وعلى أنواع الحيوان التي تعد بأكثر من ذلك، فعرفوا ما ينفعهم وما يضرهم، وأخذت الأمم القديمة جميعها تتعلم لا المصريون وحدهم، بل هناك أمم وأمم لم تصل لنا أخبارهم وصلت إلى ما لا نعلمه، وتنحصر الهداية التعليمية عند جميع الأمم في قسمين: قسم حفظ الصحة، وقسم مداواة المرض. فأما قسم حفظ الصحة فهو نوعان: نوع يختص بالطعام والشراب والهواء والماء وهذا تقدم في سورة «طه» عند ذكر آدم فاقرأه هناك وتدبره. ونوع متمم لذلك:

(١) مثل المحافظة على نظافة الجلد بأن يستحم مرة في الأسبوع شتاء ومرتين صيفاً.

(٢) ومثل أن يغسل الإنسان يديه بالصابون قبل الشروع في غسل عينيه ووجهه وقبل تعاطي الغذاء.

(٣) ومثل أن يغسلهما بعد الفراغ من الأكل وبعد لمس أي جسم غير نظيف وبعد الاستيقاظ من النوم وقبل إرادة النوم، كل ذلك بالماء والصابون فإنه يبعث في الجسم نشاطاً وانشراحاً.

(٤) ومثل غسل القدمين بالماء والصابون صباحاً ومساءً كذلك يخلل ما بين الأصابع ويزيل ما بينهما من الأقذار.

(٥) ومثل أن شعر الرأس يجب غسله كل أسبوع بالماء والصابون.

(٦) ومثل أن تقلم الأظفار ثم تغسل الأصابع بعد القص بالماء مع الليفة أو نحوها لإزالة «التف» أي القذر تحتها.

(٧) ومثل غسل الأنف وتنظيفه، وأنه لا يجوز نتف الشعر الذي فيه أو قصه، فإن الله خلقه لصحة أبداننا فهو يضعف تيار الهواء إذا كان شديداً.

(٨) ومثل أنه لا ينبغي إدخال الإصبع في الأنف لأنها عادة رديئة، وأنه عند التمخط تسد إحدى فتحتي الأنف ليخرج المخاط من الأخرى عند نفخ الهواء، ثم يعاد ذلك بسد الثانية وفتح الأولى.

(٩) ومثل العناية بالأسنان وتنظيفها بحيث تغسل بالماء والصابون قبل الأكل وبعده لئلا تبقى بعض الفضلات فتضر وتعقب أمراضاً لا قبل لنا بها، ويستحسن التنظيف بنحو السواك والفرجون بعد غمسه في بعض العقاقير عند الصيادلة، ويكون ذلك التنظيف بالعقاقير مرتين في اليوم عند الاستيقاظ من النوم وعند الذهاب إلى الفراش، هذا كلام الأطباء، وديننا أمر بأكثر من ذلك بحيث يكون السواك عند كل وضوء وعند كل صلاة وهكذا، ويجتنب تكسير الأجسام الصلبة بالأسنان لئلا تتلف ويدخلها السوس.

(١٠) ومثل تنظيف الأذن من الخارج بالماء والصابون، والأفضل أن يكون الماء دفيئاً، ولا ينبغي استعمال أجسام صلبة في تنظيف الأذن، هكذا لا يدخل جسماً غريباً كالحمصة أو قطعة من الخشب.

(١١) ومثل أن يفعل بالعين ما يفعله بالأذن، فيغسلان بالماء والصابون لئلا يضع الذباب بيضه فيهما، فليغسل الإنسان وجهه ويديه كل يوم مرتين بالماء والصابون، ومعلوم أن الوضوء يتكرر وهذه نعمة إسلامية عظيمة، ومن العجب أن عناية ديننا الإسلامي بالصحة أرقى من عناية الأطباء.

(١٢) ومثل أن وضع الكحل في العين مضر، ومثل أن ينام على فراش أرمد يصيبه الرمد سريعاً، ومثل أنه إذا دخل جسم غريب من ذرات التراب في العين وجب غسلها بالماء الفاتر مرات كثيرة بعد إغلائه، فإن لم يتيسر إخراجه بهذه الطريقة فليذهب الإنسان حالاً إلى الطبيب.

## من بدائع وعجائب الإسلام في الطب «السواك»

أيها المسلمون، هل كان منا أحد يظن أننا في القرن العشرين نرى دين الإسلام الذي ظهر في جزيرة العرب التي لا علم فيها ولا ملك ولا دين ولا مدنية ولا كتابة ولا قراءة تظهر آثاره ظهوراً بيناً في المستشفيات ومدارس الطب وكشف العلماء، ومن ذا الذي كان يخطر له ذلك؟.

أيها المسلمون، نحن كنا في الجامع الأزهر نحضر الدروس على شيوخنا، وهذه صفحة مما قرأناه من كتاب المنهج مع شرحه وحاشيته في مذهب الشافعي ملخصاً، قال ما ملخصه: إن الاستياك سنة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «السواك مطهرة للفم»، ويسن أن يكون ذلك الفعل في عرض الأسنان لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا استكتم فاستاكوا عرضاً»، ويجوز أن يكون الاستياك طولاً وهذا في الأسنان، أما اللسان فيسن فيه الاستياك طولاً وتكون آلة السواك مادة خشنة كعود الأراك وجريد النخل والزيتون، وكل ما له ريح طيب ثم بقية الأعواد، وهذه يفضل فيها اليابس المندى بالماء، ثم المندى بماء الورد، ثم المندى بالريق، ثم الرطب، ثم اليابس غير المندى، ويقال: إن اليابس غير المندى مقدم على الرطب لأنه أقوى في إزالة التغير.

### فوائد السواك

إنه يبيض الأسنان ويزيل قلحها ويثبتها، ويطيب النكهة، ويشد اللثة ويزيل رخاوتها، ويصفي الخلق، ويفصح اللسان، ويزيد في العقل، ويذكي الفطنة، ويحسن الخلق، أي: لون البدن، ويقيم الصلب، ويقطع الرطوبة من العين، ويحد البصر، ويبطئ الشيب، ويسوي الظهر، ويرهب العدو، ويصلب اللحم، ويضاعف الأجر، ويرضي الرب، ويسخط الشيطان، ويزيد في ثواب الصلاة، وينمي الأموال، ويقوي القلب والمعدة وعصب العين.

### أوقات السواك

هو مؤكد في مواضع، وهي: الوضوء والصلاة وتغير الفم والقراءة ودخول المنزل وإرادة النوم واليقظة. ومن الأحاديث الواردة في السواك خبر ابن خزيمة: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء». وحديث الشيخين: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»، أي: أمر إيجاب. وحديث الشيخين أيضاً: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك» أي: يدلكه به. وحديث مسلم: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت بدأ بالسواك». اهـ.

هذا ما جاء في دين الإسلام من الحث على السواك. فلننظر الآن في الكشف الحديث: من عادة طلاب العلم الديني في العالم أن بعضهم يعمل بأوامر دينه، والأكثرون ينصرفون عن بعضها كالسواك لأنه سنة، والسنة لا عقاب عليها، وقد كنت أنا أتساهل في أمر السواك ولا سيما لما صرت مدرساً في المدارس الأميرية، ثم إني يوماً توجهت إلى مدرسة الوعظ والإرشاد التي أقامها الشيخ رشيد رضا، فلما دخلتها وجدت المرحوم الدكتور صدقي يعطي درساً وفي يده كتاب باللغة الفرنسية وهو يترجم والطلاب يكتبون، فسمعته يقول: وهذه الشجرة تسمى شجرة محمد صلى الله عليه وسلم ـ يريد بذلك شجرة الأراك ـ وأخذ يشرح المقام شرحاً وافياً، يقول: إن مؤلف الكتاب يفضل في السواك شجر

الأراك على الفرشة المعتادة، وهذه الشجرة يسميها الفرنجة شجرة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أمر أمته بأن يستاكوا بأعوادها، هنالك استيقظت من غفلتي وقلت: يا للعجب، علم قرأناه ثم أهملناه جهلاً بمزاياه، ومن ذلك الوقت أخذت أواظب على السواك ثانياً. والأهم من ذلك ما جاء اليوم في الطب الحديث، فاسمعوا ما يقوله الأطباء في عصرنا، جاء في مقال طبيب بمجلة «الجديد» ما هذا نصه:

## خطر لا يفطن إليه كثير

### هل للأمراض الباطنية علاقة بأمراض الفم؟ للدكتور يوسف زكي

قد يدهش القارئ إذا عرف أن بعض جهابذة الطب يطلبون من بعض مرضاهم أو بالأحرى من معظمهم أن يزوروا طبيب الأسنان ويأتوا لهم بتقرير منه عن حالة فمهم وأسنانهم، وربما تزداد دهشتهم إذا عرفوا أن مريضاً بالرمد استعصى علاجه على أكابر الأطباء وكان يتملك اليأس هذا المريض وأن يفقد بصره لولا أن أشار عليه بعضهم باستئصال أسنانه أو بعضها، ولم يكد يفعل ذلك حتى استجاب مرضه للدواء ونال تمام الشفاء.

إن الفم هو أول أجهزة القناة الغذائية، وهو العامل الأول في إعداد الغذاء لعملية الهضم، فإذا حصل بأجزائه أو ببعضها عطب أضر ذلك بالجهاز الهضمي أو ببعضه وأفسد عمله، وربما تعدى ضرره إلى أجهزة أخرى، وقد تتخلف بالفم بقايا من الطعام تتعفن وتنمو فيها جراثيم الأمراض، فتتسرب تلك الجراثيم إلى الأعضاء المجاورة كالفم والحنجرة ثم إلى المعدة، فتحدث فيها الأدوار المختلفة المعروفة، ثم إن نسبة سرطان الفم واللسان لتآكل الأسنان وتقيح اللثة مثلاً أمر معروف مؤكد، بل قد ذهب بعض الأطباء إلى أن سرطان المعدة نتيجة لازمة للأمراض التقيحية المزمنة التي تعتري اللثة أو لخراجات الأسنان، وأيد رأيه هذا بالأدلة الدامغة، ثم جاء بعده كثيرون أثبتوا ذلك أيضاً. قلنا: إن الأعضاء المجاورة للفم هي أول ما يتأثر بأمراضه، وتأتي بعد ذلك المعدة، فنوازلها الحادة والمزمنة قد تكون أيضاً من أمراض الفم، وأول من تنبه لذلك هو الدكتور «هنتر» سنة ١٩٠١، ونشر ملاحظاته، فكان منها أن صار أطباء الأمراض الباطنية يفحصون أسنان مرضاهم قبل كل شيء، فإذا بدا لهم أمر ما نصحوا لهؤلاء المرضى بمعالجة فمهم قبل البدء في معالجة أمراضهم الباطنية، وقد أكد الدكتور «جوريي» أن التهابات المعلقة الدودية وتقيح الأعور تتسبب في الغالب من ذلك القيح المتولد في الفم، وأضاف الدكتور «هنتر» على ذلك أن القيح المتولد في الفم يسبب أيضاً الأنيميا الخبيثة، وإذا وجدت خراجات الأسنان سبيلاً إلى الدورة الدموية يحدث منها أمراض القلب مثل التهاب غشائه الداخلي أو غلافه المسمى بـ«التامور»، وقلما يشفى القلب من الأمراض متى تسمم بالمواد القيحية أو العفنة، ولا ننسى هنا أن نذكر أن مرض الريماتزم والمفاصل بنسبة ٩٠ في المائة تدخل في أسبابه أمراض الفم، ففي إنكلترا وألمانيا يبدؤون في المستشفيات بعلاج أسنان كل من تقدم إليهم بمرض من أمراض الريماتزم على اختلاف أنواعها، وأخيراً نقول: إن كثيراً من الضعف أو النهوكة أو ارتفاع درجة الحرارة أو الخمول قد لا يكون لها سبب غالباً سوى فساد أسنان المريض وفمه، ولا نذهب بعيداً إذا ذكرنا في النهاية أن مستشفيات الأمراض العقلية ارتفعت فيها نسبة من نالوا الشفاء التام من ٤٢ في المائة إلى ٨٧ في المائة عندما بدؤوا يعيرون أسنان المريض وفمه عناية تامة، فيعالجونها بالاستئصال والنظافة التامة،

وما إلى ذلك مما يعرفه أرباب الصناعة، كذلك زادت نسبة الذين تحسنت صحتهم في المصحات المعدة لمعالجة مرضى التدرن الرئوي «السل» عندما أخذ الأطباء في إعارة أسنان المرضى الالتفات المطلوب.

ويجدر بي أخيراً أن أقول بأنه من البديهي أن يكون لقلة وجود الأسنان بالفم ـ أعني سقوطها ـ أسباب خطيرة لاضطراب عملية المعدة، لأن المضغ يصدر إلى المعدة دون أن يكون قد طحن في الفم طحناً كافياً، وبذلك يقل مجهود الغدد المعدية ويصعب عليها أداء الوظيفة على كامل هيئتها، فتنشأ الالتهابات البسيطة والتي لا تلبث هذه أن تنقلب إلى حادة، فعلى الإنسان إذن أن لا يهمل أمر فمه وأسنانه، بل يجب عليه أن يعرض نفسه على الطبيب إذا ما شعر بأقل شيء، فإن ذلك خير له وأبقى، فإذا تعهد الإنسان فمه بالغسيل وأخرج ما يعلق بأسنانه من بقايا الطعام ونظفها جيداً بالفرشة أو السواك عقب كل أكل؛ أمن شر كثير من أمراض الفم والأسنان وطرد من فمه أعداء كثيرة لا يستهان بها. اهـ.

هذه أهم النصائح التي أعلنها أطباء الأمم قديماً وحديثاً، وهي متممات للمحافظة على الصحة التي تقدم بعضها في سورة «طه» من حيث الطعام والشراب والهواء، وهكذا تقدم بعضها الآخر في سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الآية: ٣١]، فقسم المحافظة على الصحة الذي ذكرت لك مجمله هنا لأنتفع به أنا وأنت وكل من قرأ هذا التفسير هو المذكور في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء: ٧٨-٧٩]، فذكر الخلق وقد بيناه سابقاً، وقد قلت لك: إن الخلق تصاحبه الهداية، وقلت: إن الهداية إما فطرية وإما تعليمية، ونحن الآن في الهداية التعليمية، والهداية التعليمية كما قدمنا قسمان: قسم حفظ الصحة، وقد تم الكلام عليها، وقسم مداواة المرض، فالهداية في الطعام والشراب المذكورين في الآية قد تقدم الكلام عليها وسيأتي بعد استيفاء هذا المقام شرح الأمراض في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠]. وقد قدمنا أن المحافظة على الصحة تكون بالتعليم، والتعليم على قسمين: تعليم في متناول كل واحد معرفته. وتعليم يختص بتعقله الأطباء، ثم الأمة تتبعهم في ذلك.

## الكلام على التعليم الذي يختص بمعرفته الأطباء

فلأذكر لك هنا منه مسألتين:

**المسألة الأولى**: في بيان أعداء الإنسان في داخل جسمه، وكيف كنا ونحن في هذه الحياة نجد في أجسامنا جنوداً مجندة داخلة خارجة تصطف صفوفاً وتتحارب في داخل هياكلنا ولا علم لنا بها، إن في ذكر هذا المقال جمالاً وحكمة وبياناً لما جاء في القرآن من ذكر حفظ القرآن وبيان العجائب فيه، وهي دقيقة جداً، فكيف يكون جسمي كأنه دولة وفيها آلاف آلاف الجيوش والجنود المجندة، وهي فريقان: فريق معي، وفريق عليّ، وهذه الجيوش لا تفتأ في حرب وضرب أمد الحياة، فهي في حركة دائمة ومد وجزر تشابه في سرعتها سرعة النور والكهرباء التي خلقت منها أجسامنا وأجسام نباتنا وحيواننا، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٥] ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٣١].

**المسألة الثانية**: ما جاء في قوانين الصحة من رسم الدودة الوحيدة ورسم عضلات لحم الخنزير التي تحوي هذه الدودة ورأس الدودة الوحيدة، وكيف عرف هذا قدماء المصريين قبل نزول القرآن فحرموا أكله بقصة اخترعوها، وهذا من أعجب العجائب في أسرار ديننا الإسلامي.

إن في هذا القول لحكماً بديعة . اللهم إني أحمدك على نعمة العلم ، أريتنا يا ربنا العلم عياناً ، حرمت في القرآن لحم الخنزير فتركه المسلمون وإن لم يتركوا الخمر ، وهل كان يدور بخلد أحد في العالم أن علماء الأمم الآن يرسمون لحم الخنزير والدودة الوحيدة فيه؟ وهل كان يمر بخلد امرئ في الأرض أننا نسمع أن أمماً قبلنا بآلاف السنين حرمت الخنزير كالأمة المصرية؟ وهل كان يخيل لأحدنا أن لله جنوداً مجندة تروح وتغدو داخل أجسامنا فمنها الهاجمة ومنها المدافعة؟ .

اللهم إن هذا توحيد وعلم ثم طب ، وبه نفهم قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[الشعراء : ٧٨] ، فهو كما هدى أناساً بنصيحة الأطباء فغسلوا وجوههم وأيديهم ونظفوا أسنانهم ، هكذا هدى الأطباء فتوغلوا في العلم وعرفوا أسراراً هي عينها أسرار الإسلام ، إذن فلأذكر لك المسألة الأولى من المسألتين المذكورتين لينشرح صدرك بالعلم والحكمة والطب لحفظ الصحة ، فهاك ما جاء في إحدى المجلات العلمية في ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧م ، وهذا نصه :

## الوقاية أفضل من المعالجة

## أعداء الإنسان

للدكتور شخاشيري

أما أعداء الإنسان فهي المكروبات التي إن أصابت الجسم أحدثت فيه مرضاً يعرف نوعه من الأعراض والتغيرات التي تبدو على الجسم بسببها ، والأمراض المعدية وأسبابها وطرق الوقاية منها هي التي أتحدث عنها الآن ، وتنتقل هذه الأمراض من المريض المصاب بها إلى السليم إما بواسطة الهواء أو الماء أو الحشرات أو الطعام أو بالملامسة وأسبابها جميعاً المكروبات ، ولكل مرض مكروب خاص كما أن لكل شجرة فصيلة خاصة ، وهذه المكروبات صغيرة جداً لا تراها العين المجردة وإنّما نرى آثارها وما تفعله في الأجسام من آلام وتدمير ، وقد يختلف عدد المكروبات في الهواء الذي نتنشقه باختلاف المكان ، فإذا كان المكان مزدحماً بالناس كان عدد المكروبات فيه كبيراً بسبب إثارتهم للتراب ، ولهذا السبب يكثر المكروب في هواء المدن ويقل في هواء القرى ، أو إذا كان المكان المأهول بالسكان خالياً من معالم النظافة لا مصلحة الرش والكنس ولا الساكن فيه يبذل جهداً ولو قليلاً في تنظيفه ، ولا شك أن المكروبات تنمو فيه بكثرة هائلة ، وتكثر المكروبات في الأماكن المنخفضة بنوع خاص ، لأن الهواء فيها غير طلق كما هو طلق في الأماكن العالية ، لأن نور الشمس لا يدخل إلى جميع أجزائها ، ولذلك تتراكم فيها المكروبات العفنة ، فتحدث بحسب ميزتها التعفن والتخمر وتنبعث منها رائحة كريهة ، وأما في المياه فتكثر المكروبات في الراكدة منها كالتي في البرك وفي الجداول الصغيرة ، ومن الضروري أن تغلى المياه المشوبة أو المشتبه في سلامتها من الأدران ، وفي التراب توجد مكروبات ، وفي الأقذار كذلك وعلى جلد الإنسان وفي فمه وأمعائه ، وإذا علمنا أن المكروبات موجودة في كل مكان يقيم فيه إنسان أو حيوان؛ استطعنا أن نتصور نطاق هؤلاء الأعداء الواسع وشدة حرصهم على الاشتباك بفريستهم واستعدادهم للفتك بها في كل ساعة وحين ، ولكن لحسن الحظ أنه ليس كل هذه المكروبات خطرة ، أي : ليس كل هذه الأعداء تحدث مرضاً وإنّما فيها ما هو نافع ووجوده لازم وضروري للحياة الحيوانية والنباتية ، ولولا هذا الأمر لانعدمت الحيلة في مقاومتها والتخلص منها .

يخلص لنا مما تقدم أن الإنسان مهدد بأنواع من المكروبات التي تنشأ عنها الأمراض المختلفة، وأن للبيئة والعناية بنظافتها شأناً عظيم الأثر في تقليل هذه الأمراض وإضعافها، ومن هذا يتبيّن كم هو لازم أن نعمل بنص القول المأثور: «درهم وقاية خير من قنطار علاج»، وأن التوقي من داء خير من التعرض له مع وجود من يداويه، وأنت تعلم أن ما تكابده من العناء وتبذله من المال في سبيل الوقاية من الأمراض لهو أقل بكثير مهما عظم قدره من الأكلاف التي تدفعها على التداوي والمعالجة، فضلاً عن التي يدفعها جسمك ويظهر تأثيرها في بعض أعضائه، وإذا تصورت عدواً قادماً عليك يريد أن يغتصب منك الذي تملكه من مال ومتاع فهل تنتظره إلى أن يصل إليك ويمد يده إلى متاعك؟ فتنهض للدفاع عن ملكك وكيانك أم تعد عدتك وتستعد للقائه قبل أن يشرف عليك مقدمه؟ وهل لا ترى أنه أسهل عليك بكثير أن تقاومه وتدفع أذاه وأنت مستعد له أكثر منك وأنت على غير استعداد.

إن الحيوانات تحسن الدفاع عن نفسها، ويخاف الضعيف منها القوي فيها، وهي بذلك تساق لغريزتها إلى الدفاع عن حياتها، وناموس الطبيعة قائم على قاعدة الأخذ والدفع وبقاء الأصلح، والإنسان بفطرته الأولى كان يحسن الدفاع عن نفسه ويقي جسمه من تقلبات الجو وطوارئ الحدثان على قدر ما وصل إليه فهمه واختباره، وعلى هذه النسبة ارتقت مداركه وأدرك اليوم ما لم يكن يدركه من قبل.

وعلم الوقاية من الأمراض أفضل بكثير من علم المعالجة والتداوي، ويريد منكم هذا العلم اليوم أن تنشروا لواءه في كل مكان وترفعوا علمه في صدر كل إنسان، وأمة تريد أن تحيا سعيدة وأن يكون لها المقام المحترم بين الأمم هي التي تنشئ بنيها على قاعدة صحية سليمة الأساس، فتصلح البيئة وتطهرها من جراثيم الأمراض، وتقضي على أثر هذه الأمراض في وسيلة علمية معروفة، ففي تعليمهم كيف يعيشون وكيف يدافعون عن صحتهم من عوادي الأدواء وجيوش المكروبات مرمى سام من أسمى مراميها، وغرض جليل من أجلّ أغراضها، وهي الأمة التي يحق لها أن تعيش وأن يطيب لها العيش، وأنت تعلم أن للجسم أعضاء رئيسية كبرى وثانوية صغرى، ولكل عضو منها عمل خاص به كما أن لهذا العضو وظيفة يقوم بها وحده، فهو من هذا الوجه حاصل على الاستقلال التام، وحظه أوفر من حظ الشعوب الصغيرة التي تنشد الاستقلال وتتغنى به، ولكن لا تنس أن استقلال أعضاء الجسم إنّما هو استقلال ذاتي فهي تشتغل مستقلة ولكنها في مجموعها تعمل لمصلحة الجسم كله، وأنها تعمل بمفردها لمصلحتها ومصلحة المجموع ولها نظام تحترمه وتريدك أن تحترمه لأن الإخلال به يشوش على ذلك العضو عمله أولاً وعلى سائر الأعضاء ثانياً، فإذا أثقلت على معدتك بالأكل الغليظ مثلاً والشراب اللذيذ وأكلت من غير نظام ولا ترتيب وبلا انقطاع، أي: استمررت في الأكل والشرب من غير أن تحسب أن لهذا العضو الأمين نظاماً وأن له قوة محددة على الهضم وأن له دائرة وحجماً لا يتعداهما، وليس في وسعه أن يتعداهما، تكون النتيجة إحداث الخلل في نظام الجهاز الهضمي والارتباك في وظيفته، وتشعرك المعدة بألم التخمة وتحس بصداع وعسر بالتنفس وتوعك وانحراف ونفور من أهلك ومعارفك، وتصبح كأنك بعزلة تامة عن الناس جميعاً لا يشغلك عن الافتكار بمعدتك أحد منهم.

فقليل من العناية والنظام في نوع الطعام ومواعيده يقيك من هذا التعب ويدفع عنك أعراض التخمة، وتظل معدتك على ولائها لك كما وجدت أن تكون « كذا »، ولو اقتصر أضرار الإخلال في نظام هذا العضو على ما تقدم فقط لهان الأمر وكانت الإساءة قصيرة المدى، وإنّما تمتد أضراره إلى أبعد من التخمة والتلبك، وفي الغالب أن من أهمل القاعدة الصحية ولم يكن له نظام صحي في معيشته يكون عرضة لأمراض معدية وخيمة العاقبة عليه، فعليك قبل أن تأكل وتشرب أن تغسل يديك ووجهك وفمك، وبهذا تدفع عنك أخطاراً عظيمة الأثر، والذي يهمل هذه القاعدة أهمل النظام كله، فيأكل كل ساعة ويشرب دائماً، لا يغسل يديه ولا فمه لا قبل الأكل ولا بعده، ويسخر منك إن رآك تغسل يديك قبل أن تجلس إلى المائدة، فتجد هذا المهمل شاكياً مريضاً، لأنه في عدم غسل يديه قبل أن يتناول طعامه يرسل مع الطعام بعض المكروبات والجراثيم إلى معدته، ومنها تجد هذه الجراثيم طريقها إلى الدم وتبدي إذ ذاك تأثيرها بعد مدة قصيرة، ومن عود نفسه على النظافة أراح جسمه وفكره من مشاق وأهوال لا يدركها غير الخبير، وأرجو أن لا تكون اختبرتها بعد ولن تختبرها في مستقبل أيامك.

ولا يذهب عن البال أن للجسم جنوداً حمراء وبيضاء منوعة، ولهذه الجنود وظائف تقوم بها في أمانة وإخلاص لا مزيد عليهما لمستزيد، وليس لها غرض من وجودها غير الدفاع عن مجموع الجسم، فهي أشبه بالأساطيل السابحة على الماء، وبالجنود القائمة على حراسة الأمة وربما يصدر عن هذه الجنود المسلحة بعض التواني والتلكؤ في الواجب الملقى على عاتقها، أما جنود الجسم وأساطيله السابحة في دمه فلا تعرف للتواني معنى، وليس للخيانة سبيل إلى عقيدتها، فهي تحت السلاح في الخدمة العاملة دائماً وفي كل وقت، لا هدنة ولا هوادة في عملها، ولنفرض أنك أصبت بجرح في إصبعك فماذا ترى؟.

ترى أن هذه الأمينة في حركة غير عادية هي أقرب إلى حركة حرب منها إلى حركة سلم، فتشاهدها هاجمة على محل الإصابة خفافاً وسراعاً تبغي أن ترمم الجرح، وترغم أحياناً إن كان الجرح بالغاً إلى الخروج منه، ومتى تم لهذه الجنود الكشافة الثبات في محل الإصابة تقدم إلى هذه الساعة لإسعافها جنود أخرى للمناضلة والدفاع عن هذه الساحة، ومقاتلة المكروب والجراثيم التي تريد احتلال الجرح وإحداث الالتهابات فيه، فتنشب المعركة بين هذه الجنود والمكروبات، والغلبة تكون للأقوى كما هو منتظر، فإذا كنت بحالة حسنة تراعي بمعيشتك النظام الصحي، فلا خوف على جنودك من الغلبة وإحراز النصر، وإذا كنت تسيء إلى معدتك فتأكل من غير نظام وتشرب غير الماء النقي وتعرض جسمك إلى متاعب غير لازمة، فنصيب جنودك الفشل بلا ريب.

بعد هذا التمهيد الإجمالي أحدثكم قليلاً وفي إيجاز عن بعض الأدواء المنتشرة في القطر ولا سيما في الأرياف وطرق الوقاية منها.

وأول هذه الأدواء هو داء الرهقان المنتشر انتشاراً هائلاً يكاد لا يخلو منه بيت من بيوت المدن والقرى والكفور والعزب الريفية، فهو عدو لسبعين رجلاً وامرأة وفتى وفتاة وطفل وطفلة من كل مائة منهم، أي: إن سبعين في المائة من ساكني الأرياف مصابون به متألمون، وأسبابه ديدان تدخل الجسم من

الفم مع الماء أو مع الطعام فتستقر في المعي الدقيق وتتكاثر فيها وتقاسم المصاب دمه وغذاءه وتسلبه قوته بل حياته . اهـ.

فانظر في عجائب صنع الله وتفكر في الحكم العلمية والطبية ، واعلم أن التهاون بأمر الصحة ولو في أمر ضئيل يوجب إسراع الداء ، فانظر ما جاء عن نفس هذا الطبيب ونصه في ٢٩ مارس سنة ١٩٢٨م.

## الوقاية أفضل من المعالجة أيضاً

## داء الكــــزاز

بينما كان أحد حسن عبده المقيم في المقياس بالروضة آخذاً بمهام عمله الذي يعيش وأولاده منه ؛ عثر بمسمار اخترق باطن قدمه اليمنى حول الإبهام الأكبر مدى ثلاث سنتيمترات ، فمد يده وهو من الأشداء وانتزع المسمار من قدمه ، وظل مثابراً على عمله كأنه لم يحدث له شيء ، إلاَّ أنه شعر بعد مضي خمسة عشر يوماً على الحادث أن بمفصل فكه تيبساً ، وأن هذا التيبس امتد إلى عنقه فأصبح غير قادر على فتح فمه وغير قادر على تحريك عنقه أو تحويل وجهه من ناحية إلى أخرى ، وعاده الطبيب ووصف له دواء وحقناً ، ولما لم يزل الدواء ولا الحقن ما به من تيبس قصد في اليوم الثاني عيادة طبيب آخر فلم يجده ، وفي اليوم الثالث لظهور الأعراض عاده طبيب آخر ، وكانت أعراض التيبس أو داء الكزاز قد ظهرت على أشدها لا في الفك والعنق فقط بل في سائر الجسم ، فوصف له الحقن بالمصل المضاد لهذا المرض وحقنه بالوريد أولاً وبالمفصل ثانياً ، ولكن إذا انتشر سم الداء في الجسم انتشاراً ملك به عليه إرادته في تحريك المفاصل والأطراف قلما يجدي الدواء في مغالبة الداء ، فقلما تعادل قوة الدواء قوة الداء ، إذا خسر الجسم المعركة الأولى وفقد أسباب المقاومة والدفاع الكامنة فيه ، فقضى المرض على أحمد وذهب ضحية إهماله وعدم اكتراثه للجرح الوخزي الذي أحدثه المسمار في باطن قدمه ، وذهب اهتمام أهله وذويه واهتمام الأطباء وما استخدموه من دواء في سبيل إنقاذه ، ذهبت هذه الآمال والوسائل أدراج الرياح ، والمرض إذا احتل الجسم احتلالاً تاماً سد عليه منافذ الرجاء من المعالجة والمداواة وأبعده عن أمنية الشفاء ، وفن الوقاية على صواب في نظريته وصواب في الدعائم القائم عليها نظامه ، هو يقول لأمثال أحمد الذي ذهب مبكياً عليه من ذويه وأهله تاركاً زوجه وأولاده على رحمة الأقدار .

فإن أصابك جرح وخزي من مسمار أو غير مسمار فلا تهمله مهما كان في نظرك بسيطاً ، بل اعرض نفسك على طبيب في الحال وهو يتولى أمره ويدفع عنك خطر هذا المرض والخوف منه ، وأعني بقولي : في الحال ، في الوقت الذي تصاب به بالجرح لا في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث أو الرابع منه .

هاأنت ذا قد رأيت ما جره الإهمال على أحمد من البلاء وأنزل بأهله من الأحزان والأكدار ، فاعمل بنصيحتي أو بالأحرى نصيحة علم الوقاية ، والله يقيك شر الأمراض ويريح جسمك من أوصابها ويبعد عنك وعن أهلك غصة نتائجها والسلام ، وبهذا تم الكلام على المسألة الأولى .

والمسألة الثانية : وهي أن لحم الخنزير مضر وأنه يحوي الدودة الوحيدة ، وبيان ذلك بالرسم وأن قدماء المصريين عرفوا ذلك ، وإليك ما في تاريخ مصر القديم عنه .

## صفحة من تاريخ مصر القديم
## تحريم الخنزير،أصله من الأساطير المصرية

قال كاتب: وجدت الأسطورة التي أترجمها فيما يلي في ورقة مما يسميه علماء الآثار «كتاب الموتى»، ومع أنها تصف إحدى المعارك التي حمي وطيسها بين «حورس» و«ست» لم يرد ذكرها فيما كتب عن تلك الحرب على جدران معبد «حورس» في «ادفو» ولا في موضع آخر خلا هذه الورقة، على أن الفريضة التي ترسمها هذه الأسطورة كانت تمارس في هذا المعبد، فيؤتى بخنزير فيقتل في نهاية احتفال كان يقام هناك لإحياء ذكرى انتصار «حورس» على «ست» وقتله، ويؤخذ من نقوش فيه أن العادة كانت قبل هذه الفريضة أن تمثل في هذا الاحتفال معارك الحرب، فيمثل الملك دور «حورس» ويمثل «ست» رجل من العامة كان يقتل في ختامه.

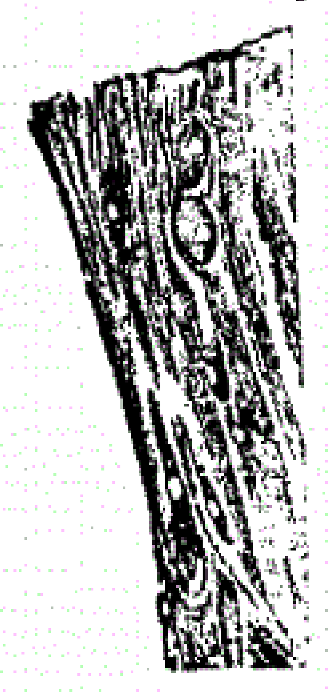
وواضح أن هذه الأسطورة قد وضعت إذن لإبطال هذه الذبيحة البشرية، وكان وضعها في زمن متأخر عن الزمن الذي وضعت فيه الأسطورة التي تضمنت سائر معارك هذه الحرب المقدسة المنقوشة على جدران معبد «ادفو»، فلم تكتب معها لهذا السبب. أما كتاب الموتى الذي تؤلف هذه الأسطورة أحد فصوله فمجموعة صلوات وأناشيد وتعاويذ وشذرات من قصص الآلهة، وهي في اعتقاد الأقدمين أحراز تقي من عذاب الآخرة، فإذا كان لأحدهم ميت فإما أن يضع الحرز معه أو يكتبه على الكفن الذي يلف به لهذه الغاية، ومن ذلك تسميتها بكتاب الموتى، والاسم حديث استحدثه علماء الآثار أولو الفضل في جمع هذه الأحراز ومراجعتها وترجمتها، أما اسمها القديم فهو «فصول في التقدم نحو اليوم» أي: يوم الدين، وفي هذا الاسم إشارة غير خافية إلى فائدتها عندهم.

## أسطورة الخنزير الأسود

«حورس» و«ست» خصمان يتربص أحدهما بالآخر الدوائر من فرط العداوة والحقد، وكانت الحرب بينهما سجالاً، بيد أن الآلهة كانت في صف «حورس»، وتلك العداوة لأنهما على طرفي نقيض. أما «ست» فخب مخاتل يعتمد في الحرب على الخديعة أكثر من اعتماده على الشجاعة والخبرة بفنون القتال، فتراه يلبس لكل حالة لبوسها، ويتشكل بالشكل الذي يراه قميناً بأن يضلل الناس والآلهة على السواء، وأما «حورس» فلم يكن كذلك حاشا له أن يغش أو يكون من الكاذبين، إنه على صراط مستقيم، الحق والاستقامة من أخص صفاته، عيناه الزرقاوان لوح مسطور حسب المرء أن ينظر فيهما لينكشف المستور ويعرف المستقبل، من أجل ذلك يهرع إليه الناس والآلهة جميعاً ليلتمسوا عنده علم ما سيكون، علم «ست» مرة أن سيجتمع «رع» بـ«حورس» للتشاور في بعض الشؤون، وألفى «ست» الفرصة قد سنحت ليضرب «حورس»، وكان من تدبيره لذلك أن اتخذ هيئة خنزير أسود بلون الغمام ذي أنياب حادة طويلة شرس هائل المنظر يلقي الرعب في قلوب الرجال، وأقبل «رع» على «حورس» وخاطبه فقال: دعني أقرأ في عينيك ما سيكون، ونظر في عينيه اللتين لونهما كلون البحار حينما يكون الفصل صيفاً، والسماء صافية، مشرقة بالنور، وبينما هما في ذلك ظهر الخنزير ومرّ حذاءهما، لكن غم عليهما أمره، فلم يفطن «رع» أنه إله الشر، وصاح وهو مأخوذ بروعة منظره: انظر هذا الخنزير الأسود أنا ما رأيت قط أضخم منه جثة أو أشرس منظراً، تلفت «حورس»

ليراه فما وقع بباله هو كذلك، إن صاحب هذه الهيئة المنكرة هو « ست »، لكن حسبه خنزيراً برياً من أدغال الأرض الشمالية، وفي هذه الفترة و« حورس » غافل عن عدوه؛ تهيأ « ست » فنفخ عليه ناراً أصابته في عينه، فصرخ من الألم وتملكه الغيظ فصاح: قد قذف علي « ست » ناراً أصابتني في عيني، وكان « ست » قد حمل نفسه بعيداً، واختفى الخنزير الأسود عن الأنظار، ولعن « رع » الخنزير من أجل « ست » وقال: ليكن الخنزير نجساً ومكروهاً لـ« حورس »، والناس إلى هذه الأيام كلما بلغ البدر التمام يذبحون الخنزير تشفياً، لأن « ست » عدو « حورس » وقاتل « أوزيريس » اتخذ هيئته ليلحق الأذى بالإله ذي العينين الزرقاوين، ولهذا السبب يعتبر رعاة الخنازير في أرض مصر أنجاساً لا يؤذن لهم في دخول المعابد ولا تقبل منهم قرابين للآلهة ولا يسمح لأولادهم أو بناتهم أن يتزوجوا من المتعبدين لله المخلصين له العبادة.

هذا ما جاء عن قدماء المصريين بالمقطم في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨، فانظر ما جاء في كتاب « قانون الصحة » ونصه: الأغذية المتعفنة أو المتحللة خطرة جداً، ولا تصلح في الغذاء، وذلك كلحم الحيوانات المصابة بالدرن، لأنها قد تسبب الإصابة بهذا المرض عند الإنسان. وكذلك لا ينبغي استعمال الخضر قبل غسلها خوفاً من أن تحمل إلينا بعض بيض الديدان كبيض الدودة الوحيدة، انظر شكل ٧ وشكل ٨ وشكل ٩، والطبخ في أوان من نحاس قذرة يحدث التسمم ويكون ذلك مصحوباً بقيء ومغص وإسهال، وطبخ الأغذية مع الخل في أوان من الرصاص يسبب التسمم بالرصاص. اهـ.

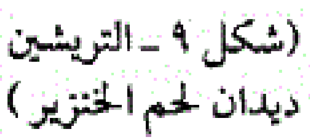


(شكل ٧ ـ عضلات من لحم الخنزير محتوية على أكياس الدودة الوحيدة)



(شكل ٨ ـ رأس الدودة الوحيدة)





(شكل ٩ ـ التريشين ديدان لحم الخنزير)

## إشراق النور الإلهي في هذا التفسير
## وإعانة الله تعالى فيه إذ أنه نور السماوات والأرض

في هذا التاريخ ضحى يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨م بعد أن كتبت هذه المقالة ومعها رسم لحم الخنزير والدودة التي تعيش فيه، خرجت من المنزل فشاهدني في نفس الشارع الذي أسكنه ـ وهو شارع زين العابدين ـ أحد الإخوان، فأسرع جرياً مشيراً إليّ يناديني: يا فلان يا فلان، فوقفت وسلمت عليه، فقال: اسمع اسمع، هنا أمر عجيب في القرآن والإسلام. فقلت: وما هو يرحمك الله؟

فقال: ماذا تفهم في حديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»؟ فتذكرت أن بعض محرري الجرائد المصرية الكبرى في مصر مرة قال لي: إن الفرنجة قد وجدوا أن الحيوان المكرسكوبي الذي يحدث الجذام في الإنسان مخلوق على شكل الأسد، ولكني لم أرد أن أقول له هذا المعنى لأني لم أره في كتاب ولم أسمعه من طبيب مطلع، فأجبته قائلاً: وماذا أصنع بفهمي في مثل هذا الحديث؟ أنا لا أعرف فيه شيئاً.

قال: إذن أقص عليك قصصاً عجيباً، ذلك أن رجلاً عظيماً من ضباط الجيش المصري الذي هو أركان حرب فيه مع عرابي باشا أيام الحرب مع الإنجليز كان له تاريخ عجيب، إذ اختلف مع الضباط في الاستحكامات العسكرية وظهر صدقه، وهو من أمهر الرجال العلماء العسكريين الذين تعلموا في أوروبا، وقد ظهر في البلاد المصرية الطاعون بعد دخول الإنجليز، فكان مما استعملته الحكومات لدفع الخطر عن البلاد أنها أحضرت أطباء من ألمانيا، ولما كان هذا الضابط ـ وهو قاسم بك الهلالي ـ ممن يعرفون لغات كثيرة قابلهم وأنس بهم وتحدثوا في أمور الطب التي هم قادمون لأجلها، فجرى في المجلس العدوى بمرض الجذام، فقال طبيب ألماني: إن حديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» لما اطلع عليه الأطباء عندنا، أخذوا يبحثون لماذا عبر النبي العربي صلى الله عليه وسلم بالأسد؟ ولم يعبر بكلمة أخرى مثل أن يقول: فرارك من النار أو من السيل أو من النمر أو نحو ذلك، فوضعوا تلك الذرات التي تخلق في جسم المجذوم تحت المنظار المعظم فوجدوها على صورة الأسد، فأدهش علماءنا النبي العربي صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت هذا عجبت لماذا أخذ محدثي بهذا الحديث يناديني من بعيد حتى استوقفني؟ ثم لماذا قص عليّ هذا القصص الآن؟ ولماذا لم يكن إلا في هذا اليوم وفي هذه الساعة بعد كتابة موضوع لحم الخنزير الذي هو معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم وللقرآن تبياناً لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[المائدة: ٣]، فلماذا يكون النص على لحم الخنزير في القرآن دون غيره؟ ولماذا يحرمه قدماء المصريين؟ وهاهنا نقول أيضاً كما روينا عن علماء الألمان لماذا خصص النبي صلى الله عليه وسلم مرض الجذام بالأسد؟ فرأيت أن أثبت هذا هنا اعترافاً بنعمة الله تعالى واغترافاً من كوثر علمه وباهر حكمته وبديع تبيانه وسابغ رحمته، والحمد لله رب العالمين.

انتهى الكلام على المسألة الثانية، وبها تم القول في أمر حفظ الصحة التي هي أفضل من المعالجة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء: ٧٨-٧٩].

فهانحن أولاء عرفنا جمال الله عزَّ وجلَّ وحكمته في الحيوان وأنه درجات، وفي الإنسان وأنه أرقى، ورأينا العلم يبتدئ في الحيوان وينتهي في الإنسان، وأن هذا الأخير تعاطى ما حوله من نبات وحيوان وغيرهما، فأكل ولبس وشرب، ثم ظهر فيه أطباء استخرجوا بواطن الأشياء كما عرفوا ظواهرها، أمروه بغسل جسمه والمحافظة عليه وتنظيفه، ثم درسوا له جسمه وأجسام الحيوان فرأوا ما لم تره أمم قبلنا من جيوش مدججات بالأسلحة متقاتلات، ثم أروه الدودة الوحيدة في الخنزير الذي حرم الله أكله على الناس، وبهذا ظهر أن دين الإسلام هذا وقت ظهور عجائبه، بل هو دين الحب العام والعلم العام، وأن حصر أفكار المسلمين في علوم الفقه في القرون المتأخرة بعد العصر الأول يظهر لي أنه كان عقاباً من الله لهم، لما شره ملوكهم على حطام الدنيا وتركوا وصايا القرآن، فحبسهم الله في قضايا البيوع والميراث والمتاجرات والحيض والنفاس، وقال: أيها المسلمون، لقد أنفذت قضائي فيكم،

لأني أرسلت نبيي محمداً صلى الله عليه وسلم لينقذ الناس من الضلال، وتعاليمه قد جاوزت حدود الصين ودخلت أوروبا إلى الأقطار الأخرى، وألهمت الأمم الأخرى أن تحمل العلم عنكم فرقوه بأمري، وأرجعت العلم الآن لكم من بلاد الغرب فطلعت شمسه من مغربها فهل أنتم منتهون؟

اللهم إن هذا التفسير وأمثاله التي فوجئ المسلمون بها اليوم سترجع هذه الأمة إلى سيرة السلف الصالح ويحيون الأرض بعد موتها، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[لقمان: ٢٢]، فلننشر مبادئ علوم الدين الإسلامي في هذا التفسير، فالنهضة قائمة والأمة مستيقظة وعين الله ترعاه، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح: ١].

ولنختم الكلام في هذا القسم أي: قسم حفظ الصحة، ونشرع في القسم الثاني وهو المعالجة، لتفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠].

فاعجب لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠]، هو يقول: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء: ٧٨-٧٩]، ولم يذكر في ذلك لفظ «إذا»، أما الشفاء فجعله معلقاً على الشرط، وهذا من النكت اللطيفة لأن الأطباء أجمعوا أن تعاطي الأدوية أمر اضطراري كاستعمال السلاح لطرد العدو، ومن الحرج والجهل أن تترك أبواب الحصون في المدن حتى يلج منها العدو ويدخل ثم يحارب داخل البلاد، فهذه هي حال المحافظة على الصحة، فإذا حافظنا على صحتنا ثم رأينا مرضاً لم نقدر على الاحتراس منه هنالك نستعمل العقاقير، أما ذلك الذي يشرب المسهل لكل طارئ ويتعاطى المقويات ويشرب التبغ والقهوة والشاي والكاكاو كما تقدم في سورة «طه» وغيرها، فهؤلاء ملومون يخربون أجسامهم بأيديهم ويفتحون حصون مدنهم لأعدائهم جهالة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠]، معبراً بـ«إذا» الشرطية.

## الكلام على مداواة المرض
## وهو القسم الثاني من تفسير الآية

لقد وعدت في سورة «طه» أن أذكر لك ما استحسنته مما جمعه الزعيم الهندي «مهاتما غاندي» الذي نشره «المنار» في المجبى ٢٦ و٢٧ من مجلة «المنار» ونشر في كتاب وحده، وهذا نصه:

## الباب الأول: العلاج بالهواء

قد فرغنا الآن من البحث في أساسات الصحة وأصولها، وكذلك عن طرق صيانتها والمحافظة عليها، ولو أن جميع الناس رجالاً ونساءً يخضعون لقوانين الصحة ويتمسكون بالتجرد التام لا تبقى أيّ حاجة للأبواب الآتية، لأنهم يكونون في مأمن من جميع الأمراض والأوصاب سواء في أجسامهم أو في عقولهم، ولكن أين نجد هؤلاء الناس؟ وأين الذين لا يصابون بالأمراض؟ وعلى كل فإنا كلما اعتنينا بالتمسك بالأصول التي دونت في هذا الكتاب فالأغلب أننا نسلم من الأمراض، ولكن إن أصابنا مرض يجب أن نعالجه باهتمام، والأبواب الآتية تبيّن كيفية العلاج بدون الاستعانة بالطبيب، إن الهواء النقي كما هو لا بد منه لصيانة الصحة كذلك لا غنى عنه في معالجة الأمراض، فالمصاب بالنقرس مثلاً إذا عولج بالبخار الساخن يعرق بكثرة وتلين أعصابه وتستريح مفاصله، وهذا القسم من علاج البخار يسمى «الاستحمام التركي».

ومن كان يشكو حمى شديدة فليجرد من ملابسه ويلقى في الهواء الطلق تنزل الحرارة حالاً ويشعر براحة بينة، وعندما يحس بالبرد يلف في ثوب فيعرق حالاً وتزول الحمى سريعاً، ولكن ما نفعله هو على عكس ذلك تماماً، حتى إنا نمنع المريض من البقاء في الهواء الطلق ولو أراده بنفسه، ونغلق عليه جميع أبواب حجرته ونوافذها، ونغطي جميع جسده مع رأسه وأذنيه باللحف والأغطية، فتكون النتيجة أن المريض يجزع فيزاد ضعفاً عن مقاومة مرضه.

ينبغي أن نفهم أنه إن كان سبب الحمى شدة الحر فالعلاج بالهواء الذي ذكر آنفاً غير مضر أصلاً ويشعر بتأثيره حالاً، نعم يجب الاحتراس لئلا تأخذ المرض القشعريرة في الهواء الطلق، فإن كان لا يستطيع البقاء عارياً يجوز تغطيته جيداً بالدثار، إن تغيير الهواء علاج مفيد للحمى المزمنة وغيرها من الأمراض، فالعادة العامة التي جرت بتغيير الهواء ليست إلاّ عملاً بأصول العلاج الهوائي، وكثيراً ما نغيّر محل إقامتنا متوهمين أن البيت الذي تعاوده الأمراض محل الأرواح الشريرة، وهذا وهم محض.

إن الأرواح الشريرة الحقيقية في مثل هذه الأحوال إنّما هي الهواء الفاسد في داخل البيت، إن تغيير البيت يتبعه تغيير الهواء، وهذا هو الذي يدفع المرض، إن العلاقة بين الصحة والهواء قوية جداً حتى إن التغيير القليل له يؤثر حالاً تأثيراً رديئاً أو حسناً، يستطيع الأغنياء أن ينتقلوا إلى أماكن بعيدة وأما الفقراء فكذلك يستطيعون الانتقال من قرية إلى قرية، أو على الأقل من بيت إلى بيت، بل إن تغيير حجرة بحجرة في البيت نفسه كثيراً ما ينفع المريض نفعاً محسوساً، ولكن تجب مراعاة الأحوال ليكون للتغيير نفع حقيقي، فالمرض الذي سببه الهواء مثلاً لا يمكن علاجه بالانتقال إلى محل رطب، وبما أن الناس لا يهتمون بمثل هذه الاحتياطات البسيطة الاهتمام الكافي لذلك لا يجدي تغيير الهواء نفعاً في أكثر الأحيان.

## الباب الثاني: العلاج بالماء

إن الهواء غير منظور، فنحن لا ندرك تأثيره العجيب، ولكن عمل الماء وتأثيره الصحي يمكن إدراكه وفهمه بسهولة، يعرف جميع الناس شيئاً من استعمال البخار وسيلة صحية، فكثيراً ما نستعمله في الحميات ونعالج به وحده الصداع الشديد، وكذلك المصاب بالوجع الروماتيزمي في المفاصل يشعر بالراحة السريعة عند استعمال البخار وإتباعه استحماماً بارداً، والدمامل والقروح لا تبرأ بمجرد وضع المرهم أو الدهان عليها، ولكنها تشفى تماماً باستعمال البخار، ثم إن الاستحمام الحار أو الاستحمام بالماء الحار يتبعه مباشرة الاستحمام البارد مفيد جداً في التعب الشديد، وكذلك النوم في الهواء الطلق بعد الاستحمام البخاري يصحبه استحمام بارد نافع جداً في الأرق. إن الماء الساخن يصح استعماله دائماً كبدل للبخار، وإذا أصيب الإنسان بوجع شديد في بطنه يشفيه حالاً تدفئة البطن بقنينة مملوءة بماء مغلي توضع فوق قماش غليظ على البطن، وإذا ما أراد التقيؤ يمكن ذلك بشرب كمية وافرة من الماء الساخن، إن الذين يشكون الإمساك يستفيدون كثيراً بشربهم كوبة من الماء الساخن إما وقت النوم في الليل أو بعد تنظيف الأسنان صباحاً مباشرة.

إن سير «جوردنج سبرنج» قد عزى صحته الجيدة إلى تعوده شرب كوبة من الماء الساخن يومياً قبيل النوم في الليل وبعد اليقظة صباحاً. إن كثيراً من الناس لا تلين معدتهم إلاّ إذا شربوا الشاي

صباحاً، فيعتقدون حمقاً أن الشاي هو الذي أحدث هذا التأثير، مع أن الشاي وحده مضر في الحقيقة، وإنّما الذي أثر هذا التأثير هو الماء الساخن في الشاي، فهو الذي يلين المعدة ويزيل الإمساك.

قد اخترعت أرجوحة تستعمل عادة للاستحمام البخاري، ولكنها ليست ضرورية جداً بل يصح أن يوقد وابور من الإسبرتو أو الغاز أو كانون من الوقود أو الفحم تحت كرسي اعتيادي من الخيزران، ويوضع فوق الموقد قدر مملوء بالماء مغطى بغطاء، وينشر فوق الكرسي رداء أو دثار بحيث تنزل أطرافه إلى الأمام لتقي المريض من حر النار، ثم يقعد المريض على الكرسي ويلف في رداء أو دثار وعند ذلك يرفع غطاء القدر بحيث يكون المريض معرضاً للبخار الذي يتصاعد منه، أما ما تعودناه من تغطية رأس المريض فهو احتياط غير ضروري، إذ حرارة البخار تتصاعد من طريق الجسم إلى الرأس وتسبب عرقاً كثيراً في الوجه، وإن كان المريض ضعيفاً جداً بحيث لا يستطيع القعود حينئذ يصح أن يضطجع على سرير ذي فتحات وفرجات، ولكن يحترس أن لا يذهب شيء من البخار سدى، وكذلك كما لا يخفى يجب الاحتياط لئلا تصل النار ملابس المريض أو دثاره، وكذلك تجب المراعاة التامة لحالة صحة المريض، لأن استعمال البخار بدون مبالاة يخشى منه الخطر أيضاً. إن المريض لا بد من أن يشعر بضعف بعد هذا الاستحمام البخاري، ولكن ضعفه لا يلبث أن يزول، إن الإكثار من استعمال البخار يضعف البنية على كل حال، ولذلك لا ينبغي أن يستعمل إلاّ لضرورة شديدة، والبخار كما يستعمل للجسد كله كذلك يصح استعماله لجزء خاص منه، فمثلاً إذا استعمل في الصداع فلا احتياج إلى عرض سائر الجسم له، بل يوضع الرأس وحده فوق قدر صغير الفم مملوء بماء فاتر، ويلف عليه قماش ثم يستنشق البخار بالأنف ليتصاعد إلى الرأس، وإذا كانت المناخر مسدودة فهي تنفتح بهذا العمل، وهكذا إن تورم عضو من الجسم فهو وحده يعرض للبخار.

قليل من الناس يعرفون القيمة الصحية للماء البارد مع أنه في الحقيقة أنفع في هذا الباب من الماء الساخن، ويمكن أن يستعمله حتى أضعف الناس بنية، فالتلفف بثوب مبلول بالماء البارد نافع جداً في الحمى والجدري والأمراض الجلدية، ويمكن لجميع الناس استعماله بدون أدنى خطر. إن الدوار والهتر «جنون الحمى» يمكن دفعه حالاً بلف ثوب مبلول في ثلج مذاب على الرأس، والذين يشكون الإمساك ينفعهم جداً لف ثوب مبلول بثلج مذاب على البطن لحين من الزمن، وكذلك يمكن منع كثرة الاحتلام في أكثر الأحيان بهذه الطريقة نفسها.

إن نزف الدم من أي عضو كان يمكن منعه باستعمال ثوب مبلول بماء بارد مثلج، وكذلك الرعاف يمنع بصب الماء البارد فوق الرأس، إن أمراض الأنف والزكام والصداع يمكن معالجتها باستنشاق الماء البارد من الأنف، ويمكن استنشاقه بمنخر وإخراجه بمنخر آخر، أو يستنشق بمنخرين معاً ويخرج من الفم، ولا ضرر من وصول الماء إلى المعدة إن كانت المناخر نظيفة، إن هذه أحسن طريقة لجعل المناخر نظيفة دائماً، وأما الذين لا يستطيعون استنشاق الماء بالمناخر فيجوز لهم أن يستعملوا المحقن، ولكنهم يتعلمون بسعي قليل كيفية الاستنشاق بسهولة، بل يجب على جميع الناس أن يتعلموها لأنها سهلة ونافعة جداً للصداع والرائحة الخبيثة في الأنف، وكذلك لإزالة الأوساخ في مجرى الأنف.

يخاف كثير من الناس من استعمال المحقنة، بل يزعم بعضهم أن الجسم يضعف به، ولكن هذه المخاوف ليست إلاَّ وهمية، ليس هناك طريقة للإسهال القوي أكثر تأثيراً من هذه الطريقة، وقد ثبت نفعها العظيم في كثير من الأمراض حينما لم نجد غيرها من المعالجات، ولا عجب فهي تنظف الأحشاء تماماً وتمنع تراكم المواد السامة فيها، إن الذين يتأذون من الأوجاع الروماتيزمية أو سوء الهضم أو الأوجاع من سوء حالة الأحشاء الصحية ينبغي لهم أن يحقنوا برطلين من الماء، فيرون تأثيره السريع القوي، قال أحد الكتاب في هذا الموضوع: إنه كان يشكو مرة سوء هضم مزمن، واستعمل جميع الأدوية سدى وعبثاً، فنحل جسمه بذلك، ولكن حقنة الماء ردت إليه شهية الطعام وشفته من دائه في بضعة أيام، حتى إن بعض الأمراض مثل اليرقان يمكن معالجتها باستعمال حقنة الماء. إن الذي يستعمل الحقنة أحياناً كثيرة يجب أن يستعمل الماء البارد، لأن الماء الحار ربما يضعف البنية بتكراره. إن الدكتور الألماني «لويس كيوهن» قد حكم أخيراً بعد التجارب المتوالية بأن العلاج المائي نافع في جميع الأمراض، وقد نالت كتبه في الموضوع قبولاً عاماً، حتى إنها ترجمت إلى جميع لغات العالم تقريباً، ومن جملتها بعض اللغات الهندية، قال هذا الدكتور: «إن البطن هو بيت الأدواء كلها، فإذا كثرت الحرارة في البطن كثرة زائدة تجلت على الجسم في صورة الحمى والروماتيزم والقروح والبثور وغيرها من الأمراض، إن منافع العلاج المائي قد عرفها قبل «كيوهن» بكثير أناس عديدون، ولكنه هو أول من قال بأنه أصل مشترك لجميع الأمراض، لسنا بمجبورين على أن نسلم بآرائه كلها على علاتها، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أصوله وطرقه قد ثبت نجاحها في كثير من الأمراض، وإني أذكر لك مثالاً واحداً من أمثلة كثيرة قد اختبرتها بنفسي وذلك في مصاب بروماتيزم شديد جداً، فقد حصل له الشفاء التام بطريقة «كيوهن» بعد أن خابت جميع المعالجات الأخرى».

قال الدكتور «كيوهن»: «إن حرارة البطن تزول باستعمال الماء البارد»، وعلى ذلك أكد غسل البطن وما حوله من الأعضاء بماء بارد جداً، ولتسهيل الغسل قد اخترع نوعاً خاصاً من المغاسل من الصفيح ولكنها ليست بلازمة، إذ قصاع الصفيح الهلالية الشكل في مقادير مختلفة لأناس مختلفي القامات التي تباع في أسواقنا تقوم مقامها تماماً، يجب أن يملأ ثلاثة أرباع من القصعة بالماء البارد ويجلس فيها المريض بهيئة تبقى معها رجلاه وجسمه الأعلى خارج الماء ويبقى وسطه من الفخذ إلى ما فوق البطن في داخله، والأحسن أن تسند الرجلان على كرسي قصير ويجلس المريض في الماء عارياً بالمرة، وإن كان يحس ببرد يغطي رجليه وجسده الأعلى برداء، وإن لبس القميص فليبق القميص خارج الماء بالمرة، يجب أن يكون هذا الغسل في مكان طلق حيث يكثر الهواء النقي والنور، ثم يفرك بطنه بنفسه أو غيره بخرقة خشنة من خمس إلى ثلاثين دقيقة أو أكثر، فيرى نفع هذه العملية حالاً في أكثر الأحوال، ففي الروماتيزم مثلاً يأخذ الريح في الخروج حالاً في صورة الجشاء وغيره، أما في الحمى فتنزل الحرارة درجة أو درجتين وتنظف الأحشاء بهذه العملية تماماً ويزول التعب، وإن كان يشكو الأرق يحل محله النوم، وإن كان النعاس والارتخاء يأخذ مكانه اليقظة والنشاط، لا تعجب من اختلاف النتائج لأنه ليس في الحقيقة أمراً عجيباً كما يظهر، وذلك لأن قلة النوم وكثرته علتهما واحدة، وكذلك الدوسنطاريا والإمساك اللذان هما نتيجة لسوء الهضم يعالجان بنفس هذه الطريقة، والبواسير المزمنة يمكن معالجتها

أيضاً بهذا الاستحمام مع ترتيب حسن في الغذاء، والذين يشكون كثرة البصاق الدائم يجب أن يسرعوا حالاً إلى هذا العلاج، وكذلك المصابون بالضعف يتقوون بهذه الطريقة، وقد عولج بها حتى الروماتيزم المزمن فشفي تماماً، وهو كذلك علاج مؤثر في النزف الدموي والصداع، وقد قال عنه « كيوهن »: إنه علاج ثمين حتى للسرطان، والحامل التي تستحم هذا الاستحمام بنظام تجد الوضع سهلاً، والحاصل أنه يمكن لجميع الناس بدون استثناء في العمر والجنس الاستفادة به، وهنالك نوع آخر من الاستحمام يسمى « ويت . شيت . باك » وهو علاج نافع دائماً للأمراض المختلفة، وطريقته كما يأتي: يوضع سرير أو كرسي يمكن نوم المريض فيه براحة تامة في هواء طلق، وينشر فوقه نحو أربع بطانيات كبيرة يتدلى طرفاها من جانبيه، أو أكثر أو أقل حسب حالة الجو، وتنشر فوقها ملاءتان بيضاوان مغموستان في الماء البارد، وتوضع المخدة تحت البطانيات في طرف من السرير، وعند ذلك يجرد المريض من ثيابه إلاّ إزار صغير في وسطه إن كان يريده، وينام على الملاءتين مع بسط يديه حذاء جنبيه، وعند ذلك تلف الملاءتان ومن فوقهما البطانيات على جسمه مع الاعتناء برفع الأطراف النازلة جهة الرجل حتى تغطيها جيداً، وإن كان المريض متعرضاً للشمس يوضع ثوب مبلول فوق رأسه ووجهه مع ترك الأنف مكشوفاً دائماً، فيشعر المريض في أول الأمر ببعض القشعريرة، ولكنها لا تلبث أن تزول ويحل محلها الشعور بحرارة لذيذة، فيبقى في هذه الحالة من خمس دقائق إلى ساعة أو أكثر، وبعد مدة يتصبب العرق من جسمه ويغرق هو في النوم في أكثر الأحوال، وعقب خروجه من هذه اللفائف يجب أن يغتسل بالماء البارد، وهذا علاج ناجح للجدري والحمى والأمراض الجلدية مثل الجرب والقوباء والنفاطات والدمامل، حتى إن أقبح أنواع الحصبة والجدري يشفى به تماماً، ويمكن لسائر الناس أن يتعلموا بسهولة استحمام « ويت . شيت . باك » بأنفسهم ويصفوه لغيرهم، وهكذا يرون بأنفسهم تأثيره العجيب، وبما أن الدنس كله ينتقل من الجسم إلى الملاءة السفلى الملاصقة للبشرة يمتنع أن تستعمل ثانياً بدون غسلها جيداً في ماء فاتر.

لا احتياج إلى التذكير بأن الفائدة التامة من هذه الاستحمامات لا يمكن أن تحصل إلاّ بعد مراعاة الأصول التي ذكرت في أبواب الغذاء والرياضة وغيرها مراعاة تامة، فإن كان المصاب بروماتيزم مثلاً يستحم استحمام « كيوهن » أو استحمام « ويت . شيت . باك »، ولكن يأكل غذاء رديئاً ويعيش في هواء فاسد ويعرض عن رياضته، فلا ينال أي فائدة من الاستحمام. إن المراعاة التامة لجميع قوانين الصحة هي التي تجعل العلاج المائي نافعاً ناجعاً بلا ريب وإلا فلا.

## الباب الثالث: العلاج بالتراب

نشرع الآن في بيان الخواص الصحية للتراب الذي نفعه أكبر من الماء في بعض الأحوال، لا ينبغي لنا أن نتعجب من خواصه لأن جسمنا نفسه مركب من عناصر أرضية، وفعلاً نحن نستعمل التراب للتطهير، فنغسل به الأرض لنزيل الروائح الخبيثة منها، ونغطي به الأشياء المتعفنة لنمنع فساد الهواء، وننظف به أيدينا، وكذلك نستعمله لتنظيف أواني المراحيض.

إن رهبان الهندوس يلطخون به أجسامهم ويعالج به بعض الناس القروح والبثور وتدفن الأموات فيه لئلا يفسد الجو. كل هذا يثبت جلياً أن في التراب كثيراً من الخواص الثمينة للتطهير والعلاج

وكما أن الدكتور «كيوهن» بذل جهده الخاص في موضوع العلاج المائي؛ كذلك الدكتور الألماني الآخر قد تفرغ لدرس التراب وخواصه، وقد توسع حتى قال بأن التراب يمكن استعماله بنجاح في معالجة جميع الأمراض حتى أشدها وأعقدها، وقد حكي عنه أنه قال: «لسع ثعبان رجلاً فيئس الناس من حياته، ولكني داويته بأن واريته في التراب مدة من الزمن، فزال السم من جسده وشفي تماماً».

ليس لنا أن نطعن في صدق الدكتور لأننا نعلم أن حرارة شديدة تتولد في الجسم إذا دفن الإنسان في الأرض، وإنا وإن كنا لا نستطيع بيان تولد التأثير تماماً لا يمكن أن ننكر أن في التراب خاصية جذب السم، أجل قد لا تنجح هذه الطريقة في كل حادثة للملسوع، ولكن يجب حتماً تجربتها في كل حادثة، وأنا أستطيع أن أقول بتجربتي الشخصية: إن استعمال الطين في مثل حوادث لدغ العقرب نافع جداً.

قد جربت بنفسي الأشكال الآتية للعلاج الترابي ونجحت فيها، فالإمساك والدوسنطاريا ووجع المفاصل المتأصل قد عالجته باستعمال لبخة من الطين فوق البطن يومياً مدة يومين أو ثلاثة أيام، وقد تحقق النفع العاجل في حوادث الصداع باستعمال ضمادة طينية تشد على الرأس، وكذلك قد عولجت العيون المتهيجة بنفس هذه الطريقة فشفيت.

إن الإصابات سواء كانت متورمة أو غير متورمة تعالج كذلك بها، وإني قد كنت في حياتي الماضية السوداء لا أستريح بدون المواظبة على استعمال ملح الفاكهة «فروت سالت» وما شاكله من المسهلات، ولكني منذ علمت في سنة ١٩٠٤ قيمة العلاج الترابي لم أستعمل أي مسهل ولا مرة واحدة إلى الآن.

إن لبخة طينية فوق البطن والرأس تنفع كثيراً في الحمى الشديدة، وإن الأمراض الجلدية مثل الدمامل والقروح والقوباء والحرق بالنار أو الماء الحار قد عولجت بالطين أيضاً، إلا أن القروح المتقيحة ذات الصديد لا تشفى به بسهولة، وكذلك البواسير تعالج بنفس هذا العلاج، وإذا احمرت الأيدي والأقدام وتورمت بسبب البرد فالطين علاج نافع جداً لها، وكذلك وجع المفاصل يزول به، فبهذه وغيرها من التجارب في العلاج الترابي قد علمت أن التراب عنصر مفيد للعلاج البيتي للأمراض.

نعم إن جميع أنواع التراب ليست بنافعة على سواء، فالتراب الجاف الذي حفر في مكان نظيف يكون أنفع بكثير من غيره. لا ينبغي أن يكون التراب لزجاً جداً، بل أحسنه ما كان بين الرمل والأملس ويجب أن يكون خالياً من الروث والقذر فيصفى جيداً في غربال نفيس ويعجن بماء بارد عجناً جيداً قبل الاستعمال، ثم يربط في قماش نظيف غير مكوي ويستعمل كلبخة غليظة، ويجب رفعها قبل أن يأخذ الطين في اليبس، وهو لا يتجفف في الأحوال العادية من ساعتين إلى ثلاث ساعات.

إن الطين الذي استعمل مرة لا يستعمل بعد ذلك أبداً، ولكن الثوب المستعمل يصح استعماله ثانياً بعد أن يغسل جيداً ليتنظف من الدم وغيره من المواد الوسخة، وإذا أريد استعمال اللبخة على البطن يوضع فوقه قماش دافئ.

يجب على جميع الناس أن يبقوا عندهم صفيحة من التراب المجهز للاستعمال، لئلا يضطروا إلى البحث عنه هنا وهناك عند الحاجة إليه، وربما تفوت الفرصة في حوادث مثل لدغ العقرب التي يؤدي التأخير فيها إلى خطر شديد.

## الباب الرابع: الحمى وعلاجها

لننظر الآن في بعض الأمراض الخاصة ونبحث في طرق علاجها وأولها الحمى. نحن نطلق كلمة الحمى على حالة للحرارة في الجسم، غير أن أطباء الفرنج قد نوعوا هذا الداء على أنواع كثيرة، وخصصوا لكل منها علاجاً، ولكنا نظراً للخطة التي سلكناها في هذا الكتاب والأصول التي دوناها فيه نقول: إن أنواع الحمى كلها يمكن معالجتها بعلاج واحد وبطريقة واحدة.

لقد جربت هذا العلاج الساذج في جميع أنواع الحمى من أخفها إلى أشدها، مثل الطاعون الغددي، وحصلت على نتائج حسنة عامة، فقد انتشر هذا الطاعون سنة ١٩٠٤ بين الهنود في أفريقية الجنوبية، وقد كان فظيعاً للغاية، حتى إن ٢٣ إصابة حدثت قد مات بها ٢١ نفساً خلال ٢٤ ساعة، أما الاثنان اللذان بقيا فقد أرسلا إلى المستشفى ولكن لم يسلم منهما إلاَّ واحد، وقد كان هذا الناجي هو ذلك الذي استعملت له اللبخة الطينية. نعم ليس لنا أن نستنتج من ذلك بأن هذه اللبخة هي التي شفته، ولكن مما لا شك فيه أنها لم تضره أي ضرر، كلاهما كانا مصابين بحمى شديدة كان سببها الالتهاب الرئوي، وكانا قد أغمي عليهما، وكان الرجل الذي استعملت عليه اللبخة الطينية في أخطر الأحوال، فكان يبصق الدم، وعلمت بعد ذلك من الدكتور بأنه كان لا يغذى إلاَّ بلبن قليل جداً.

وبما أن أكثر أنواع الحمى تكون نتيجة للارتباك في الأحشاء، فأول ما ينبغي عمله هو تجويع المريض، والقول بأن الضعيف يزداد ضعفاً بالتجويع وهم باطل، إذ علمنا بما تقدم أن الجزء الذي ينفع من الغذاء إنَّما هو ذلك الذي يتحلل في الدم، وأما الباقي فيبقى حملاً على المعدة، وبما أن القوى الهاضمة تضعف جداً في الحمى لذلك يتوسخ اللسان وتتصلب الشفاه وتجف، فإن أعطي المريض طعاماً في هذه الحالة فلا ينهضم ويزيد الحمى، ولكن التجويع يعطي القوى الهاضمة وقتاً لإتمام أعمالها، ولذلك فإن تجويع المريض ليوم أو يومين ضروري، وكذلك يجب عليه في الوقت نفسه أن يستحم كل يوم على الأقل مرتين على طريقة «كيوهن»، فإن كان ضعيفاً أو مريضاً إلى درجة لا يستطيع فيها الاستحمام، يجب أن تستعمل على بطنه اللبخة الطينية، وإن يشتك الرأس كيراً أو يحس بحرارة شديدة تستعمل اللبخة على رأسه أيضاً، ومهما أمكن ينبغي أن ينوم المريض في الهواء الطلق ويغطى جيداً، ويعطى وقت الطعام عصير الليمون بعد أن يصفى جيداً ويمزج بماء بارد أو مغلي حار ولا يخلط مع السكر ما أمكن. إن هذا العصير يؤثر تأثيراً نافعاً جداً ويقدم وحده للمريض إن كانت أسنانه تتحمل حموضته، ويجوز بعد ذلك أن يقدم إليه نصف موزة أو موزة كاملة بعد أن تمزج جيداً بملعقة من زيت الزيتون وبملعقة من عصير الليمون، وإن كان المريض يحس بالعطش فيعطى ماء مغلياً مبرداً، ولا يسمح له بشرب ماء غير مغلي، ويجب أن تكون ملابس المريض خفيفة وتغير كثيراً.

وقد شفي بهذا العلاج السهل محمومون كثيرون، حتى الذين أصيبوا بالحمى التيفودية وأمثالها من الأمراض الخطرة، وهم يتمتعون إلى الآن بصحة تامة. إن «الكينا» كذلك تؤثر وتنفع بادي الرأي، ولكنها في النتيجة تجلب أمراضاً أخرى، حتى إن حمى الملاريا التي تعتبر فيها الكينا نافعة جداً قلما رأيتها تعطي شفاء دائمياً، ولكني بالعكس رأيت حوادث مختلفة في المصابين بالملاريا قد شفوا شفاء دائمياً بالعلاج الذي ذكر آنفاً.

يقتصر كثير من الناس على اللبن وحده أثناء الحمى، ولكني وجدته بتجربتي مضراً في الدرجات الأولية من الحمى لأنه عسر الهضم، فإن كان لا بد من اللبن فالأحسن أن يكون مخلوطاً بقهوة القمح أو بقليل من دقيق الرز المغلي جيداً بالماء، ولكن لا يصح أبداً أن يعطاه في الحمى الشديدة، بل ينفع في مثل هذه الحالة عصير الليمون نفعاً كبيراً، فإذا زالت الحمى وتنظف اللسان يصح أن يزاد الموز في الغذاء على الطريقة المبينة آنفاً، وإن كان هناك إمساك فحقنة من الماء الساخن والبورق «لزاق الذهب» عوضاً عن المسهل يصحبها غذاء زيت الزيتون لتنظف البطن جيداً.

## الباب الخامس: الإمساك والدوسنطاريا والمغص والبواسير

يبدو لأول وهلة ذكر هذه الأمراض الأربعة المختلفة في باب واحد عجيباً، ولكن الحقيقة أنها كلها مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً شديداً، ويمكن معالجتها تقريباً بطريقة واحدة لأنها إذا انضغطت المعدة بغذاء غير مهضوم سببت مرضاً من هذه الأمراض حسب استعداد الرجل واختلاف بنيته، فيحدث عند بعضهم الإمساك فلا تتحرك المعدة مطلقاً أو تتحرك بعض التحرك أو يحدث وجع شديد عند قضاء الحاجة، حتى إنه ينتج نزيف الدم أو المادة المخاطية أو البواسير، ويحدث لبعضهم الإسهال الذي كثيراً ما ينتهي بالدوسنطاريا، ويحدث لبعضهم المغص المعدي الشديد مصحوباً بالوجع في البطن والمادة المخاطية في البراز، وفي جميع هذه الحوادث يقهى المريض، أي: يفقد شهوة الطعام ويصفر جسمه وتضعف بنيته ويتوسخ لسانه ويتعفن نفسه، وكذلك يتأذى كثير من الناس بالصداع وغيره من الأمراض. إن الإمساك عام جداً حتى إن المئات من الحبوب والمسحوقات قد أوجدت لمعالجته. إن الوظيفة الأصلية لمثل هذه الأدوية المسجلة مثل ملح الفاكهة «فروت سالت» إزالة الإمساك، ولذا ترى ألوفاً من الناس يجرون وراءها في رجاء باطل لينالوا فيه الشفاء، كل طبيب يخبرك بأن الإمساك وما شاكله من الأمراض إنّما هو نتيجة لسوء الهضم، فأحسن طريقة لعلاجها هي إزالة سبب سوء الهضم، وقد صرح أصدقهم قولاً بأنهم قد اضطروا إلى اختراع هذه الحبوب والمسحوقات لأن المرضى لا يتركون عاداتهم القبيحة التي ألفوها، وفي الوقت نفسه يريدون الشفاء.

إن أرباب الإعلانات عن هذه الأدوية يبالغون مبالغة عظيمة، حتى إنهم يعدون الذين يشترونها بأنهم لا يحتاجون إلى مراعاة أي أصل من أصول الغذاء والوقاية، بل يجوز لهم أن يأكلوا ويشربوا ما يحبون إذا استعملوا أدويتهم، وأظن أن قرائي لا يحتاجون إلى التذكير بأن هذا كذب محض. إن جميع أنواع المسهل حتى أكثرها اعتدالاً مضرة بالصحة لأنها وإن أزالت الإمساك ونفعت نفعاً بالجملة تحدث أنواعاً أخرى من الأمراض، فيجب على المريض أن يغير طرق معيشته تماماً حتى لا يضطر إلى المسهل مرة أخرى فيقع في مرض جديد. إن أول ما يجب عمله في حالة الإمساك وأمثاله من الأمراض هو تقليل الغذاء لا سيما السمن والسكر والقشدة وما شاكلها، والاحتراز التام من الخمر والدخان والحشيش والشاي والقهوة والكاكاو والخبز المصنوع من دقيق المطاحن، وأن يحتوي الغذاء في أكثر أجزائه على ثمار طرية مع زيت الزيتون.

يجب أن يجوع المريض قبل البدء في العلاج ٣٧ ساعة، وتستعمل أثناء هذا وبعده اللبخة الطينية على البطن أثناء النوم، ويستحم المريض كما ذكرنا مرة أو مرتين كل يوم على طريقة «كيوهن»

ويجب أن يكره المريض على المشي على الأقل ساعتين كل يوم. لقد رأيت بنفسي أشد حوادث الإمساك والدوسنطاريا والبواسير والمغص قد شفيت تماماً بهذا العلاج السهل، لا شك أن البواسير لا تزول كلية ولكنه يبطل أذاها حتماً. ثم إنه يجب على المصاب بالمغص أن يحتاط فلا يأكل شيئاً غير عصير الليمون في ماء حار، حتى يبطل نزيف الدم أو المخاطية، وإن كان وجع المغص شديداً جداً في المعدة يمكن معالجته بتدفئة البطن بقارورة من ماء ساخن أو بآجرّ ساخن جداً، ولا احتياج إلى التنبيه بأن المريض يجب أن يعيش في هواء طلق.

إن الثمار مثل البرقوق والزبيب والبرتقال والعنب نافعة خاصة في الإمساك، لكن ليس معنى ذلك أنها تؤكل حتى بدون الجوع، ولا يجوز تناولها أصلاً في حال المغص الذي يصحبه طعم رديء في الفم. انتهى بالحرف.

## فوائد صحية عامة من كتاب ويلكوكس في الطب

(١) حسن المضغ يمنع البواسير، وفيه فوائد كثيرة، ويكفي الإنسان نصف ما يأكله عادة.

(٢) تحديد مواعيد الأكل يمنع الإمساك.

(٣) كل من غير أن تشرب واشرب من غير أن تأكل. إن الأكل من غير شرب عدو الإمساك، فلتشرب بعد الأكل بساعتين أو ثلاث أو أربع باختلاف الأحوال، ولك أن تشرب قبل الأكل بساعة أو بنصف ساعة.

(٤) كل بمقدار طاقتك.

(٥) يجب تنظيف المعدة بدون دواء كل سنة لأكثر الناس مرة أو مرتين وذلك بصيام ٤ أو ٧ أو ١٠ أو ١٣ يوماً، فلا يشرب إلاَّ عصير الفواكه مثل البرتقال والليمون والعنب مع الماء، والتين الشوكي ينظف المعدة إذا أكلته صباحاً قبل كل أكل.

(٦) لا تشتغل عقب الأكل وإلا كنت معرضاً للإمساك.

(٧) إذا مشيت كيلومترين قبل النوم فهو يمنع الإمساك.

(٨) لا تأكل الفواكه قبل نضجها ولا الخضراوات البائتة، وامتنع عن الفطير والسكر الأبيض والحلويات، ومتى كان عندك إمساك لا تتعاط إلاَّ عصير الليمون والبرتقال.

(٩) كل طبيخ طبخ مرتين تضيع قوته تقريباً.

(١٠) هذه الفواكه مرتبة حسب منفعتها: «البرتقال، اليوسف أفندي، الليمون الإفرنجي والبلدي، والتين، والتفاح، والعنب، والكمثرى، والبرقوق، والخوخ، والرمان والفراولة، والبطيخ، والشمام، والجوافة»، كل هذه الفواكه وكل كلّ قشرها الذي تقدر عليه، ثم الزبيب المنقوع في الماء عشر ساعات يقوم مقام العنب.

(١١) إذا كان طفل عنده جرب فليعط عصير البرتقال كل يوم فإنه يبرأ.

وقد ظهر للأطباء قوى ثلاثة عليها مدار الحياة: قوة (أ) و(ب) و(ج).

فقوة (ج) تساعد الهضم وتمنع الجرب وتحرس الدم وتنظفه، وهي أربع درجات:

**الدرجة الأولى**: البرتقال، الليمون، الطماطم، كل الخضراوات الخضراء بورقها الأخضر.

**الدرجة الثانية**: البصل، الجزر، الكبد النية، ورق الفجل. **الدرجة الثالثة**: باقي الفواكه تقريباً، والخضراوات الخضراء المطبوخة مدة قصيرة، والبطاطس المسلوق، واللبن الحليب الذي لم يغلِ، والكبدة المطبوخة مدة قصيرة. **الدرجة الرابعة**: اللفت الأبيض البنجر.

وأما قوة ( ب ) فهي ثلاث درجات: **الدرجة الأولى**: في الخميرة والسن الذي في القمح. **الدرجة الثانية**: العدس، الفول، البسلة، الدقيق بحاله، أي: مع الردة والسن، ومعنى هذا أنه لا ينخل، والجوز. **الدرجة الثالثة**: صفار البيض، والكبد، والقلب، واللحمة، والكلية، والمخ.

وقوة ( أ ) تنفع من ضعف الأسنان، كما أن قوة ( ب ) تساعد في منع مرض « البري بري » الذي ينتج من أكل الرز المقشور.

وقوة (ج) تساعد على الهضم وتمنع الجرب وتحفظ الدم وتنظفه كما تقدم، وهي أربع درجات: **الدرجة الأولى**: زيت كبد الحوت. **الدرجة الثانية**: بطارخ السمك، الزبدة، صفار البيض. **الدرجة الثالثة**: الكبدة، الكلية، قلب الحيوان، اللحم الطازج، اللبن الحليب، جميع الخضراوات، الجزر، الطماطم. **الدرجة الرابعة**: جميع الطعام المصنوع من الدقيق الذي لم ينخل، أي: لم تخرج منه النخالة ولا السن.

| جدول لأدوية طبيعية | |
|---|---|
| مرض | دواء طبيعي |
| الكلية | أكل البقدونس، كشك الماز، فجل |
| الأعصاب | أكل الخس والسبانخ |
| مرض الرجريج | أكل الطماطم والليمون |
| لأجل حصول الشجاعة | أكل البرتقال والليمون |

## لطيفة في إزالة سوء الهضم

ابتدئ بتنظيف المعدة، ثم كل من غير أن تشرب الخضراوات المطبوخة، مثل: السبانخ، الخس، الجزر، البصل، الكرفس، الكرنب، البامية، الباذنجان، الخبيزة، الملوخية، أو كل الخضراوات التي لم تطبخ. وإذا كانت أسنانك ضعيفة يجب أن تدقها في « هاون »، وهي: الخس، الكرفس، الطماطم، الكرنب، الفجل، الخيار « خصوصاً قشره » واعصر عليها زيتاً مع ليمون، أو كل فواكه، مثل: البرتقال التين، الرمان، العنب، البرقوق المسلوق مدة قليلة، التفاح المحمر، فهذه تبعد عنك سوء الهضم. انتهى ما أردته من الفوائد الطبية.

فقال صاحبي: أهذا كتاب طب حتى إنك تكثر فيه من هذه المسائل ؟.

فقلت: ليس كتاب طب وإنما هو كتاب الله تعالى، والله يقول على لسان نبي من أنبيائه: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، فقوله: ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ جملة اسمية خبرها فعل مضارع تقتضي الثبات والدوام مع التجدد، كقوله: ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾[الأعراف: ١٥٨]، فهاهنا نستفيد فائدتين: فائدة الطب العملي ينتفع به قارئ التفسير، وفائدة علمية حكمية، ألا ترى رعاك الله أن الأذكياء يدهشون حينما يقرؤون في هذا التفسير أن الكلية في جسم الإنسان إذا مرضت قد زرع الله

لها في حقولنا البقدونس والفجل، وألهم الناس فصنعوا لها الكشك، وأن أعصابنا إذا مرضت خلق الله لها الخس والسبانخ، وأن نفوسنا إذا أصابها الخور والجبن والخوف ذهب ذلك بما أنبته حولها في الأرض من شجر البرتقال والليمون، وأن مرض الرجريج أنبت الله له الطماطم والليمون، وأن مرض الجرب ومرض الإمساك وعدم نظافة الدم ينفعها كلها أكل ما في قوة (ج) من الأطعمة مثل: الطماطم والجزر وهكذا، وأن مرض الأسنان يزول بأكل ما في قوة (ب)، وأن الجير الذي يشفي الجروح ويغذي العظم يوجد في الكرنب واللبن والجبنة التي لم ينزع زبدها والسبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والبامية والردة، وأن المغنسيوم الذي يساعد الفضلات ويمنع الفتق موجود في السبانخ والخس والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والبامية، وأن الكبريت الذي ينظف الدم وهو عدو الروماتيزم موجود في السبانخ والقرنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والبامية، وأن الفوسفور الذي يغذي المخ موجود في السمك والخس وصفار البيض والسبانخ والكشك «الماز» والفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح، وأن الحديد الذي يعطي الدم حمرته ويمنع فقر الدم موجود في الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والتمر والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم، وأن الكلورين المساعد للهضم المنظف للمعدة موجود في الكرنب وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر.

وأن كبار الأطباء كما جاء في مجلة «الجديد» يقررون أن مخ الإنسان تعلوه طبقة خضراء رقيقة هي وحدها مصدر تفكيره، وهي تتجدد في كل ست سنوات وتكون في كل مرة مخالفة من حيث طبيعة مادتها للطبقة السابقة، وذلك لعدة عوامل أهمها اختلاف الغذاء، فإذا كان الشخص مثلاً وجدت عنده رغبة وقتية في أن يكثر من أكل الجزر فإن الخلايا التي تتكون في الذهن تكون فوسفورية، وتتكون صالحة للتفكير، وتكون على العكس من ذلك إذا أكثر من أكل الخوخ، وإذا استمر الإنسان مدة ثلاثة شهور يأكل التفاح كان ذلك منتجاً لخلايا قوة التفكير، ويعرف «الشليك» بأنه من أحسن أنواع الأغذية في هذا الشأن.

وعلى ذلك يكون الذهن متغيراً حسب الفصول وما ينتج فيها من الثمار والحبوب، وأحسن أوضاع خلاياه ما كان في شهر ديسمبر أو مارس، وأسوؤها ما كان في أغسطس وأكتوبر، وإن الذهن وإن يكن يتغير بأجمعه كل ست سنوات، فالتغير الجزئي يحصل فيه من وقت لآخر، وعلى ذلك يكون الذهن في كل حين قصير بشكل جديد، ويقدر عدد هذه الأشكال التي تظهر في رأس إنسان عاش ثلاثين عاماً نحو ١٨٠ شكلاً، أي: ١٨٠ ذهناً مختلفاً، وإذا كان هذا الشخص قد ابتدأ يفكر وله من العمر ٥ سنوات فإن مقدار ما عرض عليه من الأفكار التي اشتغل بها ذهنه يبلغ ١,٩٢٠,٠٠٠,٠٠٠ فكرة، وإذا كان يشتغل عملاً عقلياً فإن عدد فكراته يكون ضعف ذلك، ويبلغ ذهن المرأة نحو ٥٠ أوقية، وهو أخف من ذهن الرجل ولكنه أجود من حيث المادة وأشد كثافة منه، ويمتاز ذهن المرأة في الستين من عمرها بنحو ٢٠ في المائة على ذهن رجل في سنها. وأنه ليس بين الثمار ما هو أعظم نفعاً من الليمون، فإن فوائده الكثيرة لا يمكن أن تقدر، فإن في استعماله اقتصاداً للوقت والمال وتخفيفاً للعمل والمشقة،

ولا يمكن أن يحصى ما يستعمل فيه من الأغراض، فإذا أريد تنظيف المناديل وقطع النيل يوضع معها عند الغلي قطع من الليمون فإنها تصير بيضاء كأنها جديدة، وإذا أريد أن يجلى النحاس بسرعة وأن يمكث بريقه ولمعانه مدة طويلة فليحك بخرقة مبتلة بعصير الليمون، ويمكن أن ينظف به الرخام الأبيض إذا تغير لونه بتأثير الدخان أو غيره، وإذا أرادت ربة الدار أن تذهب من يديها رائحة السمك النيء بعد أن قامت بتنظيفه فلتستعمل الليمون بدلاً من الصابون، وإذا تألمت العين من أثر الرمد فليقطر فيها بعض نقط الليمون، وإذا ظهر في الوجه النمش يمكن إزالته بشرب عصير الليمون في كوبة ماء في الصباح، وإذا ظهر اسوداد في الأسنان يمكن جعلها بيضاء إذا استعمل الفحم وعصير الليمون، وهكذا من الفوائد التي يطول سردها. انتهى والله أعلم.

أقول لك أيها الذكي: إذا قرأ هذا القول قراء هذا التفسير يدهشون ويعجبون، ويقولون: هذا الجير نراه أمامنا، وهاأنا ذا في مصر أراه يستخرج من جبالنا وأصله وأصل جميع الجبال مخلوقات في البحر الملح يربى هناك في أجيال ودهور، فهذا الجير أدخله الله في نبات الكرنب والسبانخ والبصل والمشمش والتين وهكذا الخ، وأعد هذه كلها للإنسان وجعلها مضمدة لجراحه مقوية لعظامه، وهنا موضع الدهشة، بعض الجير يدخل في البصل والمشمش مثلاً وكلاهما يشفي الجروح ويقوي العظم، فهذا عجب، ما هذه العجائب؟ جير يدخل في نبات يصلح جسم الإنسان؟ إن العقلاء إذن يقولون: إن الله ما فرق هذا الجير في أنواع النبات ثم أحوج الإنسان إليه إلا لأمر عجب، وهو أن يدرس هذا الوجود.

إذن هذه الأمراض خلقت فينا لنعلم، فمن اقتصر على مجرد علم الطب فبها ونعمت، فالطبيب عالم والمريض يتداوى بما علم الطبيب، ولكن ليعلم الطبيب والمريض أنهما لم يخلقا لهذه الدنيا وحدها، فالمداواة الجسمية لهذه الحياة، ولكن المداواة العقلية هي المقصودة بالذات، وهي أن النفس تتغذى بهذه العلوم وتسعد وتتذكر جمال هذه الدنيا، وأن الحكمة التي أبدعت الجير أولاً ثم احتالت في إدخاله في النبات ثم أبدعت الإنسان وألهمته أن يتداوى ويتغذى بتلك النباتات تريد بنا شيئاً أعلى من هذه الحياة، وهو أن نكون سادة هذه المادة، وأن هذه المادة لوحنا نقرؤه وكتابنا نفهمه، إذن المداواة الجسمية مقدمة للمداواة العقلية. يمر الناس على هذه العجائب ويحمدون ربهم أنه قد شفاهم من أمراضهم، والأطباء يفرحون بأنهم قد نجحوا في طبهم. إن الوقوف عند هذا حقارة لهذه الإنسانية في الأرض، فلينظر هذا الإنسان لم خلق؟ إن الأمر لعظيم، يمر الليل والنهار ونرى الكواكب ليلاً والنبات وغيره نهاراً وتمرض أجسامنا وتصح، والغفلة مستحكمة في أكثر الناس، ونرى الأمم تفرح بأنها غلبت أمماً أخرى والناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله اليوم شديد. اشتدت الحرب على الأمم والعداوة والأمراض في الأجسام، وكرٌّ الليل والنهار، والناس كلهم غافلون. إني أرى هذا الإنسان محبوساً في هذه الأرض ويخيل لي أنهم كلهم يجلدون ويعذبون لذلك، لجهلهم ولقصور عقولهم، فالليل والنهار يرجعان لعوالم جميلة والأمراض في الأجسام يراد بها فتح البصائر لما في الأرض من العجائب.

فلعمري أي مناسبة بين عصير البرتقال وبين الجرب، فالذي عنده جرب يشرب هذا العصير فيذهب المرض، وأي مناسبة بين نحو البرتقال والليمون والطماطم وما أشبهها من كل أنواع قوة (ج)،

وبين شفاء الجروح، وكذلك ما العلاقة بينها وبين العين بحيث إذا قلت تلك القوة مرضت العين، وتمام قوة (ج) يمنع مرض العين، وهكذا تعاطي زيت كبد الحوت يشفي العين، فما هذه المناسبات في البر والبحر للعين وللجلد.

أقسم طنطاوي قسماً حقاً لا حانثاً فيه ولا آثماً إن هذه كلها لغات أفصح من لغات الألسنة، فالمرض لغته تفهم العناصر الأرضية وتذكرنا بها إجمالاً، والنور والظلمات لغتان لبحث العجائب السماوية، وهذا مما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [مريم: ٤٥]، فهذه الأمراض عذاب لنا، ولكنها من جهة أخرى رحمة لأنها مذكرات لنا لنعلم هذه العوالم فنرقى إلى عوالم أخرى أرقى من هذه الأرض المعبر عنها بالجنات، فقوله تعالى: ﴿ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، معناه أن الأمراض تتجدد بتجدد الأجيال، والنباتات وغيرها تتجدد بتجدد تلك الأمراض، وأنا الذي أدير الأفلاك وأنظر لكم في أرضكم وأصلح أحوالكم وأصنع معكم صنع الأب الشفيق مع الابن الصغير، أريكم بالخير وبالشر والنتائج كلها أردت بها الخير. والدليل على ذلك أن الإسبانيين لما دخلوا بلاد أمريكا منذ نحو أربع قرون رأوهم يحفرون حفراً ويضعون فيها حشيشة التبغ الذي يدخنه الناس في أفواههم، فأمروا بقتل كل من فعل ذلك، ثم وقع نفس الإسبانيين في نفس الشرك، ثم نقلوه إلى أوروبا، وما دخل التدخين أمة إلاَّ قابله قسيسوها بالتكفير وسواسها بالمنع، ثم تغلب التبغ حتى هاجم بلاد الإسلام ودخل قلعتها إذ ذاك وهي بلاد الترك سنة ٩٩٩ هجرية فحرمها علماء الدين وقاومها السواس فتغلبت ودخلت بلاد الإسلام، إذن التبغ هاجم الأمم كلها واستحوذ عليها واستعمرها، فأصبح الناس في الشرق والغرب يدخنون لماذا؟ لأن المتوحشين في أمريكا كانوا يدخنون، فلعمري أي فرق بين الحيوانات التي ظهرت في اللثة فانتشرت في جميع الجسم وبين التدخين بالتبغ الذي ظهر في القارة الجديدة فانتشر في القارات كلها، إذن الإنسانية كلها جسم واحد، ولن تنجو أمة من الذنب والعقاب في هذه الدنيا إلاَّ بمساعدة غيرها. اللهم إن الأمم كلها أشبه بجسم واحد في الأرض، كما أن عوالم السماوات والأرض أشبه بحيوان واحد، وقد قام الدليل على أن العضو في الجسم يعدي بقية الأعضاء، والضعف في أمة له أثر في سائر الأمم، وستكون الإنسانية بعد اليوم أشرف من إنسانية اليوم وأرقى، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

## بهجة العلم والطب

## محاورات طيماوس الحكيم مع سقراط

إن الله عزَّ وجلَّ قد أنعم بهذا التفسير وجعله معرضاً لآراء الأمم، ها أنا ذا قد ذكرت لك آراء الأمم في علم الطب قديماً وحديثاً، بحيث اصطفيت اللب ونبذت القشر، وجعلته بإذن الله عذباً سائغاً شرابه صافياً، فلأذكر لك الآن محاورات طيماوس الحكيم مع سقراط، وهي المحاورات الموسومة بطيماوس، ذلك أنه حاور سقراط فبحث معه في السماء ونظامها وجمالها، وأبان أن العالم حادث وأنه جميل وأنه نسخة لما هو أجمل منه، وهي عوالم جوهرية أرفع من المادة، وذكر أن صانع هذا العالم إنَّما صنعه لأنه جواد، ولو لم يصنعه لم يتصف بهذا الوصف، وأنه عمد إلى المادة المضطربة فنظمها وجعلها متزنة مهندسة، وأن هذا العالم كله أشبه بحيوان له عقل عام يديره وله نفس وله مادة،

فالعقل العام لا يتصرف في المادة إلاَّ بنفس تكون واسطة بينهما ، وذكر الأيام والليالي وأبان أنهما من صنع خالق العالم ، وبهما يحصل الزمان ، ولا زمان بالنسبة لصانع العالم ، بل الزمان مقياس لنا ، فالماضي والمستقبل والحال لنا نحن ، أما الله فلا يحكم عليه زمان لأنه هو محدث الزمان .

ويقول أيضاً : إن هذه الكواكب كلها منظمة بعقول تدبرها مستدلاً بالنظام الكامل في دورانها وإن الكواكب والعقول القائمة بها قد حدثوا بعد العدم ، ويقول : إن الأرواح الإنسانية بينها وبين الأرواح التي تدير الكواكب ـ وهي بلغة الشرع ملائكة ـ مناسبة ، فكما تدبر أجسامنا عقول ، هكذا الكواكب تدبرها نفوس كبيرة ، وذكر أن الله جمع الأرواح الإنسانية وشرح لها العوالم قبل نزولها الأجسام ، وأبان لها الآثار التي تحصل لها إذا اتصلت بالأجسام ، وان من اتبع الشهوات فإنه يرجع بعد الموت إلى أسوأ حال ، ومتى عدلت في الأرض رجعت إلى حال أرقى وتسكن الأماكن الشريفة في العالم العلوي ، وبيّن أن البصر إنّما خلق فينا لنعرف به الليل والنهار ، وبهذا نعرف الزمان ونتجه إلى الحكمة والفلسفة ، وهما أعظم نعمة من الله . ثم ذكر المادة بحسب زمانهم وأنها عناصر أربعة الخ ، وأن ذكر العناصر لا معنى له لأنها كلها أمر واحد غير الظواهر ، فهي أمر غائب عن الحس يظهر في صورة هذه العناصر ، إذن المادة في أصلها لا صورة لها . ثم ذكر اللذة والألم وأن المادة عبارة عن مثلثات تتركب منها أشكال هندسية بسيطة ، وباجتماعها تكون الخشن واللين والبارد والحار والمؤلم والذي يحدث اللذة ، فالاختلاف في الأشكال يوجب الاختلاف في التأثير في أجسامنا ، فالتأثير الملائم لطبعنا به تكون اللذة ، والتأثير الذي لا يلائم طبعنا يكون به الألم ، وإن كان متوسطاً لم يكن ألم ولا لذة .

ثم تكلم عن الجسم الإنساني وهو الذي سقنا لأجله الكلام هنا لأننا في الكلام على صحته ومرضه بمناسبة الآية ، ولم أذكر ما تقدم إلاَّ كالمقدمة لينشط الأذكياء للقراءة وليفرحوا بما يسمعون من العلم والحكمة وليزدادوا علماً بما جاء من الطب المجمل في كلامه . ثم قال بالحرف الواحد ، وشرع بعد ذلك في الكلام على تصوير الإنسان على يد الملائكة حسبما أمر به الله ، فقال : إنهم تسلموا من الله النفس الأزلية التي خلقها للإنسان ، وألحقوا بها نفساً مائتة جعلوا مركزها في الصدر ، أما الجزء الغضبي منها ففي أعلى الصدر ، وأما الجزء الشهواني منها ففي أسفل البطن ، ثم صوروا بقية البدن بغاية الإتقان نظراً إلى مصالح النفس وما تحتاجه من الخدمة حتى تكون جميع أجزاء البدن متصلة بالروح مستعدة لقبول أوامره . ثم بيّن منافع جميع الأجزاء جزءاً جزءاً ، وكيفية منفعتها ، ثم تصوير العروق وتفرعها من الرأس إلى أقاصي البدن ، كما تتفرع السواقي في البساتين ، لحمل الدم المركب من أجزاء الأغذية وتوصيله إلى الأعضاء والمفاصل لتخلف ما تحلل منها . قال : فإذا كان ما تحلل زائداً على ما يخلفه الغذاء فإن الحيوان ينقص ويذبل ، وإذا زاد الغذاء على ما تحلل من الحيوان فقد ينمو البدن ومنه يتبيّن نمو الحيوان في شبابه ثم تناقصه شيئاً فشيئاً في الشيخوخة والمرض ، إلى أن ينتهي ذلك به إلى الموت .

وشرع في بيان الأمراض البدنية ، وأمراض النفس وهي تابعة للأمراض البدنية ، وقسمها ثلاثة أقسام : منها ما يتبع إفراط اللذة والألم المؤثر في الفكر ، ومنها ما سببه إفراط المرارة والبلغم والأخلاط إذ بها يتعطل سريان النفس في البدن فيكون سبباً لسوء الخلق والتهور والجبن وجمود القريحة والنسيان وحاصل ما آل إليه كلامه أن الشر غير اختياري وأن له علتين : العلة الأولى : فساد المزاج ، والثانية : سوء

التأديب، فالشرير كالمريض يستحق الإشفاق عليه والعلاج، لأن أغلب ما يعتريه من أسباب خارجة عن قدرته. قال: وإذا سأل سائل عما ينبغي فعله لتدارك الأمراض وحفظ الصحة للبدن والنفس معاً، فالجواب أنه لا طريق إلى ذلك إلاّ حفظ المعادلة بين البدن والنفس، فإن النفس إذا كانت مفرطة القوة في بدن ضعيف لا تصبر على صحبته ولا تزال مضطربة فيه لتجهده وتملؤه أمراضاً، وبالعكس إذا غلب البدن على النفس فإن العقل يجمد ويفتر ويعجز عن أعماله، فالقاعدة أن نروض البدن والنفس معاً، أما البدن فبأنواع الرياضة والحركة البدنية، وأما النفس فبالموسيقى وبإعطاء كل من أجزائها ـ أي: النفس العقلية والغضبية والشهوانية ـ ما يناسبها من الحركة والرياضة حتى تبقى كل واحدة منها على ما اختصت به من العمل، وتكون النفس العقلية الأزلية رئيسة على الجميع كما يوافي شرفها.

وأشار في آخر المحاورة إلى منشأ الحيوان وذكر ما كانوا يعتقدونه في زمانهم، وهو يخالف الإسلام وهو أيضاً لا دليل عليه، فقال: إن الحيوانات كانوا من البشر فعوقبوا وردوا إلى رتبة أدنى مما كانوا عليها لما اقترفوه من الذنوب. أما النساء فقد كانت من قبل رجالاً أظهروا في سيرتهم الجبن والجور فانحطوا عن رتبتهم السابقة. وأما الدواب الأرضية فهي مما كان مدة حياته مسخراً لشهواته، والحيوانات فاضلها ممن كان في حياته قد استعبد لأخس الشهوات وأدناها فمسخوا إلى أصم الخلائق وأنقصها عقلاً.

ثم ختم المحاورة بأن قال وليكن هذا آخر كلامنا عن العالم، وقد كانت هذه صورة تركيب هذا العالم المحتوي على الحيوانات المائتة وغير المائتة وهو الحيوان المرئي المحتوي على جميع الحيوانات المرئية، وهو إله محسوس على مثال الإله المعقول ـ أقول: وهذه الجملة لا تجوز في ديننا والتعبير بها كفر، ولكن هم كانوا قبل النبوة فأرادوا بذلك أن هذه العوالم ظهرت فيها آثار القدرة الدالة على الجمال الإلهي ـ وبعبارة أخرى: «إن الحكمة والعلم والقدرة ظهرت آثارها في هذا العالم المجسم، فالظاهر لنا من العالم عنوان الله الذي اختفى عن أبصارنا وظهر لبصائرنا بتلك العجائب»، ثم قال عن العالم: «فهو السماء الوحيد المنفرد والطبيعة ذو العظم والحسن والجمال الوافر الكامل من جميع الجهات». انتهى تلخيص كلام طيماوس.

هذا كله نقلته من كتاب الأستاذ «سنتلانة» وهو مترجمه من اليونانية إلى اللغة العربية وبذلت جهدي في أن أمنع الألفاظ الممنوعة شرعاً أو أنبه أنها كفر وأشرحها. اهـ.

## هذه تذكرة ما جربته في حياتي من الأعمال الطبية

قبل أن أختم تفسير هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠] بما عالجت به نفسي لا سيما في أيام الكبر، ليكون تبصرة لأحبابي قراء هذا التفسير، فإنني من إبان صغري وجدت في نفسي ميلاً قوياً إلى رقي الأمم الإسلامية، وهذا الميل ازداد بازدياد سني.

لقد ذكرت في مواضع كثيرة من هذا التفسير وغيره أنني نشأت في قرية كفر عوض الله حجازي من بلاد الشرقية، واعتراني في نحو العشرين من سن حياتي مرض جسمي وشك في هذا العالم وفي الصانع، فكنت موجهاً قلبي إلى أمرين: صحة جسمي وهداية نفسي، فالأول بالطب، والثاني بالعلم،

وكنت أسأل كل من أتوسم فيه الإفادة، ولم أجد وسيلة خيراً من توجه النفس إلى مبدع هذا العالم، فلأقصر القول على أمر الطب لأني الآن في صدد الكلام عليه. أقول: أخذت إذ ذاك أمنع شرب الماء مع الطعام وعقبه، وأقلل الطعام، وأتخير ما هو ألطف، وانتهى الأمر بالشفاء.

ثم إني لما بلغت الستين بدا لي أن أترك اللحم بتاتاً لما رأيت في الكتب الطبية ذمه، وقد كان مرض الروماتيزم ملازماً لي فتناقص هذا المرض إلى أدنى حد، ولكني كنت أجد له أثراً باقياً يخفى تارة ويظهر أخرى، وذلك أني كنت آكل الخضراوات المطبوخة التي طبخت في مرق اللحم، فكنت أتعاطاه مع أسرتي بالمنزل في مرقه.

ثم لما قرأت في العام الماضي كلام العلامة «غاندي» المصلح الهندي الذي حدثتك أيها الذكي عنه في سورة «طه»، اقرأ ما كتبته هناك في أمر الطعام عند ذكر آدم، وفي سورة «الحجر» عند قصة آدم أيضاً في أولها، وما ذكرته في سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[الأعراف: ٣١] الخ ما ذكرته في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] الخ، تركت الخضراوات وجعلت طعامي ما يأتي إلا نادراً:

(١) آكل الخبز المصنوع من دقيق البر وفيه جميع أجزائه، فما يسمى «نخالة» وما يسمى «السن» يبقى فيه. وبعبارة أخرى: آكل خبز القمح بحيث لا ينخل أدنى نخل فهو إذن بحاله، وقد تقدم في سورة «الحجر» أن أجزاء البر ١٦ جزءاً كلها داخلة في الدم، وإخراج النخالة والسن منه إخراج لأهم أجزائه المانعة من الإمساك المقوية للبدن والعقل.

(٢) وآكل معه زيت الزيتون والفواكه مثل التمر والتفاح والبرتقال والليمون، وربما أكلت من الخضر الطماطم بشرط أن لا تكون مطبوخة، لأن المطبوخة ضارة بالصحة بنص الأطباء وبتجربتي، وتركت الملح اللهم إلا ما يوضع في الخبز، وتركت السكر المصنوع مكتفياً بما في الفواكه، وبعبارة مجملة، اقتصرت على الفواكه والحبوب إجمالاً، ولكن التفصيل هو الذي ذكرته لك الآن.

أقول: لما اتبعت هذه الخطة زال الروماتزم بتاتاً، وصرت أفتح شبابيك حجرة النوم ليلاً ونهاراً، وأنا أكتب الآن ليلاً وهي مفتوحة ولا أحس بذلك المرض، وأنا أعلن حمدي لله عزَّ وجلَّ حمداً كثيراً فقد وجدت أني أصح جسماً وأصح عقلاً وأقوى تفكيراً من جميع أيام حياتي، كما أني أحمده إذ أقدرني أن أكتب بعض خواص النبات للمسلمين كما كنت أتمنى أيام الشباب عند مرضي، فإذا كنت الآن في العقد السابع من سنيّ حياتي فإني أقول إني لم أكن يوماً ما في أيام شبابي وقبلها وبعدها منتظم الصحة والعقل والفكر مثل ما أنا عليه اليوم، فأنا أقول الآن الحمد لله، ولكن الحمد ليس على صحتي وحدها لأن أوقات الحياة محصورة والموت لا يتوقف على حال ما، فهو يأتي بغتة، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤]، ولكن حمدي لله على النعمة العامة، فالحمد على نعمة خاصة حمد ضئيل لا يليق بالربوبية والإخلاص لها، بل لا يليق لعاقل، وإنّما حمدي لله في هذه النعمة على أنها نعمة على كل ذكي مطلع على هذا الكتاب، لأن هذا القول يترك في نفسه أثراً وهذا الأثر سيفيده يقيناً، وكم من رجال ذوي عقل عندما يطلعون عليه يغيرون حالاً أسلوب معاشهم، مع أنهم هم أنفسهم قد يكونون أطباء أو مطلعين على الطب، ولكن تجربتي هذه

تشجع على إبطال عادات موروثة عن الآباء والبيئة، فهذه نعمة عامة على قراء هذا التفسير في حياتي وبعد موتي، إذن حمدي لله على توفيقي للصحة موجه لعموم المنفعة للأحياء المنتفعين بهذه التجربة في كل جيل، لأن الحمد إنَّما يكون على النعمة الواصلة من المنعم إلى الحامد أو غيره، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، ولم يقل المصلي: «ربي وحدي»، فهو مربي جميع العوالم كما تقدم في محاورة «طيماوس»، فالإنسان يجب عليه أن يوجه وجهه تلقاء العوالم كلها، فأما سماواتها وأرضها فبالتفكر والعلم والإعجاب بصانعها، وأما نوع الإنسان فيكون ذلك بالعطف عليه وتعليمه ونشر الحكمة فيه.

ولقد أثر في نفسي ما جريه «غاندي» الهندي مما كتبته في سورة «طه» أن الإنسان عادة يقتدي بمن يثق بقوله إنه مجرب، وأنا تجربتي مضت لها بضعة أشهر ولا أزال في حال التجربة، ولقد وجدت منافع لا حد لها في الصحة والعقل كما قدمنا، ولكني لا أعد هذه المدة كافية وأنا موجه وجهي جهة مبدع الكون أن يلهمني المحافظة على صحتي مدة حياتي، فمنه أستمد ومنه التوفيق، ولقد تبين لي من هذه التجربة معنى قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ذلك أن هذا النبأ كلما علم به طبيب مدحه، وقال: إن هذا عمل جليل، ولكنه لا يكاد يقدم عليه هو نفسه، ولا يأمر به المرضى، وإنّما الذي انتهج بعض هذه الخطة قوم آخرون. إني لا أشرب الماء وقد تركت القهوة والشاي وما أشبه ذلك ولا أشرب شيئاً إلاّ إذا عطشت، وصرت أنادي بأن هذا الإنسان في سجن العادات، وعرفت اليوم أن الإنسان منا هو الذي يضعف عقله وصحته بيديه، أليس الطعام الذي نتعاطاه به قوام بنيتنا، إذن إقامة بنيتي وصحة عقلي راجعان لما ألقيه في فمي بيدي، فإذا لم أتخيره فإني لم أتخير بناء جسمي وحفظ عقلي، ومن أكل بغير حساب ولا نظام أصبح عقله تبع ما يأكل، فتكون الصحة بالمصادفة والعقل بالمصادفة. واعلم أن هذا الإنسان لما كان ضعيفاً في تصرفه حكم الله على أكثره بالفقر، لأن الفقر هو الذي يمنع القدرة على حوز الطعام الكثير الضار بالصحة والعقل، وفي ظني أن الناس لو كانت إرادتهم قوية لامتلأت الأرض بالخيرات، ولكن القوى الإرادية لما كانت ضعيفة أنزل لهم المطر والأنهار والسعادة في الأرض بحساب لتكثر حركاتهم في الطلب وحركات عقولهم في التدبير، فتصح الأجسام والعقول بالحركتين، ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، فهو يعلم ضعف الإرادات وضعف التفكير فأرغمهم على العمل وعلى التفكير بهذه الوسيلة، لأن العقول في عالمنا هذا مبلغها وهذا هو نصيبها من الفكر والقوة.

وممن أعانني على تدبير الصحة قرينتي السيدة «عائشة الحسنية» من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما، فهي التي سارعت إلى تدبير الخبز على الطريقة المتقدمة وأسرتها كلهم أطباء، ومما أعانها على ذلك أنها شاهدت أهل مكة هكذا يفعلون في خبزهم، وقد خالفت بذلك عادات النساء في مصر، واستفادت ذريتي بذلك فائدة ظاهرة في هذه السنة، كما أنها خالفت أكثر النساء في أنها تواظب على الصلوات والعبادة.

هذا، وأذكرك بما تقدم في سورة «طه» عند مسألة الطعام، وما ذكره العلامة ابن خلدون عن أهل المغرب وأهل فاس ومصر وشرح مضارّ الأطعمة المشهورة في هذه البلاد وشرح المنافع التي يعانيها الناس في الاقتصار على النافع من الأغذية، فمتى قرأته نشطت للعمل ببعض ما هنا وما هنالك تدريجاً وما لا يدرك كله لا يترك كله.

ومما ذكره ابن خلدون أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا ينخلون الدقيق زهداً، وهذا عجب أن يكون هذا الزهد هو الذي يطلبه الطب للصحة، فالعجب كل العجب من حكم ديننا، يقول الله: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠]، ويقول عمر رضي الله عنه للربيع بن زياد لما حضر هو والأمراء معه وعلى رأسهم أبو موسى الأشعري وقد ظهر للربيع بمظهر القانع بالخشن من الطعام والثياب المرقعة: «لو شئت لملأت هذه الرحاب صلائق وسبائق وصناباً»، يريد بذلك اللحم والرقاق والزبيب المصنوع مع الخردل، ولكني رأيت الله عير قوماً فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾[الأحقاف: ٢٠] الخ، وإنما عجبت لأن هذا هو الذي به سعادة الناس في نفس الدنيا، فالإقلال من اللذات هو الذي به الصحة والعافية، والأغرب من ذلك أن سقراط أثبت أن الذي لا عفة عنده لا لذة له، ويرهن على ذلك بأن من شرب الماء وعطشه قليل لا لذة له فيه، إذن الذي لا عفة عنده لا لذة عنده، فهو بطلبه اللذة فقدها، والعفيف ترك اللذة فجاءت إليه، إذن الصحابة رضوان الله عليهم بزهدهم في اللذات نالوها وبزهدهم في الدنيا ملكوها، ومن عجب أن تكون هذه الأخلاق بنفسها هي التي استنتجها سقراط وأفلاطون بعقولهما قبل النبوة بنحو تسع قرون، فإنك إذا قرأت جمهورية أفلاطون وجدت الزهد متجلياً فيها والحكمة والعلم، ومع هذا الزهد ينظم المدن ويقيم الملوك والأمراء والحكام والجند، ويبيّن مراتبهم ورياضاتهم وآدابهم وآداب العامة معهم ومع الأمراء، فالحمد لله الذي علمنا ما لم نعلم وأرانا العلم والدين توءمين متحدين عند ذوي البصائر، وهذه من أعجب المعجزات إذ كيف تكون نتيجة الفلسفة قروناً وقروناً ينزل بخير منها الوحي على أمي فيدوم به ملك لم يحلم بها فيلسوف ولا ملك من الملوك.

وأختم هذا القول بذكر الحمية التي اتبعتها فأقول: لقد كانت عادتي أني إذا ارتبكت معدتي أن أتعاطى زيت الخروع وبعدها لا آكل بل أشرب اللبن أياماً من ثلاثة أيام إلى ١٤، وفي تلك المدة يضعف جسمي ثم أتعاطى الغذاء المعتاد بالتدريج وهذا فيه ما فيه، ولكني في التدبير الجديد حصل لي منذ شهرين ارتباك في المعدة، فامتنعت عن الطعام نحو يومين لم أتعاط فيهما إلا ماء البرتقال اتباعاً للنصائح الطبية فشفيت، والأطباء يأمرون بالجوع أكثر من يومين، اقرأه في كتاب «غاندي». انتهى ليلة الجمعة ٢٩ مارس سنة ١٩٢٩ الساعة الثالثة بعد نصف الليل، والحمد لله رب العالمين.

## الاستشفاء بنور الشمس

## ذكر ما خطر لي يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢٩

عجب لهذا الإنسان يعيش ويموت وأكثره غافل ساه، يرى المادة ويرى الكواكب والشمس والأرض وما عليها، ولكن العلم يقول له: هذا كله ظل الحقيقة، والحقيقة غير ما تراه، وفي نفس

الوقت يقال له: أتمم أعمالك بحسب ما ظهر لك من الحواس، يكون غنياً، ويقول: أنا اليوم نلت ما أتمناه، فيرى الحوادث تكذب ظنه وتعتريه الحوادث سروراً وغماً، ويخاطبه العلم قائلاً: كلا، فالصحة والمرض والغنى والفقر والعلم والجهل كلها عوارض، والنفس هي هي معرض للسعادة والشقاء.

يقول الفلاح: ليتني كان لي مال كثير فلا أخرج إلى الحقل ولا أقف في الشمس طول يومي لزرع حقلي، إن الله غضب عليّ، ولولا غضبه عليّ لأعطاني أرضاً واسعة وأجلسني في الظل، وأخذت أقابل الوفود من كل صوب يحادثونني، فيقول له علماء الطب: كلا، أنت جهول أيها الفلاح، إن من اتسع ملكه في الأرض وهو لا يعلم شروط الصحة كأكثر ذوي اليسار من جهال المصريين وغيرهم، يعتريهم المرض لقلة حركاتهم وعدم تعرضهم لضوء الشمس القاتل للمكروبات الضارة بأجسامهم وهم لا يعلمون، فالله الذي علم غفلة عباده وجهلهم هو الذي تولى قيادة الشعوب والأمم، وأكثر من الفقراء وقلل جداً من ملاك الأرض الواسعة، ليكون هؤلاء الأقلون أشبه بفداء للأكثرين الذين أجاعهم فأخرجهم الجوع إلى طلب الرزق، والرزق يكون بالعمل في الحقول بحرثها وسقيها والوقوف في الشمس ساعات من النهار، فهاهنا أمور ثلاثة: طلب للرزق من الأرض، وتعرض للشمس، وحركات الأعضاء، الفلاح يحس بالجوع فيضطر لطلب الرزق وهذا الرزق لا عمل له إلاّ أن يمنع هذا الجوع، وبعبارة أخرى: لا عمل له عند الفلاح إلاّ إزالة ألم نسميه جوعاً، كما أنه لا يتزوج إلاّ لطلب دفع الألم وهو الشبق، هذا هو المقصد له، فإما أن جسمه يقوى، وإما أنه يلد، وإما أن الحركات تساعد على هضم الطعام، وإما أن الشمس وإلحاح ضوئها عليه طول النهار يقتل المكروبات «الحيوانات الذرية» التي هي أكبر عدو للإنسان والحيوان، وهي السم القاتل لكل حي، فإنه لا ذكر لهذا كله عنده ولا وزن له ولا عبرة به ولا خبر، بل إذا سمعه يحقره وهكذا إذا قيل له: إن الجلوس في بيتك وإقبال الوفود عليك وعدم حركاتك وعدم تعرضك لضوء الشمس؛ أو إذا قيل له: إن أكلك المآكل الدسمة وأنواع الفطير وكثرة أنواع الطعام مذهبة لصحتك مضعفة لك ذائبة بعمرك؛ فإن الفلاح يحتقر هذا كله ولا يصدق أن قلة المال في يده وقلة النقود هي أكبر عون له على السعادة، إذ لولا ذلك لم يعمل في الحقل ولم يتعرض لحرارة الشمس. هذه حال الناس أيام جهلهم، لذلك تولى الله بنفسه علاج الأمم فأكثر من الفقراء وقلل من الأغنياء وجعل ذلك الفقر هو العلاج لأجسام هؤلاء الفقراء، وأسمعنا ذلك في القرآن إذ قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، فإذا قلت حركات الإنسان لجهله أو إذا قدم الظل على الشمس أو إذا أحب أكل الطعام الفاخر رحم الله عباده فألجأهم إلى الحركات في طلب الرزق وعرّضهم للشمس ليقتل الأمراض الداخلة بالحركات ويقتل المكروبات بضوء الشمس، ثم في نفس هذه الحال يقلل المال عند أكثر الناس لئلا يبطروا فيأكلوا ما لذّ وطاب فتذهب صحتهم ويكونون مرضى. فلعمري أي رأفة وأي رحمة أعظم من هذه، عيال عليه لا يميزون كما لم يميز الأطفال بين الضار والنافع فيمنعهم الآباء من تعاطي ما يضرهم، هكذا الله نظر إلى عباده فعاملهم كما نعامل نحن أطفالنا، فجعل السواد الأعظم فقراء لتصح أجسامهم، وجعل أقل الناس أغنياء، وقال: هم فداء لكم أيها الفقراء، فإذا مرض أكثرهم وصحت أجسام أكثركم فإني أهتم بالإصلاح العام لأنه أولى.

هذا كله في أيام جهل الأمم، أما إذا عمّ العلم فإن الجهلاء يفهمون هذه الحكم بطريق التعليم، فيرضون وتكون عندهم سعادة على قدر ما يشعرون، فهم أفضل إذ ذاك من آبائهم الجهلاء، وأما فريق الأغنياء فإن العلم ينقلهم إلى حظيرة الصحة ويتعرضون لضوء الشمس اختياراً لا اضطراراً، وهاك مثلاً مما جاء في إحدى المجلات العلمية وهذا نصه:

## الاستشفاء بأشعة الشمس

أصبحت المداواة والتقوية بأشعة الشمس أهم ظاهرات العلاج في المستشفيات والمصحات الأوروبية والأمريكية. ويقول الأخصائيون من علماء الطب: إن أشعة الشمس أنجح دواء لعلاج كثير من الأمراض، وأن الفتاة التي تداوم كل يوم على التعرض للأشعة ساعة من الزمن تنال الصحة التامة والجمال المشرق والبهجة.

وترى في هذه الصورة (انظر شكل ١٠) قسماً من مستشفى الأشعة في فندق «ايفرجلاد» بكاليفورنيا، وأكثر قاصديه من الفتيات الحسان، فهل آن لفتياتنا أن لا يخفن من التعرض لأشعة الشمس لأنها تسود وجوههن؟ وهل من الجمال أن تبدو صفراء منتقعة اللون لحرمانها من أشعة الشمس؟. اهـ.

(شكل ١٠ ـ رسم قسم من مستشفى الأشعة في مصح فندق «ايفرجلاد» بكاليفورنيا)

أقول: إياك أن تظن أن معنى هذا أن تقف أو تقعد في الشمس بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير، وإنّما يجب أن تستشير الطبيب الصادق، وإلا فاقرأ ما تقدم في هذا التفسير في سورة «يونس» فإنك ترى هناك ذكر الاستشفاء بنور الشمس، وأنه يكون بالتدريج والمحافظة على الرأس، وليس معنى هذا أنك تأخذ ما قيل هنا قضية مسلمة بدون بحث ولا تنقيب، كلا.

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، فالفلاح الفقير يشفيه بحيلة، وهي أنه يجيعه، وهذا الجوع يقوده إلى الحركة وإلى ضوء الشمس، والمتعلم الغني يشفيه بحركات المشي والعمل والتعرض لضوء الشمس بسبب العلم، وهكذا. إذن الشفاء قد يكون له سببان: سبب طبعي وهو الجوع المسبب للحركة، والعلم المسبب للعمل، فهذا من المعاني الداخلة في قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠].

ومن أسباب الشفاء تلك الرؤيا التي رآها قدماء الأطباء ومنها التجارب المذكورة وهكذا، إذن ظهر أن الشفاء من الله، ولكن بالأسباب فالأسباب كلها مسندة إليه، وهو الذي هدانا لها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر: ٧]، فحال الجهل ـ التي

تجعل الإنسان كافراً بالنعمة بحيث يلجأ إلى أن يتعرض للشمس وإلى أن يحرك أعضاءه للعمل قهراً بدافع الجوع وحده ـ حال غير مرضية عند الله، أي أن الله لا يحب أن يبقى عباده جهالاً بما حولهم وبما يعتري أنفسهم، أي أنه لا يحب أن يبقوا كالأطفال تحت مراقبة آبائهم، بل هو يحب أن يعرفوا النعمة ولا سبيل لشكر النعمة غير المعرفة، فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فالفلاح لا يعد ظهوره في الشمس نعمة، بل يقول إنها نقمة، ولا يعد الحركة نعمة، ويظن أن صاحب الأرض الذي هو طول النهار في الظل وهو مريض لقلة الحركة أسعد منه حالاً، وذلك كله من الجهل.

## تجربتي في هذا المقام

أقول وأنا اليوم وقعت فيما وقع فيه الفلاح في الحقل. ذلك أني اليوم أكتب في التفسير وليس لي هم في هذه الحياة أعظم منه، فأراه منية نفسي وأعظم مقاصدي، قد ملك على مشاعري، بل أصبح أعظم اللذات. ولكني أرى قواطع وفواطع من أعمال داخلية وأخرى خارجية توجب أن أقطع العمل وأجدّ في تلك الأعمال وأسافر خارج القاهرة، وقد خلق الله لي من يناوئوني في أمور تافهة في الحقل وفي أمور صغيرة جداً، فأوازن ما بين السعادة التي أحس بها في كتابة هذا التفسير وبين الشقاء الذي أحس به في الانقطاع عن مواصلته والبحث عن مدافعة هذه القواطع، فماذا أفهم في هذا؟ أفهم فيه أن الله عاملني معاملة الفلاحين في الحقول، فقال لي بلسان الحال: أنت اليوم مستلذ بما تكتب وتعكف عليه، وهذا ربما يسبب ضرراً في صحتك وضعفاً في قواك العقلية، لأن المداومة على فكر واحد تؤثر في المخ، ولست أكتفي بمعلوماتك في الطب وهي قليلة، فلا تقوى على حفظ صحتك، ولا تكفي الرياضة الجسمية التي تقوم بها، لأنك تقوم بها مختاراً، واختيارك وحده غير كاف، فلذلك خلقت لك من يناوئونك في الحقل لحفظ صحتك، لأني بهذا أخرجك في الهواء الطلق فتسافر وتقابل الناس وتحادثهم فيحصل هناك تعادل في قواك وتنوع في الفكر وفي الحركات، وتذكر أن نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم مع أنه نبي أوحي إليه كان يخرج للغزوات ويسافر ويقوم بأمر الأمة، ولم يقطعه ذلك عن الدين والعلم، بل أنه في آخر الأمر كان ينزل عليه الوحي وهو في سفره وجهاده والحرب قائمة، فلتكن لك من ذلك موعظة ولترض بما عملته. هذا ما فتح الله به يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢٩ أكتبه ذكرى لأولي الألباب.

هذا عمل الله في الأفراد، أما عمله في الأمم فإنه علم أن أمم العالم اعتراها الخمول في بلاد الشرق وبلاد الغرب، فبلاد أمريكا كانت قد وصلت إلى درجة الانحطاط بعد العز والمدنية، بدليل ما وجدوا فيها هذه الأيام من آثار المدنية والحضارة والمباني العظيمة كأهرام الجيزة بمصر، وكانت بلاد اليابان والصين والهند كلها قد خيم عليها الجهل والخرافات، والنصارى بأوروبا قد أصبحوا في غاية الخضوع للقسيسين، وهم في حال الوحشية والهمجية، فأرسل الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، فقامت الأمة العربية بالحمية الدينية فهزت العالم من أقصاه إلى أقصاه، فترى الدولة الأموية بلغت جبل طارق وسطت على إسبانيا وفرنسا ونزعتهما من الجرمانيين الحاكمين عليها منذ ثلاثة قرون، وهكذا فعلوا في بلاد المشرق ووصلوا إلى الهند وإلى أطراف الصين.

فانظر ما يقوله العلامة « سديو » صفحة ١٠٣ : « خرج من عمان لفتح الهندستان أساطيل إسلامية سنة ١٦ هجرية ، فأخذت جزيرة « طناج » القريبة من مدينة « بمباي » ومن جزيرة البحرين أساطيل أخرى دهمت في خليج « كامبي » مدينة « بارود » ، وخرجت أساطيل ثالثة إلى مصاب نهر السند ، ثم أخذ عبد الله بن عامر سنة ٢٣ بلاد كرمان وسجستان ، ثم حارب والي إقليم مكران وملك السند فغلبهما ، وأخذ عبد الرحمن بن سمرة بعد ذلك بسنين قليلة إقليم « داور » ومدينة « بست » فكان مملكتا قبول والسند حدود الممالك العربية ، ثم ذكر بعد ذلك أنهم وصلوا إلى جبال «هيمالايا» ، ثم أخذوا بلاد « خوارزم » وما وراء النهر ومعظم مملكة التتار ، وأحرقوا أصنام مدينة « فرغانة » و« تحشب » و« بيكند » و« بخارى » و« سمرقند » سنة ٩٤ ومدينة « كشغر » و« اقصوا » و« حوكان » ويعث الأمير قتيبة من قبل الحجاج اثني عشر سفيراً إلى ملك الصين وهددوه بالإغارة ، فغمرهم بعطايا الذهب الوافرة اتقاء لشرهم ، وحكم قتيبة مملكة قبول بشرق سجستان وأخذ منها الجزية ، فلحقه جيش في أرض مكران وانتشر منها في سهول مدينة « كشمير » ودافعته مدن على شواطئ السند فهزم هؤلاء ، وهكذا كانوا يناوئون ملوك القسطنطينية ، هذا هو الذي حصل منذ ١٣ قرناً ، لم ذلك؟ كان ذلك لإثارة القوى الإنسانية في الشرق وللغرب إذ كانوا نياماً ، فهاهي ذه الأمم النائمة استيقظت ، وهذه الحركة العمرانية انتشرت في الغرب والشرق ، والمسلمون الذين قاموا بهذه الحركة جميعاً ناموا أكتعين أبتعين أبصعين ، وكأن الله يقول لنا : ليس نومهم دائماً ، كلا ، فكما سلطتهم على الناس فأيقظوهم ، هكذا أنا أسلط الناس عليهم ليوقظوهم ، فهاهي ذه المدافع والطيارات والغازات الخانقة وشن الغارات عليهم صباحاً ومساءً ، والجيوش الأوروبية تصبحهم وتمسيهم ، لماذا هذا؟ كل هذا لإيقاظهم من نومتهم ، ولقد استيقظ كثير منهم وسيتبعهم الباقون ، يظن الجهال من المسلمين أن هذه الحروب وهذا الإذلال نقمة .

نعم هو نقمة ظاهراً ولكنه نعمة باطناً ، فهو أشبه بالجوع في مثال الفلاح في الحقل الذي قدمته لك في هذا المقام . أجاع الله الفلاح وقلل ماله ، فسعى للزرع فتحركت الأعضاء للعمل وأصابته الشمس وأكل الطعام ، فكان للجوع ثلاث فوائد : غذاء بالطعام ، ودواء بحركات الجسم ، وضوء الشمس ، فالجوع ضرر واحد أنتج ثلاث منافع ، إذن الجوع ليس ضرراً بل هو نفع بل هو لغة يخاطب الله بها عباده ، بل هو أفصح من اللغات هذه لغة الجوع .

أما لغة احتلال مصر وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس وبلاد الشام وفلسطين والعراق بالطليان وفرنسا وإنكلترا ، فهذه تشبه هذه شبهاً تاماً ، فالله بهذا الاحتلال يقول لنا :

(١) تعلموا جميع العلوم .

(٢) ويقول : تعلموا جميع الصناعات .

(٣) ويقول لنا : أيها الناس تعارفوا .

فهذه فوائد إذلال المسلمين الآن ، إن إذلال الأمم لمنفعتها ، وإذلال الأفراد لمنفعتهم ، إذن الله عزَّ وجلَّ حكيم يعطي الدواء على مقتضى الداء .

الله علم ضعف هذا الإنسان في الأرض فجعل له ديانات مختلفات ليفعل ذلك فعل الجوع في الجهلاء ، الله سلط الناس بعضهم على بعض ، ليتخرج قواهم بهذه العداوة ، يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] ، قالت السماوات والأرض أتينا طائعين ، لماذا؟ لأن المدبر لهما ملائكة ، والملائكة تدبر حركات هذه الكواكب الكبيرة فلا تخطئ . أما هذه العوالم الأرضية كالأمم الإسلامية والإفرنجية فإنها تساس بطرق أخرى ولا سبيل لذلك إلاّ ببعث البواعث في عقولهم بالديانات تارة والعداوات أخرى ، فسلط المسلمين على الأمم ثم أنامهم وأيقظ الأمم ، وهاهي ذه الأمم تحيط بأكثر المسلمين وهذه الإحاطة نعمة لأنها بعثت فينا الهمم ، ومن ثمراتها كتب كثيرة وخطب ، ومنها هذا التفسير الذي جعله الله مقدمة لنهضة مصاحبة لظهور الطيارات في الشرق والغرب ، ومتى ارتقى المسلمون قريباً سيشتركون مع الأمم في رقي الإنسانية العامة . إذن السماوات والأرض أتتا طوعاً .

أما المسلمون والنصارى وغيرهم فإنهم أتوا كرهاً لا طوعاً ، والإكراه بالأمراض في أجسامهم والفقر وقلة المال وحبس المطر والعداوات بينهم ليجدّوا في العمل فيعيشوا سعداء ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] ، فهو الذي لما مرضت الأمم بالكسل شفاها بالعقاقير الإسلامية ، إذ حاربهم الجيوش ، ولما مرض المسلمون بالكسل والجهل سلط عليهم الأمم فحاربوهم ، وخلق لهم مؤلفين ليوقظوهم ، ومن التآليف هذا التفسير الذي هو من الأدوية التي ساقها الله للمسلمين لإيقاظهم ورقيهم تفسيراً للآية ، والله هو الولي الحميد .

## جوهرة في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

## مع قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

### مع ملاحظة ما جاء في أول السورة من الأمر بالنظر في الأرض ونباتها على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم

### ووصف السماوات والأرض وخلق بني آدم قديماً وحديثاً وخلق المشرق والمغرب على لسان موسى عليه السلام

يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨] الخ ، فهنا ذكر الطعام والشراب والمرض والشفاء والموت والحياة كما ذكر خلق العوالم كلها وخلق الإنسان خاصة ، فيا ليت شعري ، لم خلق هذا الإنسان على الأرض؟ .

## فكرتي في خلق هذا الإنسان بمناسبة هذه الآية

اعلم أن هذا الإنسان لا يهمه في الحياة إلاّ المحافظة على هذا الهيكل المنصوب ، فكل علم وصناعة وإمارة وتجارة ترجع إلى المحافظة على هذا الهيكل .

إن الله لما خلق هذا الإنسان جعل له حافظاً من نفسه ، واعظاً من نفس هيكله ، وموقظاً من جسمه ، وما هو ذاك؟ هو الألم ، فالألم هو الناموس العام الذي نصبه الله في الأرض برحمته . فسبحانك اللهم ، نعم أسبحك يا الله ، أنزهك عما يؤذينا ، إنك لم تجعل الألم فينا لمجرد الإيذاء ، بل جعلته نعمة ، ولولا هذا الألم في الحيوان وفي الإنسان لم يعيشا .

إن الله عزّ وجلّ لما خلقنا في هذه المادة لم تكن هناك وسيلة في هذا العالم المادي لبقائنا إلاّ بالآلام فنحن ننزهك في صلواتنا فنقول: «سبحان ربي العظيم» في الركوع و«سبحان ربي الأعلى» في السجود ونسبح عقب الصلوات، وقد مدحت يا الله يونس عليه السلام فقلت: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات: ١٤٣-١٤٤]، المسبحون هم الذين أدركوا أسرار هذا الوجود واغترفوا من بحار الحكمة فعرفوا أن كل ما في هذا العالم من الآلام لم يقصد الله منه إلاّ المنفعة، وأن الضر القليل ينتج الخير الكثير وهذه طبيعة عالمنا.

هذا هو القانون، فالتسبيح الحقيقي هو إدراك هذه المعاني، فإذا سمعت المسلمين صباحاً ومساء يسبحون، فإياك أن يختلج في قلبك أن اللفظ هو كل المقصود، إن الله لا يصل إليه إلاّ أناس ارتقوا عن هذه الأوساط الإنسانية، وعرفوا نواميس هذا الوجود بقدر طاقتهم، وهؤلاء وحدهم هم الذين يفهمون لم كان الطعام، ولم كان الشراب، ولم كان المرض، ولم كان الموت الخ، وينظرون إلى تلك الأحوال نظر الطبيب إلى الأدوية المعطاة للمريض.

إن الطبيب لا يبالي بأمراض المريض لأنها عنده لا قيمة لها في جانب منفعته، فمن عرف هذه الأسرار عرف السر في كثرة التسبيح والتقديس الواردة في الكتب السماوية، ومتى أدركت النفس سر الوجود نزهت الله عن الإيذاء قصداً، بل هو ترقية وإسعاد لا إشقاء، فلنبحث إذن في ألم الجسم ليتضح المقام وينشرح صدرك للفهم والعلم والحكمة، فإن الذي ذكرته إنّما هو مقدمة لجمال المقال.

إن هذا الجسم الإنساني كما قدمنا لا حياة له ولا بقاء ولا سعادة إلاّ على قاعدة الألم، وبيانه أن الألم قسمان: ألم داخلي وألم خارجي. أما الألم الداخلي فهو الجوع والعطش والشبق لطلب الطعام والشراب والوقاع لصحة الجسم وبقاء النوع بحصول الذرية. وأما الألم الخارجي فذلك بالحر والبرد وتظاهر الأعداء من الوحوش والحشرات والأشرار من نوع الإنسان، فكان لا بد من اللباس والمسكن والقلاع والحصون والجيوش والعدد. وهذا هو الذي حكم على هذا الإنسان بالصناعات والحرف والزراعة والتجارة الخ، ولهذا فتح المدارس ونظم المدن وعظمت المدنية، إذن الأمر كله راجع لهيكل الإنسان والمحافظة عليه، فهذا هو الأصل وهذا الهيكل له حامل، والحامل له فرعان هما: الألم الداخلي والألم الخارجي، وما ألم المرض بخارج عن هذين الفرعين لأن المرض من داخل ومن خارج.

## اللذة تلازم الألم

ومن عجب أن هذه الآلام مهما تنوعت صحبتها اللذة، ولا لذة إلاّ بسابقة ألم، فالألم واللذة كفرسي رهان أو كالشبح وظله، هما شيئان متلازمان وعلى مقدار الألم تكون اللذة، ومن فقد الألم فقد الحياة، ألا ترى رعاك الله أن الإنسان إذا لم يحس بألم الجوع حزن وذهب إلى الطبيب شاكياً له فقد هذا الألم، وإذا لم يحس بالشبق حزن وذهب إلى الطبيب شاكياً له هذا المرض، ذلك علماً منهما أنه إذا لم يكن ألم الجوع فلا طعام، وإذا لم يكن ألم الشبق فلا وقاع، كما أنه إذا لم يكن عطش فلا لذة في الشراب ولا شراب.

الله أكبر، إذن الألم كمال لا نقص، فإننا أثبتنا أن عدم الجوع نقص فالجوع كمال، فكما نقول الذي لا يقدر على التكلم ناقص هكذا نقول الذي لا يجوع ناقص، لأنه لا داعية عنده لطلب الأكل. إذن الألم قوة كمالية لأنها سبب فيما به قوام أبداننا، وما ألم المرض إلا كمال لأن ألم المرض إحساس يؤدي إلى تعاطي الدواء، كما أن ألم الجوع كذلك، فلو لم نحس بالنقص في أجسامنا عند المرض لمتنا، وأيّ فرق إذن بين من يحرق بالنار وهو لا يحس وبين من يمرض فلا يحس، فنحن لو لم نحس بإحراق النار لمات أكثر الناس وهم لا يبالون بما يصيبهم منها، هكذا لو أن المرض أصابنا ولم نحس به لزال أكثر هذا الإنسان من الوجود، إذن ألم المرض نعمة وألم الجوع نعمة، إذن لا يكمل دين المسلم إلاّ إذا عرف معنى «سبحان الله والحمد لله» وعرف قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[الروم: ١٧-١٨].

هذا معنى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠]، فالخير والشر مقرونان في قرن، والخير متبع والشر محذور، وهذه نفسه حال العشاق إذ يقول شاعرهم:

إذا لم يكن في الحب صد ولا جفا    فأين لذاذات الرسائل والكتب

ولقد حكم سقراط على من لا عفة عندهم بأنه لا لذة لهم، إذن علمنا حكم هذا العالم، فهذا العالم فيه ليل ونهار وظلمة ونور وحياة وموت، وبالجملة فيه كل متقابلين، لذلك بنيت حياتنا على هذه القاعدة، فكانت الصحة وكان المرض كما كان الجوع والعطش وتعاطي الطعام والشراب وهكذا الموت والحياة؛ ويظهر لي أن عقولنا لو أنها ارتقت عن هذه الحال قليلاً وأدركت سر الوجود لفرحت بالموت كما فرحت بالحياة، لأنها إذ ذاك تكون قد اتصلت بالعوالم العلوية التي تدرك الحقائق، وإدراك الحقائق هو نفس السعادة.

## إيضاح الكلام على اللذات

لقد علمت أنه لا لذة إلاّ بألم في كل شيء، فلا شفاء إلاّ بعد ألم المرض وآلام تعاطي الدواء، ولا فرح بالغنى إلاّ بعد الفقر، ولا بالنجاة إلاّ بعد البأساء، ولا بالعز إلاّ بعد الذل، ومن عجب أن الفرد له أعوان ينفعونه ويساعدونه، والأمة لها أمم تساعدها بالمعاهدة والصداقة، ومع ذلك نرى القاعدة الآتية مطردة، وهي أن أقارب الإنسان هم أكثر الناس حسداً له، بل كل من كان أقرب منك نسباً أو صناعة أو منزلاً أو مرتبة أو علماً كان أسرع إلى كراهة نعمة الله عليك وأحقد عليك وأبغض لك بطريق المنافسة وحب العلو، وهذه حال الأقارب من كل أمة ودين ونحلة، فمنهم آلام ومنهم لذات، وعلى مقدار الاقتراب تكون العداوات.

إذن قاعدة هذه الدنيا واحدة، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الفرقان: ٢٠]، ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ ﴾[المائدة: ٢٧] الخ، ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[البقرة: ٣٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن: ١٤]، ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[التوبة: ٥٥] الخ، هذه بعض حال أقرب الناس إلينا وأحبهم وأقربهم منازل منا، ومثل هذا يقال في الدولة وحليفتها فكل منهما تتربص بالأخرى الدوائر. فإذا قلنا:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

نقول أيضاً:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

إذن الألم مصحوب باللذة لا فرق في ذلك بين ما به بقاء الجسم أو النوع أو ما يعين على ذلك كالأصحاب . إذن القاعدة مطردة ، ألم فلذة ، وغاية الأمر أن اللذة إما لشهوة كالحاصلة من الطعام والشراب والوقاع ويلحق بهما الحاصلة بلباس الجسم لاتقاء الحر والبرد ، وإما غضبية كاللذة الحاصلة بقهر الأعداء من وحش وإنسان ، فهذه لذة أعلى من سابقتها ، ومنبعها ومحل آثارها فتحات القلب وهي الأذينان والبطينان ، فهذه الفتحات الأربع محل توارد الدم فإليها يرد ومنها يصدر صاعداً ونازلاً في الجسم من فرق الرأس إلى أخمص القدم ، ومتى أحس الإنسان بما يمس إحساسه وصل الخبر من الحواس إلى الدماغ ، والدماغ يرسل حالاً بأعصاب الحس رسولاً عصبياً أشبه بالبريد البرقي « التلغراف » ، فيصل الخبر للدم في القلب فيسرع في الجريان ويضطرب ويهتز الجسم كله ويضطرم بنار الأخذ بالثأر ويحتدم ويغلي كالمرجل ، فهذه قوة أرقى من سابقتها ، ومتى أخذ بالثأر سكنت ثائرته وهدأت حركاته واطمأنت نفسه وتكون اللذة على مقدار الألم ، وإنّما تكون أعلى من لذة الطاعم والشارب واللابس والمواقع ، فكل هؤلاء لذاتهم تشاركهم فيها جميع الدواب والأنعام ، أما لذة الانتصار فهي خاصة بطبقة أرقى وهي الوحوش والآساد والنمور ، فلذلك كانت أرقى من سابقتها ، فاتضح بهذا كله أن الغنم في الحياة بالغرم واللذة مقرونة بالألم وهذا الألم نعمة لا نقمة ، ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[مريم: ٤٥] ، فجعل العذاب ممن اتصف بالرحمة .

ثم أقول: إياك أن تكدر صفو العلم هنا بأن تذكر الكافر وعذابه ، فهذا المقام لا يسع تفصيله ، ولقد قدمته في مواضع كثيرة كالذي في آخر سورة « هود » عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾[هود: ١٠٦] الخ . إذن هذا الوجود كله لم تخلص فيه لذة من ألم ، حتى نفس العلم يتقدمه جهل ، ولولا الإحساس بنقص الجهل ما كانت لذة العلم في هذه الأرض . فما الحكمة في ذلك يا ترى؟ وهل الحكمة الإلهية لم يكن سبيل عندها لإسعادنا أقرب من هذه؟ ولماذا لم تكن اللذة خالصة؟ أليس هذا أليق بمبدع العالم؟ .

أقول: اعلم أني لما فكرت في هذا أيقنت بأن صانع هذا العالم خلقنا في الأرض وهو يعلم أن هناك عالماً أرقى منه ، فلم يشأ أن يجعلنا مطمئنين فيها ، بل ابتلانا بالخير والشر وقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥] ، يعني أنه لو لم يكن عندكم إلاّ الخير ولم نصبكم بالشر لم تحنوا إلى حال أرقى من حالكم التي أنتم عليها ، لذلك قرنّا خيركم بشركم لتبحثوا عن حال تكون كلها سعادة وخيراً وارتقاءً ، ولذلك قال: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥] ، فرجوعكم إلينا لا يكون بشوق إلاّ إذا أصبناكم بالآلام فتكرهون المقام في الدنيا ، فلا تزالون في جوع وشبع وفقر وغنى وحسد وقرابة وحب وبغض حتى تنتقلوا إلينا وتخلص نفوسكم ، ومتى خلصت نفوسكم كانت هناك السعادة التي لا شقاوة معها ، وهذا كله معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ

أتى آللّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩]، فالقلب السليم هو الذي خلص من هذه المتناقضات وارتقى عن هذه الدرجات ولم يكن كالغافلين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[يونس: ٧-٨] لماذا هذا؟لأني أذقتهم الحلو والمر والخير والشر، فرضوا بهذه الحال ولم يعقلوا الجمال في هذا الوجود.

ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾[يونس: ٩] الخ، لأن هؤلاء رأوا حالاً ناقصة ففزعوا لأحسن منها وفهموا قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات: ٤٩]، إذ عرفوا أنهم خلقوا بين آلام ولذات كحزن وفرح وخير وشر ومرض وصحة، ففروا من هذا العالم بعقول، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٥٠]، إذن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: ٨٠] يقصد من هذه المتناقضات الفرار إلى الله لنكون ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٥٥].

## الإبداع في هذا الوجود

قلنا: إن الألم داخلاً وخارجاً هو الباعث على العمل، ومن عجب أن الطعام والشراب ولذة التناسل ولذة الغلبة مع اقترانها بالآلام صاحبت إدراك الجمال، فهذا الوجود من سماوات وأرضين كما أنه غذاء ودواء وفاكهة وشراب هو لوح يدرسه الناس، وهو علم وهو جمال، فانظر لآلام حفزتنا إلى طلب الطعام والشراب فبقيت أجسامنا حية، ونفس النبات والحيوان مصنوعات صنعاً دقيقاً يصير دراسة لنا فيرقي عقولنا، ومناظر النبات والحيوان في البر والبحر وكذا النجوم في السماوات، كل هذه ترينا الجمال، فكما عاشت بها أجسامنا ارتقت بها عقولنا علماً وابتهجت أنفسنا بجمالها وبهجة أشكالها، فهي الغذاء وهي الرياضة البدنية وهي الدواء وهي الجمال وهي العلوم، فهذا هو الإبداع، فالذين أرسلوا لهذا العالم وبقوا فيه أغبياء لم يعقلوا علوم هذا النبات وهذه الحشرات وهذه السماوات، أي لم يتفكروا فيها، فإن هؤلاء غافلون، والغفلة متى استحكمت في طائفة لم يتأهلوا للقاء ربهم، وهل يجالس السوقة الملوك؟ فالأغبياء يكتفون من الحياة بقشورها ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الرعد: ٢٦] مع أن الدنيا كلها كدر، وكيف يفرحون بوجود ضئيل زائل ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فهذه الآلام في الدنيا كأنها مخاطبة من الله للناس بلسان الحال، فمن فهم الخطاب وأدرك أن هذه الآلام يراد بها استيقاظ النفس لإدراك العلم والجمال والحكمة طار إلى ربه فرحاً وأحب الموت وسارع إلى لقاء ربه، ومن لم يفهم هذا الخطاب ولم يعقل ما يراد به بقي مسجوناً في عالم ضئيل مهان معذب على حسب مرتبته. هذا هو السر في الآلام التي نحس بها.

إن المتأمل لأهل الشرق ولأهل الغرب يجدهم متعاونين وإن لم يعلموا، كل ينفع الآخر وإن لم يعقلوا، وهم مع ذلك أعداء وهم يعلمون متنابذون متشاكسون، أهل الكرة الأرضية ينفع بعضهم بعضاً بالتجارة والصناعة، وكل لكل مساعد. هذه الحياة كلها حيرة واضطراب، وإذا وجدنا الفرد منا يألم إذا لم يكن عنده ألم الجوع لاعتقاده أن عدم ألم الجوع نقص، أي أن نقص الألم فينا عيب في أجسامنا، فإنا نجد المجموع يألم إذا لم تقم حرب.

ألا ترى إلى ما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى العامة إذ كانوا يقولون: «إن الأمة التي أصبحت آمنة مطمئنة يكون مصيرها الزوال، ومن أراد رقي أمة فليثر الحمية فيها بحرب فإنها تبعثها من مرقدها»، وانظر إلى ما جاء في مواضع من هذا التفسير أن أرسطاطاليس قال لتلميذه إسكندر في الرسالة المنسوبة إليه: «إن الأمة الآمنة المطمئنة إذا أصبح أفرادها غير موكول إليهم نظام ولا مجدّين في أعمال عظيمة فإن هؤلاء ينزلون إلى الحضيض ويصبحون في ملك غيرهم يتولى أمرهم».

إذن لا فرق بين الأجسام الإنسانية والأجسام المجازية الاجتماعية، وهي الأمة بتمامها، فالفرد إذا لم يحس بالجوع مثلاً والأمة إذا لم تؤلمها الحوادث وتهذبها النوازل والكوارث فإن الفرد وإن الأمة يعتريهما إذ ذاك الاختلال والاعتلال. إذن ثبت بهذا أن حياة الأفراد وحياة الأمم لا تتم إلاّ بشر يصيبهم ومصائب تنزل بهم وإلا لم يرتقوا.

وأذكرك بما تقدم في سورة «البقرة» إذ ذكرت لك «لغز قابس» اليوناني القائل: «إن الإنسان الذي لم تهذبه الحوادث معرض لنوائب الحدثان لا يزال ذليلاً، وليس يحظى بالسعادة إلاّ من مرت النوازل والمصائب عليه»، وهكذا كتاب «الكوخ الهندي» وقد أشرت إليهما في سورة «البقرة» عند قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٥]، إذن العلم شيء ورأي الجمهور شيء آخر، وبناء عليه تكون هذه الحياة مبناها النقص فليبحث الناس عن حياة أرقى من هذه.

فقال بعض الفضلاء بعدما اطلع على هذا: هذا كلام حسن، أي إننا لا نجعل هذه الحياة هي المقصودة بدليل أنها لا تكون كاملة في مرتبتها إلاّ بالآلام، وما أقبح حياة يكون من شروطها الشر فأي خير فيها؟ هذا حسن، ثم إن قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، أظهر لنا الموضوع وجلاه وجعله بهجاً بديعاً حسناً، وأصبحنا نلمس مقصود حياتنا الدنيا فهي شر وخير، والفرار إلى الله يجعلنا في خير لا شر فيه.

## اعتراض على المؤلف بأنه لا مسبح إلّا من يعرف هذه المعاني

ولكن أنت قلت: إن التسبيح في الديانات كتسبيح يونس في بطن الحوت، يفهمنا أن المسبح الحقيقي من يدرك هذه المعاني، ويعرف أن الله بهذه الآلام أنعم علينا، وأنه بهذا منزه عن إيذائنا، فعلى هذا القول تكون رسالته صلى الله عليه وسلم خاصة بأفراد عد الأصابع في كل جيل من الأجيال.

إن الذين يعلمون ما تقول في هذا المقام قليل. إذن المسلمون في ١٣ قرناً أي بعد العصر الأول لم يسبح الله منهم إلاّ أناس أقل من القليل، وعليه تكون الصلوات والتسبيحات كلها لا فائدة منها. فقلت له: إن التسبيح اللفظي والعبادات كلها لها آثار فعلية، فلا تسبيح ولا تحميد إلاّ وآثاره ترجع إلى النفس وتؤثر فيها كما يؤثر المنوِّم ـ بالكسر ـ في المنوَّم ـ بالفتح ـ ولولا هذا لألغيت العبادات من الأرض، والله عزّ وجلّ لا يبقي إلاّ النافع، ولقد قرأنا في التاريخ وفي الألواح التي نصبتها الأمم في كتبهم أنهم جميعاً يعبدون، والعبادة أقوال وأفعال، وهذه كلها تؤثر بطريق الاستهواء الذاتي، فكل قول يلفظ به جاهل أو عالم مع المعنى الإجمالي يؤثر في النفس تأثيراً حقاً، فهو نوع من تنويم الإنسان نفسه، إذن المنفعة عامة بالصلوات والتسبيحات لا خاصة بالعلماء والحكماء. فقال: هذا حسن. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

واعلم أيها الذكي أن كلامي هـذا لا يعقله إلا قليل، وهؤلاء القليلون يتأملون فيجدون أننا أشبه بكرة يتجاذبها الحزن والفرح والقرب والبعد والبكاء والضحك والجمال والقبح، فمتى عرفوا ذلك يقولوا: نريد حياة بحال أرقى، فيقال لهم: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤]. إذ ما بعد النقص إلا الكمال، فمن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء: ٨٩]، وقوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾[الحجر: ٤٧] أما إخوان الدنيا فهم حاسدون قد شاب الضر نفعهم كالطعام والشراب والدول والممالك. انتهى ليلة ٣ إبريل سنة ١٩٢٩ م نصف الليل.

ولنرجع إلى بقية التفسير اللفظي للقسم الثالث والرابع فنقول: قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: جماعة قوم نوح، وتكذيب نوح تكذيب للمرسلين لأنهم يدعون إلى صراط مستقيم واحد والاختلاف في الطرق وفي الفروع، وأما الأصول فهي واحدة: الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ وقد كان منهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله فتتركوا عبادة غيره ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيكم ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح ﴿ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره للتأكيد ولينبه على أن طاعته تجب عليهم لأمانته أولاً ولأنه لا يطمع في مال منهم ثانياً، وكل منهما وحده كاف في دفع الشبهة عنه ووجوب طاعته، فما بالك إذا اجتمعا فأوردوا عليه شبهة ﴿ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ الأقلون جاهاً ومالاً جمع أرذل، فإنك وإن كنت أميناً ولا تطلب منا أجراً فلا ضير عليك من هذه الوجهة، إنما الشبهة واردة عليك في اتباعك الفقراء الذين ربما أرادوا باتباعك أن تطعمهم من جوع، وهذه شبهتنا فيهم، فردّ عليهم ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في مال، وما عليّ إلا اعتبار الظاهر ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ﴾ ما حساب بواطنهم إلا على الله فإنه هو المطلع عليها ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لو علمتم ذلك، ولكنكم قوم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون. ولما كان قولهم إن أتباعك هم الأرذلون يفيد أنهم يريدون طردهم، قال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بغية أن تؤمنوا بي على دعواكم أنهم هم المانعون لكم من اتباعي، ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ لا أفرق في إنذاري بين عزيز وذليل، فكيف يليق بي طرد الفقراء، فلما أعيتهم الحيلة قالوا: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ من المضروبين بالحجارة، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ في الرسالة وقتلوا من آمن بي من الغرباء ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ فاقض بيني وبينهم قضاء بالعدل ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ المملوء ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ بعد إنجائه ﴿ ٱلْبَاقِينَ ﴾ من قومه. وقد تقدمت هذه القصة في سورة «هود» مستوفاة فارجع إليها، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ شاعت وتواترت ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. انتهى تفسير القسم الثالث والرابع من السورة.

## القسم الخامس

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ
قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا
فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أنث باعتبار القبيلة سموا باسم أبيهم، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كررت هذه العبارة في دعاء الأنبياء للدلالة على أن دعوة الأنبياء لا تفيد إلاَّ إذا كانت مقصورة على ما يقرب إلى الله وثوابه ويبعد عن عقابه، وهكذا العلماء لا ينجع في الناس تعليمهم إلاَّ إذا كانوا مخلصين في تعاليمهم كأنبيائهم، وبغير ذلك لا فائدة، ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ بكل مكان مرتفع، ويقال: ريع الأرض: ارتفاعها، وكما يطلق الريع على الشرف من الأرض يطلق على الفج وهو الطريق بين الجبلين، ﴿ ءَايَةً ﴾ علماً للمارة ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي: بمن مر بالطريق لأنهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم، ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ قصوراً مشيدة وحصوناً مانعة ومآخذ الماء، وهي

الحياض، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي: كأنكم تبقون فيها خالدين لا تموتون ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم ﴾ أخذتم وسطوتم وعاقبتم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ونظر في العاقبة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك ذلك ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه، ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: اخشوا الذي أعطاكم.

ثم بيّن ما أعطاهم فقال: أعطاكم أنعاماً وبنين، وكرر التقوى لتفاوت المدنيين، وهما: ترك المنهيات في الأول، والحذر من انقطاع النعم إذا أهملوا في الثاني، وقد فصل النعم في الثاني كما نبه على مساويهم بقوله: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ثم أجمل ذلك كله بقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدنيا والآخرة، وذلك العذاب يكون لفعل المعاصي أو لكفران النعم ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ فإنا لا نرجع عما نحن عليه، ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر عاتية سخرناها عليهم، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾، إلى قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدم تفسيرها.

وقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ ﴾ إنكار لأن يتركوا خالدين في نعيمهم ﴿ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ أي: في الذي استقر في هذا المكان من النعيم آمنين من العذاب والزوال والموت. ثم بيّن ذلك فقال: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ وخص النخل الداخلة في ضمن الجنات تفضيلاً للنخل على بقية الشجر ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أي: ثمرها الذي يطلع منها ﴿ هَضِيمٌ ﴾ لطيف يانع نضيج، ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ بطريق أو حاذقين من الفراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي: المشركين ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ فإن المفسد الذي غلب صلاحه على فساده يجوز بقاؤه، فأما من غلب فساده على صلاحه أو كان فساده لا إصلاح معه فالهلاك أولى به، ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقلهم ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ هذا تأكيد ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ وذلك بعد ما أخرجها الله من الصخرة بدعائه ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي ومن القوت، ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فلا تزاحموها في شربها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضر وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وعظم اليوم لعظم ما يحلّ فيه، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عقرها بعضهم برضاهم فكأنهم عقروها كلهم، ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب، ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الموعود ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيرها.

انتهى التفسير اللفظي للقسم الخامس.

## القسم السادس

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ
﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ
أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ
ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أتطؤون الذكور من أولاد آدم مع كثرة الإناث فيهم ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ ﴾ «من» تبيين لما خلق ويحتمل أن يكون للتبعيض، أي: إنكم تذرون العضو المباح منهن وتجاوزونه إلى ما هو محرم فيهن لأن أدبار الزوجات والمملوكات محرمة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متجاوزون الحد في الشهوة لأنكم تذرون ما هو محل التناسل من النساء إلى غيره منهن ومن الرجال ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ ﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ من المنفيين من بلادنا ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ من المبغضين غاية البغض فأنا أحد المبغضين فلست وحدي في هذا الإنكار. ثم رجع إلى ربه فقال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أهل بيته والمتبعين له على دينهم إذ أمرنا بإخراجهم من بيوتهم وقت

حلول العذاب ﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي: كائنة فيمن بقوا في القرية فإنها لم تخرج مع لوط فهلكت مع الهالكين ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أهلكناهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم، وقيل: بل أتبع الائتفاك مطراً من حجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ مطرهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيرها أيضاً.

## لطيفة في قصة قوم لوط عليه السلام

اعلم أن الله عزّ وجلّ أذن اليوم بإبراز العجائب والحكمة في القرآن لتقرّ به النواظر وتنشرح به الصدور ولتستقر الأمور.

فانظر أيدك الله إلى ما جاء اليوم من الكشف والعلم في هذه القصة في المجلات والكتب مثل مجلة « السياسة » الأسبوعية يوم السبت ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٨، وهذا نص ما جاء فيها:

## قصة سدوم وعمورة

## هل هي حقيقية أم خرافية؟ أحدث آراء علماء الآثار

في الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتي سدوم وعمورة وثلاث مدن أخرى بجوارهما بأن أمطر عليها ناراً وكبريتاً من السماء، فلم ينج من سكانها إلا إبراهيم الخليل وأهل بيته ولوط وابنتيه، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن، وإنّما كان قد نزح إليها من الشمال طلباً للمرعى حسب عادة القبائل الرحّل في ذلك الزمن، وقد اختلف المؤرخون في قصة سدوم وعمورة، فذهب بعضهم إلى أنها خرافة لا طائل تحتها، وزعم آخرون أنها قصة رمزية ترمي إلى العظة والذكرى، وقال فريق ثالث إنها حقيقة وإن في آثار البلاد المجاورة للبحر الميت ما يثبت صدقها، ولعل الدكتور « أولبرابط » المشهور بمباحثه الأثرية في بلاد المقدس في مقدمة الذين سعوا لمعرفة حقيقة قصة سدوم وعمورة التي قد مر عليها أربعة آلاف سنة، وهي لا تزال من الأسرار المستغلقة على علماء التاريخ، ويظهر من المباحث الأخيرة التي قام بها أن تلك القصة حقيقية بجميع تفاصيلها وأننا على وشك اكتشاف مأساة من أفظع المآسي التي شهدها التاريخ.

قام الدكتور « أولبرابط » بمباحث واسعة النطاق في وادي الأردن وعلى سواحل البحر الميت وهما المكانان الوحيدان اللذان يظن أن سدوم وعمورة والثلاث المدن الأخرى كانت فيهما. وقد انتهى من المباحث إلى هذه النتيجة وهي أن القصة الواردة في الكتب المنزلة ليست خرافية ولا رمزية، بل هي تاريخية بجميع تفاصيلها وجزئياتها.

وخلاصة هذه القصة هي أن حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد انحدر إبراهيم الخليل من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهل لوط، ومع كل منهما مواش كثيرة، وفي رواية التوراة أن الأرض لم تحتملهما لكثرة ما كان معهما من الغنم والبقر والرعاة، وأنه حدثت مخاصمة بين رعاة مواشيهما، فافترق لوط عن إبراهيم حفظاً للسلام، واختار لوط دائرة الأردن أي الوادي الذي كانت فيه سدوم وعمورة وأقام بسدوم، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال وضرب خيامه في موضع يقال له « بلوطات ممرا » وأقام هنالك مذبحاً لله لأنه كان مؤمناً.

أما لوط فيظهر أن اختلاطه بأهل سدوم أنساه عبادة الخالق فاقتفى أثر الوثنيين ـ هذه يكذبها القرآن ـ وكان ذلك في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي: منذ نحو أربعة آلاف سنة، وهذا هو العصر المعروف لدى علماء التاريخ بالعصر البرونزي، على أن آثار فلسطين التي ترجع إلى أربعة آلاف سنة تدل على أنه كان في فلسطين في ذلك الزمن حضارة راقية، وليس في تفاصيل قصة إبراهيم ما يناقض آثار تلك الحضارة، بل إن جميعها تنطبق على عادات القوم وطقوسهم وشعائرهم كل الانطباق، فقد كان الناس الرحّل يتجعون المراعي النضرة ويضربون خيامهم حيث تكثر المياه وتسهل وسائل المعيشة، وكانت المدن تشاد في الأودية على مقربة من مجرى الأنهر، كما كانت الخيام تضرب على المرتفعات، وهذا عين ما فعله إبراهيم.

وليس في هلاك مدينتين كسدوم وعمورة ما هو مدهش من الوجه العلمي أو التاريخي، فقد أخربت صروف الدهر مدن «تروادة» و«بابل» و«بعلبك» و«قرطاجة» و«بطرا» و«بومباي» و«تدمر» وغيرها، ولكن لم يمح أثر إحداها محواً تاماً، بل لا يزال لكل منها آثار تدل عليها وعلى ما كان لها من المجد والعظمة.

أما سدوم وعمورة بل المدن الخمس التي كانت في دائرة الأردن فقد زالت ولم يبق لها أثر قط وهذا ما جعل الكثيرين من المؤرخين يعتقدون أن قصة سدوم وعمورة خرافة لا طائل تحتها أو أنها حكاية رمزية كما تقدم. على أن الدكتور «أولبرابط» قد اكتشف آثاراً يمكن أن يستدل منها على صحة القصة، فقد وجد هنالك آثار حصن قديم يعلو نحو خمسمائة قدم على سطح البحر الميت وبجوار هذا المذبح أي حجارة منصوبة بشكل أعمدة يرجح أنها المرتفعات التي كان الوثنيون في ذلك الزمن يقدمون عليها قرابينهم، ويسمي أهالي الأردن المكان الذي توجد فيه تلك المرتفعات «باب الدراع» وهو على الأرجح الموقع الذي كانت فيه سدوم وعمورة لأن الوثنيين كانوا ينصبون مذابحهم في المدن في المعابد، حيث يقيمون شعائر عبادتهم، فلابد إذن أن باب الدراع كانت مركز حضارة وثنية ترجع إلى ذلك العصر، ولكن أين آثار تلك الحضارة؟ أيمكن أن يكون البحر الميت قد طما عليها فطمرها وأزالها؟.

هذا فرض كثير الاحتمال، وفي التاريخ حوادث كثيرة تشبهه، ففي سنة ١٨٨٣ ثار بركان «كراكاتو» بين جافا وسومطرة وكان العلماء يظنون أنه قد انطفأ منذ زمان طويل، فغير جغرافية تلك الأنحاء تغييراً تاماً وقلبها رأساً على عقب. وفي سنة ١٨٨٦ أي بعدها بثلاث سنوات ثار بركان «تاراويرا» ببلاد نيوزيلندا، وكان العلماء يزعمون أنه من البراكين المنطفئة، فغير معالم البلاد المجاورة وأحدث بها تغييرات، حتى صار أهالي تلك الأنحاء لا يعرفونها، وعليه فمن المحتمل جداً أن يكون البحر الميت قد طما على المدن الخمس التي كانت في دائرة الأردن، بل إن بعض علماء الجيولوجيا يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلاداً كانت آهلة بالناس، أما المدن الخمس فهي سدوم وعمورة وأدمة وبالع وصبوئيم، وقد عثر المنقبون في باب الدراع على آثار يؤخذ منها أن طقوس العبادة الخاصة بالمرتفعات السابق ذكرها استمرت من سنة ٨٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ قبل التاريخ الميلادي، أي: إن باب الدراع كان من أمكنة القوم المقدسة مدة نحو ألف سنة، ثم هجره أصحابه، ولماذا؟ لسبب بسيط هو خراب سدوم وعمورة.

وليس في تسميتنا سدوم وعمورة وأخواتهما بالمدن ما يدل على حقيقتها، فإنها لم تكن مدناً بالمعنى المعروف عندنا، بل كانت على الأرجح قرى صغيرة تضم كل منها بضع عشرات أو أكثر من المنازل، وكان ملوك تلك المدن أشبه بشيوخ بلد لولا ما كان لهم من الشأن عند رعيتهم، ويؤخذ من رواية التوراة أن ملوك المدن الخمس المذكورة خرجوا لقتال أربعة ملوك من البلاد المجاورة، وحدثت بينهم موقعة تعرف بموقعة «عمق السديم»، فهزم الملوك الأربعة أعداءهم وأخذوا لوطاً وأملاكه في جملة من أخذوه من الأسرى والغنائم، لأنه كان يقيم بسدوم، فلما سمع إبراهيم بما جرى لابن أخيه خرج في (٣١٨) من رجاله وهاجم الغزاة وكسرهم، وأنقذ لوطاً وأملاكه وأهل بيته، وفي هذه الرواية عينها أن ملكي سدوم وعمورة قتلا في عمق السديم حيث كانت آبار حمر كثيرة، وآبار الحمر كما لا يخفى هي قابلة للالتهاب.

وفي ذات يوم كان إبراهيم جالساً بباب خيمته في حر النهار أقبل عليه ثلاثة رجال، وفي التوراة: كانوا ثلاثة ملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة واحتفى بهم، وفي أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم في شهواتهم البهيمية ولا سيما المحرمة منها، فلما وصل الرجال الثلاثة إلى سدوم ساروا تواً إلى منزل لوط ابن أخي إبراهيم ليبيتوا عنده، وعلم أهل سدوم بقدومهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقاً، ولكن لوطاً دافع عنهم وعرض أن يضحي بشرف ابنتيه لينقذهم، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء، ولكن الضيوف تمكنوا من الفرار وأقنعوا لوطاً وأهل بيته بالفرار معهم، وإليك رواية التوراة بعد ذلك.

وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط «صوعر» فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح. ومعنى قوله: صارت عمود ملح، أنها اختنقت بالغازات الكثيرة المتصاعدة من آبار الحمر التي التهبت إما بسبب حدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو، وكلا السببين يكفي لإشعال آبار الحمر وجعلها أتوناً يلتهم ما حوله من نبات وحيوان وإنسان، ومثل هذا الحادث غير مناقض للنواميس الطبيعية، بل له في التاريخ نظائر كثيرة، وفي تاريخ الكرة الأرضية انقلابات جيولوجية كثيرة شبيهة بحادثة سدوم وعمورة، فقد يثور بركان وتتدفق حممه على المدن المجاورة فتغمرها وتهلك أهلها، وقد تنخسف بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدناً بأسرها، ومما يجدر بالذكر أنك إذا وضعت الخارطة أمامك ورسمت خطاً من بحر الجليل ماراً بوادي الأردن فالبحر الميت فالبحر الأحمر فبلاد الحبشة كان لك ما يسميه علماء الجيولوجيا منخفض أرتيريا، إذ يقولون: إن الكرة الأرضية انخسفت في زمن من الأزمان على مدى الخط المذكور، فأصبح بحر الجليل يعلو (٦٥٣) قدماً على سطح البحر الأبيض المتوسط، حالة أن البحر الميت أصبح تحت مستوى البحر الأبيض المتوسط بزهاء (١٣١٦)، وهذا دليل على أن المدن الخمس التي كانت هناك غمرها البحر الميت وانخسف معها إلى أسفل، وقد احترقت بالقار والحمر واختنق أهلها بالغازات المنبعثة عن ذلك. أقول: نحن لا نقر من هذا إلا ما وافق القرآن. انتهى.

وقد كتب كاتب في جريدة الأهرام بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٢٩ م.

## البحر الميت أو بحيرة لوط

لما كان اسم هـذا البحر أو البحيرة يرد كثيراً في تلغرافات الأهرام الخصوصيـة بمناسبة امتياز استنباط أملاحه المعدنية وهو المشروع الذي تدور المناقشة عليه في البرلمان البريطاني بـين حـين وحـين في خلال السنوات الأخيرة، وكنت قد زرته مراراً في أيام حداثتي التي قضيتها في القدس الشـريف، رأيت أن أذكر هنا موجز تاريخ هذه البحيرة ووصفها وما أعرفه عنها فأقول:

إن موقع هذه البحيرة التـي هـي أكبر بحيرات فلسطين وسـورية هـو في الجنوب الشـرقي مـن القدس الشريف على مسيرة ١٨ ميلاً في منخفض مـن الأرض يسميه الكتاب غـور السـديم، ويرجـح أنها تغمر جانباً عظيماً من المدن الخمـس التي أمطرهـا الله نـاراً وكبريتاً كمـا ورد في سـفر التكويـن مـن التـوراة، وطولـها مـن الشـمال إلـى الجنـوب يقـارب خمسـين ميـلاً وعرضـها عشـرة أميـال، وسـطحها منخفض عن سطح البحر المتوسط (١٣١٦) قدماً. ولما كانت هـذه البحيرة مصباً لمياه غزيـرة وكـان لا منفذ لها ظاهراً ولا يبدو فيها أثر من زيادة مائها أو نقصانه؛ تضـاربت في أمرهـا آراء العلمـاء أذكـر لـهم رأيين: قال فريق ما خلاصته: إن غور أرض هـذا البحيرة وانخفاضها العظيم واكتناف الجبال التي تشـد على مختنقها لهو مجلبة لشدة الحر الذي يبخر من مائها يومياً كمية تعادل الكمية التي تصـب فيـها، ولا ينكـر أحـد أن حـرارة الجـو الشـديدة ينشأ عنها بخار وافـر وضبـاب كثيـف متكـاثر ويغطـي سـطحها وضواحيها مسيرة أميال، ولكن يلوح من المستحيل تحويل كـل الماء الـذي يصـير إليها بخاراً أو ضباباً على ما علله المحققون من علماء هذا الفن، وقد عدلوا كمية الماء الذي يجري إليها يومياً من نهر الأردن وحده بما يربو على ستة ملايين مـتر مكعـب، هـذا عـدا ميـاه الغـدران الجـداول ومجـاري الأوديـة التـي تصب فيها أيام الشتاء من أكثر جهاتها ولا سيما «نهر الموجب» الذي يأتيها من منحدرات الجبال التي تلي شرقيها، فإنها لعمري لا سبيل إلى تحويلها بخاراً مهما تعاظمت شدة الحر. وقال فريق آخر: إنـه لا بد لها من منفذ سفلي تصب منه في عمق أحد البحور التي لا يعلم إلى الآن غور لججها تمامـاً، وراقبـوا الماء الذي يخسره سنوياً بالتبخر وبذهابه في المنفذ المفترض فإذا هو يزيد على القدر الذي يأتيها.

وأما خواص مائها فليس له ثقل نوعي واحد، بل يختلف في الكثافة والمرارة باختلاف مواضعـه منها، فحيث يدخلها ماء الأنهار والسواقي يكون أقل ثقلاً ومرارة من غيره، وعلى وجـه العمـوم يقـدر أن في كل مائة جزء منه خمسة وعشرين جزءاً من الأملاح المعدنية ذائبـة فيها، وهـي لكـثرة أملاحـها لا حياة فيها لحيوان البتة. ومعلوم أن مياه البحار الأخرى لا تفوق أملاحـها أربعـة في المائة. وأعظـم جـزء بين موادها هو كلورور الصوديوم وهو ملح الطعام، فإنه يبلغ ثلاثة أرباع المواد الأخرى التـي فيـها مثـل كلورور المغنيسيوم وكبريتات الكلس والمغنيسيا، وغيرها من مواد أخرى قارية وزفتية، وكلها تولد فيها تلك المرارة والكراهية، وهي من فرط هذه المواد المعدنية وكثرة ما يتصاعد عنها مـن الضبـاب والأبخـرة صافية رائقة تستبهج النواظر بجمال روائها، غير أن الأيدي تتجافى عن لمسها لأنها تذر فيـها أثـراً زيتيـاً ولا مناص لمن خاض فيها أن يتطهر بعد ذلك بماء عذب زلال، وأنه لا يلبث زمناً قليلاً حتـى تجـوس في جسمه حكة تهيج فيه البثور كما جرى للكثيرين، وأكثر الذين يقصدونـها للاسـتحمام يسـتحمون فيـها

على مقربة من مصب الأردن في الجهة الشمالية، حيث يتمكنون بعيد ذلك من الاغتسال في ماء الأردن. ولثقل ماء هذه البحيرة يطفو فوقها ما رسب في غيرها، ولذا لا حذر فيها على من لا يحسن السباحة فإنه يعوم ولو ربطت كلتا يديه وراء ظهره، وكل ما عليه هو أن يرفع رأسه. ويبلغ عمقها نحو (٤٠٠) متر في الجهة الشمالية، وستة أمتار وما ينيفها في الجهة الجنوبية، ويختلف ما بينهما باختلاف مواضعها تدريجياً، وبالإجمال فإنها تصلح لتسيير البواخر الصغيرة.

أما أرياف هذه البحيرة فكلها بلاقع قفرة خالية من السكان والدور والشجر، ولا يقيم بها إلا بعض البدو وقبائل التعمريين الرحل وذلك في فصل الشتاء، وتحيط بها الجبال الوعرة إلا في الجهة الشمالية الشرقية منها فإنها سهل فسيح الأرجاء، ولكنه عقيم حمى التربة تغطيه قشرة ملحية جعلت أرضه سباخا لا تنبت نباتاً إلا حيث تجري فيها المياه الحلوة، ونباتها لا ينتفع به وهو في الغالب الحلفاء والأباة وما شاكلها من النبات المائي، وقديماً كان ينبت في جوار هذه البحيرة وأريافها نوع من الشجر يعرف ثمره بالعنب السام أو العنب المر، فكان ظاهره بهي المنظر إلا أن داخله كان نتناً عفناً مملوءاً رماداً وبخاراً، وقد أشار إليه النبي موسى في سفر التثنية قال: من جفنة سادوم جفنتهم ومن كرم عمورة عنبهم عنب سم وعناقيدهم من مرارة.

وإلى الآن نرى أكثر ثمار هاتيك الأرض المجاورة لها نضرة شهية، غير أنك إذا ما قطفتها تحولت بيدك إلى غبار ورماد، على أن هذه الأرض وإن لم تصلح الآن للزرع والتثمير فهي صالحة لاستخراج المعادن، فإنها كثيرة غنية بها كالحمر والنطرون والكبريت وزيت البترول الخ. والأسماء المشهورة بها هذه البحيرة هي ما يأتي:

(١) بحيرة لوط: نسبة إلى لوط ابن أخي إبراهيم الذي أنجاه الله مع آله من سدوم.

(٢) البحر الميت: لأن مياهه لا تعيش فيها الحيوانات المائية وتلبث راكدة هادئة إلا عند اشتداد العواصف.

(٣) البحيرة المنتنة: لأنها تنبعث عنها في الغالب رائحة خبيثة لوفرة موادها المعدنية.

(٤) بحيرة الملح: اعتباراً لمائها الأجاج ووفرة الملح فيها.

(٥) بحيرة الزفت: لكثرة موادها الزفتية والقارية.

(٦) البحر الشرقي: لمقابلته البحر المتوسط لكونه غربيه.

(٧) بحيرة البرية والسهل: لأنها في برية فاصلة وشمالها الشرقي سهل فسيح.

(٨) بحيرة سدوم: باعتبار أنها محلها على الرأي الأرجح.

أما المدن الخمس التي أشرت إليها في أول هذه المقالة ويقال إنها كانت حولها وفي موضعها، فهي: سدوم وعمورة وصبوتيم وأدمة وزغر. وقد اختلف علماء الآثار على موقعها، فمنهم من جعله في الجهة الجنوبية من البحيرة حيث السهل الخراب، ومنهم من زعم أنه في الجهة الشمالية حيث السهل القاحل الكبريتي الممتد منها إلى أريحا. على أنهم وإن اختلفوا في ذلك فهم مجمعون رأياً على أن موقعها بجوار هذه البحيرة، وأن جانباً منها تغمره مياهها الراكدة. وما يمكن قوله عن هذه المدن إنها كانت قبل أن شملها الخراب الإلهي حافلة بالسكان مرتدية ثوب الحضارة والمدنية.

ويخبرنا الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين أن كلًّا من هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبابرة، فضلاً عن أن موقعها الطبيعي يستدعي أن تكون زاهرة غناء مزدهية بجمال موقعها، بديعة بجنانها وغياضها، غنية بوفرة مائها وخيراتها، لأن نهر الأردن كان يتشعب في غورها الزاكي التربة سيولاً، فيسقي أرباضها ورياضها وحدائقها التي كانت ولا شك تفوق جنات دمشق كثرة وخصباً.

ويمكن القول أيضاً أن تحضر هذه المدن قديماً وتألب السكان فيها قد حملا إبراهيم الخليل على أن يتقدم إلى الله العلي مسترسلاً في كلامه مكرراً تضرعه إليه تعالى أن يعفو عنها « تكوين إصحاح ١٨ »، غير أنه لما كان الفساد قد شمل سكانها وكان جميعهم قد سكروا بلذة الإثم حتى أنه لم يعد فيها بار سوى لوط وآله، انتقم الله من أهلها بأن أمطر المدن ناراً وكبريتاً من السماء فألهب ما كان هناك خزيناً معداً من البراكين النارية التي عجلت دمارهم، فطبق ماء الغور الزائد تحتها وجه هاتيك الأرض فغارت بهم خاسفة وظهرت البحيرة على ما نراه اليوم. انتهى والله أعلم (س. خ)

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكة: غيضة تنبت ناعم الشجر، يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة، فبعث الله إليهم شعيباً كما بعث إلى مدين وكان أجنبياً عنهم، فلذلك قال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن منهم وإنّما كان من مدين وأرسل إليهم، ويقال: الأيكة، الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ ﴾ أتموه ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ حقوق الناس بالتطفيف ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ بالميزان السوي أو القبان، وإذا جعلناه عربياً جعلناه من القسط وهو العدل ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أي: لا تنقصوهم حقوقهم كدراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها وغير ذلك ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: وذي الجبلة الأولين، أي: الخليقة والأمم المتقدمة ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فقد جمع بين وصفين منافيين للرسالة ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ في دعواك ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قطعاً منها ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ من نقصان الكيل والوزن، وهو يجازيكم بأعمالكم فعليّ البلاغ وعلى الله الحساب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إذ أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾. انتهى التفسير اللفظي للقسم السادس.

هذه هي القصص السبع التي جاءت في هذه السورة مختصرة، وهذه القصص دالة على أن هذا وحي من الله، فإن النتائج التي حصل عليها الأنبياء هي التي حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن وقت نزولها ذا شوكة ولا قوة. وهذه القصص السبع نموذج لما أصيب به النبي صلى الله عليه وسلم من التكذيب والأذى، ولما عوقب به القوم من الخذلان والصغار، ولما منح صلى الله عليه وسلم من النصر المبين والفتح.

والمتأمل في هذا يجد هذا معجزة، فإنه أولاً لم يكن من القارئين حتى يطلع على مثل هذا، وثانياً لم يكن يدور في خلد أحد أن تكون هذه عاقبة من لا مال بيده ولا جند عنده وهذا من أغرب المعجزات. واعلم أن هذه القصص قد تكلمنا عنها في سورة «الأعراف» وفي «هود» فارجع إليها إن شئت.

## القسم السابع

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ
﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾
وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ
﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ
يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ منزل منه ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ أي: جبريل لأنه أمين على الوحي والوحي فيه الحياة. وقرئ: «نزّل» بالتشديد أي: نزل الله الروح ـ بالنصب ـ أي جعل الله الروح نازلاً به، و«الباء» للتعدية ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي حفظك وفهمك إياه وأثبته في قلبه إثبات من لا ينسى، كقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[الأعلى: ٦]، ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضح المعنى فصيح، وإنّما كان نزوله على قلبه بلسان عربي مبين، لأنه لو كان بلغة غير لغته لكان أول توجه نفسه إلى اللفظ ثم المعنى مهما كان ماهراً فيها، فإذا كان بلغته التي نشأ عليها كان توجه نفسه إلى المعاني بدون عائق.

هذه هي العادة فيمن يعرف لغات كثيرة، وهذا سبب نزوله بلغة العرب وهي لغة الرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وإن معناه لفي كتب الأولين، أو ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته، ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أو لم يكن لهؤلاء المعاندين دلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أن يعرفه هؤلاء العلماء بنعته في كتبهم.

فقد بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن هذا زمانه وإنا نجد في التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، والذين شهدوا بذلك خمسة: عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي على التخفيف، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: أدخلنا الكفر المدلول عليه بقوله: ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجاءة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ معناه أنهم يسألون الإمهال فلا يجابون.

ولما تكرر الإنذار على أهل مكة وسمعوا بعذاب الأمم السابقة في مثل هذه السورة، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب؟ فقال الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾ متعنا أهل مكة ﴿سِنِينَ﴾ ولم نهلكهم ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ وهو العذاب ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ من عذاب الله ﴿ مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ كأنه قيل ليكن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا طال الأجل وتمتعوا ثم لحقهم ما أنذروا به فماذا ينفعهم من طول ذلك الأمد والتمتع بالنعيم.

يقول الله: إن العذاب واقع عاجلاً أو آجلاً، فإذا لم يكن عاجلاً فماذا يفيدهم نعيم وطول عيش هو ذاهب لا محالة بوقوع العذاب، إن النعيم المنقطع لا فائدة منه ولا خير فيه.

وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: وقد وعظت فأبلغت.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم إلزاماً للحجة كما هي عادتنا في أننا نقدم المرض قبل الموت غالباً إذا رأيناه حكمة، وكم أنذرنا الناس بالردى قبل وقوع الكوارث والحوادث، وهكذا إذا جاء أجل الأمة ألهمنا خطباءها وعقلاءها فذكروا المستقبل المظلم الذي لها، وإنما فعلنا ذلك ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ أي: لأجل التذكرة ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ فنهلك غير الظالمين وقبل الإنذار. كلا.

## جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

مع قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: ٥٩].

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: ١١٧] والظلم هنا الكفر.

وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾[المؤمنون: ٦٤-٦٥].

وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩].

هاهو ذا القرآن يقول لنا: أيها الناس إن الترف والنعيم والظلم مبدأ الخراب في الأمم، ويقول: إن الأمم إذا أدبر شبابها وولت أيامها وأقبل هرمها أنذرها منذروها وحذرها المحذرون، وهنا نقول: لماذا أنزل الله هذه الآيات في القرآن الكريم؟. ألمجرد التلاوة والتعبد؟. كلا. بل للتلاوة والتعبد ومعهما العمل.

أمم الإسلام اليوم في حاجة شديدة إلى الإصلاح والتذكير، والله يقول: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥]. إذن نحن مأمورون أمراً حتماً وواجباً وجوباً كفائياً، وعلى كل مشتغل بعلوم الأمم الإسلامية أن يذكرهم بما علم. فإذن هنا أذكر المسلمين عموماً بأمتين أنذرهما المنذرون وحذرهما المحذرون قبل سقوط دولتهما وهما أمة المصريين القدماء وأمة العرب بالأندلس.

أنا أكتب هذا هنا تذكيراً للمسلمين وخروجاً من الإثم بالتقصير، لعلمي أن ما أكتبه أنا ويكتبه غيري من أهل العلم ببلاد الإسلام يرفع هممهم ويوقظهم إلى المستقبل، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]، وإذا كانت الذكرى قد نفعت الأمم الغربية وأنارت دولهم وممالكهم القوية في عصرنا فإنها ستكون هنا في بلاد الإسلام أسرع أثراً وأنفذ قولاً وأبعد مدى.

فهاك ما حدث بفرنسا قبل أوائل هذا القرن العشرين. ذلك أنهم أعلنوا أن تحضر الفتيات عاريات في المراسح ليطلع الناس على الجمال بلا لباس في مرقص من مراقصهم، فأعلن أحد علمائهم أن يلقي خطبة في ذلك الأمر واستقباحه، فلما حضر واجتمع القوم رموه بالطماطم حتى صارت ثيابه جميعها ملوثة بلون الطماطم، فلم يزد على أن قال: ما كنت أعلم أن هذا يوم الكرنفال ــ الكرنفال معناه يوم يلبس الناس فيه الملابس المضحكة لمجرد الفكاهة «المسخة» ــ فضحك القوم وأنصتوا للخطبة فقص عليهم تاريخ الرومان قائلاً: «إن الرومان في أواخر أيامهم قد تمادى النساء في غوايتهن حتى وقفت فتاة في الشارع وخطبت على عربة وقالت: والله لا نرجع عن الزينة والزخرف حتى تكون عرباتنا من ذهب وتصبح المالية وقفاً على تفنننا في الخلاعة والزينة، وزاد الفجور والفسوق فانحلت تلك المدينة وذهبت». فلما سمعه القوم أعرضوا عما عزموا عليه ومنعوا حضور النساء عاريات، ذلك لأن الخطيب ذكرهم بذهاب مجدهم وانحلال ملكهم. هكذا هنا أذكر المسلمين الآن بهاتين الأمتين وسيكون لذلك أثره إن شاء الله، والله هو الهادي إلى صراط مستقيم.

فلأجعل الكلام في أربعة فصول:

الفصل الأول: في انحطاط ديانة قدماء المصريين بعد ارتفاعها.

الفصل الثاني: في ورقة أنسطاسي البردية أو سفر أبوور النبي المصري القديم ونبوة الفيلسوف هرمس.

الفصل الثالث: فيما حل بالأندلس من احتجاب الخلفاء وتشبه الفتيات بالفتيان وشيوع الترف والانغماس في اللذات وتفرق العصبية.

الفصل الرابع: فيما توقعه العقلاء من زوال ملكهم.

## الفصل الأول: في انحطاط ديانة قدماء المصريين

أنا أسوق هذا الفصل لأذكر قومنا بأيام الله حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فأقول: لا بد قبل البدء في ذكر انحطاط هذه الديانة من ذكر ارتقائها وعلوها حتى نعرف كيف انحطت. إن المصريين استدلوا على الله بعقولهم أجيالاً وأجيالاً حتى عرفوا اسمه وصفاته وأحبوه حباً جماً آلاف السنين، ثم رجعوا القهقرى ونسوا أصل الدين وعبدوا الحيوانات فزال مجدهم، وقد جاء في نص قبر الملك «بيبي» الأول: إنهم أولاً كانوا إن أتوم وذريته «آدم» وذريته كانوا يسكنون مدينة «هليوبوليس» وأتوم هذا كما أنه أبو الآلهة هو رئيسهم، ورئيس الآلهة التسع المذكورة في عقيدة هليوبوليس التي كانوا يسمونها الفردوس الأرضي هي قرب القاهرة الآن، وكانت هذه الذرية الآدمية خليطاً من الآلهة والبشر في طهارة وسلام.

ثم إن «رع» كبير الآلهة انتصر على الحية وهي إلهة الشر؛ و«رع» هذا يحكم للأرباب والمربوبين؛ وبعد ذلك زالت هيبة هؤلاء الآلهة الذين استعبدوا الناس، ثم زالت هيبة المعبود «رع»، ثم خافوا منه فهربوا للجبال فأهلكهم، ثم استبقى من كان يحترمه من الناس، ثم تكبر على الناس جميعاً لأنهم مطبوعين على الشر، وسكن السماء بعد أن نظمها واستخلف غيره من الآلهة البشرية، وهذه الآلهة جميعها تمرض وتموت كالبشر. انتهى ملخصاً.

ثم تطور القوم فعرفوا أن آدم هذا وذريته جميعاً مخلوقون، وأن لهم خالقاً بدليل ما جاء في كتاب «الموتى» فصل ٤٢ العدد ١١ ــ ١٢: لا يعرف الإنسان اسم الخالق. وجاء في أنشودة المعبود أمون: إن اسم الخالق خفي عن الناس. وجاء في نصوص أهرام الملك أوناس من الأسرة السادسة: إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول. ثم استعملوا ألفاظاً عامة كالألوهية وبعض ألفاظ تدل على الخالق بطريق الكناية، فقالوا: السيد المطلق المالك كل شيء لا نهاية له ولا حد له. ثم اهتدوا لمعرفة صفاته، وربما عرفوا اسمه من الأنبياء القدماء، فقد جاء لفظ الجلالة مراراً في أمثال وحكم «حتب» الأديب المصري القديم منصوصة في كتابه الذي هو أقدم كتاب في العالم، وهذا نصه: لا توقع الفزع في قلوب البشر لئلا يضربك الله بعصا انتقامه. قال «لباج رينون»: إن اليونان والرومان كانوا عريقين في الوثنية حتى لم يسمع عنهم أنهم ذكروا اسم الله أصلاً، أما قدماء المصريين فلم يرد في تاريخهم أنهم عرفوا الوثنية. وأن الورقة البردية في المتحف البريطاني تضمنت ما يأتي: أنت الإله الأكبر سيد السماء والأرض خالق كل شيء، يا إلهي وربي وخالقي قوّ بصري وبصيرتي لأستشعر مجدك واجعل أذني مصغية لقولك. فأما اتخاذهم السماء إلهاً أو عبادتهم الكواكب فإنّما جعلوا ذلك رمزاً لله الواحد الصمد. هذا وأذكرك أيها الذكي بما ذكرته في سورة «البقرة» من النشيد الذي جاء فيه التوحيد ومحبة الله والابتهاج بأنواره التي خلقها في الليل والنهار التي فيها أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك في آفاق السماء.

هذا هو ارتفاع مدنيتهم، أما انحطاطها الذي سقنا له هذا الفصل التي مبدؤها سنة ١٦٠٠ ق.م إلى سنة ٣٤٠ ق.م، أي: بعد خروج الرعاة من مصر فهذا بيانه:

انحطت مصر في الدين والأدب في الدولة الحديثة بسبب الثورات العديدة التي توالت عليها واستمرت إلى العصر الروماني لاختلاطهم بالأجانب، وقد كانت الحيوانات عند قدمائهم رمزاً للإله الحق، ولكن في الدولة الحديثة جعلوها فوق الهياكل والمعابد، وجعلوا المعبودات في المنزلة الثانية من الاعتبار، وكثرت الخرافات فعبدوا الطيور والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب والأكباش واتخذوها آلهة وحنطوها ودفنوها بعد موتها بالإجلال والاحترام، وهذا كان من مبدأ الأسرة (٢٦) وامتد إلى العصر الروماني، وقد عظموا هذه الحيوانات حتى إنها إذا لدغتهم أو نهشتهم وافترستهم لا يدفعونها احتراماً.

وقد أخبر «ديودور» الصقلي أن رومانياً قتل قطاً خطأ فقتله الشعب المصري انتقاماً، وذكر «بلوتارك» أن أهل «سينوبوليت» بالأقاليم الوسطى أخذوا مرة نوع من السمك الذي كان معبوداً عند أهالي إقليم «اكسرينيك» وأكلوه، فأعلن هؤلاء عليهم حرباً عواناً وأخذوا كلباً معبوداً لهم وذبحوه انتقاماً وتشفياً. وقال «استرابون»: إنهم كانوا يتكلفون وضع المآكل للتماسيح في البحيرات المقدسة ويكابدون في ذلك نفقات عظيمة. وقال «هيردوت»: إنهم كانوا يدفنون حيواناتهم المقدسة في قبور على مقربة من قبور ملوكهم وأعيانهم، وعنوا بدفنها أكثر من عنايتهم بدفن جثث آبائهم وأعزائهم. وقد كشفوا أخيراً حفراً عميقة وأنفاقاً واسعة مملوءة بجثات الألوف من القطط والتماسيح المحنطة، وقد كشفوا مع أموات الدولة الحديثة كثيراً من التماثيل الصغيرة المسماة «أوشابتي» أي المجيبات، تجيب الدعاء، وتجيب عن الميت يوم الحساب، أو تقوم مقامه، أو تكون في بدن الميت في الأعمال التي يسخر الميت فيها «سوريس»، وهكذا عبدوا الأفاعي والحيات. انتهى الفصل الأول.

## الفصل الثاني: في نبوة الفيلسوف هرمس وفي ورقة أنسطاسي البردية أو سفر أبورور النبي المصري القديم

إن ديانة قدماء المصريين طال أمدها أربعة آلاف سنة، وقد أخبر الفيلسوف هرمس بمستقبلها فقال: يجب عليكم أيها الحكماء أن تستدركوا كل شيء، وتعرفوا أنه سيأتي وقت يترك المصريون عبادة الله، فيغضب عليهم ويترك أرضهم ويهجر مصر بدون ديانة، وتهمل الأشياء المقدسة ويأتي إليها الأجانب من كل صوب، فيضعون لها قوانين تحرم ممارسة الديانة الحقة والتقوى وعبادة الإله، وتعاقب من يباشرها، وترى فيها القبور والأموات بدلاً من المعابد والهياكل التي تدنست أرضها، أواه مصر، أواه مصر. سيأتي عليك وقت لا يبقى فيه من دينك القويم إلا الخرافات، وتنحصر أخبارك في بعض أحجارك، ويستوطن فيك البرابرة والهنود، ويصعد الإله إلى السماء ويموت البشر وتصبح مصر قاعاً صفصفاً لا يقيم فيها الآلهة ولا عقلاء الناس. وأنت أيها النيل المبارك أنبئك أنه سيدنس مياهك المقدسة أمواج من الدم وتفيض إلى شواطئك وتكثر الأموات وتقل الأحياء، وإن بقي من المصريين من يتكلم لغتهم فإنهم يكونون أغراباً عنها بأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تسري إليهم من الأجانب. أنت تبكي اليوم يا هرمس. سيكون في مصر أشياء محزنة كثيرة. واحسرتاه ستقع مصر في الضلال والكفر،

تلك الأرض التي كانت وطن الأتقياء وحبيبة الإله ستفسد فيها أشياء القديسين بعد ما كانت مدرسة التقوى والعبادات، وستصير مسرحاً للشرور والموبقات. سيكره العاقل الدنيا وما فيها ويؤثر الموت على الحياة، لما يراه من قلب الحقائق وتفضيل الظلام على النور، حتى يعتبر الفاسق تقياً والأحمق عاقلاً والجبان شجاعاً والضلال رشداً، وتكون حياة الرجل التقي عرضة لجميع الأخطار. اهـ منذ ٤٠٠٠ سنة.

وجد في متحف «ليدن» تحت رقم (٣٤٤) ورقة بردية طولها ٣٧٨ سنتي في عرض ١٨ سنتي اشتهرت بورقة أنسطاسي لأنه هو الذي كشفها في مدينة منفيس بقرب «سقارة»، ثم باعها إلى متحف ليدن سنة ١٨٢٨، وهي مكتوبة من وجهتها بالخط الهيراطيقي في مدة الأسرة الثانية عشرة. وقيل: إنها كتبت في الأسرة التاسعة عشرة وترجمت إلى الألمانية والإنجليزية واللاتينية ثم إلى العربية. وفي هذه الورقة تنبؤ «أبوور» النبي المصري القديم، وهذا نصها: سيأتي على مصر زمان ينضب فيه ماء النيل وتبطل زراعة الأرض. وأطال في وصف الخراب. ثم قال: ويتغلب الصعاليك على الأكابر، وأكثر من الكلام في الثورة الداخلية. ثم قال: ويجد البرابرة فرصة للاستيلاء عليها واستضعافاً لأهلها، وتسود العبيد وينهبون أموال أربابهم، حتى تتخذ نساؤهم عقود الذهب والفضة والعقيق، بينما تكون الأميرات في الطرق بائسات. إلى أن قال: ثم تنتهي هذه الشرور ويعود الهناء على يد رسول يرسله الله فيعيد الحياة في أرض مصر، فيسود السلام وتفيض مياه النيل وتنمو الزراعة ويسترد المصريون ثغورهم ممن تغلبوا عليهم من العبيد والليبيين والنوبيين، ويحل العمار محل الدمار. اهـ.

ومعلوم أن مصر قاست الشدائد، ودخلها الأجانب، وقد احتلها الرعاة وبقوا فيها (٥٠٠) سنة، والفارسيون وأهل النوبة واليونان والرومان. والله مقلب الليل والنهار.

ومن العجيب أن أنبياء بني إسرائيل تنبؤوا بالتوراة مثل ما تنبأ به نبي المصريين. انتهى الفصل الثاني وكله ملخص من كتاب «الأدب والدين» عند قدماء المصريين.

## الفصل الثالث: فيما حل بالأندلس من احتجاب الخلفاء وتشبه الفتيات بالفتيان وشيوع الترف والانغماس في اللذات وتفرق العصبية

لقد كثر الترف والنعيم، وأخذ الخلفاء الأمويون في أواخر أيامهم في الملاذ والشهوات والاحتجاب في القصور، وقد كان المنشدون والسفراء يكلمونهم من وراء حجاب، ويقف الحاجب من دون الستر فيكرر ما يقولونه.

ومما يحكى أن ابن مقانا الأشبوني ألقى قصيدة على مسمع من الخليفة المحتجب إدريس بن يحيى الحموي قال في آخرها:

أنظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر وقابل وجهه بوجهه وأجازه جائزة حسنة، وبينما الخلفاء يحتجبون عن الناس كالنساء إذا النساء يتشبهن بالرجال. قال الوزير بن شهيد:

ظبية دون الظباء قنصت ... فأتت غيداء في شكل صبي

فتح الورد على صفحتها ... وحماه صدغها بالعقرب

وقد شاعت مجالس الخمر والسماع والرقص على نغمات الأوتار. ولقد صار المرابطون الذين أسسوا ملكهم على التقوى والصلاح في أولها أهل خلاعة في آخرها، فسكنوا القصور في الأندلس وأكثروا من مجالس الطرب واللهو، فضعفت عصبيتهم ودينهم وأخلاقهم، فتغلب عليهم الموحدون وانتزعوا منهم البلاد التي بقيت في أيديهم ٦٢ سنة، من سنة ٤٨١ إلى سنة ٥٤١.

جاء في سورة «الإسراء» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ٨]. من كتاب «الرحلة الأندلسية» للأستاذ البتنوني بيان ما حاق بالمسلمين في الأندلس بسبب الإكثار من الاستعانة بالبربر الذين نصروا عبد الرحمن الداخل، كما استعان العباسيون بالفرس فكسروا شوكة الأمويين واستكثروا من المماليك.

فهؤلاء الأمويون بالأندلس قلدوا العباسيين في الاستكثار من المماليك الصقالبة وغيرهم حتى صارت لهم الكلمة النافذة في البلاد ثم صار حكمها في أيديهم، كما صارت البلاد الشرقية التي حكمها العباسيون في حوزة الترك والفرس في أزمان مختلفة. إذن هذه قاعدة مطردة. إن الترف والنعيم واتكال الأمم على الدخلاء يضيع المجد ويذهب الملك. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فاقرأ ما مر في سورة «الإسراء»، ثم اسمع ما جاء في نفس تلك الرحلة تحت عنوان:

## للعبرة والتاريخ

العلة الأولى لضعف العرب في أسبانيا هي تفرق الجماعة وانقسام الدولة الأموية بعد أن طويت صحيفة بني عامر إلى عشرين دولة صغيرة استقل بها ولاتها، وهي: إشبيلية. جيان. سرقسطة. الثغر «ما كان منها في شمال طليطلة». طليطلة. غرناطة. قرمونة. الجزيرة الخضراء. مرسية. بلنسية. دانية. طرطوشة. لاردة. باجة. المرية. مالقة. بطليوس. لشبونة. جزائر البليار. قرطبة. فكان هذا الانقسام داعياً إلى كثرة الاختلاف وقتال الدول بعضها مع بعض، وطمع كل منهم في الآخر، واشتعال نار حرب كل منهم مع جيرانه، وقهر القوي للضعيف.

وقال ابن حزم: فضيحة لم يأت الدهر بمثلها، أربعة رجال كل منهم يسمى بأمير المؤمنين: واحد بإشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة، وأصبح العرب والبربر في خلاف مستديم، والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى وفي حروب مع الأمم الأسبانية والبرتغالية. إلى أن قال: وكثيراً ما يستظهر الابن على أبيه والأخ على أخيه بملوك النصرانية. وقد استنصر المأمون بن الناصر من بني عبد المؤمن بملك قشتالة على أخيه يحيى، وكثر استنصار بني الأحمر بملوك النصرانية بعضهم على بعض في آخر دولتهم حتى سقطوا. وأن طليطلة ما أضاعها صاحبها القادر بالله المأمون ابن يحيى بن ذي النون إلا لشهوته في الاستيلاء على بلنسية واستنصاره بملك قشتالة «الفونس» السادس لمساعدته في ذلك؛ وكان الفونس لا يبرح يورطه في حربه لبني عامر حتى أضعفه واستولى هو على بلاده سنة ١٠٨٥ بعد أن بقيت مستقلة في أيدي بني ذي النون ٧٣ سنة. انتهى ملخصاً.

إذن ملوك النصرانية كانوا نشيطين في إشعال نار الحرب بين ملوك الطوائف، وهؤلاء الملوك جاهلون ليس عندهم من علم السياسة والتاريخ ما به يعرفون مواطن خراب الأمم وضياع مجدها، وفي اعتقادي أن المسلمين بعدنا سيكونون أرقى من آبائهم الذين لم يعرفوا من التاريخ مكان العبرة،

ولا من العلم مقام الإصلاح، بل ترك العلماء الأمم الإسلامية حبلها على غاربها، وأمعنوا في الشعر والغزل، ونسوا حظاً مما ذكروا به.

أيها المسلمون، ليقرأ التاريخ للعبرة والذكرى. وجاء في الرحالة الأندلسية أيضاً ما ملخصه: أن ملوك العرب وأمراءهم كانوا يخرجون في أول أمرهم إلى معمعة الحروب بأنفسهم فيثيرون الحمية في قلوب الجيوش فكانوا يغلبون، فلما استناموا للترف والنعيم واستعانوا بالصقالبة والمدجنين والعبيد، بل كانوا يؤجرون مرتزقة من الأسبان ممن لا يهمهم النصر ولا يخافون من الهزيمة، وأول من فعل ذلك المنصور بن أبي عامر في زحفه على شانت ياقو، وكان بنو هود بسرقسطة يستأجرون البطل سيد ورجاله في حروبهم ضد إخوانهم المسلمين. ومن العجيب أن المنصور كان يستخدم المرتزقة من الأسبان في حرب الأسبان أنفسهم، فأما المنصور بن أبي عامر فإنه استعان بهم على حرب إخوانه المسلمين، وأما البطل سيد المذكور فإنه هو «رودريك» الذي يسمى عند العرب السيد «قنبطور» وكان مشهوراً بفروسيته، وهو الذي ساعد الأمير شانجة ابن الملك فرديناند الأول على أخيه الفونس، فلما تولى الفونس عرش البلاد نكب به وصادره في أمواله، فهاجر إلى صخرة قريبة من سرقوسة وبنى بها مسكناً اجتمع عليه (٣٠٠) من المعجبين به، فهؤلاء كان بنو هود ملوك سرقوسة يستأجرونهم في حروبهم، والسيد هذا حاصر وهو رئيس جيوش يوسف بن أحمد بن هود بلنسية، وهو مع أنه دخلها صلحاً أحرق قاضيها ابن الحجاف لأنه لم يدله على خزائن المقتدر بن هود صاحب بلنسية ثم أشعل النيران في المدينة حتى أتلفها، وقال في ذلك ابن خفاجة:

عاثت بساحتك الظبا يا دار ... ومحا محاسنك البلا والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

ولأكتف بهذا من فضائح الأمة العربية في الأندلس، ففيما لخصته مقنع لذوي الألباب بعدنا فيعلمون ويعملون، وإنا لله وإنا إليه راجعون. انتهى الفصل الثالث.

## الفصل الرابع: فيما توقعه العقلاء من زوال ملكهم

اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً. اللهم إنك أنت المعلم. اللهم إنك أنت الرب الرحيم العليم المنعم المتفضل. اللهم إني أشكرك شكراً كثيراً على أنك ألهمتني وعلمتني وأيدتني وقويتني وسهلت لي هذا التأليف. وما كان ليخطر لي أن أجمع ما بين تقهقر الأمة العربية والأمم المصرية وأوازن بينهما في انحطاط شأنهما، وأن الأولين والآخرين تشابهت قلوبهم لما انحطت أخلاقهم وانغمسوا في اللذات. فالأمتان تفرقتا والأمتان سقطتا من شاهق، فلك الحمد على هذه النعمة.

أيتها الأمم الإسلامية. أنا لست الآن مؤرخاً. كلا. بل أنا مذكركم. أذكركم بكتاب الله تعالى. لم أكتب هذه الأخبار إلا لتفسير الآية. إن الله يقول لنا نحن: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩]، وكيف نفهم هذه الذكرى إلا بدراسة التاريخ دراسة تشبه ما نكتبه الآن. وإياكم أن تقفوا على ما أنقله، بل انظروا كما يأمركم الله.

سيقرأ هذا القول ذوو عقول من الأمم الإسلامية فيقفون على سبب خراب الأندلس وطرد المسلمين من تلك البلاد، ويقفون على تفرق الكلمة عند المصريين القدماء في دينهم وأخلاقهم فماذا يجدون في صدورهم؟ يجدون أنهم كانوا قبل أن يعرفوا هذا جزعين آسفين عليهم، ولكن بعد هذا البيان يعلمون أن الله عدل ولا يفعل إلا ما فيه المصلحة، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧] فهؤلاء ذهبت فائدتهم وأصبحوا عالة على الأمم فأخرجهم الله من بلاده، لأن الملك لله عز وجل وهو لا يحب إلا المصلحين، ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾[النمل: ٥٢].

ويرون أيضاً أن الأمم المصرية أصبحت بعد تفرق دينها وضياعه تستحق احتلال بلادها وتذل في عقر دارها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٠٩]، وهذا هو الذي يشفي الصدر، ولقد شفى صدري ما نقلته لك الآن وعرفت أن الأمم لا تموت إلا بعد المرض ثم يشتد ثم يكون النزع ثم الموت، فالله عدل، هو عدل حقاً، منظم محسن النظام، عدلت يا الله في نظام النبات والحيوان وأدنى الحشرات، فرأيناه وفرحنا به وعجبنا منه، وهذا قد ملئ به هذا التفسير، فالحمد لله، ولكن النظام والعدل في الأمم يحتاج إلى علم أوسع حتى يدرك الإنسان العدل واضحاً، وفيما لخصته لك مقنع، وفيه اعتبار ليحترس أبناء المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه آباؤنا، وهل يفيدهم إلا دراسة العلوم ومعرفة الحكمة والتاريخ، وأنا واثق وقلبي مطمئن أن الله سيبعث في الأمم الإسلامية همماً تتلوها همم، وتقوم هذه الشعوب قومة رجل واحد، وذلك لأنهم يكونون على مشرب واحد، لا سيما قراء هذا التفسير فإنهم هم الذين يرون الدين أمراً واحداً لا يفرقه خلاف في عدد الركعات أو أعضاء الوضوء أو مسائل الطلاق أو شروط البيع والإجارة أو أبواب الطهارة وأنواع النجاسة، أو ما أشبه ذلك مما ظنه المسلمون ليس وراءه علم ولا حكمة.

ومن عجب أن تفرق أهل الأندلس إلى (٢٠) دولة وتفرق أهل مصر في عبادة الحيوانات قد حصل نظيره عند المتأخرين من المسلمين وإن لم يكن مثله من كل وجه، تلك الأمة التي اقتسمها رجال الصوفية ورجال الدين، وأخذ كل يفخر ويكتفي بما لديه من العلم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[هود: ٨]، وفي الحديث: «لتتبعن سنن من قبلكم» الخ.

## معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم

قد ذكرت في أول سورة «الأنفال» الحديث الآتي وهذا نصه: «عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها. فقال رجل: أوَيأتي الخير بالشر؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء وقال: أين هذا السائل وكأنه حمده؟ فقال: إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر، فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها»، وتفسير ألفاظه هناك.

والذي يهمنا الآن أن نقول: إن خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا قد حصل فعلاً، وهذه نبوة وإخبار بالغيب ومعجزة كبرى، بل هي من أجل المعجزات في زماننا.

إن الله أحل الغنائم، ولقد تقدم في سورة «الأنفال» أنه صلى الله عليه وسلم بكى عند اقتسام غنائم بدر هو وأبو بكر وسيدنا عمر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوقع العذاب بسبب أخذ الغنائم، وقد ظهر أثر ذلك فعلاً فينا نحن، فإن المسلمين ظنوا أن الغنائم بعد العصر الأول جعلت لتمتعهم بالشهوات، ولم يجدوا من الحكماء والعلماء من يرشدونهم إلى خطر الأمر كما سمعت فيما تقدم من الخطيب الفرنسي، الذي ذكر الفرنسيين بخطر تبرج النساء، وإن كانوا هم أيضاً وأكثر أهل أوروبا صائرين إلى ما صار إليه من قبلهم من الأمم الفاسقة.

أقول: أفليست هذه معجزة وأي معجزة؟ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا بهذا الحديث الوارد في الصحيح بما وقعنا فيه الآن، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٩]، فهاهو رسول صلى الله عليه وسلم أنذرنا بأن المال مال الله، وليس معنى حل الغنائم لنا أن نتلهى بها. كلا والله، بل كان ذلك لإصلاح أهل الأرض، انظر واعجب من هذا الدين ومن النبي صلى الله عليه وسلم. أحل الله الأسر، وأحل الاسترقاق، وأحل أخذ الأموال، ولكنه زهد المسلمين فيه، وأمرهم أن ينفعوا به الأمم، وأكثر من الأمر بالعتق والصدقة والصيام والقيام، إذ يقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢-١٦] الخ. إذن هذا الدين لم يجد من يعرف مقصده إلا قليلاً. إن هذا الدين جاء مقدمة لإصلاح عظيم أن لا يذل أحد أحداً، وأن يكون النوع الإنساني كلهم متعاونين متحدين شرقيهم وغربيهم، فقد جرب المسلمون الاستئثار بالمال وبالنساء فكان جزاؤهم الذل، لأنهم لم يفهموا ما يرمي إليه نبينا الصادق صلى الله عليه وسلم. هذا هو الذي أردت أن أجعله مقدمة لذكر ما توقعه العقلاء من زوال ملك الأندلس.

## بيان ما توقعه العقلاء والمصلحون

فأولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم، فإنه أشار إلى ذل المسلمين في الشرق وفي الأندلس، وأبان أن الاستحواذ على الغنائم يكون ضرراً بالأمم ويميتها إذا لم يوضع في موضعه، كالدابة التي تأكل الحشائش الضارة فتضرها أو تميتها، وهذا هو الذي تم فعلاً، ثم إن ابن خلدون ذكر في مقدمته أن أهل الأندلس كانوا يقلدون أهل أسبانيا في ملابسهم وأخلاقهم وعوائدهم، ويكتبون على حوانيتهم بلغة الفرنجة، وختم العبارة بما معناه: إنهم لا محالة صائرون إلى أن يكونوا تحت إمرتهم، لأن الأمة إذا تركت أخلاقها وعوائدها اندمجت في الأمم التي تقلدها. وقد تم هذا التنبؤ فاقرأه في المقدمة، وقال شاعر من شعرائهم:

حثوا رحالكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لم يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

ولقد تحققت نبوة هؤلاء لما استولى ملوك الأسبان على غرناطة، وأوقعوا بالمسلمين وطاردوهم من ديارهم، ولقد تقدم في مواضع من هذا التفسير أنهم لما أزالوا ملكهم منعوهم من الاغتسال من الجنابة، ومن الرقص المغربي، وأوجبوا عليهم أن تكون نساؤهم مكشوفات الوجوه.

وأقول الآن: إنهم حرموا عليهم أن يستأجروا نصرانياً، أو يظهر عليهم أية علامة من علامات الإسلام سراً أو جهراً. والله هو الولي الحميد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

ثم إن هذا القرآن لم يكن مفترى، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، كما زعم المشركون أن هذا القرآن مثل ما تلقيه الشياطين على الكهنة فليس من عند الله، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ وما يصح لهم أن يتنزلوا به، وكيف يصح لهم ذلك وقد جاء في الأمثال العامة: «وكل إناء بالذي فيه ينضح». إن هذه الأرواح التي سكنت أجسام الناس في الأرض وهم بنو آدم لا يعدون أحد اثنين إما شريراً وإما باراً، والأرواح التي في غير عالم المادة كذلك لا تخلو من الأمرين إما شريرة وإما صالحة. كما أن السمك لا يعيش في البر، والأنعام لا تعيش في البحر، والإنسان لا يسامر الحيوان، والحيوان لا يفرح إلا بأبناء جنسه ولا يمرح إلا معها، هكذا الأرواح الشريرة التي هي خارج عالم المادة لا تحادث الأرواح الفاضلة من بني آدم، كما لا تكلم الدواب الإنسان، والأرواح الشريفة المجردة عن المادة لا تأنس من بني آدم إلا بمن كان من أمثالها وأشكالها من الرواح الشريفة، ولا يتسنى لها أن تحادث الشريرة من بني آدم، كما لا يتسنى للإنسان في الأرض أن يكلم الحيوان ويأنس بمحادثته. وأنت أيها الذكي إذا قرأت ما كتبناه في كتاب «الأرواح» ونقلناه عن علماء هذا الفن رأيت أن هؤلاء العلماء قد بحثوا ودققوا، وقد نقلنا في هذا التفسير سابقاً بعض ذلك، فإذا استحضر الشرير روحاً لا تلبيه إلا روح شريرة، وإذا استحضر الصالح روحاً لا تلبيه إلا روح صالحة.

ولقد وجدوا أن الأرواح الشريرة لا تلائم طباعها طباع الصالحين من الناس ولا الأرواح الصالحة العالية هناك أرواح الفاسقين هنا، وثبت هناك أن المدار في التخاطب على المشاكلة والتقارب، فالصالحون والطالحون كل منهم لا يألف إلا أشكاله وأمثاله، وإن الله عز وجل وضع نظام العالم كله لا تفاوت فيه ولا اضطراب، فالقانون العام واحد وهو أنه لا يمنع الله أحداً عن شيء، ولكن المانع هو تفاوت الدرجات وتباعد المراتب، كما أن الملوك في الأرض لا يخاطبون إلا المقربين إليهم ولا يتنزلون إلى الشعب، هكذا لا تخاطب الملائكة من أهل الأرض إلا من كان مناسباً في طبعه لهم، وسواء أكان ذلك باستحضار الأرواح الصناعي كما تفعله أهل أوروبا أو بتصفية النفس، فترى السحرة الذين تركوا الأمور المادية وتريضوا وهجروا الطعام والشراب أياماً وأياماً قد تجردت نفوسهم من هذه المادة واتجهت إلى عالم الأرواح اتجاهاً ملائماً ومناسباً لمزاجها، فربما أخبرت ببعض الأمور الأرضية التي لا أهمية لها في رقي النوع الإنساني، كفقر زيد وغنى عمرو وعلاقاتهما مع بعضهما، وما أشبه ذلك مما يدعيه بعض صغار النفوس ممن ينتمون للصوفية زوراً وبهتاناً، وبعض المتريضين لهذه الغاية وهم يدعون بأدعية إسلامية أو غير إسلامية وأسماء عربية أو سريانية أو غيرها، كل ذلك من هذا القبيل. وربما توجهت إلى أمر من أمور العالم كضر عدو، فاتفق أن أصيب به، وترى الأنبياء الذين خلقوا مطبوعين على الكمال قد قربت نفوسهم من نفوس الملائكة، فهناك أمكن التخاطب ونزلت الشرائع على الأنبياء لمنفعة النوع الإنساني، وهكذا الأولياء والصالحون والحكماء من جميع الأمم يلهمون

الخير والعلم، تلهمهم الملائكة ذلك للمناسبة بينهما، فإذا سمع الأنبياء قولاً أو رأوا الملائكة وهم يخاطبونهم أو ألهموا في قلوبهم العلم، وإذا ألهم العلماء والأولياء معارف وعلوماً فما ذلك إلا للمقارنة والمجانسة القريبة والبعيدة، وإذا رأينا أناساً نبغوا في الشر والفتنة وهم قادة للشر وآخرين أقل منهم فيه؛ فذلك لأن أرواحاً شريرة تتولى الوسوسة لهم وتعليمهم علوم الشر، والأصل في ذلك كله المناسبة والمقارنة والمجانسة.

هذا هو ما جاءت به الأرواح وعلمته الناس، وذلك لا شك معجزة للقرآن، فإن ما تقدم عن علماء الأرواح هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾. أفلا تعجب أيها الذكي كيف يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾. جلّ الله وجلّ هذا القرآن. أفلا يعجب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن تكون هذه الآيات هي ملخص علوم الأرواح المنتشرة في أمريكا وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسائر دول أوروبا، أفلا يعجب المسلمون كيف كان إعجاز القرآن، أفلا يعجب المسلمون كيف يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ أي: وما يقدرون أنهم عن سمع كلام الملائكة لممنوعون لماذا؟ لعدم المشاركة في الصفات، لعدم التقارب في حب الخير، وعليه إذا أحب الإنسان الخير للناس وأحب العلوم ألهمته الملائكة الخير، نعم لا يوحى إليه لأنه ليس نبياً ولكنه يلهم الخير. اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان.

اللهم إنك قد أظهرت معجزة هذا القرآن. إنك قد أبنت للمسلمين صدق دينهم، ولقد وفقتني لتأليف كتاب «الأرواح»، والكتاب جميعه معجزة للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، وهو كتفسير لهذه الآية وأمثالها.

لقد نقلت من كتاب «الأرواح» المذكور جملاً في مواضع من هذا التفسير، ولأذكر لك منه جملاً لتطلع على عجائب القرآن في العلم الحديث، وتعجب كيف ظهر سر قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣].

جاء في صفحة (٦٣) من كتاب «الأرواح» المذكور نقلاً عن علماء الأرواح ما نصه: سأل هؤلاء العلماء الأرواح: لماذا نرى بعض الوسطاء الصالحين ذوي الخصال الحميدة لا يتمكنون من مناجاة الأرواح الصالحة؟. الجواب: قد يمكن أن يكون ذلك قصاصاً لهم لذنوب ارتكبوها، وربما يكون ظاهر الفضيلة قد دفن تحته صفات باطنية كالكبر والعجب، إن الأرض ليس فيها كامل، فالكمال إنّما يرجع للبواطن وليس يطرد الأرواح الشريرة إلا التقرب من طبيعة الأرواح الشريفة الصالحة.

وجاء في صفحة (١٠٩) الأسئلة التالية:

(س) هل من وسيلة لطرد الأرواح الشريرة؟.

(ج) نعم، وإن أحسن طريقة لطردهم هو اجتذاب الصالحة، وذلك بعمل الخير واجتناب الشر وإصلاح نقائصكم، فبذلك تهرب الأرواح الشريرة عنكم.

(س) كثير من أهل الصلاح يكونون مع هذا عرضة لإزعاجات الأرواح الشريرة؟.

(ج) إن كانوا صالحين حقاً فهو لهم تجربة وترويض وحث على الصلاح، ولكن لا تثقوا بظاهر الفضيلة، فالفضيلة شيء وذكرها شيء آخر.

وجاء في صفحة (١٢١) ما نصه:

(س) أي وسيط يدعى كاملاً؟.

(ج) كاملاً؟ يا للأسف إذ ليس من كمال على وجه أرضكم، ولولا ذلك ما سجنتم فيها، قل وسيطاً صالحاً إن قدر وجوده، على أن الوسيط الكامل لا تجسر الأرواح الناقصة أن تدنو منه لخداعه، وأما الصالح فإن الأرواح الصالحة تألفه، وقلما يكون عرضة لخداع الشريرة.

(س) ما هي أخص الشروط الواجبة لفوزنا بتعاليم الأرواح العلوية منزهة عن الضلال؟.

(ج) صنيع الخير واستئصال الكبرياء والتجرد عن حب الذات خاصة.

ثم جاء في جواب سؤال آخر: إن النور يضيء على كل من طلبه، فمن أراد أن يستنير فليتحاش الظلمة، والظلمة هي نجاسة القلب. إن الأرواح العلوية لا تألف قلوباً شوهها الكبرياء والطمع وقلة المحبة، فمن طلب النور فليتضع، وبالتواضع يجتذب الأرواح العلوية إليه.

وجاء في صفحة (١٢٤) ما نصه: إن الروح مع علمه قد يكون تحت سلطة الرذيلة والأوهام، إن في عالم الأرض من هم في منتهى الكبرياء والحسد والتعصب، فهم لا يتجردون من هذه النقائص حال مبارحتهم الحياة، والرذائل تحيط بالروح بعد الموت ملتصقة بها كالهواء، وهؤلاء أشد خطراً من الأرواح الشريرة.

أقول: أيها الذكي، اقرأ ذلك الكتاب فكفى ما نقلت منه الآن ملخصاً، واعجب كيف يكون ما ذكرته وما لم أذكره الآن تفسير للآية، وكيف يتضح الأمر اتضاحاً، وتفهم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، لأن نفوسهم ليست خالصة من الرذائل. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فإن التوحيد والإخلاص لله والتقرب له بفعل الخير مما يدعو إلى قرب الروح الإنساني من الملائكة، إن تشرك بالله ولا تخلص له تسقط مرتبتك ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والقصد غيره لأنه معصوم، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم فالأقرب.

روي أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيّ؟ قالوا نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لين جانبك لهم. يقال: خفض الطائر جناحه، إذا أراد أن ينحط ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: تعملونه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائك ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي ينصرك وينصر كل مخلص في عمله النافع العام ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد وإلى كل صلاة وإلى كل دعاء وأينما كنت ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ترددك في تصفح أحوال المتهجدين، فإنه صلى الله عليه وسلم لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم، أمر الله النبي صلى الله عليه

وسلم بالتوكل عليه قائلاً : إنه ينصره ويخذل أعداءه ، وأبان لـم استحق ذلـك ، فذكـر وصفـه بأنـه يوم الساجدين ويتصفح حالهم فهو إمام للصالحين ، ومن كـان كذلك تولى الله أمره ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعائك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتك وعملك .

## لطيفة

جاء في البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية صعد على الصفـا ، فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي ، لبطون من قريش ، حتى اجتمعوا فقال : إني نذير لكم بـين يـدي عـذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[المسد : ١-٢] .

ومما جاء في الصحاح أيضاً : « أنه صلى الله عليه وسلم قال : يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يـا عبـاس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويـا فاطمة بنـت رسـول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً » . انتهى ملخصاً .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هـذه الآيـة ضـاق ذرعـاً ، وعـرف أنـه متى بادأهم بهذا الأمر رأى ما يكره ، فصمت حتى جاءه جبريل ، فقال : يا محمد ، إلا تفعل ما تؤمـر يعذبك ربك ، فاصنع لهم طعاماً . فعند ذلك أمر علياً أن يصنع الطعام ويملأ عساً لبنـاً ، وجمـع القوم وأنذرهـم وحذرهم الخ .

انظر ، ألست ترى أن إنذار عشيرته الأقربين وتحذيرهم مع علمه أنهم يؤذونه ويفعلون معه كـل مكروه مما يقرب الملائكة إليه ويجعله مستحقاً للوحي ؟ . أليس ذكر هذا الكلام بعد قوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢ ﴾ ليكـون كالبرهان على أن هذا القول وحي ، لأن الوحي يكـون بـالخير ، وتعليـم الأقربين وغير الأقربين خير والشياطين مبعدون عن الخير ، أي : لا يألفونه ، بل لا يستطيعونه ، ولـو كـان من الشـياطين لكـان الأمـر خلاف ذلك ، فـلا ينـذر عشيرته الأقربين ، بـل يفتـح لـهم بـاب الشـهوات والمخاصمـات والعـداوات ، أما الإنذار والتعليـم فليـس مـن الطبيعـة الشيطانية بـل مـن الطبيعـة الملكيـة ، فقولـه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ كالبرهان على أن هذا ليس مما تنزلت به الشياطين ، بل هو مما يجانس طبع الملائكـة ، فكأنـه قيل إذن كيف يكون تنزل الشياطين ، هانحن أولاء عرفنا ما يكون من وحي الملائكة فكيف يكون ضده ، فقال : لست ممن تنزل الشياطين عليهم لعدم المشاكلة والمجانسـة ، ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ ﴾ أي : كـذاب فـاجر ، وهـم الكهنـة وأمثالـهم ، للمجانسـة بـين طباعهم كما اتضح فيما نقلناه لك قريباً ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلـك فـلا يصلـح لتنزل الشياطين عليه ، وكيف يصلح لذلك وهم ينزلون على الكذابين الفـاجرين وهـو ليـس كذلـك ، بـل هـو منذر معلم للخير صادق .

أما أولئك الأفاكون الآثمون من الكهنة وأمثالهم فإنهم ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي : أسماعهم إلـى الشياطين ويصغون إليهم ويتوجهون بقلوبهم إليهم فيتلقون منهم ظنونـاً لنقص علمهم ، كمـا جـاء في

كتاب « الأرواح » المذكور، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها، وقد ورد في الحديث: « الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة »، ولا كذلك محمد صلى الله عليه وسلم فالمغيبات التي أخبر بها طابقت كلها، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ والأكثرية باعتبار أقوالهم، لأنهم يسمعون شيئاً ويزيدون عليه، ويصح أن ترجع الضمائر للشياطين، أي: يلقون السمع إلى الملأ الأعلى فيعرفون بعض المغيبات فيوحون بها إلى أوليائهم مشوبة بالأكاذيب لنقص عقولهم وقصور أفهامهم وعدم ضبطهم، وكلا المعنيين صحيح، فالكهنة ومحضرو الأرواح في أوروبا الآن يسمعون من الأرواح الصغيرة أكاذيب كثيرة فيها بعض الصدق، لنقص تلك الأرواح، لأنها لا تعرف إلا بطريق الحدس والتخمين، وهذا المعنى يؤيد رجوع الضمير للشياطين، وهكذا الكهنة وأهل الرياضة فقد تتصل بهم أرواح على شاكلتهم فيخبرون بأشياء ويزيدون عليها من تلقاء أنفسهم استنتاجاً، وهذا يوافق رجوع الضمير لقوله: ﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

والحاصل أن الأرواح سواء أكانت في حال البرزخ أم في الدنيا متى كانت ناقصة وأرادت معرفة المغيبات فنالت حظاً منه فإنه يكون مخلوطاً بآرائها، فأما الأرواح العالية سواء أكانت في الدنيا كالأنبياء أم في العالم الأعلى فإنها لا تهتم إلا بما ينفع الناس، وهؤلاء لا يتطرق إليهم الكذب لأن الله معهم ويؤيدهم.

## لطيفة

إذا عرفت هذا فاعجب كيف يظهر صدق القرآن، وكيف يأتي العلم الحديث يشرح هذه الآية شرحاً وافياً، وإني لا أقول لك أكثر من أن أنقل إليك ما جاء في كتاب « الأرواح » المذكور، وهو ينطبق على ما جاء في هذه الآية، وأن الأرواح الناقصة تغش الناس وتخدعهم وتخبرهم بالمغيبات، فأما الأرواح العالية فإنها لا تهتم بالأمور الجزئية، ولا تخبر الناس بالأمور الدنيوية، وتحب أن ينصرف الناس عن ذلك إلى العلوم والمعارف، وأن لا يتطلعوا لمستقبل أمورهم، لأن ذلك يشغلهم، وإليك ما جاء في الكتاب المذكور.

## الحديث الرابع عشر

يتوهم البعض أن الروحانية واسطة سهلة وباب رحب لكشف الكنوز واستنباء المستقبل وفتح الفأل وحل المسائل العلمية، إلى غير هذه من دواعي الطمع وحب الأرضيات، فدفعاً لهذه الأوهام رأينا أن نذكر في هذا الفصل خلاصة تعليم الأرواح في هذا الموضوع نقلاً عن كتاب « الوسطاء » للمعلم الفيلسوف « آلان كاردك ».

(س) هل تجيب الأرواح عن كل سؤال يطرح عليها؟.

(ج) كلا، فإن الأرواح الرصينة لا تجيب إلا على أسئلة غايتها خيركم الروحي وترقبكم الأدبي.

(س) هل الأسئلة الجدية هي الواسطة لإبعاد الأرواح الطائشة؟.

(ج) ليست الأسئلة التي تبعد الأرواح الطائشة، بل صفات من يلقي الأسئلة؟.

(س) أية أسئلة تكرهها الأرواح الصالحة؟.

(ج) هي التي لا فائدة منها، أو يشتم منها رائحة الفضول أو الطمع.

(س) هل من أسئلة تكرهها الأرواح الناقصة؟.

(ج) لا تكره إلا الأسئلة التي تزيح النقاب عن جهلها وخداعها.

(س) ما قولك فيمن يتخذون المخابرة الروحانية باباً للهو والهزل أو لاستنباء أمور تهم صوالحهم الزمنية؟.

(ج) هؤلاء تسر بهم جداً الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخداعهم.

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل؟.

(ج) كلا، إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر.

(س) أليس مع هذا من حوادث تنبئنا الأرواح عنها وتتم في حينها؟.

(ج) قد يتفق أحياناً أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها، وهذا لا يمنع الأرواح الماكرة من نشر النبوءات الكاذبة.

(س) ما هي أخص دلائل النبوءات الكاذبة؟.

(ج) هي التي لا تأتي بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص.

(س) لماذا تكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لا تعين زمن حدوثه؟.

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة، إن الروح يستشعر أحياناً وقوع أمر إنّما زمن وقوعه يكون في الغالب متعلقاً بحوادث لم تتم بعد ولا يعلمها إلا الله، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقيقة، وتحدد الأيام والساعات من دون التفاتات إلى صحة النبوءة وعدمها، ومن الواجب هنا أن أقرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتكم وترقيكم الروحي لا العرافة وفتح الفأل، فمن أحب هذه تألفه الأرواح الماكرة ويصبح ألعوبة بين أيديها.

(س) ما قولك فيمن تنبئه الأرواح بموته في ساعة معينة؟.

(ج) هذه أرواح ماكرة لا تقصد إلا الضحك بما تسبب من الرعب لمصدقها.

(س) كيف يتفق أن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ويحددون زمن وقوعه؟.

(ج) تطلع أرواحهم على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ويبقى فيها ذكره عند اليقظة، فهؤلاء لا يهولهم أمر الموت ولا يرون فيه إلا انتقالاً من حالة إلى حالة أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف، إن خشية الموت سوف تتناقص وتتلاشى عند انتشار الحقائق الروحانية.

(س) هل تستطيع الأرواح أن تطلعنا على حياتنا الماضية؟.

(ج) تستطيع ذلك إن سمح لها الرب، ولا يكون سماحه إلا لغاية حميدة مفيدة لا لفضول باطل، وعليه لا تصدقوا نبأ كهذا إلا إذا صار بديهياً ولغاية مفيدة. كثيراً ما تحب الأرواح الماكرة أن تهزأ بالوسطاء والمؤمنين بقولها لهم إنهم من أصل سام ومرتبة رفيعة، فيتقبل بعضهم ذلك بمزيد الابتهاج ولا يفقهون أن حالهم الروحية الحاضرة لا تدل على المرتبة التي تنسبهم الأرواح إليها مع أن الأحرى بهؤلاء المساكين تجنباً للسخرية أن يلاحظوا أن الترقي خير لهم من الانحطاط، وأن التقهقر في الكمال مخالف لناموسه تعالى.

(س) إن كان لا يمكن للإنسان أن يعرف شخصيته في وجود سابق، فهلا يمكنه على الأقل أن يطلع على مركزه والصفات أو النقائص التي تغلبت عليه فيه؟.

(ج) قد يمكن كشف أمر كهذا لكونه مفيداً لإصلاحكم، ولكن لا حاجة إليه لأنكم إذا تأملتم جيداً في أنفسكم تستدلون على الصفات والنقائص التي تغلبت عليكم في الحياة الماضية.

(س) هل نستطيع استطلاع شيء من مستقبل حياتنا بعد الموت؟

(ج) كلا وإياكم وتصديق شيء من هذا القبيل، فإنه إفك وخداع، والدليل واضح وهو أن وجودكم المقبل سيكون نتيجة سيرتكم الحاضرة، فكلما قل الدين خف الوفاء وازددتم في المستقبل سعادة وراحة، ولكن أين وكيف يتم هذا الوجود، هذا أمر لا تعرفونه إلا بعد عودتكم إلى الحالة الروحية وتبصركم فيها.

(س) هل يسوغ استشارة الأرواح في الصوالح الزمنية؟.

(ج) قد يمكن ذلك في بعض الظروف وعلى مقتضى نية المستشير وصفات الروح الموجهة إليه الاستشارة، ومن الواجب أن تتأكدوا أن الأرواح الصالحة لا تتواطأ قط على مجاراة مطامعكم، وأما الشريرة فتهزأ بكم بمواعيد سرابية ما وراءها إلا الخيبة والحسرة، ثم اعلموا أنه إذا قدر عليكم محنة فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحملها وتخفف عنكم وطأتها، ولكنها قط لا تستطيع أن تدرأها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم.

(س) إذا توفي شخص وكانت مصالحه معرقلة ألا يسوغ استشارة روحه في حل بعض المشاكل وهلا يكون هذا من باب العدل؟.

(ج) لعلكم نسيتم أن الموت باب النجاة من هموم الحياة، وأن الروح المعتوق من الأسر لا يعاود سلاسله، للتدخل في أمور ما عادت تهمه، ولخدمة ورثة ربما ابتهجوا بموته لما نجم لهم عنه من الفائدة المالية؟ تقولون إن هذا من باب العدل، والعدل قائم بخيبة مطامعهم، وهذا بدء القصاصات التي ستنوبهم من تعلقهم المفرط.

(س) أنستطيع أن نستنبئ الأرواح عن أحوالها ومراكزها في عالم الغيب؟.

(ج) نعم، بشرط أن يكون هذا الاستنباء ناتجاً عن المحبة وطلب الفائدة الروحية.

(س) هل تستطيع الأرواح أن تصف لنا نعيمها أو شقاءها؟.

(ج) نعم، لأن فوائد عظيمة تنتج لكم من ذلك، أخصها اطلاعكم على ماهية الثواب والعقاب ورفع الأوهام المتركبة على عقول بعض السذج من هذا القبيل وإحياء الإيمان فيكم وتقوية رجائكم السماوي. إن الأرواح الصالحة يلذ لها وصف نعيمها، والشريرة تجد راحة في تبيان ما تقاسيه من تباريح العذاب خصوصاً إذا لاقت من سامعيها عواطف الإشفاق والتأسي، لا يخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي. والغرض من كل الأمثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد الموت لتتجردوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات.

(س) إذا فقد أحد من الوجود ولم يعرف أمر مصيره فهل يمكن استحضار روحه للوقوف على الحقيقة؟.

(ج) قد يمكن ذلك إذا لم يكن الارتياب في موته محنة قدر احتمالها على من يهمهم أمره .

(س) هل يجوز استشارة الأرواح في الصحة؟ .

(ج) نعم ، لأن الصحة شرط ضروري لحسن القيام بالعمل الذي تجسد الإنسان لأجله ، وإنَّما لا ينبغي استشارة أي روح من الأرواح لأن الجهلاء يكثرون بينهم .

(س) أيحسن استشارة مشهوري الأطباء المتوفين؟ .

(ج) ليس هؤلاء المشهورون بمعصومين من الغلط ، وقد تتصلب فيهم أحياناً بعض آراء فاسدة لا ينزعها الموت عنهم بسهولة . إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية ، وهذه لا يملكها إلا الأرواح العلوية ، فإليها يجب أن تلجؤوا في كل أمر .

(س) هل العالم بعد موته يقر بأضاليله العلمية؟

(ج) إن كان تجرد من الكبرياء وأدرك نقصه يقرّ بها بلا خجل ، وإلا تبقى فيه بعض الأوهام التي تركبت عليه في الحياة .

(س) هل يمكن للطبيب أن يحضر الموتى الذين ماتوا على يديه ويستوضح منهم بعض الدلائل ليزداد بها خبرة ومعرفة؟ .

(ج) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها ، بشرط أن يكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء القلب لا بنية حشد المال وكسب المعارف من دون جد ولا عناء .

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح في المباحث والاكتشافات العلمية؟ .

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكتسب إلا بالعمل ، وبالعمل وحده يتقدم المرء في طريقه ، أي فضل يبقى للإنسان إذا أمكنه أن يعرف كل شيء باستنباء الأرواح ، ألا يصبح الغبي الجاهل بهذه الطريقة عالماً؟ ثم إن لكل شيء وقتاً معيناً يأتي في حينه ، أي عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله ، وأما بتلك الطريقة فيقلب الإنسان نظام الأشياء إذ يقطف الثمرة قبل نضجها .

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع من الأرواح المعونة في مباحثه؟ .

(ج) إن العون لا ينقصه عندما يكون أوان الاختراع قد دنا فتوافي وتتنذ الأرواح وتلقي إليه بعض الإلهامات الفكرية فيفكر فيها هو ويشتغل بها إلى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون معظم الفضل راجعاً إليه ، فإياكم إذن والزيغ عن محجة الروحانية والتطرف إلى أمر لا ينوبكم منه إلا الخداع والسخرية .

(س) هل يمكن أن تدلنا الأرواح على الكنوز والأحافير الخفية؟ .

(ج) قد قلت لكم إن الأرواح العلوية لا تتنازل إلى مطاوعة مطامعكم . وأما الماكرة فتدل دائماً سائلها على أماكن لا وجود لكنز فيها ، فيذهب المسكين عناؤه وتعبه أدراج الرياح .

(س) ما قولك في الاعتقاد بحراسة الكنوز المدعوة رصداً؟ .

(ج) إن بعض أرواح البخلاء يلبثون مقيمين حول الكنوز التي طمروها في الأرض ، وخوفهم على اكتشافها يكون عذاباً مستديماً لهم إلى أن يتجردوا عن الماديات ويدركوا بطلانها . اهـ.

حينئذ قلت : يا شير محمد تأمل في هذا الحديث ، ألم تجد فيه علماً جديداً في فهم القرآن ؟ . قال : وما ذاك ؟قلت : قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] ، فإن الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمداً طويلاً مسخرين ، وكان سليمان عليه السلام متكئاً على عصاه ، فلما أكلت دابة الأرض تلك العصا خرّ على الأرض ، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في ذلك العذاب ولعلموا أن سليمان ميت .

ولا جرم أن هذه القصة ثمرتها أن لا يثق الإنس بأخبار الجن . هذا هو المقصد الحقيقي منها ، ولقد تجلى واضحاً في هذا الحديث . ألا ترى أنهم لما سألوا الروح : هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل؟ فكان الجواب : كلا ، إذ لو عرف الإنسان لأهمل الحاضر . ولما سئلت الأرواح : أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الأرواح عنها وتتم في حينها؟ فكان الجواب : قد يتفق أحياناً أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها ، وهذا لا يمنع الأرواح الماكرة عن نشر النبوءات الكاذبة . ثم أفاد أن الأرواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون في الغالب متعلقاً بحوادث لم تتم ولا يعلمها إلا الله فلا تقطع في جوابها ، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقائق فتنشر الأخبار الكاذبة ، ولا جرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام ، وشرح ما انطوت عليه من العلم ، وبرهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ما تلقي الجن من الأكاذيب . اهـ.

ثم انظر يا شير محمد إلى قول الروح : إن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ويحددون زمن وقوعه ، وإن هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد لا يهولهم أمر الموت .

ألست ترى يا شير محمد أن هذا مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٣] . فتعجب يا شير محمد كيف يقول : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ليلهموهم السرور والبهجة ويخاطبوهم ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » . وتعجب يا شير محمد من قول الروح في هذا : إن الطبيب إذا أكب على درسه بالاستقامة لا بنية حشد المال وكسب المعارف بدون جد ولا عناء ينال مساعدة الأرواح العلوية . أوليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين؟ . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنّما العلم بالتعلم وإنّما الحلم بالتحلم » ، فلا علم بلا جد ونصب ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد . وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] وقال : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] . وقد علمت فيما مضى أن الأرواح لا تخص من مضوا من عالم الأرض ، بل هناك من هم أعظم ، بل هم الملائكة المكرمون .

ثم انظر قوله تعالى في سورة «النحل»: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] أليس هذا يا شير محمد يومئ إلى ما يقوله الروح هنا: إن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ويبقى فيها ذكره عند اليقظة، فهؤلاء لا يهولهم أمر الموت ولا يرون فيه إلا انتقالاً من حالة إلى حالة أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف، وهل يعطى من لا يستحق الحكمة؟ كلا.

ثم انظر إلى قوله: فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة ولكنها لا تدرؤها عنكم، لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثم تأمل قول الروح: وهذا بدء القصاصات التي ستنوبهم من تعلقهم المفرط بالخيرات، وقوله: إن العدل قائم بخيبة آمالهم. فتعجب كيف كان مطابقاً أشد المطابقة لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، فجعل الله المال والولد عذاباً في الدنيا والآخرة لمن تعلق بهما ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه، ثم جعل المال والبنين زينة الحياة، ولا خير إلا فيما بقي من الصالحات الباقيات، وأما قول الروح: إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية، فهذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقول الروح: لا يخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي، والغرض من كل الأمثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد الموت، لتجردوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات.

هذا وكثير أمثاله يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ومفهومه: إن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، ومفهومه: إن الذين يرجون لقاء الله ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً ولم يطمئنوا لها ولم يغفلوا عما أودع فيها من آيات فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون. اهـ.

## حكاية ومعجزة

يا شير محمد، إن قول الروح هنا أيضاً: إن الطبيب ينال المساعدة من الأرواح العلوية، وقوله في العالم والمخترع: إنهما ينالان المعاونة من الأرواح العالية إذا آن وقت الاختراع، دال على مداخلة الأرواح في أعمالنا عند الاستحقاق.

أليس هذا مطابقاً لقوله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[آل عمران: ١٢٣-١٢٦]. ألا فانظر كيف رتبت الأرواح المعونة للمخترع والعالم على الجد والمثابرة، وهي تطابق الآية إذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفاً على الصبر والتقوى وهجوم العدو، أوَلست ترى أن بيان الأرواح معجزة للقرآن، لقد كنا نسمع هذا ونكل علمه إلى الله تعالى، فأصبحنا نروي نظائره عن الأرواح العالية أنفسها، وقال في سورة «الأنفال»: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾[الآية: ٩-١٢]، فانظر كيف أمر الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا وأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فترى أن مقالة الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وإنارة بصائرهم موافق للآيات ومعجزة في هذا الزمان فتأمل. اهـ.

## الكلام على الشعراء

اعلم أن الشعراء والكهنة والسحرة بينهم تشابه وتجانس، فالشاعر ينظم القول ويفخر بأن أكذب الشعر أعذبه، وكلما أوغل في التخيلات وإبراز الصور المشوقة للسامع التي تجتذب قلبه وتأخذ على سمعه وبصره كان معدوداً من فطاحل الشعراء، فإذا خيل الساحر للناس صوراً لا حقيقة لها وأبرز الأمور على خلاف ما هي عليه، وإذا كذبت الأرواح الناقصة على بني آدم وهي في برزخها وهكذا الأرواح التي في أجسامها إذا تلقفت من تلك الأرواح شيئاً وزادت عليه، فكلها في الإفك متجانسة فليست تصلح لهداية البشر. لذلك قال تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤]، أي: السفهاء والرواة، فإنهم يتبعونهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح.

فهؤلاء السفهاء والرواة هم الذين يستحسنون ذلك منهم ويفرحون به، وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك، وقد قرر هذا بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ ﴾ من أودية الكلام ﴿ يَهِيمُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٥] فهم حائرون وعن طريق الحق حائدون، والهائم هو الذاهب على وجهه

لا مقصد له، لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم في النسيب بالنساء والغزل والهجاء وتمزيق الأعراض والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحق المدح والإطراء الكاذب، وإليه أشار بقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٦]، والقرآن ليس كذلك فنتج مما تقدم أنه ليس معناه مما تنزلت به الشياطين، ولا لفظه من كلام الشعراء، ثم استثنى الشعراء المسلمين الصالحين الذين يذكرون الله ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله والحث على طاعته ولا يهجون أحد إلا انتصاراً ممن هجاهم، فلا يتخذون الهجاء إلا آلة لمقاتلة الأعداء لا طلباً للمال، فليس الهجاء لأغراض ذاتية، بل ذلك لإصلاح الجميع بإذلال أعدائهم. فهؤلاء لما آتاهم الله قوة الشعر صرفوها للمنافع العامة ولم يجعلوها أداة لكسب المال كما يفعل شعراء الجاهلية وأكثر شعراء الإسلام الذين تكسبوا بالشعر في الدولة العباسية وفي الدولة الأندلسية، فهؤلاء هم الغاوون الذين يقولون ما لا يفعلون.

إن الشعر نور من الله كالجمال والحرف وكالصناعات، بل إن مخاطبة الأرواح التي حدثت الآن في العالم والاستعداد لها، كل ذلك جاء امتحاناً للناس، فإن صرفوها لشهواتهم ساءت حالهم، وإن استعملوها لمنفعة العموم سعدت أممهم؛ فالشعر والجمال والحكمة وسائر المواهب على هذا النحو، فإن بذلت للعموم كانت خيراً وإن بذلت للمصلحة الخاصة كانت شراً.

ظهر الحق واستبان السبيل، وتبين أن المسلمين لم يفطنوا لهذه الآية، وسار شعراؤهم في سبيل الغواية حتى كانوا هم من أهم أسباب ذهاب الدولة العربية بالشرق وببلاد الأندلس كما سأوضحه لك قريباً، لتعجب من هذه الأمة كيف نامت أمداً طويلاً، ولم يفطن كثير من الناس لهذا القرآن، ونبذوا تعاليم حكمائهم.

وسيظهر في الإسلام جيل لم تحلم به الأرض وأمم تكون خير من أخرجهم الله للناس. قلت: إن الله استثنى الشعراء الصالحين وذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾[الشعراء: ٢٢٧]، فهم يجعلون الشعر كالدواء يصيب الداء، أي أنهم لا يجعلونه مكسباً يتكسبون به كما فعل المتنبي وأبو تمام وأمثالهما ممن سيأتي ذكرهم، كلا.

بل غاية الأمر أنهم ينتصرون إذا ظلموا كما انتصر حسان بن ثابت بهجاء المشركين وهم كانوا بادئين، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾[الشعراء: ٢٢٧] بالشرك وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٧] أي: أيّ مرجع يرجعون إليه بعد الموت، قال ابن عباس: إلى جهنم وبئس المصير. انتهى.

واعلم أيها الذكي أن الأمة الإسلامية أصابها داء الجاهلية، بل زادت عليها وعكف أذكياؤها على الشعر لذات الشعر وللمكاسب، لا لإصلاح الجمهور ولا لإقامة العدل ولا لحفظ الأمة ولا لحضها على حفظ البلاد وصيانة الأمن ومقاتلة الأعداء إلا قليلاً، فأثاروا الشهوات البهيمية والسبعية وأناموا الفضائل العالية والقوى العقلية، فرجحت كفة الشهوات ومالت كفة المعقولات والمزايا الشريفة والأمور الرفيعة، فانحطت بذلك الأمة الإسلامية، وقد وجدت أبناء بلادي في هذا الزمان على هذا النحو وقد تركوا الأمة حبلها على غاربها، ولأحدثك عما رأيته في ذلك.

(١) لقد رأيت وزيراً من وزراء بلادنا يتباهى بأنه محب للشعر، وأمر مفتشاً كبيراً من مفتشي اللغة العربية أن يشرح ديوان ابن الرومي، وقد ظن ذلك الوزير أن ارتقاء الأمة موقوف على أمثال ذلك وقد صدع ذلك المفتش بأمره وشرح ذلك الكتاب، وأيضاً كان يحقر من شأن الديانات ولا يبالي بها.

(٢) قابلت شاعراً كبيراً من شعرائنا وقد اطلع على مقالة من مقالات «نهضة الأمة وحياتها» وقد كتبها في جريدة اللواء التي كان يديرها المرحوم مصطفى باشا كامل وسيأتي ذكرها، وتحادث معي في أمر المقالة، فقلت له: أنا لا أعبأ بشعر شاعر إلا إذا كان مما ينفع العموم. فأما ما عداه فإني أحقره ولا أعده شيئاً مذكوراً، وقد رأيت لك قطعة في وصف الشمس أعجبتني، فبعد ذلك رأيت لهذا الشاعر قطعاً كثيرة في المعاني الوطنية والعلمية.

(٣) إن في بلادنا المصرية شاعراً كبيراً وهو «شوقي بك» رأيت له مقدمة لكتاب شعره تنحو نحو المقالة المذكورة، وأخبر أنه عدل رأيه وأخذ ينظم شعراً لرقي الأمة بعد ما كان على طريق أبي تمام والمتنبي. وهاك المقالة المذكورة في نهضة الأمة وحياتها.

## الشعر والتاريخ

## المقالة السابعة والأربعون

الشعر والتاريخ فنان بينهما علاقة ونسب يجتمعان ويفترقان، يكادان أن يكونان طبيعة في الإنسان، وكما أن الكهرباء سرت في عامة الأجسام خلقت معها ركبت في طبائعها ومقدارها يغلب في الأجسام الحيوية فالجواهر المعدنية ويندر في النباتية ونحوها، فهكذا ترى أناساً نبغوا في الشعر، وآخرين يتشبهون ويتقاربون ويتكلفون وقد يصلون، إن شئت فقل الناس شعراء ومؤرخون، قم واجلس في مجلس فلا تسمع إلا قول الناس في سمرهم: ألا سعد فلان، وتارة يحلون المجالس بالشعر والموالي أو يذكرون تخيلاً شعرياً غريباً، لم تترفع هذه عن صغرى الطبقات كما لم تتسام عنها أرقى الطبقات، ثم نرى الأمم في مبدأ أمرها تكون في الشعر أطفالاً وفي البلاغة صغاراً، يعجبهم ما كان غريب اللفظ عويص المعنى كأنهم يخضعون لما تقصر عنه طاقتهم، فإذا أخذوا في الرقي قليلاً ماثلوا الشبان في العقل فأحبوا الخيال والنكت البلاغية غالباً، فإذا ارتقوا مالوا إلى جمال المعاني واعتبروا من اللفظ رونقه ومن الخيال سبكه ونظمه وغاصوا في الحكمة وجمال المعنى. هذا ما عن لي في درجات الشعر، فمتى رأيت رجلاً تدهشه تلك الكلمات وغرابتها فاعلم أنه عامي. ألا ترى أن العامة يقولون لكلام لا يدرون معناه: هذا فصيح، إذا كان معرباً، وإن رأيته لا يقف إلا عند الخيال ويعجب به فهو في الطبقة الثانية، فإن مرق من الخيال إلى ما فيه من حكم ووازن بينه وبين الحقيقة المقصودة من التأثير فهو في المرتبة العليا.

قلنا: إن الناس جميعاً يميلون للشعر ويحبونه، ومنهم فريق استمر في قرضه فمدح الملوك وذمهم. فيا ليت شعري لم غرست هذه الطبيعة فينا؟ وهل ما رأيناه من الذم والمدح لغلبة الشهوات كان مقصود تلك الفطرة السامية. الله أكبر وأجلّ أن يضع هذه الغريزة لمثل هذه الصغائر.

وانظر كيف كان أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفي المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ في جهة سواد بغداد، كان عظيم القدر شريف المنزلة سامي النفس، ومع هذا يقول الشعر إرضاء لشهوات

النفوس. فكم مدح سيف الدولة وكم ذمه. وكم مدح كافوراً وكم ذمه، يقول في مدح الثاني وذم الأول تعريضاً:

تجاذب فرسان الصباح أعنة ... كأن على الأعناق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً ... به ويسير القلب في الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
نجوز عليها المحسنين إلى الذي ... نرى عندهم إحسانه والأياديا

وهذا من قصيدة يمدح بها كافور الإخشيدي إذ ورد عليه وأكرم مثواه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هجرية، ثم ذمه بقصائد منها قوله:

إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلا وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصي إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الخز مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن ... يسيء بي فيه عبد وهو محمود

ولسنا نطيل النقل، فمثل هذا الشعر مع حسنه وضع في مقام غير شريف تفرح به الأمم في أول أمرها وشبابها، فإذا وصلت للحكمة أبتها طباعها ولا يرون لأمثال هذا قيمة، وهكذا كثير من قصائد أبي تمام والبحتري وأضرابهم يمدحون ويذمون لتلك الشهوات. وهذا لعمرك ما صرح به القرآن إذ قال: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، فانظر كيف وصفهم بالهيام في كل واد من أودية المدح والذم كما توحي إليهم الشهوات وتسعدهم بالمخيلات.

إذن لماذا غرس الله هذه الفطرة في نوع الإنسان؟ أجمع العلماء أن كل غريزة فينا ذات حكمة شريفة، وللشعر منزلة سامية في النفوس، لعل نفوس كثير من الشعراء حادت عن الطريق المستقيم، لعل هذه الفطرة تجنح إلى وصف ما نراه من جمال هذه العوالم وبهائها، تصف السحاب، تصف النجوم والشمس والقمر، تصف الأنهار، تلك الحكم الزاهرة الباهرة، الشعر كهرباء الأرواح الإنسانية تشع منها إلى النفوس، فتطوف هذه العوالم المشاهدة فتستخرج المنافع المادية والمعنوية وتقود النفوس إلى الفضائل وتبتعد بها عن الرذائل، في العوالم المشاهدة عجائب وغرائب فيها حكم وبدائع، وإنما يستخرجها الشعراء بقرائحهم. وإنه ليعجبني ما يتغنى به شعراؤنا اليوم من وصف الكون وحكمه والتشويق للعلوم وتحبيبهم للوطن والألفة والرقي. أذلك خيراً أم أولئك الذين يذمون ويمدحون كأنهم للشهوات عابدون.

المدح والذم صفتان عرضتا الشعراء، إذ حاد الملوك عن القصد ونأوا عن الصراط السوي فاستعطفوهم واستجدوهم. الله أكبر. كلما مالت الحكومات عن النيابية إلى الاستبدادية مال الشعر إلى الأشخاص وصفهم، وكلما عدلت الحكومات اعتدل الشعر وصار ملكاً للأمة يحرض أبناءها ويرشدهم إلى المعالي، يغريهم بمكارم الأخلاق. وإني لأرى أننا لا نختار من الشعر إلا ما يقوي إرادة الشبيبة ويهديهم إلى طريق الرشاد. أما شعر المدح والذم فلن يفيد إلا حسن الألفاظ وجمال الخيال وهو خال من كل فائدة. هذا هو الذي أراه في تعليم الشعر، مثاله ما قال أبو الطيب في الحكم:

هون على بصر ما شق منظره — فإنّما يقظات العين كالحلم

يقال: شق الأمر عليه، صعب، والمعنى: هون على عينك ما يشق عليها منظره، فإن ما تراه في اليقظة شبيه بما تراه في المنام وكأن الحياة أحلام، ولم الحزن على حوادثها؟.

ولا تشك إلى خلق فتشمته — شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

وكن على حذر للناس تستره — ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

سبحان خالق نفسي كيف لذاتها — فيما النفوس تراها غاية الألم

الدهر يعجب من حملي نوائبه — وصبر نفسي على أحداثه الحطم

ومن حكم أبي تمام الطائي حبيب بن أوس المتوفى سنة ٢٣١:

خطوب إذا لقيتهن رددنني — جريحاً كأني قد لقيت كتائبا

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت — خلائقه طراً عليه نوائبا

ومن أجمل ما ينسب لعنترة:

ولأحمين النفس عن شهواتها — حتى أرى ذا ذمة ووفاء

فلئن بقيت لأصنعن عجائبا — ولأبكمن فصاحة البلغاء

ولأجهدن على اللقاء لكي أرى — ما أرتجيه أو يحين قضائي

ومن حكم أبي العلاء وهو يشهد لما قلنا:

وما شعراؤكم إلا ذئاب — تلصص في المدائح والسباب

أأذهب فيكم أيام شيبي — كما أذهبت أيام الشباب

فإن كان ولا بد من مدح فليكن بما عرف من فضائل الممدوح واشتهر، ثم يجعل ذلك قدوة لأهل وطنه، فيرجع المدح لترغيب الناس في الاقتداء به. وهذا كأنه درس أخلاق وما عداه فلا أمدحه ولا أرضاه. الشعر والتاريخ لا يقصدان لذاتهما، إنّما يرادان لإنماء العواطف والحض على المكارم وما عدا ذلك فمنبوذ، فالشعر الذي قصد به الشهوات يهيمون به في كل واد، فأما الآخر فهو ما ذكره الله بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الشعراء: ٢٢٧] الخ، أراد به الشعر الذي قصد به غرض شريف ونفع عام، وهكذا التاريخ أرى أن يصطفى من حوادثه ما يقود الشبيبة إلى المنافع والثمرات. التاريخ يراد منه إثارة الحمية والغيرة في الرؤوس، التاريخ وصف شجاعة الشجعان وخذلان الجبان وسياسة العادل وحب صالح الوطن ورجال الأمة وعظمائهم، حتى يكون ذلك داعية إلى رقي الأمة والعمل لها.

وأعجب ما رأيت تلك القصص القرآنية، فما رأيت حكاية قصيرة أو طويلة إلا وتخللها حكم ومواعظ وأمثال وترغيب أو ترهيب، كأنه يرينا كيف نعلم التاريخ، كأنه يقول ليس التاريخ فناً معبوداً ألا إنّما التاريخ آلة لنمو القرائح وإنارة العقول للغرض الذي توجه إليه الأمة، ومتى عري عن هذا الغرض فإنّما هو من سفاسف الأمور وضياع الوقت وقراءة بعض كتب الإفرنج شاهد بذلك فيما يكتبون. انتهى.

## لطيفة

لقد تبين لك مقام الشعر وعرفت حقائق علمية فيه، فلأبين لك آثار الشعر في أمة الإسلام وكيف كان التمادي في الشعر سبباً في انحطاط بعض الأمم الإسلامية نقلاً عن العلامة «لويس فياردو» ترجمه صديقي عبد الحميد بك فهمي.

جاء في الجزء الثاني من تاريخ عرب ومغاربة وأسبانيا وهو الدور الإسلامي ببلاد الأندلس تحت عنوان الشعر ما نصه: ذكر أن العرب في الأندلس قد بالغوا في استعمال الشعر حتى صاروا يكتبونه في المراسلات السياسية وعقد الصلح، بل يخيل للإنسان أنهم لا يكادون ينطقون إلا بالشعر. قال: وكان عدد من الشعراء عندهم عظيماً جداً، وكان حماد الراوية الذي كان في ابتداء القرن السابع يحفظ مائة ألف قصيدة عن ظهر قلب من قصائد الجاهلية على كل حرف من حروف الهجاء غير القطع الصغيرة، وأن أبا تمام كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير المقاطع الصغيرة، والأصمعي ستة عشر ألف أرجوزة وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو، ونقل هو عن أحد الفرنسيين «أن بلاد العرب أنتجت من الشعراء أكثر ممن خرج من بقية بلاد العالم»، ثم ذكر أن مجالس الخلفاء كهارون الرشيد ازدانت بالشعراء. وذكر المتنبي وهو أبو الطيب أحمد بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي المولود بالكوفة سنة ٩١٥ وهو مادح سيف الدولة بن حمدان أمير حلب، وكافور الإخشيد وقد تقدم سابقاً، وذكر أبا العلاء المعري ولزومياته، وأبا تمام حبيب بن أوس الطائي المولود بالشام، وكان نساجاً ويسقي الماء في الجامع بالقربة قبل أن يكون أمير الشعراء، والبحتري وهو أبو عبادة، ثم ذكر أن الشعر كان يرفع الرجل من المسكنة إلى الدرجة العليا، واستدل على ذلك بأنهم يؤرخون حوادثهم كما يؤرخون للملوك ويذكرون وفاتهم باليوم والسنة كما يذكرون وفاة ملوكهم وحجابهم، ودخل الشعر أسبانيا مع الفتح حين دخلها موسى بن نصير، وقد كثر الشعراء هناك ووقفوا في قرطبة وأشبيلية وغرناطة على أبواب عبد الرحمن الداخل وأبي عبد الله الصغير وغيرهما، وقد كانت تجمع القصائد في مجلدات بالدواوين، فيقال ديوان الشاعر فلان، وقد كان الخليفة الحكم الثاني هو ناشر ومنظم ديوان ابن عبد ربه «أحمد ابن محمد بن عبد ربه» من شعراء قرطبة وصاحب «العقد الفريد» وبعض الدواوين، ويحتوي على مجموعات لشعراء مختلفين، مثل مجموعة أبي بكر بن داود الأصبهاني المسماة بالأزهار ومجموعات أخرى، ثم قال: إن زمن الحكم الثاني كان زمن رقي شعري عظيم، وقد اشترك أهل الأدب في المناظرة الأدبية التي قامت بينهم على أثر ما نظمه أحد شعراء قرطبة «محاسن الورد»، وما نظمه شاعر آخر في وصف المطر فتشعبت الآراء وصار القوم فريقين، فريق يفضل هذا وفريق يريد ذاك، وقد أثرت هذه

المناظرة الأدبية وولدت كثيراً من النظم والنثر، وقل أن يوجد مثل أشهر من المناظرة بين الورد والمطر مؤيدة برأي المعضدين لها. انتهى ملخصاً.

## نتائج الغرام بالشعر والسياسة في الأندلس

ثم قال ما نصه بالحرف الواحد: غير أننا إذا فهمنا الشعر على هذه الكيفية فإنه بدلاً عن أن يعلي قدر الأمة فإنه يجرها إلى الذل والهوان، ويدلنا دلالة كافية على أنها قريبة من الزوال آيلة إلى الانحلال في زمن قريب، بدلاً من أن تمكث وتستقر ثابتة في أوج عزها ومجدها، وبعد هذا الزمن بقليل استوزر ابن عباد الثالث الشاعر عبد الله ابن زيدون واتخذ أمير بطليوس وزيراً له أبا محمد بن عبد المجيد بن عبدون، عند ذلك كثر تقلد الشعراء وظائف الدولة وراجت سوق الأشعار فيها، حتى كانت المراسلات السياسية تكتب بالشعر، يثبت ذلك ما كتبه ابن عباد إلى الأمير يوسف وإلى الفونس السادس. ولما اشتغل المسلمون بذلك وألهاهم الشعر عن النظر في أمور الدولة قام الأسبان واستردوا مدينة طليطلة، وهددوا الأندلس بجيوشهم، ولم يجد الأمراء ووزراؤهم الشعراء خلاصاً من بطش المسيحيين بهم إلا باباً واحداً وهو الاحتماء بأمراء إفريقية، فاستدعوهم إليهم وسلموا إلى رئيس المغاربة ما بقي بأيديهم من بقايا الخلافة العربية، فكأنهم قضوا بأيديهم على تمدنهم كما قضوا على دولتهم. انتهى المقصود منه.

وإنّما ذكرت لك هذا أيها الذكي لتعرف نتيجة قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٤-٢٢٥]. فانظر كيف هام الأندلسيون من المسلمين في الشعر وأوديته حتى قارنوا بين المطر والورد وتركوا الأمة وراءهم جاهلة لا يعلمونها نظام الحياة ولا رقي البلاد ولا الاستعداد لمقاتلة الفرنجة، فهذا هو الهيام في كل واد من أودية الضلال، وهذا هو الذي عناه القرآن، وهو معجزة أخرى ونتيجة سياسية لهذه الآية.

## خاتمة السورة

اعلم أن هذه السورة بدأها الله بالعلوم، فذكر النظر فيما خلقه في الأرض من عالم النبات وعجائبه، وذكر في قصة موسى عليه السلام ذلك النظر كما شرحناه، وعممه في الأرض وفي السماء وفي المشرق والمغرب وما بينهما وفي نوع الإنسان، وكذلك في قصة إبراهيم عليه السلام من الأحوال الإنسانية خلقاً وهداية وشفاء الخ، ثم أعقب ذلك في القصص الخمس الباقية بالعمل بعد العلم، فذم الكبرياء على الضعفاء في قصة نوح عليه السلام، وذم التعالي والتعاظم بما أنعم الله من النعم لإيذاء الناس وإذلالهم وإهانتهم كما كانت تفعل عاد من احتقارهم للناس وبطشهم بطش الجبارين، وذم ثمود بكفر النعم التي أنعم الله بها عليها كالبيوت المتخذة في الجبال، وذم قوم لوط إذ جهلوا نعم الله في النساء بالبنين وتركوهن واكتفوا بالذكور، وهكذا قوم شعيب إذ ظلموا في كيلهم ووزنهم، فرجع الأمر إلى نظام البلاد بإقامة العدل في المعاملات وحفظ النسل وترك ظلم الناس وقتلهم وسفك دمائهم.

هذا ملخص ما في القصص الخمس الأخيرة، فالسورة ابتدأت بعلوم النظر وختمت بعلوم النظام الاجتماعي، والحق وأنه لا سعادة لأمة إلا بالنظر في هذا الوجود أولاً، وحفظ النظام وضبط القوة الشهوية والقوة الغضبية ثانياً، وهذا ملخص السورة. وختمها ببيان أن القرآن لم ينزل به على

النبي شيطان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر، ثم وصف الشعراء، وقد عرفت كل ما يتعلق بذلك.

## كيف يعلم الشعر في الإسلام

اعلم أن السورة قد ختمت بذكر الشعر كما قدمنا، وكان ابتداؤها بذكر الحكمة والعلم والنظر في هذا الوجود كما شرحناه، ألا تعجب من هذا النظام، ألا تعجب أن التعليم الحقيقي يكون على هذا المنوال؟ فقد جاء في كتاب أميل القرن التاسع عشر ما ملخصه: أن العلوم الأدبية والشعرية والقصص الخيالية والخرافية تقرأ أولاً، ثم يقرأ التلميذ بعد ذلك العلوم الطبيعية كالحيوان والنبات والإنسان والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك إلى آخره، وذلك لأن الشعر وما معه تفتح للعقل باب الخيال، أما العلوم العقلية فإنها تصقل العقل وتهذبه، فبهذا تعرف كيف سقطت دولة الأندلس فيما تقدم، وتعرف ما يجب في المستقبل على المسلمين.

## في تعليم الشعر

ليقرأ الشعر بالطريقة الحديثة بحيث يذكر تواريخ الشعراء، وما السبب في هذا الشعر، ولم كان على هذا المنوال، وكيف كان حكم الدولة في تلك الأيام، وما الذي أثر في الشاعر حتى نطق بهذا القول، وما حال الدولة في أيامه، وما مدنيتها، وفي أي درجة كانت من الرقي، حتى يخرج الطالب من ذلك وقد كسب ملكة النقد ليرقي البلاد بآرائه. ولا بد من العلوم الطبيعية كما جعل القرآن مبدأ السورة فيها في أولها، وفي قصة موسى وإبراهيم، وكما ذكر بعد سورة «الشعراء» سورة «النمل» وهي من العلوم الطبيعية. أفلا تعجب من القرآن. أولا تعجب كيف سمى هذه السورة بالشعراء وأردفها بما هو من علوم الطبيعة ونظام الخليقة وبدائع الحكمة وهي سورة «النمل».

تم تفسير سورة «الشعراء» يوم الثلاثاء ١٧ من شهر فبراير سنة ١٩٢٥م

والحمد لله رب العالمين

## سورة النمل، مكية

## وهي ثلاث وتسعون آية. نزلت بعد الشعراء

## وهي أربعة أقسام:

القسم الأول: في مقدمة في الإيمان، وفي قصة موسى عليه السلام.

القسم الثاني: في قصة سليمان عليه السلام.

القسم الثالث: في قصة ثمود وقوم لوط.

القسم الرابع: في حكم عامة وآيات بينات في معرفة الله واليوم الآخر. وقصة موسى وثمود وقوم لوط، أشبه بإتمام للقصص في سورة «الشعراء».

### القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ
(٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ
بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١)
وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)
وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾

## التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓ ﴾ تقدم تفسيرها وتفسير جميع أمثال هذه الحروف في أول بعض السور وفي أول سورة «آل عمران»، وستقرأ قريباً ذكر ما يخصها هنا بإيضاح، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: هذه آيات القرآن وآيات كتاب مبين فيه الحكم والإحكام والإعجاز، وفي هذا الكلام عطف إحدى الصفتين على الأخرى.

وقوله: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حالان من الآيات فهي هدى من الضلالة وبشرى بالجنة ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ الجملة الاسمية عطف على ما قبلها، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ القبيحة فأصبحت مشتهاة لهم طبعاً، ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: يترددون فيها متحيرين، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر، ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أشد خسراناً لفوت الثواب واستحقاق العقاب، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ تلقنه وتؤتاه، ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾، فعلوم القرآن قسمان: علم وهو يشمل الجائزات والمستحيلات والواجبات، وهو يشمل القصص والأخبار والمواعظ، ويشمل إتقان الفعل، وهذا الأخير هو الحكمة وهي القسم الثاني، وهذه تشمل العقائد والشرائع والأحكام.

ثم شرع في بعض العلوم، فقال: اذكر ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ أي: اذكر قصته، وقوله: ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي: عن حال الطريق لأنه قد ضله في ذهابه من مدين إلى مصر، أي: امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق، ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ على الإضافة بمعنى شعلة نار مقبوسة، وشعلة النار تكون مقبوسة وغير مقبوسة ومنوناً، فيكون القبس وصفاً للشعلة بمعنى مقبوس، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها من البرد وكان في شدة الشتاء، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي: نودي بأن بورك من في النور الساطع الذي ظنه موسى ناراً، أي: قدس، وهو الله تعالى كما قاله ابن عباس، ومن حولها وهم الملائكة وموسى.

ولا جرم أن الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، وقد خاطب موسى من ناحية الشجرة فلا ضير فيما قاله ابن عباس في هذا المعنى، وتقديس الله بمعنى تنزهه عن جميع النقائص وأحوال الخلق، وتقديس موسى والملائكة بمعنى ترك الذنوب ومعصية الله تعالى، ولا جرم أن الملائكة موكلون بهذا العالم فهم حاضرون في كل مكان.

ولما كان قوله: ﴿ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ يوهم الظرفية الحقيقية، ويوهم إشراك موسى والملائكة مع الله في التقديس أو كثرة الخير من كل وجه؛ أردفه بقوله: ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهذا من تمام النداء، أي: تنزيه الله مربي العالمين، والمربي يتعالى عن الذين هم مربوبون فلا يشاركونه في كثرة الخير ولا في التنزيه عما لا ينبغي.

ثم وصف الله نفسه لموسى فقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ القاهر الغالب، ولست أقهر إلا لحكمة، فأنا قاهر هذا العالم، ولكن القهر مصحوب بحكمة، فلئن قلبت العصا حية

فإنّما ذلك لأثبت قدرتي وإعجازك لما أظهرته على يدك، ولكني لا أظهر ذلك على يدي عبد من عبادي إلا لحكمة، فلا أجعل مثل هذا شائعاً، لأن شيوعه وتداوله ينافي الحكمة، بل إني أجعله نادراً، ولكن جميع ما يحصل في الطبيعة إنّما يسير بنظام تام، فهناك حكمة في دوام النظام، وهنا حكمة في خرقه على شريطة أن يكون وقت الحاجة.

ثم أبان عزته وقهره لحكمة هنا فقال: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على «بورك» أي: نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك باضطراب، ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ حية خفيفة سريعة، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع. يقال: عقب المقاتل، إذا كر بعد الفرار. وإنّما رعب لأنه ظن أن ذلك لأمر أريد به، فلذلك قال الله له: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ مني ولا من غيري ثقة بي، ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ إذ لا يكون لهم سوء عاقبة فيخافون منه. أما الخوف الذي هو من شرط الإيمان فهو ملازم لهم.

واعلم أن الأنبياء قد يأتي بعضهم بغير الأفضل وقد يأتي بالصغيرة، وموسى عليه السلام قتل القبطي ثم تاب و﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾[القصص: ١٦]. وقال ابن جريج: قال الله لموسى: إنّما أخفتك لقتلك النفس، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أو الاستثناء منقطع، أي: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدل حسناً بعد سوء فإني أغفر له وأزيل خوفه، ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أي: جيب قميصك وأخرجها، ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ نيرة تغلب نور الشمس، ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ آفة كبرص. يقول الله: وأدخل يدك حال كونها آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن، ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ فتكون الآيات إحدى عشرة: المذكورتان، والفلق (٣)، والطوفان (٤)، والجراد (٥)، والقمل (٦)، والضفادع (٧)، والدم (٨)، والطمس (٩)، والجدب (١٠)، والنقصان في مزارعهم (١١).

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ خارجين عن الطاعة، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ بينة واضحة يبصرونها ﴿ قَالُوا۟ هَـٰذَا ﴾ الذي نراه ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر، ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله، ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: علموا أنها من عند الله فهم جحدوا بها بألسنتهم واستيقنوها بقلوبهم ﴿ ظُلْمًا ﴾ لأنفسهم ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ ترفعاً عن الإيمان، وهما مفعولان لأجله لقوله: ﴿ جَحَدُوا۟ ﴾، ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فقد أغرقوا في الدنيا وأحرقوا في الآخرة. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة.

## لطيفة

انظر عجائب هذه الآيات في سورة «طه» وغيرها مما تقدم كالعصا والحية، وكيف قلب الله العصا حية وما أشبه ذلك قد أوضحناه في سورة «طه»، فإن الله يظهر هذه العجائب كأنه يقول لعباده انظروا الأرض وما عليها تلبس ألواناً وألواناً، يكون ليل ففجر فعصر فمغرب فعشاء، ألوان وألوان وظلمة وضياء وجمال في النجوم، وهذا كله تغير سريع متتابع، وهناك تغير غير متتابع كالنبات وتتابع زرعه وهكذا الحيوان، فالناس يعجبون من قلب العصا حية لجهلهم بصنعه، فإنهم لما شاهدوا تقلب النجوم والشمس والقمر وجلابيب النبات على الأرض وأنسوا بذلك صباحاً ومساء؛ أصبح ذلك

عادياً لا يؤثر في أنفسهم لجهالتهم، وإنّما ذلك يؤثر في نفوس العقلاء والحكماء، ولكن لما رأوا العصا قد قلبت حية عجبوا من فعل ربهم وذكروه. هذه هي الحكمة في ظهور أمثال هذه الخوارق.

## بهجة العلم في بعض أسرار ﴿ طسٓ ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## هذا ذكر بعض أسرار الطاء والسين في هذه السورة

اعلم أن الله عز وجل الذي خلق أرواحنا من أجمل الأنوار وأبهج الجمال قد أنزلها في هذه الأرض واستقرت في الطين ولصقت به، فوسمت بالجهل حتى لا تعلم، فلذلك أخذ يعلمها الله ليرجعها إبلا مقامها الأول.

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى  ما الحب إلا للحبيب الأول

لهذا أخذ ينزل لها العلوم إما بالوحي وإما بالعقل والحكمة، والوحي مبدأ والحكمة النهاية وكلاهما منه تعالى، وهاهو ذا سبحانه أخذ في أمثال هذه السورة يعلمنا كما يعلم الأستاذ تلميذه بالبسائط قبل المركبات وبالجزئيات قبل الكليات، فابتدأ يقول لنا: «طاء. سين»، وهذا الحرفان لا يفهم القارئ منهما معنى لأنهما حرفان لا معنى لهما. ولقد تقدم شرح هذا المقام بأوفى بيان في سورة «آل عمران»، فهناك تجد العجب العجاب، ولكن نحن هنا نريد ما يخص هذه السورة من المقصود من الطاء والسين.

إننا ذكرنا في سورة «آل عمران» من المعاني التي تختص بالألف واللام والميم ما به يستيقظ المسلمون النائمون إلى حوز مجدهم وشرفهم، وأن هذه الحروف موقظة هناك إلى قصة اليهود المبدوءة بالألف واللام والميم، وهذه القصة تفيد أنهم قد اتكلوا على شفاعة آبائهم، وعلى أنهم لا يدخلون النار إلا تحلة القسم، كما وعد الله يعقوب بالنسبة لأبنائه، أو أنهم لا يدخلون النار إلا أربعين يوماً عدد أيام عبادة آبائهم العجل، وهذا الاتكال الذي ادعوه جعلهم يستحلون المحرمات وينكرون الأحكام الشرعية ويكتمون ما أنزل الله، حتى قالوا: إن التوراة ليس فيها الأمر برجم الزانية والزاني، وهذا الاتكال أوقعهم في النكال، فأزال الله ملكهم وحل المسلمون بساحة بلادهم وملكوها، وقد بينا هناك أن هذه الحال بعينها هي التي حلت بالأمم الإسلامية اليوم سواء بسواء، وأنهم اتكلوا على شفاعة الشفعاء من شيوخهم وعلمائهم، وناموا جهلاً بمعنى الشفاعة وبعداً عن معرفة الحقائق، فلم يقدروا أن يفهموا ما هي الشفاعة ولا ما هو الواجب، فوقعوا فيما وقع فيه اليهود من ضياع ملكهم وذهاب مجدهم، فاتخذوا الشفاعة التي هي حق وصدق لا شك فيها سبباً في الجهل والكسل والظلم والنوم على فراش الراحة الوثير وهدموا الدين هدماً. إذن هم ذكروا حقاً وأرادوا به باطلاً، وأضل الله كثيراً منهم على علم.

إذن: ﴿ الٓمٓ ﴾ في سورة «آل عمران» يراد بها ارتقاء المسلمين اليوم وخروجهم من الظلمات إلى النور ومن الغرور المذكور في قوله: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ٢٤] إلى الحقائق ومعرفتها، وهناك بيان أنواع المغرورين في زماننا وبيان الطريق التي يسلكها المسلمون للخروج من هذا الغرور، فاقرأه هناك فإنه شاف واف. هذا ملخص ما هناك مجملاً.

فلننظر هنا في الطاء والسين، فهل فيهما معاني كالتي هناك، أقول: نعم فيهما وفيهما، هاهنا حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في المسائل الهامة في هذا التفسير. وقال: إن هذا الملخص الذي ذكرت أنه في سورة «آل عمران» لم تأت فيه بتمام الغرض هنا، ولكن الاطلاع عليه في المفصل هناك يكفي اللبيب، إنّما الذي يهمني الآن أن أعرف هل ﴿طسٓ﴾ فيها معان تفيد الأمم الإسلامية كالتي تقدمت في «آل عمران»؟ فأجبته: نعم تضارعها وتشرح الصدور. فقال: وما هي تلك المعاني؟ قلت: انظر وتعجب، إن هذه السورة تشتمل على:

(١) حديث سليمان والطير والنمل، ويدخل في أمر الطير مسألة بلقيس وعرشها. ولا جرم أن ذلك يدعو لأمرين: ارتقاء العلوم، وارتقاء النظام السياسي في الأمم.

(٢) وعلى أن صالحاً اطّير به قومه فوكل الأمر لله فنصره.

(٣) وعلى أن لوطاً نصر إذ آذاه قومه.

(٤) وعلى نتيجة ذلك كله وهو وصف الله بجمال خلقه في قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾[النمل: ٥٩] الخ، ثم الأمر بالسير في الأرض وبقية النصائح.

هذا ملخص السورة، علم الله قبل أن يخلق الخلق وينزل القرآن أن المسلمين سينامون نوماً عميقاً. لماذا؟ لأن العرب لما فتحوا البلاد تفرقوا فيها، ولما تفرقوا نسوا مجد آبائهم لما أسكرتهم خمرة الانتصار، وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم وصاروا مترفين. مع أنهم هم الذين علموا الأمم وهم الذين رقوها، وهم الذين نقلوا عن اليونان، وهم الذين سلموا ذلك العلم إلى أوروبا، فأحاطت بهم الأمم من كل جانب وهم نائمون، فقال الله لهم: ﴿طسٓ﴾، وهذان الحرفان أشبه بطلسم مكنون يقرؤه الناس جيلاً بعد جيل وزمناً بعد زمن، وسلمه الآباء للأبناء، وهذا زمان المعرفة والعلوم، هذا زمان استيقاظ المسلمين من العرب، ومن تلك الأمم التي أيقظها العرب الفاتحون، ولما نام العرب ناموا أجمعين ثم رجعت أكثر الأمم التي ليست بعربية إلى أنفسها فعقلت واستردت بعض مجدها.

ولكن ﴿طسٓ﴾ يراد منها أن توقظ أمم العرب وغير العرب بإدراك بعض سرها في هذا التفسير، فقال صاحبي: فبين لنا ما هذا السر الذي قدمت له هذه المقدمات؟. فقلت: انظر إلى «الطاء» ألست تراه في لفظ «الطير» ولفظ «أحطت» و«تحط»، فهي أول كلمة «طير» وآخر كلمة «أحاط» و«تحيط»؟. قال: بلى. قلت: انظر إلى «السين» ألست تراه في أول لفظ «سليمان»؟. قال: بلى. قلت: هذا هو مفتاح العلم في هذه السورة، فـ«الطاء» و«السين» هما مفتاح الرقي للأمم الإسلامية، وكان «الطاء» قفل وكان «السين» مفتاح كالمفاتيح المعتادة في بلادنا. قال: نعم. قلت: فإذا اجتمع القفل مع المفتاح وأدخل فيه فتح الباب. هكذا هنا اجتمعت «السين» مع «الطاء» ففتحت خزائن العلم. فقال صاحبي: أريد أن أرى هذه الخزائن. فقلت: هاهنا للعلم خزانتان: خزانة العلم، وخزانة السياسة.

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم. اللهم لا معلم إلا أنت. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. اللهم إن القلوب بيديك والفتوح منك فلا حول لنا ولا قوة إلا بك أنت. أنت الذي ألهمتني هذه المعاني فلأقلها للمسلمين.

اللهم إن سليمان نبيك كلم الطير ولم يكن ذكر ذلك في كتابك لمجرد حكاية تحكيها عن سليمان لنفرح بها ونحن جاهلون، أو لنتباهى بغيرنا ونحن مجردون. كلا. إن القرآن ذكر مبارك والذكر يتبعه الفكر كما قلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران: ١٩١]، فهاهنا يفكر المؤمن في أمر سليمان وأمر الطير فيقول: إن الطير يقول لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[النمل: ١٤]، فوالله ما كان علماء الأمم البائدة من قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ولا علماء الأمم الحاضرة من الأمم العربية بأقل علماً من الهدهد الذي يقول لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[النمل: ١٤]، ولا نحن بأغزر علماً من أنبياء الله تعالى، فليس لنا حق أن نتبرأ من علم الأمم أو أن نجهله، بل نضرب في كل علم بسهم، ويكون منا لكل علم قوم نابغون فيه، فلو أن تكبرنا على علم منها لكان سليمان أولى بالكبرياء على الهدهد، فلا نحن أعلم من أنبياء الله ولا علماء الأمم بأضعف من الهدهد. ولقد ذكرت هذا المعنى في سورة «يونس» عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس: ٨٩]، ورسمت لك هناك سورة منطقة فلك البروج المنقولة عن قدماء المصريين المرسومة على صندوق موتاهم، وعجبت كل العجب أن يكون علم الفلك مرسوماً ملخصاً على صناديق أموات قدماء المصريين، ونرى أن جميع الأمم الإسلامية من مصريين وغير ومصريين لم يحط أحياؤهم بهذا العلم، إن الله جعل هؤلاء لنا آية يقول لنا: هؤلاء الأموات رسمت على صناديقهم عجائب سماواتي فكيف كان أحياؤهم إذن، وإذا كان الأموات يشرفون بجمال سماواتي وبهجة علومي فكيف بأحيائهم، وهل يصح منكم ذلك يا معشر المسلمين الذين أرسلت لكم خاتم الأنبياء وجعلتكم رحمة العالمين أن تكونوا أجهل أمة في الأرض ويكون الأموات من الأمم السابقة أحرص على جمال نظامي ونقوشه وبدائع كواكبي من أحيائكم وأنتم مسلمون، ألا ساء مثلاً القوم المغفلون الجاهلون.

أهل مصر كأكثر بلاد الإسلام ليسوا مغرمين بجمال علم النجوم، وقد دفنت تحت أرجلهم أمم كانوا قبلهم، وهذا العلم مرسوم على صناديقهم، وهاأنا ذا أبرزه لهم اليوم وأقول: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٩٢]. هذا هو بعض ما جاء في سورة «يونس» مع بيان أن علماء قدماء المصريين ليسوا أقل من الهدهد بل هم أشرف منه، ولا أمم الإسلام بأرفع مقاماً وعلماً وقدراً من سليمان، فإذا تنزل سليمان إلى سماع الهدهد أفلا يسمع المسلمون كلام العلماء.

فقال صاحبي: هذا حسن وقد تقدم، ولكن هذا كله أشبه بمقدمة ويظهر لي أن هنا ما هو أجمل من هذا وأبين. فقلت: نعم هنا أربعة فصول:

الفصل الأول: في أن الأمراء ورؤساء العشائر يجب عليهم مراعاة صغيرات الأمور ككبيراتها.

الفصل الثاني: في أن الطيور وسائر الحيوان معلمات للإنسان في الحال والاستقبال نماذج تعليمية.

الفصل الثالث: في أن هذه المخلوقات الحيوانية فيها مضار ومنافع لا بد من علمها لرقي الإنسانية.

الفصل الرابع: في أن قصة بلقيس تذكرة للعرب قد دخلت في حديث الهدهد، وفيها تقريع لأبناء العرب عموماً، ولأهل اليمن خصوصاً، إذ هم في بلاد كانت لها مدنية مع وثنيتهم لم يصل لها المسلمون الحاليون مع جلالة قدر دين الإسلام.

## الفصل الأول

## في أن الأمراء ورؤساء العشائر يجب عليهم مراعاة صغيرات الأمور وكبيراتها

اعلم أن الله عز وجل لما أطلعنا على رقه المنشور وكتابه المفتوح وهي الطبيعة التي درسناها ألفيناه لم يفرق في الرحمة والعناية والحفظ بين الكواكب في مداراتها والحشرات في مخابئها، بل وجدناه أعطى النمل من الأعين وعددها ما لم يعطه للجمل والفيل، جعل الله للكواكب مدارات منظمة بحساب متقن، ولكنه لم يذر الذرات والحشرات الصغيرات الضعيفات بلا حساب ولا عناية بل أعطاها كل ما تحتاج إليه. إن الإنسان الذي يوقن بهذا قد دخل أبواب الجنة فعلاً في هذه الدنيا.

هذا هو الذي رأيناه في عمل الله، فانظر إلى عمل نبي من أنبيائه وهو سليمان عليه السلام، فانظر ماذا فعل؟ تراه يعاشر الوزراء ويدبر الملك، ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن النملة في مسكنها والهدهد في الهواء، فهو يكلمهما ويتفقد الطير ويهدد الهدهد ويستمع جوابه ويقبل منه القول الحسن ويعمل بقوله، ويسمع مخاطبة النملة ويتبسم ضاحكاً من قولها. إذن هو كلم الوزراء وأدار الملك وتنزل إلى النمل، فهو إذن في عمله نموذج لفعل ربه.

وبعبارة أخرى يعني أنه يجب علينا نحن المقصودين من هذا القول كله أن نلاحظ ما دقّ كما نلاحظ ما جلّ، ونتفقد كل صغير وكبير في عملنا، كما يتفقد الأب جميع أبنائه، بل يتفقد الصغير أكثر مما يتفقد الكبير، كما فعل الله إذ أعطى النملة من الأعين كما سيأتي في هذه السورة مشروحاً ما لم يعط الجمل والفيل وذوات الأربع عموماً. انتهى الفصل الأول.

## الفصل الثاني: في بيان أن الطيور

## وسائر الحيوان معلمات للإنسان في الماضي والحال والاستقبال

وذلك ظاهر في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[الآية: ٣٨]، فهناك ترى أربعين نوعاً من الصناعات استقلت بها الحيوانات قبل خلق الإنسان فتعلمها الإنسان، كالبناء وصنع الورق والسراديب والغزل والنسج وما أشبه ذلك فراجعه تجده مشروحاً وآخر صناعة نقلها الإنسان من الحيوان مسألة الطيارات التي تطير في الجو ولا ترتفع إلا خمسة أميال فقط، مع أنها تجري مئات الأميال حول الأرض ولكن ارتفاعها محدد، فهذه الصناعة لم يهتد لها الإنسان في زماننا هذا إلا من الطير، كما تقدم في سورة «المائدة» عند ذكر الغراب وأن الله بعثه ليري الإنسان كيف يدفن موتاه، إذن الإنسان تلميذ الحيوان.

واعلم أن علم الحيوان وعلم النبات وعلم المعادن وعلوم الكائنات يجب على الناس أن يقرؤوها قبل قراءة جسم الإنسان وقراءة علم نفسه وعلم سياسته، لأن هذه مخلوقات قبله ومقدمة عليه طبعاً، فوجب تقديمها صنعاً، فإن نظام الله إذا روعي ترتيبه كان أقرب إلى الرقي، كما قال «اسبنسر» في تعليم اللغات: إنه يجب أن يبدأ المدرس بالتكلم ثم يتبعه بالكتابة، لأن الناس هكذا تكلموا ثم كتبوا. فهكذا نقول هنا: هذه العوالم خلقت قبل أن يخلق الإنسان، فلتدرس قبل أن يدرس الإنسان نفسه ويدرس عقله، لأن الحيوان أقل تركيباً من الإنسان، فهو كجزئه، والجزء يدرس قبل دراسة الجميع، ولهذا عنيت الأمم بقراءة تلك العلوم عناية تامة.

هذا من معاني قول الطير لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[النمل: ١٤]. فكل طير وكل حيوان مخلوقات قبل الإنسان فعلها إسعاد له، وكل علم عرفناه عن الحيوان علم بناحية من نواحي الإنسانية العامة. انتهى الفصل الثاني.

## الفصل الثالث: في أن هذه المخلوقات الحيوانية فيها مضار ومنافع لا بد من علمها لرقي الأمم

لقد تقدم في أول سورة «الفرقان» كلام عام عند قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، ومما ذكر هناك السمك الكهربائي في البحر، والحيوان الصدفي الذي يدير سفينته فوق سطح البحر، والعنكبوت التي تتخذ لها سفناً فوق سطح البحر بشبكتها، وطيارات في الجو جوالات بها تصطاد الحشرات وتسير في الجو، وأن هذه الحشرات وأمثالها جعلها الله أمثالاً لنا، ولذلك قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٣٩]، وقال في آية أخرى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٣٣]، فهذه جعلها الله آيات مفصلات، فالقمل آيات مفصلات والدم آيات مفصلات والطوفان آيات مفصلات، وقد مر إيضاح أكثرها ومعرفتها هناك.

يعجب المسلم أن الضفدع والدم آيتان، وإذا جعل الله الشمس والقمر آيتين فكيف يجعل القمل مثلاً والدم آيتين. إذن الشمس والقمر كأقل الحشرات كلاهما من آيات الله.

الله أكبر، جلّ الله وجلّ العلم. هذه من آيات الله فهي منذرات. إنك ترى في سورة «الفرقان» أن البراغيث اللاتي هن أخوات النمل رسل وسفراء بين الفيران وبين الإنسان، فإذا حل الطاعون بساحة الفيران وساء صباحها وماتت جموعها؛ حملت البراغيث هذا الداء من تلك الأجسام المطعونة إلى أجسام الإنسان فوضعت فيها جراثيم الطاعون، ثم ينتقل من زيد إلى عمرو ويسري في الناس سريان البرق في الظلماء. وقد تقدم هذا وكيفية الاحتراس منه فلا نعيده، ولسنا نحن هنا في مقام المداواة من الأمراض، ولكن نحن في مقام العلم والحكمة العامين، فشرح الأمثال الجزئية تذكرة وتبياناً للقواعد الكلية، إذن لا بد من دراستها فهي آيات مفصلات فصلها الله بعمله قبل أن يخلق الإنسان ويخلق أنبياءه ويوحي إليهم، فيدل بني آدم بالوحي للأنبياء على ما كتبه في هذا اللوح المنشور، فيسمع الناس القول فيتبعونه بالعمل.

هذا هو السر في أن الأمم حولنا يدرسون كل حشرة وكل طير ليحترسوا من الهلاك ويجتنوا الثمرات، إن الإنسان لا يخطر بباله يوماً ما أن البرغوث مهلك بالطاعون للإنسان، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك، كما أن هناك جراثيم حية لا حد لعددها تمرض الإنسان بأنواع الأمراض المختلفات، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦] وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم بالجهل بمصنوعاتنا، وكلما كانوا أكثر جهلاً كنا أكثر إهلاكاً لهم لأنهم لو درسوا ما حولهم لأجل حفظ أجسامهم ورقي مدنهم لانتهوا إلى إدراك جمالنا وقدرتنا وحكمتنا، فإذا أمرنا الناس بالنظر في مصنوعاتنا لتوحيدنا وشكرنا فمعناه أنهم لا يصلون للحقائق المعرفة بنا إلا بعد أن يكونوا قد أتموا دروس علم الحياة التي تنفعهم في دنياهم، فالمنافع الدنيوية أشبه بجسر يمرون عليه لمعرفة جمالنا، وإنّما فعلنا هذا النظام لنميز الخبيث من

الطيب، والذكي من البليد، لأننا إذا تركنا الإنسان ولم نوقظه أهلكته البطنة وسوء الملكة فيكون من المترفين، والمترفون مذمومون إذ جاء في التنزيل: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[الواقعة: ٤٥] فجعل الترف هو السبب في عذابهم في جهنم، فمن رحمتنا أنا جعلنا ماله وولده والحشرات المحيطة به عذاباً له ليعمل وليحترس من الهلاك، ويجد ويجتهد فلا يحقر البرغوث والقمل، ويقول ما ضررهما فنقول له: ** أطرق كرا إن النعامة في القرى **

ادرس البرغوث وادرس القمل وادرس الطير وإلا أذقناك أيها الإنسان العذاب وسلطنا عليك جنودنا فأهلكناك، ولو أننا أنمنا هذا الإنسان لهلك. ألم تر إلى أمة اليابان، تلك الأمة الشرقية أنها سبقت الشرق كله إلى الرقي. لماذا؟ لأن بلادها خلقت معرضة للبراكين، فهي أبداً على حذر وخوف، لذلك ارتقت قبل أهل مصر الذين اشتركوا معهم في اقتباس المدنية، فسبق الأولون الآخرين واحترمتهم الأمم، وإنّما تأخر المصريون أهل بلادي لأنهم آمنون، عندهم ما يكفيهم من القوت والملابس، ولا زلزال ولا براكين عندهم فاكتفوا بما عندهم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[هود: ٨].

فالله لم يرسل المنذرات من الحشرات والجنود المجندات على هذا الإنسان إلا لإيقاظه وارتقائه، وهذا الإنذار لا يعرف إلا بالعلم، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٣٩]، فالعلماء بهذه الحشرات والحيوانات هم الذين بهم ندرك لماذا خلقت؟ وبماذا نحترس منها؟مع أن أكثر المسلمين حين يسمعون الله يذكر الهدهد ويذكر النمل ويذكر العنكبوت يقولون في أنفسهم: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[البقرة: ٢٥]، وهذا هو العجب أن يكون أسهل الأشياء عند الجهال أصعبها وأعظمها عند العقلاء. قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

هذا هو بعض سر «الطاء» و«السين» في أول هذه السورة، فـ«السين» من «سليمان» و«الطاء» من «الطير» ومن «أحطت» ومن «تحط» يشيران إلى ما ذكرناه من هذه المعاني، وكأنّما «السين» كما قدمنا قريباً مفتاح، و«الطاء» قفل بحسب شكلهما واجتماعهما، وقد أفاد أن سليمان الذي أول حروفه «السين» يشير للعلم، لأن الله يقول في هذه السورة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾[النمل: ١٥]، فالعلم المشار إليه بسليمان هو المفتاح الذي يفتح به قفل الطلاسم في الطير المشار إليه بـ«الطاء»، فكأن الطير طلسم وهكذا كل الحيوانات، والعلم حل له ويرمز له بسليمان، أو قفل ومفتاح بحسب ظاهر الشكل، فالحمد لله على العلم والحمد لله على الإلهام والإنعام. انتهى الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين.

## الفصل الرابع: في أن قصة بلقيس تذكرة للعرب قد دخلت في حديث الهدهد وفيها تقريع لأبناء العرب عموماً ولأهل اليمن خصوصاً إذ هم قد ورثوا بلاداً كانت لها مدنية في وثنيتهم لم يصل لها المسلمون الحاليون مع جلالة قدر دين الإسلام

اعلم أني أكتب هذا الآن وأنا من أبناء العرب، وأحس بأننا قد وصل ديننا أطراف الأرض بجد آبائنا وسعيهم، فتفرقنا ونسينا كل علم وكل حكمة إلا قليلاً.

فذكرنا الله برجل أعرابي يسمى ذا القرنين إذ بلغ مشرق الشمس ومغربها، وقد تقدم في سورة «الكهف»، وهكذا هنا هذه ملكة في اليمن تعبد الشمس وعندها الشورى، فحكومتها حكومة ملكية مقيدة أشبه بمملكة الإنجليز الآن من حيث نظام الملك، فجاء في هذه القصة هنا أن لها عرشاً وأن لها ملكاً ضخماً وأن لها مجالس للشورى وتدبيراً للملك، فهل يسمع هذا أبناء العرب في اليمن فيتحدون مع الأمراء والملوك ويرجعوا للأمة مجدها وعزها وعظمتها، ويتفكرون فيما لليمن من مجد تالد وعز قديم، وكيف كان الماء النازل من السماء لا يترك سدى، بل كان له سدود تحفظه وتحبسه بعلم الهندسة والحساب ونظام الدولة الجميل إذ القوم كان عندهم علم وحكمة فعمروا بلاد الله فعاش بها عباد الله.

فلما غفلوا أرسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم الجميلتين المغدقتين عليهم النعم بجنتين لا منفعة فيهما وليس فيهما إلا الثمار المرة والعبل وقليل من النبق، ورجعت البلاد كما كانت جزاء تقاطعهم وتدابرهم.

هذه تذكرة للمسلمين في سورة «سبأ»، وبالأخص تذكرة لأهل اليمن، يقال لهم: يا أهل اليمن ألستم ترون الأمم حولكم أقوى منكم بأساً وترون طيارا تهم تحيط بكم وأسلحتهم وجنودهم المرسلات من أوروبا لبلادكم. إن هذا لتقصيركم وقصوركم لأنكم أعرضتم عن الحكمة والعلم، فاقرؤوا كل علم وكل فن يا أبناء العرب عموماً ويا أهل اليمن خصوصاً، فالمجد الذي ضاع من أبناء العرب عموماً لغفلتهم عن معرفتهم جميع العلوم وهكذا أهل اليمن، والحمد لله رب العالمين. انتهى صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨.

## سر من أسرار النبوة المحمدية قد ظهر في الطاء والسين

اللهم لك الحمد، أنت المنعم الملهم المعلم، سبحانك اللهم وبحمدك، أنت أرسلت محمداً صلى الله عليه وسلم وجعلته آخر الأنبياء وأنزلت عليه هذه السورة. ومن عجب أن النمل له شبه بالإنسان في حربه وأسراره ومنازله كما ستراه موضحاً فيما يأتي. سيأتي قريباً أن سليمان تبسم ضاحكاً من النملة لما سمعها تنذر قومها، وهذا دلالة على أن للنمل جماعات منتظمات، وهذا ستراه مفصلاً كما قلنا، وبعد ذلك تفقد سليمان الطير ومنه الهدهد، وبالهدهد عرف أمة سبأ وقد جاء فيها أن ملوك الأرض ظالمون، وأعقب ذلك قصة أخرى تفيد أن بيوت الظالمين مخربة وهذا من أسرار النبوة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم أنذر المسلمين وحذرهم من غوائل فتح البلدان في حديث البخاري إذ قال لهم: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم» الخ، وهذا الحديث تراه موضحاً في أول سورة «الأنفال»، إذن فتوح البلدان يستوجب نوم الأمم الفاتحة إذ يعيشون بكسب غيرهم وهذا هو الظلم، ومتى ظلموا انحطت مداركهم فخربت بيوتهم.

ذلك هو ملخص ما يأتي، ظلم فخراب هذه حال الإنسان. وذلك كله جاء بعد ما تفقد سليمان الطير، فتفقده للطير أوصله إلى سبأ وفيها جاء ذكر ظلم الملوك فتخوى بيوتهم بما ظلموا، والتفقد المذكور من سليمان للطير وفيهما «السين» و«الطاء»، وهما الحرفان الأولان من الاسمين اللذين جاء بينهما التفقد المنتج لما ذكر كما سيأتي إيضاحه في أثناء تفسير هذه السورة في إيضاح بعض أسرار هذين الحرفين.

فانظر لحال النمل، فقد جاء بالأخبار العلمية اليوم أن الأمم النملية التي تعيش من كسب الأسرى يعتريها الانحطاط والانقراض. وإليك ما جاء في مجلة «الجديد» بهذا النص:

## أكبر الجماعات في الكائنات الحية

يقرر علماء التاريخ الطبيعي أن أكبر الجماعات في الكائنات الحية لا توجد إلا في النمل والجنس البشري، ويعتبر علماء الاجتماع أن أكبر الجماعات البشرية ثلاث: الإمبراطورية البريطانية يبلغ عددها ٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، والصين وسكانها ٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، والهند وبها ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة. ويقدر علماء التاريخ الطبيعي أكبر جماعات النمل بنحو ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نملة في الجماعات الواحدة، وذلك لأن النملة حيوان اجتماعي، فتوجد بين النمل النظم الاجتماعية التي لا توجد عند الإنسان بشكل يتفق مع تكوين هذه الكائنات الصغيرة، فهنالك الجنود والعمال من جميع الأنواع والأرقاء والأسرى.

والعجيب أن الرق في أمة النمل مثله بين الجنس البشري يؤدي إلى انحلال السادة وتدهورهم، لأنهم يكفون عن العمل ويدعون أرقاءهم يقومون لهم بكل شيء فتنحط قواهم ومداركهم. اهـ.

والأمم لما ظلمت انحلت قواها فخربت بيوتها، فتشابه النمل والإنسان في الظلم والخراب، وهذا من عجائب القرآن وبدائعه، فيجب أن يكون الناس أرقى من النمل، وأن يكونوا أمة واحدة، أي: متضامنين، وكل له عمل ومن لا عمل له يعاقب.

أقول: إذن ثبت هنا أن الإنسان العظيم القدر الكبير العقل لم ينل مدنية أعلى من مدنية النمل، فجماعات الإنسانية حتى المزيفة منها بالاستعمار لم تزد على جماعات النمل، وأيضاً إذا حكمت أمة من الناس أمة أخرى استعملتها خادمة لها وانحطت هي، وهذه نفسها سليقة النمل، وهي سليقة سافلة منحطة. إذن ثبت أن هذه الإنسانية التي نعيش فيها إنسانية حقيرة يزدريها العقلاء من نوع الإنسان.

أيها الناس، أيها العقلاء، أيها الشرقيون، أيها الغربيون، أيها الأمريكيون، أهذه إنسانيتكم أهذه هي الإنسانية؟ إنسانية والله دنيئة وحقيرة، ولكن لا لوم إلا على ذوي العقول الكبيرة فيكم، أكبر جماعة فيكم لم تزد على جماعة النمل، مع أن النمل ليست عندها طيارات ولا بريد ولا تلغراف ولا مخاطبة بالتلفون، وأنتم يا أهل الأرض بينكم تواصل ويعرف الشرقي منكم الغربي، وكل منكم محتاج إلى الآخر، فإذا بقيتم على سياسة النمل فأنتم قوم أضل من الأنعام، ثم لماذا تتكلمون على الأمم المحكومة إذا حكمتم الناس، فأنتم بهذا تنيمون أبناءكم على بساط الراحة فيذلون بالكسل والبطالة، وتميتون الأمم المحكومة بإذلالها، صدق الله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧].

إذن هذه السورة يستفاد منها أمران: ثانيهما مرتب على أولهما. أولاً: اقتران سياسة الإنسان بسياسة النمل لأنهما ذكرا متعاقبين، ثانياً: بالبحث في هذا نجد الإنسان أرقى من النمل عقلاً، ولم يزد عنه عملاً، بل صار فتوح البلدان إخماداً لعقله ولجسمه، كما في حديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم» الخ.

إذن هذه السورة يؤخذ من فحواها استنتاجاً أن الإنسان عليه أن يكون أرقى من حاله الحاضرة، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون الأمم كلها متحدة يخدم بعضها بعضاً، وأن لا تظلم أمة أخرى، فلا يفسد

الملوك القرى إذا دخلوها حتى لا تخرب بيوتهم، ولا يتم ذلك كله إلا بنظام عام، فجميع الأرض تعمر وجميع الأمم تتعلم.

ونتيجة ذلك كله أن محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين لا لبعضهم، فعلى المسلمين أن يسمعوا ما أقول فيتعلموا كل علم، ويدرسوا تواريخ الأمم وعلومها، ثم هم الذين يكونون واسطة عقد نظام المجتمع الإنساني كله شرقاً وغرباً، ومستحيل أن يكونوا واسطة لذلك إلا إذا كانوا أقوياء وعلماء في كل فن، ويعمرون أرض الله، ثم ليجدوا في رفع الإنسانية من هذه الحماقة، ليكون الناس جميعاً متعاونين في الشرق والغرب.

هذا معنى وسر كونه صلى الله عليه وسلم: رحمة للعالمين. فـ« طاء » طمأنينة العالم، و« سين » سلامه، تتوقفان على تفقد المسلمين الأمم أمة أمة، كما تفقد سليمان الطير، وتفقده له بين « الطاء » و« السين » وينتج « الطاء » و« السين ». ومن عجب أن سليمان فيه معنى السلام، وأن الطيران الحديث ربما يعقبه تواصل الأمم فتكون الطمأنينة. ففي « الطاء » و« السين » السر العجيب. انتهى يوم الأربعاء ٢٤ إبريل سنة ١٩٢٩م، وبهذا تم الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

## القسم الثاني

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ
شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ
فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ
كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى

مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾
قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ
إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ
ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ
مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ
مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ
قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾ علم القضاء والسياسة. وعلم داود تسبيح الطير والجبال، وعلم سليمان منطق الطير والدواب، ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا ﴾ بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والمراد بالكثير من لم يؤت علماً أو أوتي علماً ليس كعلمهما ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً وزيد لسليمان على داود تسخير الريح والجن والشياطين ﴿ وَقَالَ ﴾ سليمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ فإنا نفهم بقوتنا القدسية الإلهية اختلاف الأصوات لاختلاف الأغراض التي جعلت لها. ولا جرم أن لكل طائر تنوعات في صوته لتدل على ما قام بخياله من حزن أو فرح أو جزع، وهي تنوعات معدودات لأغراض محدودات. ولقد عرف العلماء اليوم كثيراً من لغات الطيور أي تنوع أصواتها لأغراضها المختلفات، وفي هذا معجزة لهذا القرآن لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، فتعجب من كلام الله كيف ظهر اليوم أن الأمم تبحث في لغات الطيور والحيوانات والحشرات كالنمل والنحل، وتنوع الأصوات لتنوع الأغراض فالله أخبر بالغيب، يقول: إنكم لا تعرفون لغات الطيور الآن وعلمتها لسليمان، ولكن

سيأتي يوم ينتشر فيه علم مخلوقاتي، ويطلع الناس على عجائب خلقي، ولعمري إن هذا لمعجزة لهذا القرآن، وستأتي معجزة ثانية وهي انتقال عرش بلقيس، وهذا أمر مستغرب في كل زمان ولكن القرآن جاء فيه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣].

وسترى في علم تحضير الأرواح مما أنقله لك هناك كيف تعمل الأرواح اليوم وتنقل الأشياء من أماكنها، كأن الله يقول لنا: إن انتقال عرش بلقيس معجزة ليست بصناعة علم الأرواح، وسأريكم هذه الآية بعلم الأرواح لا بالمعجزة، لأنكم لستم أنبياء، وسيأتي معجزة ثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[النمل: ٨٢]، وسأذكر لك فيها مبحث علم الأرواح وما ذكرته هناك من أن هذا رمز لما ظهر من عجائب هذا العالم، وأن الناس بهذا العلم أيقنوا بالله، وسأذكر لك معجزة رابعة وهي قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٧٧]، وتطلع هناك على ملخص من علم الفلك قديماً وحديثاً من دوران الأرض وثبوتها، وعلى محادثة جرت بيني وبين سيدة من علماء أوروبا في هذا المقام، إن هذه أيضاً سر قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣] في علم الحيوان وعلم الفلك وعلم الأرواح في هذه السورة نفسها. إن هذا زمن ظهور أسرار القرآن، وعار على المسلمين أن يتركوا نعمة ربهم، فإذا قال سليمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[النمل: ١٦]؛ فالله يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣] بالتعليم لا بالقوة القدسية كالأنبياء، فإن ذلك لهم معجزة، وأنتم مأمورون أن تعرفوا آيات الله على مقدار طاقتكم.

ثم قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، والمقصد من ذلك كثرة ما أوتي، كقولك: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء، وإنما خص منطق الطير بالذكر للتنويه بشأن العلم، وحثاً لأمة الإسلام على دراسة هذه العلوم. ومما ورد في ذلك أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال: يقول: «إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء»، وصاحت فاختة فقال: إنها تقول: «ليت الخلق لم يخلقوا»، فالبلبل صاح عن شبع وفراغ بال، والفاختة صاحت عن مقاساة الألم. والضمير له ولأبيه أو له وحده على قواعد السياسة، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا يخفى على أحد، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ﴾ وجمع له ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبسون يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي: أشرفوا على وادي النمل وهو واد بالشام يكثر فيه النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ أجراهم مجرى العقلاء بعد الخطاب، لأن القول إنما يقال للعاقل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسرنكم، والحطم: الكسر، ﴿سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إنكم لو لم تدخلوا وظهرتم لحطموكم ولم يشعروا بكم فسمع قولها، ولما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرها، والهداية التي غرسها الله فيها، وسروراً بما خصه الله به من فهم مقاصدها وإشعارها لقارئ القرآن أن يفرح وينشرح صدره بالعلم والحكمة لا سيما عجائب النمل وغرائب الحكمة التي أودعها الله فيه، فلئن فرح سليمان عليه السلام بما أعطاه الله من العلم القدسي الرباني، فأنت أيها الذكي تلميذه وتلميذ

الأنبياء، وقد أمر نبينا ونحن نتبع له أن نقتدي بهداهم، فلنقتد بهدي سليمان، إن سليمان أعطاه الله علم منطق الطير وعلمه عجائب النمل فعرف عجائب غرائزها وطبائعها وتبسم لما خالج قلبه من الحكمة البديعة والإلهام العجيب، وكيف كانت مع صغرها ملهمة من الله عارفة مصادرها ومواردها، فإذا كان هذا هو هدي الأنبياء فلنقتف آثارهم ولنذكر في هذه السورة عجائب النمل التي دهش العالم كله منها والمسلم هو النائم، يقول الله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ وهذه آية من آياته أعطاها الله لسليمان معجزة، وسمع كلام النملة وحذرها وأوامرها وذكاءها، وقد وعد الله بأن هذه الآية سنعرفها لا أنه يوحي بها لنا، فسليمان علم منطق الطير ولم يقل تعلمنا، وأما نحن فإن الله قال: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ فذكر أنه يرينا علمنا، ونحن ندرس، فالله تعالى أخبر أنه سيرينا هذه الآيات التي هي بعض ما علمه لسليمان بطريق الوحي، ولكن لا تظن أن علمها كعلمه، فعلمه معجزة ربانية ويدرك من عجائب النمل ما لا ندرك، وفرق بين من علمه الله ومن أمره الله أن يتعلم بالاجتهاد. وسأسمعك عجائب النمل ليكون ذلك معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم، لأن الله أرى الناس وعرف الناس، فوالله بهذا وبأمثاله يرتقي المسلمون، وبهذه العلوم يخرج جيل في الإسلام يحدث في الأرض هزة وقوة عظيمة تنفع أهل الأرض أجمعين، إن أوروبا تعلمت هذه العلوم ولكنها لا تزال ظالمة، والمسلمون سيتعلمونها ويملؤون الأرض رحمة وعدلاً.

فبهذا العلم فلينشرح صدرك كما تبسم سليمان من قول النملة ضاحكاً ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، فاعجب لهذا النظم المدهش. انظر كيف رتب سليمان هذا كله على نعمة العلم بقول النملة، انظر كيف فرح سليمان وتبسم فرحاً بنعمة العلم والحكمة، كأنه يقول: العلم غاية مطلبي وقد حصلت عليه ولم يبق بعده إلا أن أطلب الشكر على نعمة العلم بالعمل الصالح الذي ترضاه وليس بعد العلم والعمل إلى أن أدخل في ضمن عبادك الصالحين من آبائي الأنبياء وغيرهم.

ليعلم المسلمون أن علم هذه الحيوانات من طير وحشرات وسائر الحيوان والنبات نعم عقلية ونعم مادية، ومتى عرفها الإنسان وجب عليه أن يقوم بشكر النعمة ونفع سائر أبناء نوعه حتى يحشر مع الصالحين في الجنة، فلئن قرأ هذه الآيات المتأخرون من أسلافنا وهم عنها غافلون، فيا أيها المسلمون إن الله يأمركم أن تقرؤوا القرآن على هذا النمط الذي تقوله، واعلموا أن هذا زمان ارتقاء الإسلام وعلو شأنه، وسيكون لهذه الآراء فوز في مشارق الأرض ومغاربها، بل سيقرأ هذا التفسير العقلاء والأذكياء من الشبان، وسيكون هناك دول عظيمة حكيمة أرقى من دول أهل الأرض كلهم بهذه العلوم ويكونون رحمة للأمم لا عذاباً على الناس، ولما دعا سليمان ربه أن يلهمه شكر النعمة وأن يوفقه للعمل الصالح؛ ناسب أن يؤتي بعدها بشيء من أعمالها الصالحة، وذلك أن من أعطاه الله العلم والقدرة وسكت ولم يعمل شيئاً معاقب لتقصيره، ولا جرم أن الإنسان الموفق يجب عليه رقي النوع الإنساني وحفظ الثغور والعطف على الحيوان، فوالله لا دولة ولا ملك إلا بحفظ الإنسان، ولا حفظ

للإنسان إلا بحفظ الحيوان، ولا حفظ للحيوان إلا بحفظ النبات، فلذلك أتى بمسألة واحدة من أعماله الشريفة وهي تفقده للطير، ومعلوم أنه لا يتفقد الطير إلا إذا كان متفقداً للإنسان الذي هو أرقى منه دلالة على أن الإنسان يجب عليه أن يتفقد ما يملكه وما في حوزته، فلذلك أعقبه بما سيأتي من قصص الهدهد وحديث بلقيس. وهاهنا لطائف في النمل:

## اللطيفة الأولى

أذكر فيها ما جاء في كتاب جمال العالم الذي نوهت عنه في هذا التفسير تحت العنوان الآتي:

## عجائب النمل

حال النمل عجيب جداً فإنها تفعل فعل الملوك وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام، فهذا النمل كيف يتخذ القرى تحت الأرض ولبيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات منعطفات، وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء، وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضاً مصوباً تجري إليه المياه، وبعضها يكون حولها مرتفعاً لئلا يجري إليه ماء المطر. ومن العجيب أنها تخفي القوت في بيوت منعطفات من مساكنها إلى فوق حذراً عليه من ماء المطر. وإني لأظن أن ما يفعله قدماء المصريين في مساكنهم من المنعطفات والدهاليز والأروقة إنّما كان تقليداً للنمل وما أشبهه من الجرذان.

ولكثرة عجائب النمل وغرائبه ورد قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[النمل: ١٨]، فانظر كيف نسب لها العقل والفهم، ونداء أخواتها وأمرها لهم بالفرار من الشر ودخولها المساكن لتأويها من أن يحطمنها سليمان وجنوده بلا شعور الحاطمين، وفي هذه الآية تنبيه على جميع غرائب النمل ليوقظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظام والسياسة، وما أوتيت من حسن الهندسة في مساكنها ودهاليزها، فأما مساكنها فهاأنت ذا رأيت نظامها فيما قدمناه، وأما نداؤها لمن تحت إمرتها وجمعها لهم فإنّما يشير إلى كيفية سياستها واجتماعها وحكمتها في تصريف الأمور، فمن ذلك أن الواحدة منها إذا أرادت شيئاً عظيماً لا تقوى على حمله أخذت منه قدراً يسيراً وكرت راجعة إلى أخواتها، وكلما رأت واحدة منهن أعطتها شيئاً مما معها لتدلها على ذلك، ثم تمر كل واحدة من أولئك اللاتي لاقينها في الطريق التي جاءت منها تلك المبشرة، فانظر كيف يجتمع على ذلك الشيء جماعات منها، وكيف يحملونه ويجرونه بجهد وعناء في المعاونة، فهذه المعاونة في المطلوب وهناك فهو أهم منها في المرغوب عنه كالمعاونة في الاتحاد وفي الفرار فهو أهم من الطلب إذ التخلية أفضل من التحلية، وإنّما ذكرنا ذلك ليفتح للعقول مجال البحث ولينبه النفوس من رقدتها.

## قياس نظام الأمة على نظام النمل

لم يكن القصد من تلك القصة أن تكون رواية أو حكاية أو حديثاً، وإنّما هي أمثال تضرب لقوم يعقلون فيفهمون حال هذه الكائنات، وأن النمل كيف اجتمعت على الفرار كما تجتمع على طلب النافع، وأن الأمة إذا لم تصل في حكمتها إلى الحيوان الأعجم فإنها ضالة حمقاء تائهة في الضلال والوبال رجعت عن الإنسانية والحيوانية وانتهت إلى أفق الديدان والحشرات، ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[النور: ٣٢].

## دقة النمل في عمله وحرصه

ومن حكمة النمل أن الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء أيام المطر تنشرها أيام الصحو وكيف كان القمح لا ينبت إذا قطع حبه نصفين وكذا الشعير والباقلا والعدس إذا قشرت والكزبرة إذا قطعت أربع قطع، فإذا قطعت قطعتين نبتت بخلاف القمح، فتأمل كيف عرف النمل جميع هذه الحكمة مع دقتها، فإنه يقطع حبة القمح نصفين ويقشر الباقلا والقدس والشعير ويقطع حبة الكزبرة أربع قطع، ثم إنها تعلم أن أيام الصيف تنقضي فتغتنم مساعدة الوقت فتعمل ليلاً ونهاراً باتخاذ البيوت وجمع الذخائر، ثم تأمل كيف تنصرف في طلب قوتها يوماً شمال القرية ويوماً يمينها ثم تراها كأنها قوافل ذاهبة جائية غادية رائحة.

## موازنة بين شرائع النمل والأمم المتمدينة

وإذا اجتمعت على شيء ورأت أن واحدة تكاسلت عن المساعدة أو راوغت اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها، كما في شرائع المصريين القدماء، وتقرب منها شرائع الإنجليز على ما سمعنا أنهم يتركون الجائع القادر على الكسب حتى يموت، ومن يساعده يعاقب، كما أخبرني بذلك ثقة.

## حكاية عن النمل

لقد رأى رجل في زماننا هذا أن النمل يتكاثر على شجرة في حقوله، فعمد إليها وحفر حولها وملأ الحفرة ماء، وظن أنه نجا منها، وبات ليلاً خالي البال منشرح الصدر مطمئناً على شجرته، وما كان يتخيل أن للنملة حيلة فوق حيلته، وأن هذه الحيوانات أمم أمثالنا، فأصبح فرأى الورق مغطى بالنمل فعض على يديه ندامة وحسرة، ونظر إلى الحفرة فوجدها كما هي مملوءة بالماء، وبينما هو يتفقد السبب إذ رأى أوراقاً متراصة على سطح البركة من شاطئها إلى جذع الشجرة والنمل يمر عليها كأنها قنطرة إلى حيث تطلع على تلك الشجرة.

كنا كتبنا هذا الذي تقدم في النمل، ثم عثرنا في الكتب الحديثة الإفرنجية على ما يأتي وترجمناه مع التلخيص في القالب العربي المبين ونهجنا نهجنا في الاستنتاج والاستدلال.

أيها الذكي، لعلك إذا شاهدت الحقول والمزارع ونظرت ما فيها من الحشرات المختلفة الألوان والأشكال والمقادير والغرائز والصفات أعجبك اختلاف مناظرها وأدهشك حسن مناهجها، منظر لا يعبأ به الجاهلون الذين ينظرون ما في السماوات والأرض وهم عن آياتها معرضون، تلك الحشرات والهوام يزيد عدد أصنافها عن عشرات الألوف كما حققه فطاحل العلماء، وأهم تلك الحشرات النمل إذ في دراستها تبصرة للإنسان وتذكرة وبهجة لعقله وأنس لنفسه، كيف لا وأنت إذا شاهدت جسمها رأيته مكوناً من رأس حوت الدماغ الذي يسع تلك السياسات والعلوم والمعارف التي سنشرحها، ووسط كصندوق فيه الرئة، وذنب أسطواني وله ستة أرجل كباقي الحشرات، بها يقدر على الجري السريع والعدو في طلب المعيشة، وجناحين بهما يمكنه الوثوب من مكان إلى آخر، وخمسة أعين عينان مركبتان على جانبي الرأس مكونتان من أعين بسيطة ملتئمة الوضع والتركيب والترتيب بحيث ترى كأنها عين واحدة تعد بالمئات، والثلاثة الباقية موضوعة على هيئة مثلث يعلو على هاتين، وهذه الأخيرات أعين بسيطات لا تركيب فيها.

فتأمل بعقلك واحكم بعدلك وتعجب من حكم لا يكاد العقل يصدقها لولا اجتماع آراء العلماء في العصر الحاضر عليها، ويا ليت شعري كيف تكون العين المركبة مع عدم تمكين البصر من إدراكها لشدة صغرها حاوية لمائتي عين مثلاً، وكل منها لها قرنية وقزحية وزجاجية وعدسية محدبة الوجهين وقوام هلامي في الوسط وأربطة وأعصاب حساسة واصلة إلى المخ، حتى ترسم المرئيات في الدماغ عند المدير الحاكم فيه. لعمري إن هذه العجائب تخر لها أعناق فحول العلماء سجداً ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] نار الجهل في الدنيا والتقهقر في المدينة ونار الآخرة التي تطلع على الأفئدة، من ذا الذي يقف في دياجي الظلمات ويسمع اختلاف أصوات الحشرات ونغماتها المزدوجة، فيفكر أن من بينها ما حوت هذا الجمال البديع والعيون الظريفة التي تمثل شكل النجوم المشرقات في دياجي الظلمات، ولكن عيون النمل أبدع في الإتقان وأتقن في الصنع من كواكب السماوات، إذ تلك العيون المرصعة في رؤوس النمل دبرت تدبيراً خفي إلا على ذوي الفطنة وبها اهتدى أحقر شيء فيما نرى وأصغره ودقة الصنع وإتقانه تعظم قيم الأشياء عند العقلاء فلا دخل لعظم الجثة وكبر الحجم، ولها قرنان طويلان كالشعرتين دقيقتان بهما تحس الأشياء وتقوم مقام اليدين والرجلين والأصابع في الحمل والحط والترحال يسميان الحاستين، هذا تركيب جسم النمل وهذا وصفه.

## في مساكنه

لعلك أيها الذكي إذا سمعت ما تلوناه عليك وحدقت نظر بصيرتك وتأملت بفراستك تعلم أن هذا الإحكام لم يكن إلا لغاية، وهذا الصنع لثمرة وأعمال وسياسات، وإلا فبالله ما هذه الأعين الكثيرة وما هذه الأرجل وما تلك الأجنحة، ولم هذان الحساسان، أخلق عبثاً أم تراه مستعداً لأعمال عظيمة تناسبه؟ أجل لا غرو أنك تتربص ثاني الأمرين، وإني أرى نفسك قد شاقتك إلى معرفة ما ترتب على هذا الصنع من الأعمال الجليلة، وقد استعدت قريحتك لما ألقيه عليك الآن، فأقول: إن هذه الحشرة بمقدار ما أتقن الله من جسمها أتقنت من صنعها، وعلى قدر كمال إحساسها وجماله أدارت سياساتها وملكها وحروبها وزروعها، وهل أتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض وتجعل لها أعمدة وبهوات متسعات «صالات»، في كل بهوة أبواب مفتحات إلى حجر صغيرات تسكن فيها وأخر تخزن فيها الحبوب والغلال، وبينها الطرق والمسالك والشوارع وبحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض، ويجتمع من تلك البيوت وبهواتها وحجراتها وأعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة، والأغرب من هذا أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتمدينة، وتصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية.

ومن العجيب أنها لم تقتصر على فن واحد من العمارات، بل هناك نوع آخر يبني البيوت فوق الأرض من أوراق الأشجار والأغصان وقصور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة، وتبني مساكن فوق الأرض كالتي تحتها، وترى أمام الناظر كأنها آكام ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً، ويكثر هذا تحت شجر الصنوبر، وهناك نوع ثالث ينحت من الأشجار العتيقة بيوتاً كما يتخذ الإنسان من الجبال بيوتاً.

ومن يتأمل صنع قدماء المصريين في السراديب تحت الأرض والمغارات والتجاويف وما بنوا فوقها من الأهرامات والبرابي وما نحتوا من الصخور في جوف الجبال كما يشاهد بين مصر وحلوان وغيرها؛ وجد أن الإنسان في تحسينه مدنيته يصل إلى درجة الحيوان في صناعته، فإن هذه الأنواع الثلاثة هي التي هدي إليها النمل بفطرته بلا تعليم ومدرسة، وسترى صور بعض هذه البيوت قريباً.

## أحواله المعيشية وزراعاته وتربيته ماشيته وحربه وأسره

وهذه البيوت المنتظمة تستلزم عادة أعمالاً خارجية تناسبها وتناسب استعداد هذه الحشرة، وكما اختلفت أنواعها في بناء مساكنها اختلفت في طرق معاشها واكتسابها، فمنها نوع زارع يزرع الأرز في أرض صالحة، ولو تأملته لوجدت حقلاً جميل الشكل حسن الوضع، وفلاحين غادين رائحين لهم طرق زراعية يعجز عنها الإنسان لإحكامها وحسن هندامها، ولقد شاهدت صورة رسمها السياح في الكتب الأجنبية، فوجدت للحقل الواحد أربع طرق زراعية هندسية والأرز متمايل عليها بحيث لا ترى ورقة من تلك الأوراق أصابها أدنى ضرر أو وسخ، وفي وسط الحقل بهو «صالة» متسعة على هيئة شكل بيضاوي مشاكلة للنظام الذي تسير فيه الشمس، وهي الدائرة السنوية البيضاوية، وكهيئة أوراق الأشجار، وهذا النوع كالأمة المصرية أمة زراعية وسترى صورته، ومنه نوع عمد إلى الماشية فتغلب عليها أولاً بالبأس والشجاعة، ثم آنسها، وتسمى باللسان الإفرنجي «أفد» ونسميها نحن «بقر النمل»، وذلك لأن النمل بعد أن يقهرها ويغلبها ويستأنسها ويستحوذ عليها بقوته يأخذها في مرعى خصيب وهو ورق الورد وأغصانه، فيلاحظها وهي تمتص منه حتى تمتلئ، ثم تأتي النملة إلى واحدة من تلك الجاموس وتمتص مادة حلوة يستلذها النمل لأنه يميل للحلوى، حتى إذا امتص ما في واحدة ذهب إلى أخرى وأخرى حتى يمتلئ، ذلك عادة هذا النوع، وقد فعل النمل فعل الإنسان في استئناس الحيوان والانتفاع بألبانه وغيرها، وهنالك نوع ثالث عمد إلى الحرب والقتال وتغلب على حيوانات أخرى فسخرها في أعماله وشغلها في فلاحته وإطعامه وإطعام أولاده؛ فيخرج في الحروب بنظام، ويصدر الأحكام العسكرية الصارمة، وإذا غلب أخذ الأسرى وفعل كالإنسان.

## تربية الصغار

وليس أعجب عند العاقل من تربية النمل لصغاره، فلو نظرت لرأيت الإناث وهي تضع بيضاً أصفر اللون أو أبيضه في محال تقرب من مساكن كباره، قد خصصت له مراضع ومربيات تلاحظهن ليلاً ونهاراً، ولا يزال في الطقس والحرارة المناسبتين له حتى يتم له أسبوعان أو أكثر إلى أربع، ثم نرى كل البيوض قد تفتحت فأخرجت دوداً صغيراً لا جناح له ولا رجل، بيضاوياً شكله محدبات رؤوسه يعتني به المرضعات، وتلاحظه المربيات تحمله من مكان إلى مكان مواظبات على إطعامه ما يناسب حاله من حار تارة وبارد تارة أخرى ومزدوج منها في الدرجة المناسبة حسبما تقتضيه الحال، كل هذا والدود يشره في أكله ويستزيد في طعامه، حتى إذا تم له بضع أسابيع أخذت حالته تتغير وينتقل إلى طور آخر من الحياة هو طور النوم والسكون والاختفاء في شكل كرة من حرير تغزله نفس الدودة على نفسها كدودة الحرير.

فلو رأيت ثم رأيت بعض الدود لم يزل مكتوفاً والبعض أخذ يغزل بفمه كما يغزل دود الحرير والعنكبوت، والبعض قد نسج على نفسه كرته ونام في عالم البرزخ إلى يوم يبعث من مرقده فيخرقها وترى الأمهات إذ ذاك ملاحظات متيقظات فإذا تم النسج ونام الجميع ومضت أيام أخذت تلك العوالم تنهض من قبورها وتقوم من موتها وتنهض من مرقدها وتقطع خيوطها وتقرض حريرها المحيط بها، ولذا خلقت لها الأرجل والأجنحة لتستعد لحياة جديدة هي الحياة النهائية حياة الجهاد والعمل، ولو رأيتها لشاهدت أمهات قد أشرفن على الأبناء وقد ربطت ربطاً محكماً وثيقاً، فأخذت الأمهات يفككن الأربطة من الصغار ويطلعن الأجنحة والأرجل ويخلصن الناشئة النابتة من تلك الرباطات، ويغسلن العيون والوجوه ويمسحن التراب ويزلن الأوساخ، لأن النمل يحب النظافة حباً مفرطاً، فانظر وتأمل كيف كان جسم النمل وخلقته مستعدة لأمور عظيمة، وقد هدي إليها بغريزته، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾[طه: ٥٠]، ومنه يعلم الحشر بطريق الفراسة. وذلك إن هيئة النمل في شكله وعيونه وحواسه وقواه تناسب هذه السياسات الغريبة والأعمال العظيمة فاهتدى لها.

فهكذا فليكن الإنسان لما سخر له ما في السماوات وما في الأرض، وعشقت روحه العلوم والمعارف، ومال بغريزته إليها، ويجب أن يكون وراء هذا سر يناسبه، وإلا فما هذا الاستعداد وما هذا الميل العجيب لاقتناص العلوم وحب الخير.

وإذا كانت النملة وهي دودة تكمل خلقتها لتناسب الحال المستقبل في الحياة ولا علم لها بها قط، فهكذا الإنسان دبرت روحه في الحياة وربيت فلا بد لهذا من نبأ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: ٦٠].

وهناك نكتة أخرى وهي أن من رأى في نفسه استعداد لأمر وشوقاً إليه فليعلم أن مقتضى الحكمة أن ينال مطلوبه، لأن الاستعداد داع حثيث، والكائنات أطوع للمستعد من غيره، وهذا صدقناه بالبصيرة والنظر.

## حكاية عجيبة عن النمل

قضى عالم من علماء الرومان طول حياته في النظر في حال هذه الكائنات الصغيرة، فشاهد نملة تشتغل طول يومها، فحسب ما حفرته وبنته في ذلك اليوم، ونسبه إلى جسمها وشغل الإنسان وجسمه فوجد لو أنها كانت رجلاً مشتغلاً هذا الشغل لحفر خليجين كل منهما طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه ٤,٥ أقدام، وأخذ هذا الطين وصنع منه آجر وبنى به أربع حيطان على الأربع الجوانب للخليجين، كل حائط من قدمين إلى ثلاثة ارتفاعاً، ونحو ١٥ بوصة سمكاً وغلظاً، ويدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء، وكل هذه الأعمال بلا مساعدة آخر في النهار كله، وذلك كله مع فرض أن الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة والأخشاب والأشجار وجذوعها الهائلة والأرض وعرة المسالك فيها آكام من الردم، فإذا فعل هذا رجل كان أعجوبة زمانه وهو عادي بسيط عند النمل ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠].

## اللطيفة الثانية

### في ذكر ما كتبته في كتابي نظام العالم والأمم تحت العنوان الآتي :

## الجمهوريات في الحيوان

### ترجمتها عن اللورد أفبري

الحيوان خلق عظيم فيه من دقائق الحكمة وصنوف الجمال ما يبهر العقول ، فمنه ما يبهج العين بمحاسنه وينعش الفؤاد بمناظره كأبي دقيق وغيره من الحشرات والطيور ، ومنه ما يلهونا بعظمته ويبهرنا بعظيم جثته كالفيل ، والهيكل العظيم والخلق الكبير في كل جيل ألا وهو « القيطس » ، ومنه ما يسحر العقل بجماله ويخلب الفؤاد بسحر حلاله ، ويرسل للمفكرة مغناطيس أقطابه ، ويسلب اللب لدقة صنعته وحكمة خلقته ، ذلك هو الحيوان الذي توارى عن الأبصار فلا يرى إلا بالمنظار ، وأجل الحيوانات لذة وأعظمها فائدة ما ألف الشركات وعاش جماعات ، وهل أريد بما أتلوه عليك ما تجتمع أياماً معدودات في فصل من السنة كالخطاطيف ، أو تلك التي لها جمهوريات ثابتة لخاصة المكان ، كلا . فالأولى يجمعها الزمان ، والثانية يؤلفها المكان ، وإنّما أردت تلك الدول النظامية والأمم الدستورية والجماعات الشورية كالغربان وكلاب البحر ، فإنها تهب لعقولنا حكماً ولأرواحنا وحياً ولنفوسنا علماً ولنظامنا دستوراً ولأخلاقنا حكماً ، على أنها مع عظم أمرها لن تبلغ عشر معشار ما وهب النحل من الحكمة في تقدير بيوته وتسديس أشكاله ، وما أبدع في نظامه وهندسته ، ومنح الإنسان هبة العسل ، ونصب نفسه ناطور الأزهار ، وقيم البستان ، فلونت بألوان جميلة يعشقها ونحن له مدينون وهو لا يشعر ، فقد زينت ونقشت لمنظره وهو غافل . على أن هذه ربما كانت أقل مهارة من النمل ، كما يشهد بذلك فطاحل العلماء مثل « هبرولورل » و« كوك » و« وسمان » وغيرهم من الفحول ، إذ قالوا : إن نظام جمهورية النمل في أصناف جنسها وأفراد نوعها وفي دستورها الشامل لطوائف الأمم الخاضعة المستعبدة لرقها ، والنواميس العامة على أنواع المخلوقات من الأنعام المناسبة لها لا نظير لها في الأمم كما ذكرنا .

ثم ذكر المؤلف كلاماً عن نمل بلاده فقال : إن النمل تبلغ أصنافه ألفاً وتزيد ، كل نوع يمتاز عن غيره بصفة ، وقد لاحظت النمل الشغال فعاش سبع سنين ، والملكة فعاشت ١٥ سنة ، وكل جمهورية من الجمهوريات لها ملكة أو أكثر ذات جناح قبل أن تطير لحملها ، فإذا حملت كسرت الأجنحة ، إذ تعلم أنها ستلازم المكان والجناح شغل لا فائدة فيه في الحجرات ، وفيها ذكران من النمل لا شغل لها ، والعملة لا جناح لها ، والصبية الصغار تبقى في الديار تحفر الحجرات وتشكل السراديب وتهندس الدهاليز والمنعطفات وتنمو وهي فيها ، وترتيبهن في المساكن على درجات السن ، كما تصف صفوف التلاميذ بالنسبة لأسنانهم . ومن النمل ما عظم جثة وكبر قامة وامتاز قوة ، وهل يقوم ذلك برهاناً على أنهم جنود وقوامون على الأمة . ذلك ما يعوزه الدليل .

وقال « دابتين » : إن النمل التي كبرت رؤوسها وعظمت خراطيمها تمتاز عن الصفوف في سيرها ، فتسير بجانبها كضباط العساكر ، وإذا احتملت تلك النملات قوتها رجعت تلك الضباط غير حاملات ، فربما كان ذلك دليلاً على أن أولئك ضباط وذلك محتمل .

ومن العجيب أن العملة من النمل والنحل لا تفتأ أثناء العمل تنظر إلى الملكة كأنها تستمطر الرحمات بمنظرها أو تستروح السرور بمشهدها. ولقد شاهدت جماعات النمل وهي خوارج من عش دواخل غيره قد اتخذن ذلك المشهد مهرجاناً للملكة، فمددت يدي لعمل أهيئه لهن فأصاب القضاء الملكة فلقيت حتفها، فرأيتهن اجتمعن حولها ورفعنها حتى أدخلنها أوسع مكان في القرية التي أعددتها لهن، ولم يعاملنها معاملة ما يموت منهن ينبذنه بالعراء، فجلسن حولها، فلو رأيتهن لقلت إنهن باكيات حزينات أو راجيات بشوق عظيم حياتها، أو كأنهن يظنن أنها حية ستسعى، وقد تتركب القرية من خمسمائة ألف نملة. ومن العجيب أن لا ترى نملتين من قرية واحدة تتنافران على أنهن لا يتحرجن عن مهاجمة إخوانهن في الصنف فضلاً عن النوع، فضلاً عن كل حيوان، ولكم حاولت إدخال نملة من نفس الصنف في عش إخوانها، فلم تكد تطأ أرض العش بأرجلها حتى فاجأنها فأخرجنها من رجليها، فليس بمكرم لديها إلا أخواتها المشاركات لها في مرافق الحياة، وما عداها من الصنف فمنبوذ مطروح، ولقد فصلت القرية إلى قريتين، وبقيت على ذلك سنة وعشرة أشهر، فلعمرك ما التقى الجمعان إلا وهما متعارفان يتصافحان ويهاجمان ما عداهما بمجرد التقائهما، بهذا أثبتت المعرفة والتميز في الأشخاص، ولن نعرف أكان بعلامة أم لا إلا بتجربة ، فعرجت على الكلوروفرم فخفت أن يميتها فعمدت إلى العقار فأسكرتها، وما كادت تسكر لولا أن غمست رؤوسها، فما كان إلا دقائق حتى سكرن وهن إذ ذاك خمسون، خمس وعشرون منها من عش، وخمس وعشرون من آخر، وهما بمشهد من جماعات من إحدى القريتين، وهن يطعمن على مائدة أحيطت بماء لئلا يتمزق النمل شذر مذر، فما كادت تشعر بالسكارى إلا وأقبلت من كل صوب، وأدهشت كما ندهش لسكراناً فأخذن اللاتي من غير قريتها ووضعنها لدى طرف الماء وأغرقنهن، أما اللاتي من قريتهن فحملتهن برفق إلى العش. فمن هذه ترى أن النمل تعرف بعضها بغير علامة ولا طريق. وهذه عاطفة في النمل عدمت في الذئب وغيره، فإذا جرح أحدها أو مرض طرده أصحابه أو قتلوه.

ولقد رأيت نملة كسرت رجلها إذ فقست بيضتها فنامت على ظهرها ثلاثة أشهر، والنملات يطعمنها ويسقينها، وأخرى جرحت بمثل ذلك فنامت أياماً ثم خرجت فهاجمها الأعداء من كل صوب فوقعت مغشياً عليها. فمر عليها النمل لا تبدي حراكاً، حتى إذا جاءت نملة وحركتها وجست نبضها ثم حملتها برفق إلى عشها. فهذه دلائل العطف في هذا الخلق الضعيف. النمل والنحل لهما علم بسياسة المدينة ونظام الجمعية ولكنه علم محدود ونظام معدود. وترى النملة إذا عثرت على طعام أسرعت البقية إليه، ورأيت الرائد إذا دخل العش خرجوا معه وإن لم يكن في فمه شيء، فمن المحقق أنه أفهمهم بغير رؤية الشيء.

ومن النمل ما يكون له أسرى، وهؤلاء يقمن بخدمة السادة حتى إذا رحلن من قرية إلى أخرى حمل العبيد السادة من الأولى إلى الثانية. ولقد رأيت الصواحب من النمل إذا خرب عشها بحثن عن غيره، فإذا سقف مكاناً ورأته إحداهن أحضرت أخرى فحملتها ثم أرتها المكان ورجعا فأخذا غيرهما ثم رجعن فحملن غيرهن وهكذا بالتضعيف حتى تجتمع القرية جميعاً، وهذه ترينا أن ذكاء النمل محدود، ويدلنا على ذلك ما نرى من أن بعض السادة لا يأكل إلا إذا ساعدهن العبيد على إحضار

الطعام، فإذا قسم الغذاء بينهن وأفرد كل بمكان وبقي السادة يوماً أو بعضه ماتت، إذ لا ترى من يضع الطعام في أفواهها، وكم من حشرات اتخذتها لها أنعاماً زينة لها وجمالاً ومتاعاً، تتخذ ألبانها العسلية طعاماً تسومها كالأنعام على غصون الأشجار أو ترعاها في الكلأ والحشائش والأب، أو تحبسها في بيوتها وتأتيها أكلها كل حين بتقدير، فتمتص الأنعام من النبات فتحال العصارة في بطونها عسلاً فتمتصه النمل. وأنفع تلك النعم حيوان اسمه «فيس» كأنه بقرها تكلؤها بحمايتها وتحميها برعايتها، ولم تكن رعايتها قاصرة على نفس الحيوان فقد تجمع بيوضاً في الخريف وتكلؤها في الشتاء وتربص الربيع المقبل، ومن الحشرات ما تتخذه النمل دواب تحت الأرض فتبقى أمداً طويلاً فتخسر عينها وتبقى عمياء.

أنا لا أطيل الكلام في هذا المقام إذ هذا الموضوع أوضحته في مكان آخر، إنّما أقول أسائلك أيها العاقل إذا رأيت النمل وهي في قريتها تستقل بحركاتها وكيف تدرك بغريزتها، وإذا رأيت هضبة سكنها النمل وهي آلاف مؤلفة تحفر الحجرات وتشكل الدهاليز وتهندس الطرق وتحفر الأماكن وتجمع القوت وتطعم الأبناء وتصف صفوف المدارس فيها وترفق بحيوانها وكل منها موكل بما يناسبه من العمل قائم به؛ فلا حرج أن هذه هبة عقلية، ولئن قلنا: إنها غريزة وسليقة؛ فمن ذا الذي يصنع حداً فاصلاً بين الغريزة والعقل، إنه لعسير. فهذه المناظر تهدينا إلى أن هذه هبة عقلية مشتقة من عقل الإنسان، تشبهه كيفاً وتنقص عنه كماً «المؤلف» أقول: هاأنت أيها الذكي القارئ لكتابي هذا نظرت مقال أكابر حكماء العصر الحاضر وفلاسفتهم، فتأمل كيف تراهم ينقبون عن أسرار الحكمة الإلهية ويبحثون ونحن غافلون، وهنا بدائع وملاحظات.

أولاً: إن الله جلت حكمته لم يشأ أن يدع مخلوقاً إلا وأعطاه حكمة وعلماً لمعاشه وبقائه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠] كما ترى في لون الحشرات والطيور والحيتان وأشكال وسياسات الحيوانات.

ثانياً: إن علماء أوروبا يبحثون عن عجائب الجزئيات ويطمعون في استقصائها، ونحن نقول لا مطمع في استقصائها، ولكن لا يريح الأفئدة إلا تعقل الكليات، ولن يعرف العقل إلا بعض الجزئيات، إذ استقراؤها لا مطمع فيه، وكليات المسائل عجيبة صادقة وكلها ناطقة بالعدل، أما الجزئيات فترى المرء يضل فيها. فهاهو اللورد «أفبري» يضلل من عداه في لون السمك، فقد كانوا يحسبونه بلا حكمة فظهر له أنه بحكمة، ونحن زدنا أن عظام الحيوان والأحجار لحكمة.

ثالثاً: يقول الحكماء في القواعد العامة: إن لكل مخلوق علة ومادة وصورة وغاية، فعلة اللون غير مادته غير صورته غير غايته، وهي مطردة في كل شيء، فقوله ألوان المعادن والأحجار اتفاق كلام غير مسلم إذ له علة، وهي التمازج بهيئة خاصة وصورة ومادة، وله غاية وهو منفعة الإنسان، فالتعبير بما قالوه قاصر.

رابعاً: هذا يفيد حكمته تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧].

خامساً: قصة النمل وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النمل: ١٧-١٨] إلى آخر الآية، مما نفهم منه اهتمام الأنبياء بعلم الحيوان، ونعلم أن المسلمين مأمورون بالبحث عن هذه الحشرات، والله أعلم. انتهى ما ذكرته في كتابي «نظام العالم والأمم».

وقد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦م ما يأتي:

## حرب بين قبيلتين من النمل

في الشهر الفائت جرت معركة هائلة بين قبيلتين من النمل في حديقة الحيوانات في لندن، اشترك فيها نحو ألف نملة من الجانبين، ودامت أربعة أيام، وانتهت بمئات من القتلى والجرحى، وشهد فيها المشاهدون انتظام الجيشين وهجماتهما وخنادقهما وكشافتهما وأسرارهما وخططهما الحربية وهدنتهما إلى غير ذلك من أحوال الحرب مما يدهش الناظرين، وحمل العالم الطبيعي «السير جون لوبوك» أن يقول: إن النمل أقرب الحيوانات إلى الإنسان في أفعاله. وتحرير الخبر أن أحد الموظفين في إدارة تلك الحديقة ألقى خشبة على مستنقع صغير في الحديقة المذكورة يفصل بين قبيلتين من النمل، الواحدة قديمة فيها منذ ٣ سنين، والأخرى جيء بها حديثاً، فكانت تلك الخشبة كجسر «كوبري» يعبر عليه من مستعمرة النمل الواحدة إلى المستعمرة الأخرى، وحدث أن نملة من القبيلة القديمة عبرت الجسر إلى القبيلة الجديدة ودخلت إلى عشها ولم ترجع، فكان ذلك سبباً لإثارة الحرب، فقررت القبيلة القديمة الحرب ولكنها لم تضع صوابها وتستسلم لغضبها وحدتها وتندفع بلا نظام، لكي لا تقع في كمين الأخرى، بل اختارت عشرة من أبطالها وأرسلتها للاستكشاف والتجسس، فانسلت هذه العشرة على الجسر إلى المستعمرة الأخرى، ولكنها لم تر واحدة من نملاتها، بل فهمت أن هذه كامنة في عشها غير دارية بما يجول في خاطر تلك، فعادت الكشافة وأبلغت ما علمت، والظاهر أن القبيلة القديمة عقدت مجلساً وقررت الهجوم، لأنه بعد بضع دقائق خرجت جنودها صفوفاً متراصة كصفوف الألمان والإفرنسيس في معركة الماران، وبعض النملات خرجت إلى جهة أخرى حيث الرمل الأبيض فأقامت متاريس من الرمل وتحصنت فيها، ثم هجمت الصفوف على الجسر وجعلت تعبره، وكان حينئذ أن نملة من القبيلة الجديدة خرجت فرأت الصفوف الأخرى قادمة تتدفق على الجسر، فأسرعت إلى عشها وأبلغت الخبر إلى قبيلتها، فما لبث هذه أن خرجت صفوفاً للقتال، وجرت المعركة الهائلة التي لا يصدق هولها إلا شاهد عيان، دامت المعركة أربعة أيام بلياليها، وفي خلالها حدثت هدنة واحدة مدة بضع ساعات، والظاهر أن نملة لم تستطع ضبط غضبها فخرقت شروط الهدنة واستؤنفت المعركة ثانياً أشد احتداماً من الأول، وشوهد عدد عديد من الجرحى تنتفض في مصارعها، وبعضها وقعت في الوحل، وأما القتيلات فكانت مطروحة في مصارع مختلفة بلا حراك، وأما القتال فكان أن القوية تقذف بالضعيفة إلى المستنقع، وإن لم تستطع ذلك كانت تقطع رجليها وتتركها لرحمة الطبيعة، وفي اليوم الرابع بعد الظهر انكسرت القبيلة القديمة أيّ انكسار إذ اندحرت عن الجسر وفنيت عن آخرها تقريباً، وحصونها لم تفدها، لأن الطريق بقي مفتوحاً لعدوتها، وأما القبيلة الجديدة المنتصرة فأسرت جانباً من عدوتها لتستعبدها، وقتلت البقية، والنملات العاملات غير المحاربات نقلت القتيلات إلى مكان آخر ونظفت حيها منها وعاد السلام إلى نصابه.

وقد ظهر أن ذكاء النمل ونظامه في مدة الحرب لا يقلان عنهما في مدة السلم. ليس هذا الحيوان الاجتماعي العجيب جندياً حربياً قديراً فقط، بل المهندس الفنان والحاسب والممرض والجراح والطبيب والزارع وهو يدفن موتاه باحترام، وظهر أنه يحب الهرج والمرج واللعب والسباق حتى السكر، ويؤكد الدكتور «هرمن ايدمان» العالم المشهور في مونيخ «ألمانيا» أن للنمل لغة للتفاهم، أما أن النمل مهندس فنان، فمعلوم من أبراج الطين التي يبنيها النمل الأبيض في شرقي أفريقيا، إذ يبلغ ارتفاع بعضها عشرين قدماً، ومع ذلك ليست ضخمة، فهي بنسبة ثخانتها إلى ارتفاعها كما لو بنى المصريون ١٢ هرماً الواحد فوق الآخر. ولا يخفى أن النمل ليس له الآلات والعدد التي كانت للمصريين، ومع ذلك ترى أبراجه هذه في غاية الدقة والإحكام الهندسيين.

في جبال بنسلفانيا إحدى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مدن النمل في العالم، ومعظمها مبنية تحت الأرض، وأكبرها يشغل ثلاثين فداناً، تأمل في ٣٠ فداناً من الأرض وقد حفرت فيها منازل النمل تتخللها الشوارع والمعابر والطرق، وكل نملة تعرف طريقها إلى بيتها بإحساس غريب وشعور بالجهات.

يعد النمل أعظم بناء على الأرض، وأدواته وبعض مواده في جسمه، مثال ذلك أنه يصنع بعض مواد البناء بمضغ نوع من النباتات وجعلها ملتحمة بعضها ببعض بواسطة عصارة لزجة يفرزها من غدة فيه، وأغرب دليل على ذكاء النمل أنه يصنع سقفاً من أغصان الشجر بخياطة أوراقها بعضها ببعض، هكذا النملة البالغة لا تستطيع أن تغزل خيوطاً، ولكن الطفلة تستطيع لأنها تصنع فيلجة «شرنقة»، ولذلك تصحب النملات العاملات طفلاتها الغازلة فيالجها وتدني النملة العاملة ورقتي الشجرة حافة لحافة، وهي حاملة الطفلة بفمها، وتقرب رأسها لحافتي الورقتين، فتشرع الطفلة تغزل حريرها، أي: خيوطها، وتعلقها بالحافتين، وفي أثناء ذلك تجعل النملة العاملة تقدم الطفلة على طول الحافتين والخيوط المغزولة تلأمها حتى يتم التحامها جيداً. ولا يخفى أن الخيط يخرج عصارة من فم الطفل، ولكن هذه العصارة تجمد في الحال وتصبح خيطاً.

ترى النمل في ساعات العمل يعمل بنظام كأن مرشداً يرشده، ترى نملة ترمم بناء متهدماً، وأخرى تنقل زبالة، وثالثة تنقل الأطفال التي لا تحتمل تأثير النور إلى الوكر المظلم، ورابعة تأتي بمواد البناء، ولكن ليس هناك قائد ولا مرشد، بل تعمل جميعها من تلقاء نفسها بحكم الغريزة كأنها آلات.

للنمل قوة التمييز الغريبة بدليل أن «السير جون لوبوك» أخذ بعض نملات ووضعها في سائل كحولي «سبيرتو» حتى سكرت، ثم طرحها سكارى، فلما رأتها رفيقاتها الصاحيات جعلت تنقل منها ما كان من قبيلتها إلى بيتها، وألقت الغريبات في بركة الماء.

## مسامرة في النمل

من كتاب علم الدين للمرحوم أستاذنا علي باشا مبارك

إن النمل كثيراً ما يكون بينه حروب كبيرة ومناوشات كثيرة، غير أن طوائف النمل عند تجهزها للحرب ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الإنسان لحروبه من العدد والآلات والأدوات، بل تسير للقتال بأنفسها غير مستصحبة شيئاً من ذلك معها، وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الإنسان عنه من المكر والحيل والمكائد، ومن النمل نوع يأسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته، ويتخلص

بواسطة من الكد والكدح والعمل لنفسه، وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعاً من النمل يحمل نوعاً آخر في فمه، ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه، إلى أن ظهر الآن أن بعض النمل قد يحتاج إلى خدم فيهجم على غيره فيسترقه ويستخدمه في أعماله وسائر أحوال مسكنه ومعيشته، ومن يراقب النمل أيام الصيف في بعض الجهات يجده يغير على بعضه، فيأخذ الغالب منه أولاد المغلوب ويسترقها، ولا يكون ذلك غالباً إلا في الليل، فيخرج ويصطف صفوفاً متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها، فلا يرجع إلا وقد بلغ مقصوده، فيخرب المساكن ويفرق المكامن ويأخذ ما أحب من الذرية، ولا يأخذ الكبار لعلمه أنها لا تنقاد لحكمه، فإذا رجع بالذرية حملها بأفواهه، وإذا خاب أحد من الحزب الغالب ولم يجد أسيراً يسترقه أخذ معه من رمم القتلى ما قدر عليه لينتفع به في غذائه، وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها إلى مسكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة، حتى إنها قد تشغل مسافة من الأرض يبلغ طولها نحو أربعين متراً، وبهذه الصورة تعود إلى مساكنها بالظفر والغنيمة في حال مسرة وطرب، فإذا وصلت إلى منازلها بهذه الأسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة، وتربيها مع الصدق والأمانة والحذق، وتحفظها من كل ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ أشدها، وهذا النوع المحارب المحب للسلب والنهب لا يحب أن يشتغل بشيء سوى الحرب، فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته إلى ما عنده من الأقرباء والخدم، حتى إنه إذا احتاج إلى الانتقال من مسكن إلى آخر تكلفت خدمه بنقله وقامت بحمله، فتراها تحمله بأفواهها كما تفعل الهرة بأولادها.

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن أحوال الحيوانات بعض النمل الذي تخيل فيه الترؤس والإمارة والرفاهية والاحتياج إلى خدمة الغير له، فأخذ جماعة منه وأفرادها عن خدمها ثم أحضر لها شيئاً مما يتغذى به النمل به ويتهالك في طلبه، فوجدها غير طالبة لما أحضر لها، حتى مات أكثرها جوعاً ثم إنه نقل إليها واحداً من النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة، فاشتغل بخدمتها وتغذيتها فأكلت ما أحضره إليها مما كان بمرأى منها، ولم تكن تحركت إليه من قبل، فأكلت وشبعت وانتعشت، فعلم من ذلك أن هذا الصنف الغالب المحارب بعد أن يبلغ في حروبه ما شاء من النصر والظفر والغنيمة ويحصل على ما أراده من العزة والثروة والسعة قد يستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فيأخذ في الكسل والبطالة ويكل جميع أموره إلى ما عنده من الخدم والحشم والأتباع ولا يشتغل هو بشيء من الأشياء، فيختل عنده نظام الجمهور وتدور عليه صروف المقدور بالويل والثبور وتفسد الأمور.

وطباع هذا النوع مختلفة باختلاف الأماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها، فترى الأرقاء في بلاد السويد هي التي تبني المساكن، وتقف على أبوابها بمنزلة البوابين، فتفتحها في أول النهار وتغلقها عند دخول المساء، أو ظهور علامات تدل على المطر، وقد شوهد في بلاد الإنكليز أن الأتباع والأرقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط، وفي بلاد السويد عليها بعض الخدم الخارجية أيضاً بسبب كثرتها، وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق، فإن هناك نوعاً صغير الجثة لا يقبل الضيم والذل، بل يدافع عن نفسه بحماس، ويقاتل أعداءه بشدة بأس وشهامة، فتخشاه ونهابه وتتجنبه حتى إنها لا تقرب عائلته ولا تتسلط على أولاده، بل يرى بعضه ساكناً بالقرب من مسكن جيوش النمل

المحاربة مع الأمن والاطمئنان من غير أن تناله بمكروه، لعلمها بشجاعته وبأسه. ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربته على استرقاقه لغيره من النمل، بل يزيد على ذلك أن يتخلل النبات في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منهما مادة سكرية يحبها النمل حباً شديداً فيمتصها، فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبقر الحلوب بالنسبة للإنسان، فيصعد إليها فوق أطراف النبات والأعشاب ويركب كل واحد واحدة، وفي بعض الأوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويتحزب الكل ويسطو عليها دفعة واحدة ويأخذها ويحبسها في منازله، كما يحتبس الآدمي البقر والغنم، فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدها بالطعام والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة.

وأغرب شيء أن هذا النمل يعمل حول بيته جسوراً منيعة أولها عند بيته وآخرها بعيد عنه محتاط بالحشائش التي ترعى فيها الحشرات المذكورة، وقد يتخذ لها أماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص منها، فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما أعد لها من المرعى، وتعطي لبنها للنمل متى أراد، وفي بعض الأحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات عظيمة ومناوشات شديدة، كالحروب التي تقع بين قبائل البشر منشؤها عداوة طبيعية أو حوادث وقتية، وقد وصف بعض المشاهير من علماء هذا الفن واقعة رآها بين قبيلتين من جنس واحد من النمل، فقال: كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة، ولم أعلم السبب الذي أوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وإنّما رأيت عدد المحاربين من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاً عظيماً جداً، بحيث يتعذر على دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر. قال: ثم رأيت الفريقين أخذ في الزحف على بعضهما إلى أن التقى الجمعان في قدر قدمين من الأرض في منتصف المسافة التي بينهما، ورأيت خلف كل جيش عدداً معداً للمدد والإعانة كما تفعل الجيوش من اتخاذ المدد في الحروب، ثم حميت الحرب والتحمت الصفوف والتقت الألوف بالألوف، ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ [القيامة: ٢٩]، وسار كل من الفئتين ينتفع بما صادفه أمامه في الأرض من حجر ومدر وغير ذلك، فيتترس به ويتحصن خلفه من عدوه، وكان البعض يقاتل ويضرب، والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الأسرى، وكان يرى على الأسارى علامة الحزن والكآبة، لا سيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو، قال: ورأيت محل المعركة قد تغطى برمم القتلى ودماء الجرحى، وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف، وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للآخر، فتماسكا بالأرجل وصارا يتصارعان ويتغالبان، ويجذب كل منهما قرينه إلى جهته، ثم أتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه إلى ناحيته، حتى صار الأولان مع ما انضم إليهما من المدد أشبه شيء بحبل طويل يشد أحد طرفيه إلى جهة والطرف الآخر إلى الجهة المقابلة لها حتى يغلب أحد الطرفين، فيأخذ غريمه إلى جهته أو يحصل الانفصال من غير أن يغلب أحد، ثم يعود القتال فإذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب إلى الصباح، ثم يعود كل إلى ما كان عليه وهكذا، وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست أقدام طولاً وقدمين عرضاً.

فقال الشيخ: كنت فيما سلف اجتمعت برجل من أهل السودان فأخبرني أن ببلادهم نوعاً من النمل أبيض اللون يتجمع جموعاً كثيرة، ويكون منه طائفة كالجند والعسكر، وطائفة كالعمال،

وللذكران منه أجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والإناث أجنحة، وتختص العمال منه ببناء المساكن، والعسكر بالحفظ والضبط والحراسة، وأما الإناث فعليها البيض وإكثار النسل وتربية الذرية والقيام بأمرها، وهي كثيرة البيض إلى الغاية، حتى كأنها كيس مملوء بيضاً، فإن حجمها مملوء بالبيض قدر حجمها فارغة ألفي مرة، ومتى ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة، وقد يبلغ ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين ألف بيضة، كذا قال والعهدة عليه. فقال الإنكليزي: هذا صحيح كما قاله.

وقد شوهد هذا النوع من النمل في جهة رأس الرجاء الصالح، وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه مما يقضي منه بالعجب، فإن ارتفاع المسكن عن الأرض قد يبلغ نحو عشرين قدماً، وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الجرم، واسع أسفله ضيق أعلاه، فمن رأى هذه المساكن على بعد ظنها كفراً من الكفور، أو قرية من القرى الريفية، تكون في غاية من المتانة، بحيث لا يمكن كسرها لشدة صلابتها، وداخلها فسيح جداً، حتى إن الواحد منها يسع اثني عشر رجلاً يقيمون به، وقد يتخذوها صيادو الوحوش مأوى يكمنون لاصطيادها، ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه المدافع الكبيرة ممتدة في الأرض إلى عمق ثلاث أقدام أو أربع، فلو نظرنا إلى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه يفوقنا بكثير، فإن ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة، فلو كان ارتفاع مسكن الإنسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة؛ لكان ارتفاعه قدر أكبر هرم من أهرام الجيزة أربع مرات أو أكثر.

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها سراديب يتوصل منها إلى ما فيها من الخشب، ولا يزال حتى يأتي عليه ولا يبقي منه إلا ظاهره، فتسقط البيوت بأقل حركة، فيفقد الإنسان بيته في زمن يسير، وكثيراً ما تسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة، فأتلفها وخربها عن آخرها، واضطر أهلها إلى الرحيل عنها إلى جهات بعيدة لتسكنها وتبني بها بلادها ومدائنها، والعجب أن ذلك النمل لا يحتاج في مثل هذا العمل إلى مدد طويلة، بل يقضيه في مدة قصيرة وأيام يسيرة. وقد حكى بعضهم أنه رآه أكل سلماً كبيراً من الخشب في مدة خمسة عشر يوماً، ويأكل مثل الكرسي والمائدة والدولاب في أقل من ذلك، فيرى الإنسان هذه الأشياء واقفة بهيئتها على أصل صورتها، ومتى مسها بيده صارت تراباً مذروراً وراحت هباءً منثوراً. قال الشيخ: رأيت في بعض الكتب ما هو أخف من ذلك، فكنت أستغربه، فالآن زال استغرابي.

حكى الجاحظ في كتاب «الحيوان» أنه في بعض الأيام كثر النمل في دروب بغداد حتى ارتحل عنه أصحابه وتركوا مساكنهم للنمل، وإن بعض الناس قال لأحد الفارين من النمل: كيف أخرجكم النمل من دياركم؟ فأخذ بيده، وقال: هلم معي لأريك ذلك، وحمل من طريقه رأس جمل مشوياً، فلما انتهيا إلى بعض تلك الدور أكلا ذلك، وأمر صاحب المنزل خادمه بإحضار طشت كبير منصف بالماء، ووضع عظام الرأس إلى جانبه، فسعى النمل إليها، وصار يأخذ النمل وينفضه في الماء، فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطشت، فقال له: كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال؛ فسبحان من خلق الأشياء وعرف الإنسان قدره بتلك الآيات، فهذا جيش من النمل أخرج قوماً من ديارهم وأبطل حيلهم

وقواهم وأعجزهم، ليفهموا قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، ويقفوا بأنفسهم على مواضع الاعتبار، وتكون مساعيهم فيما له خلقوا، وكل ميسر لما خلق لأجله على حد الأدب مع الخلق وخالقه.

قال الإنجليزي: ومن النمل نوع إذا بنى له بيتاً لا يجعله هرمياً، بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل، يصنعه من مواد صمغية وأجزاء خشبية وبعض حشائش، ويجعل في داخله دروباً وطرقاً كثيرة تفوق الوصف، ويكون في العادة بين فروع الشجر. وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديريات الجنوبية من فرنسا، فخرب بسببهما بيوت كثيرة وسقطت أسقف وحيطان متعددة، ولم يبق في «روشفور» شيء من الكتب ولا الخشب، حتى إنهم الآن يضعون أوراقهم في علب من التوتياء خوفاً عليها. ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضرراً بيناً، وربما حفر له فيها بيوتاً ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج منها خمسة عشر أو عشرين قدماً، فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها، وربما أحرقت أماكن هذا النمل بالنار، أو ضربت بالمدافع لتخريبها إن أمكن، وقد يستعمل اللغم في تخريبها إذا كانت عميقة ممتدة في جوف الأرض، فقد تبلغ في العمق إلى عشرين قدماً في داخل الأرض. والكلام في هذا المبحث طويل، والذي أذكره الآن أقل بقليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل، فإن عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه الحشرات، بل هي منبثة في جميع أفراد الخليقة، فقد منح الصانع كل جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وأمور غريبة تجدها في الأشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة، وتراها في حيوان البحر كما تبصرها في حيوان البر.

ومن أعجب العجب أحوال حيوانات دقيقة جداً أمكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة، وكانت لا ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها، ويقال لها عند أرباب الفن: «الحيوانات النقعية والفطرية»، وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية وفي الهواء والماء وغير ذلك، وكانت مجهولة عند الأمم السالفة، ولم يطلع الإنسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها، وعلم بعض أسرارها إلا منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات، لأنها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت أعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت رؤيتها، وأمكن للإنسان أن يمتحن أحوالها ويعلم كيفياتها.

انتهى ما أردته من كتاب «علم الدين»، وقد جاء في إحدى المجلات العلمية ما يأتي:

## متفرقات عن النمل، النمل أعجب الحيوانات

هل خطر لك أن النمل يفهم الحساب؟ طبعاً لا يفهم الجبر، ولكنه يفهم الهندسة، لأنه يحسن البناء، ويفهم العد أكثر من جميع الحيوانات، ولعل بعض الهمج لا يفهمونه مثله، أنبأ «أورماند فرنسيس وليمس» من بريد «جبورت» من ولاية كونكتيكت «أمريكا» أنه في ذات يوم تعثر بحجر فانقلب الحجر عن عش مملوء من محضن صغار النمل التي شرعت تنقف بيوضها، فتناول اثنين منها لفحصهما، وفي الوقت نفسه صعدت النملات الأمهات وكرها مرتاعة، وشرعت تنقل صغارها إلى مكان أمين حتى انتهت، ثم عادت تبحث هنا وهناك كأنها علمت أن عدد الصغيرات ناقص اثنين، فلا ريب أنها أحصت الصغيرات فوجدتها ناقصة، فردهما «أورماند» إلى مكانهما، فحملتهما نملتان ومضت بهما.

## النمل يربّي صغاره

وهل تصدق أن النمل يحسن التمريض والتربية؟ حالما تبيض ملكة النمل بيوضها تتجمع النملات العاملات حولها، وتحمل البيوض بأفواهها وتمضي بها إلى المكان الدافئ الذي أعدته لها وهناك تشرع تعرف البيوض بحسب حجمها، فتضع الكبيرات في صف والصغيرات في صف آخر، ومتى نقفت الصغيرات بيوضها وخرجت منها تضعها العاملات في شكل دائرة، وتجعل رؤوسها متجهة إلى خارج الدائرة لكي تسهل عليها تغذيتها. وفي المناطق الاستوائية نوع من النمل تأخذ المربيات منه الصغار إلى خارج الوكر في يوم الصحو لتعريضها لنور الشمس وللهواء الطلق وتسير بها إلى هنا وهنالك كأنها تنزهها، كما تفعل مربيات الأولاد اللواتي يطفن بها بالعربات اليدوية، ثم إن النملات المربيات تبالغ في تنظيف أوكارها ولا سيما أوكار الصغار أكثر مما تفعل ربات البيوت، فهذه النملات تضع في عشوش الصغار نوعاً من الإسفنج تصنعه من المواد الناعمة المختلفة، فمتى اتسخت خراطيم النملات وعلق الوحل على أفواهها تسرع المربيات إلى هذا الإسفنج وتمسكه وتمسح به أفواه الصغيرات وخراطيمها.

## النمل أقوى من الإنسان ٣٠٠٠ مرة

لو كان في إمكاننا أن نستنطق النمل ونجعله يقول بصراحة وصدق ما في قلبه، وأن يخبرنا ما هي أعظم المزايا التي يفتخر بها؛ لقال: بإعجاب قوتي، ولضحك على ضعفنا، ذلك لأن للنمل قوة عضلية بالنسبة إلى حجمه تزري بقوة أعظم المصارعين والرياضيين، روى «المستر د. دي بوا» العالم الطبيعي فقال: رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل العرمة إلى أعلاها، فوزنت النملة والحصاة وزناً مضبوطاً بأدق الموازين وقست ارتفاع العرمة، فوجدت بعد الحساب أن الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب أن يحمل حملاً وزنه نصف طن ويصعد به ٢٥ درجة من درجات «السلالم» الاعتيادية.

لعلك تستغرب ذلك، فانظر فيما يلي النملة في حقلها تحمل بين فكيها حملاً أثقل من وزنها ثلاثة آلاف مرة من غير عناء، ولكي نفعل فعلها يجب على كل واحد منا أن يقف على حافة هاوية ويمسك بين أسنانه سلسلة مربوطة بثماني عربات محملة حديداً. وقد أكد أحد عارفي طبائع النمل أنه إذا كان رجل يزن ١٥٠ رطلاً، وله قوة بالنسبة إلى وزنه كقوة النمل، لاستطاع أن يحمل على ظهره قاطرتين من أكبر قاطرات السكك الحديدية من غير أن يترنح، وقد روى الأستاذ «رفتون» أن في أفريقيا نوع من النمل يسمى «بول دوج» يستطيع أن يمشي واثباً وكل وثبة نحو قدم، فإذا رام إنسان أن يجاريه وجب أن يثب الوثبة الواحدة نحو ١٤٤ قدماً.

## النمل فلاح

النمل فلاح أيضاً، لعلك تستغرب أنه كذلك، والحقيقة أن للنمل حدائق يزرعها ويجتني منها طعامه الذي لا يجده في كل مكان، وله إصطبلات يحرس فيها أبقاره التي يحتلب عسلها، وهناك نوع من النمل يسمى «قاطع الورق»، فهو يقطع ورق الشجر بمقص فمه الحاد ويحمله إلى عشه، وهناك يمضغه حتى يصبح كالعجين ويفرشه على الأرض، وبعض النمل يبحث عن المشروم «نبات فطري» في الحقول وينقله إلى حديقته ويزرعه في الأرض التي أعدها لذلك، فينبت نباتاً فطرياً ويتغذى به.

## بقر النمل

أما بقر النمل المشار إليه آنفاً فهو نوع من البعوض النباتي المائل إلى الخضرة، وهو كثير في الجناين فالنمل يقنص هذا البعوض ويأخذه إلى عشه ويحميه ويغذيه، وهذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيبها النمل، والعجيب أنه لا يفرزها ما لم يدغدغه النمل بخرطومه، وقد حاول «دارون» أن يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدغها بشعرة فلم تفرز شيئاً، فلما أطلق عليها نملة دغدغتها فأفرزت العسل.

## النمل جراح

وهل خطر لك أن النمل جراح ماهر؟ إن عملياته الجراحية عجيبة. في البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح، فمتى جاءت إليه نملة تقاسي من جرح خطر يستدعي بعض الجنود الاختصاصيين الذين لا يخطئ في استدعائهم ثم يضم شفتي الجرح معاً ويأمر الجندي أن يمسكهما معاً بفكيه ويبقى هذا ممسكاً بهما إلى أن يخيطهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه. والله أعلم.

## للنمل مقبرة

ومن أغرب الأمور أن للنمل عادة ليست في سائر الحشرات أو الحيوانات وهي أنه يدفن موتاه في مقبرة خاصة. وذلك أن بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها وتتبعها النملات الأخرى في موكب جليل وتسير جميعاً خارج الوكر إلى مكان معين تدفن فيه موتاها، وهناك أعمال أخرى للنمل تدل على حذقه وذكائه وقوته ولو كان يتكلم لكنا نفهم منه أموراً أخرى ربما كانت أعجب وأغرب.

## النمل الغازي

في أفريقيا نوع من النمل تفوق عن الجراد غزواً، فهو يزحف صفوفاً كثيفة متراصة متحاذية إلى أن يصل إلى الحقل الذي يريد غزوه، فيحيط به ويحاصره من جميع الجهات، وحينئذ لا ينجو منه شيء من الحشرات كالخنافس والعقارب والعناكب والديدان والحيات الصغيرة، حتى متى انتهى من غزوه لا يبقى في الحقل غيره، فإن جلا عنه إلى حقل آخر تركه نظيفاً. انتهت اللطيفة الثانية «رسالة عين النملة».

## اللطيفة الثالثة: الكلام على عين النملة

كتب يوم الجمعة ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٤هـ ٢٠ يوليو سنة ١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لئن عجب القارئ من هذا العنوان فعجب معناه، ولئن كان غريباً فأغرب منه مغزاه، يخيل للسامع أنه مما لا يؤبه به، وما قيمة النملة حتى يحتفى بعينها، فليرين القارئ من العجائب وغرائب الإبداع فيها ما يحار فيه لبه ويزداد عجبه، ويوقن أن هذه العين التي لا يراها البصر ولا تتجه إليها الفطن كمدينة عجيبة مشرقة الأنوار زاهرة باهرة تترقرق جمالاً وحسناً. ويعلم إذ ذاك كيف سميت في القرآن سورة باسم «النمل». وكيف ذكر قصة سيدنا سليمان معها، وأن ما نذكره في هذه العجالة غيض من فيض العلم المستمد من تلك العين، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذ عما تعلمون. لنقدم مقدمة قبل هذا البحث البديع فنقول:

بينما أنا منذ شهر في مجلس خاص بأهل العلم والفضل والأدب من المشايخ وذوي الطرابيش ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين على تصحيح ورق الامتحان للتلاميذ عاكفين، إذ قال قائل منهم ومعه فريع شجرة ذو ورق بديع لطيف منظم: إني كان لي قرين يقول: ألا لا يستوي نظام هذا الفرع ونظام النمل الفارسي، وكيف يستويان وفي هذا الفرع من النظام والجمال ما يبهر الناظرين؟ ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[البقرة: ٢٦٥]، ثم قال: ويا ليت شعري لم قارن بين النمل الفارسي والورق في النظام، وإذا صحت المقارنة فما الدليل على ما قال؟ فأجبت: لقد أخطأ صاحبك ولم يصب المحز.

إن النمل أتقن نظاماً وأبدع إحكاماً وأهدى سبيلاً وأقوم قيلاً، ولست أحيلك على دقة نظام ولا حسن إتقانه ولا أعضائه الباطنة والظاهرة ولا مدارسه ولا سياسته وجيوشه ومدنه وزراعته مما سطرناه في كتبنا: «نظام العالم والأمم» و«جمال العالم» وغيرهما، وإنما نحيلك على مسألة عينه العجيبة الغريبة، فقال: وما ذلك؟ فقلت: إنها تتركب من أكثر من مائتي عين، كل واحدة منها ذات طبقات خاصة ونظر مستقل، بحيث لو عميت إحداهن لنظرت الباقيات نظراً مستقلاً صحيحاً، فلم يقع القول منه موقعه من ذي الغلة الصادي، وقال: كيف السبيل إلى معرفتها؟ ومن ذا يجترئ أن يدعي هذه الدعوى؟ وما الدليل؟ فاحتدم بيني وبينه وطيس الجدال واجتمع القوم حولنا زمراً وكانوا أزواجاً ثلاثة: فريق كذبوا، وفريق يشكون، وقليل منهم وافق.

فأما أنا فقلت: لقد سمعتها أيام تعلمي بمدرسة المعلمين الناصرية من الأستاذ، ثم قرأتها في الكتب الصغيرة الإنجليزية لتلاميذ المدارس الثانوية ثم رأيتها بعيني رأسي بالمنظار المعظم وسطرتها في الكتب المنشورة. فقال أوسطهم:

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

وقيل أيضاً:

إن كنت ناقلاً فالصـ ـحة أو مدعياً فالدليل

وقيل أيضاً:

ولم أر في عيوب الناس عيـ ـباً كنقص القادرين على التمام

فائت بالبرهان أو العيان، فقلت: سأريكموها تحت المنظار المعظم كما رأيتها، ثم لترونها عين اليقين، وإذ ذاك أقول:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وليس بعد العيان بيان.

فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بالحكم عند العيان، فقد يخطئ الحس، فأرنا كتب القوم وائتنا بكتب النص الصريح فقرأت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٤٧]، وقلت: سترونها في كتب القوم.

وإذن أقول: فاز من ركب العصا، فتوجهت إلى المكتبة وقرأنا ما كتبه العلامة «اللورد أفبري»، إذا هو لا يروي غلة ولا يشفي من علة. وطالعت مجلات أخرى مع بعض الفضلاء فرجعنا بخفي حنين.

فقلت: قال تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾[النحل: ٤٣-٤٤]، وإذن كلمت العلامة صديق محمد بك شوقي بكير المدرس بمدرسة الزراعة العالم بهذه العجائب الذي أطلعني عليها بالمنظار المكبر المغرم بالعلم العاشق للحكمة، فقال لسان الحال:

تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين

فأجاب: لقد اتسع نطاق هذا الموضوع في كتب القوم. وأحضر لي كتابين: أحدهما: كتاب «درس علم الحشرات» تأليف «باكرد» الأستاذ «بردوفسور» في جامعة براون من صفحة ٢٥٦ إلى صفحة ٢٦١ المطبوع سنة ١٩٠٩م، والثاني: كتاب «علم الحشرات» مع الإشارة إلى مباحثه الحيوية والاقتصادية المطبوع سنة ١٩١١م من صفحة ٣٠ إلى ٣٤، وكذلك صفحة ١١٤و١١٥، وملخص ما في كتب القوم هو ما يأتي: «إن جميع الحشرات أعينها مركبة، وأقلها تركيباً لا تقل أعينها عن اثنتي عشرة عيناً، ومنها ما يكون كل عين من عينيها مركبة من مائة ثم من ألف ثم تترقى إلى سبع وعشرين ألفاً، وذلك في حشرة من نوع الفراش في القطر المصري وغيره تعيش على العليق وعلى البطاطس وأمثالها تشبه حشرة «أبي دقيق» المعروفة، فأما النملة فإن كل عين من عينيها لا تقل عن مائتي عين ولا تزيد عن أربعمائة تقريباً، وللعلماء في هذا مذهبان مشهوران: فأما الأولون فإنهم يقولون: إن كل عين من تلك العيون تنظر الجسم جملة، فإذا كانت عينا النملة مركبتين من ستمائة عين مثلاً كانت كل واحدة منها ترى الجسم كما ترى كل عين من أعيننا الجسم الذي تراه الأخرى. فأما المتأخرون من أهل الفن فقد حققوا الموضوع تحقيقاً، وكشفوا النقاب عن وجه الحقيقة، وحكموا التجربة تحكيماً، فأيقنوا أن تلك العين إنما هي مجموع عيون كل منها ترى جزءاً من الجسم، بحيث لو عميت لم تبصر الجزء المقابل لها في الجسم. وأجمع الأولون والآخرون على أن كل عين ترى مستقلة وعلاقتها مع غيرها المجاورة، فلما أن أتم قوله قلت: الآن حصحص الحق واستبان السبيل وظهرت الحجة وقامت آية الله الكبرى وبهر جمال الله خلقه، وقلت لأولئك الأجلاء ما ظهر وما بطن، وأعلمتهم جلية الخبر فسمعوا شاكرين وكبروا الله مخلصين. فقال صديقي محمد بك شوقي بكير: لندرس الموضوع حق دراسته لأترجم أهم هذا البحث، وليكن مقالاً جامعاً حتى يعرف الناس هذا العجب العجاب.

وسأذكر ما لخصه موضحاً وأعرضه على القارئين مبيناً، ليقفوا على آيات الله الكبرى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾[البقرة: ١٤٢]، فيعربوا مسألة الكحل: «ما رأيت رجلاً أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد» ويقارنوا بين أبي تمام والمتنبي، وبين جرير والفرزدق أو يعرفوا المجاز المرسل والاستعارة والكناية، وما لهم ولهذه المسائل، وهي إنما اختص بها الغربيون ودرسها علماء الزراعة. وما للشيوخ ولهذه العلوم. وما هذه العناية بهذا الحيوان الحقير ونحن في حاجة إلى ما ينفعنا، والناس في الحرب والضرب. فما هذه السخافات؟ ولم اهتممت أنت بهذا اهتمامك بأعظم الأشياء فنقول:

ليس ينبغي أن يكون الشيوخ محصوري العقول فيما ذكر هاهنا، هاهم أسلافنا كعبد اللطيف البغدادي والجاحظ والرازي والغزالي، فأولئك الذين هدى الله وكانوا نوراً يستضاء بهم، فاقرأ في كتاب «الحيوان» للجاحظ، تر الرجل جد وبحث جهد طاقته ولم يدخر وسعاً في سائر أنواع الحيوان، والمعلم

الضيق العطن القليل الفطن واقف كالماء الراكد في حيز واحد يتبعه تلميذه ويضيق صدره وتموت أمته، لقد كذب الذين قالوا: لا ينبغي اتساع دائرة علومه، إنه لضلال مبين، ومن أضل ممن يأمر بالجهل ويغري الناس بالكسل.

فأما العناية بعين النملة وبالنملة فليس بعجب بعد أن سمى الله سورة باسمه في القرآن، إيقاظاً للعقلاء ليدبروا هذه الحشرات الصغيرة وليدرسوها ليصلوا إلى أمرين: معرفة الله جل جلاله، والاستلذاذ بالعلم والحكمة والوقوف على فوائدها الاقتصادية النافعة في الحياة الدنيا، كما فعل الأوروبيون فيما تقدم في هذه الرسالة.

فإذا رأيت ثم رأيت ملكاً كبيراً داخل هذه الأعين كما ستراه قريباً، ولما نزل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١]، وقالت العرب: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[البقرة: ٢٥]، وهل يذكر الله هذه المخلوقات الحقيرة، نزل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦].

فأما الاحتجاج بالحرب والضرب فتلك حجة الكسالى والعاجزين البائسين، فالناس أيام الحرب يأكلون ويشربون، والمدارس مفتحة الأبواب، والناس يحيون ويموتون، والشمس طالعة غاربة والنجوم مشرقة آفلة، والدنيا كما هي. إذا كان للحرب تأثير على سير العلم فهلا أقفلت أوروبا مدارسها وهي اليوم ميدانه.

إن الاحتجاج بالحرب خدعة شيطانية. فأما اهتمامي بذلك فليس بدعاً. ألا ترى أنني لو أغمضت الجفن على القذى وتركت حبل الأمور على غاربها لظن الناس أننا نقول بلا تحقيق أو نكتب بلا تدقيق، ومقالة السوء أسرع انتشاراً وأعظم أنصاراً للحسد الكامن في نفوس البشر، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[الأحقاف: ١١].

ولقد جاءني من قبل عالم من علماء مكة وهو صديقنا محمد حسين الخياط إذ قال: لقد قرأت كتابك «نظام العالم والأمم» وقد كان أهداه لي أحد تلاميذي ببلاد جاوة، فلما قرأته أراني هذا الوجود على غير ما كنت أرى، وعجبت من مسألة تركيب الماء من الأوكسجين والأودروجين، وقولك: إن النسبة بينهما هندسية عجيبة، ورأيت الحساب المذكور في كتابك، والنظام المدهش فيها، بحيث إنهما يكونان الماء، ولو نقص أحدهما أو زاد عن النسبة المحدودة لم يكن ماء ولا مزاج، وكنت أقول: هل رأى المؤلف هذا بعينه؟ فها أنت ذا المؤلف هل رأيته؟ فقلت: نعم وسترى بعيني رأسك. وتوجهت معه إلى مدرسة المعلمين الناصرية، وكان المدرس إذ ذاك صديقنا أحمد بك فهمي العمروسي، فأخذ يحلل الماء بطريق الكهرباء، وحدثت حادثة مزعجة أن انكسرت الزجاجة وطارت منها شظية خدّدت خدّ العمروسي صديقنا، ثم شفاه الله وعرف صاحبنا المسألة يقيناً.

لقد رأيت من هاتين الحادثتين: حادثة عين النملة وتركيب الماء، وبعبارة أخرى: العالم المكي والعالم المصري؛ أنني مطالب بما أكتب وأن المؤلف مستهدف للذم والمدح، فعلى كل من ألف أن

يستيقن من علمه لينفع الناس وليثقوا بعلمه ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٤٧].

ولو أني توليت عن هذا الأمر معرضاً لم أصل إلى معرفة ما وصل إلينا الآن، ولم أستفد ما ستراه من العجائب المدهشة، على أني كسبت أصدقاء وإخواناً نتعاون على البر والتقوى.

قال ابن المقفع: أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس، ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه في المعاد إليهم، وأن يبين ما في الدين من الأخذ لذلك، والذي عليهم في تركه، وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلحقه أجره من بعد الموت. وقال أيضاً: مما يدل على علم العالم معرفة ما يدرك من الأمور، وإمساكه عما لا يدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب، ومعرفة زمانه الذي هو فيه، وبصره بالناس، وأخذه بالقسط، وإرشاده المسترشد، وحسن مخالقته خلطاءه، وتسويته بين لسانه وقلبه، وتحريه العدل في كل أمر، ورحب ذرعه «الصدر» فيما نابه، واحتجاجه بالحجج فيما عمل وحسن تبصره.

## عجائب عين النملة وغرائبها

لقد رأينا في المقال السابق سبب تسطير هذا المقال، فلنشرع الآن في المقصود ونقول: من عجب أن يكون لكل نملة خمسة أعين، ثلاثة منها أمامية في مقدم رؤوسها، وهذه الثلاثة كأعيننا في التركيب، ذلك لأنها ليست تتركب من أعين كثيرة، بل كل منها عين واحدة ترى كما ترى أعيننا، وهي مركبة من:

(١) عدسة محدبة الشكل، ولما كانت العدسة لا تقوم بالإبصار وحدها أمد الله عز وجل تلك النملة فزاد لها مادة أشبه بهذا الزجاج الذي نراه تسمى الزجاجية فكانت شفافة تحت البشرة.

(٢) ولما كانت العدسة والمادة الزجاجية لا بد لهما من مادة أخرى تتم بها الوظيفة جعل الله لها شبكية مركبة من خلايا مثنى وثلاث.

(٣) ثم يتصل بالشبكية أعصاب يسمونها «ليفية عصبية»، وليست الشبكية منعزلة عن العدسة بل لها قضيب يمتد إليها ويصلها بها.

(٤) وبين الشبكية والأعصاب الليفية خلايا تسمى الخلايا الإضافية.

(٥) وفي داخل تلك الإضافية خلايا أخرى.

(٦) ملونة بالسواد.

(٧) ومن الخلايا ما يكون قزحية العين.

فتأمل وتعجب في هذه النملة الصغيرة، وازدد عجباً في عينها الصغيرة البسيطة ثالثة الثلاثة، ونحن إلى الآن لم نتكلم على العين المركبة، وانظر كيف كان للعين عدسة كالعدسة التي في المنظار، وجسم زجاجي، وشبكية ليفية عصبية، وقضيب يصل الشبكية بالعدسة، وخلايا إضافية وأخرى ملونة بالسواد، وقزحية، فكل من هذه السبعة له حكم خاص به ومقياس لا يتعداه ومقدار لا يتجاوزه ولو نقص أو ازداد لاختل نظر تلك العين الصغيرة، ولو وقفت على نظام الشبكية وحدها وتركيبها من خلايا مثنى وثلاث لقضيت العجب في هذا الانقسام، فهذه العين على شدة دقتها أصبحت ذات أجزاء

سبعة، والجزء الواحد مركب من خلايا مثنى وثلاث، وكل خلية من تلك الجملة لو وقعت تحت المنظار كما رأيت أنا نظيرها تحت لرأيتها مقسمة أقساماً تعد بالمئات، مما يحار فيه العقل وتضل الفكر، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر: ٣١].

وهذه الأعين التي سميناها بسيطة خلقت على نوعين: نوع يكون في جانبي الرأس في غير النمل من الحشرات وتكون العين كرأس الدبوس، ونوع يكون في الرأس من الأمام، فالأولى وهي الجانبية تكون في الدودة التي استعدت لتنقلب حشرة، ولم تكن في الظلام ولا في ماء كثير الغذاء، فإن الحكمة الإلهية قضت أن لا يكون عضو إلا لمنفعة، وإذا نال الدود طعامه سهلاً فما منفعة العين؟ وإذا كان في الظلام فالعين عبء ثقيل على عاتقه، ويكون ضرها أكبر من نفعها فرفع الله إصر الأعين عن هذين النوعين وأنعم بها على غيرها من الحشرات، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]، ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: ٤].

## جوهرة بديعة

لقد يضل علماء الحشرات فلا يتبينون الذكر من الأنثى في تلك الحشرات الصغيرة، وإنّما يعلمون ذلك بكبر تلك الأعين في ذكور بعض الحشرات، واقترابها من بعضها، دلالة على النشاط والقوة، حيث يبحث الذكر على الأنثى، ولولا تلك القوة والأيد ما استطاع سبيلاً للإنتاج، ولا نقرض النسل وذلك خلل النظام. هذه نبذة صغيرة في عين النمل البسيطة من الثلاث المقدمات.

سؤال: ولعلك تقول: كيف يحتاج بعد هذه الأعين الثلاث إلى الأعين المركبة التي سنشرحها؟ وذوات الأربع من الحيوان والإنسان كلها كفاها عينان، وأعمالها عظيمة وحاجاتها أعظم، فما النملة حتى يعوزها عينان مركبتان بعد هذه الثلاث المنظمة العجيبة؟.

نقول: على رسلك، إن هذه الأعين محدبة تحديباً حاداً، والعدسة ثابتة لا تتحرك، والمسافة بين العدسة وشبكية العين ثابتة، فلا جرم يجب أن يكون المرئي على مسافة معلومة ثابتة بينه وبين عين الحشرة، والتحديب الحاد يوجب قصر المسافة. ولقد أعموا حشرة بحيث غطوا أعينها المركبة التي سنتكلم عليها بمحلول معتم، ووضعت الحشرة بعد ذلك في صندوق مظلم ذي ثقب واحد مضيء، فخرجت الحشرة من ذلك الثقب سواء كان بعين بسيطة واحدة أو باثنتين أو بثلاث، فظن بعض العلماء استنتاجاً أن هذه الأعين لا يتميز بها إلا الضوء، فأما معرفة القرب والبعد والشكل والحركة والسكون واللون وما أشبه ذلك فإنه يكون بالعين المركبة.

## العين المركبة

ولئن عجبت من عين النملة البسيطة مرة لتعجبن ألف مرة من عينيها المركبتين. إنهما خلقتا على جانبي الرأس وكثيراً ما تملآن ذينك الجانبين وتتركبان من أعين خضر مستديرة أو مسدسة، كما في خلايا النحل، فإنها مركبة من أشكال هندسية عجيبة مسدسة لحكمة ذكرناها في كتبنا كـ«جمال العالم» و«جواهر العلوم» وغيرها، وقد قدمنا أن هذه الأعين ليست خاصة بالنمل، بل إنها تشمل سائر الحشرات، وتكون العين مركبة من ١٢ عيناً في حشرة تسمى «ليبزما»، ويصل عدد تلك الأعين إلى ٢٧,٠٠٠ عين في العين الواحدة في الحشرة المسماة «اسفنكس كونفولفولاي» وهي أشبه بالفراش

الذي يعيش على القطن وتقدم بيانه، وهذه أكبر من حشرة القطن حجماً كما رأيتها بعيني رأسي في الرسم. عين النملة كما تقدم مركبة من مائتي عين إلى ٤٠٠ عين، وليست الأعين الصغيرة متساويات المساحة فيكون حجمها من $\frac{١}{٦٠٠}$ من البوصة أي ٠١٦, ٠ من المليمتر أو ٠٠٩, ٠ من المليمتر، وإذا كان عينا النملة مثلاً مركبتين من ثمانمائة عين على أكثر تقدير، فتعجب وانظر تشريح كل عين من هذه الأعين وتأمل في نفسك وعقلك وتركيبك، واعجب من إتقان المبدع الحكيم لأدنى الأشياء وإحكامه لها، وافهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧].

بل كيف يقرأ الإنسان علم عين النملة ولا يوجه قلبه إلى هذا المبدع الحكيم الذي نظر إلى النملة وعينها كما نظر إلى الشمس وقمرها والنجوم ونورها والجبال والشجر والأنهار. فانظر كل عين في التشريح ترها تتركب مما يأتي:

(١) من قرنية العين، وهي خلية بشرية ذات أديم شفاف محدب الشكل مكسر للضوء، وأعلى هذه القرنية تارة يكون أوسع من أسفله وتارة يكون العكس.

(٢) وحول أسفل القرنية أهداب تكتنفه تختلف في نظامها ومقدارها وشكلها باختلاف الحشرات.

(٣) ويلي القرنية من تحتها مباشرة مخروط يختلف حجمه باختلاف الحشرات.

(٤) ومن تحته عدسة كالبللور مركبة من أربع خلايا أو أكثر، ومن الحشرات ما لا عدسة له ولا مخروط له ويكون أربع خلايا بدلهما.

(٥) ثم تكون القضبان وهي حزمة منها ممتدة امتداداً طولياً على محور العين.

(٦) وتحيط بها خلايا مستطيلة وهي مكوبة شبكة العين.

(٧) وهناك منطقة خارجية ملونة بالسواد حول الشبكية كأنها درنات صغيرة في الخلايا القصيرة حول الشبكية وهذه تسمى منطقة حدقة العين.

(٨) ومنطقة أخرى داخلة وخلاياها الملونة طويلة ومستديرة وهي تفصل كل عين عن الأخرى.

(٩) لكل عين حزمة من العصب البصري.

(١٠) ولذلك العصب ليف عصبي منفرج عنه داخل في العين مار.

(١١) بالنسيج الأساسي وبالعصب.

هذا تشريح كل عين من العيون المكونة للعين الواحدة، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠] نعيماً للعلماء وملكاً للحكماء، وهل ملك الحكماء إلا سعادة النفوس وخلاصها من أسر الطبيعة ودناسة الأخلاق؟. وهل دار في خلد أحد يوماً ما وهو يطأ النمل برجله ويدوس عليه بسنابك خيله ويطأه بأخفاف خيله ويذيقه الموت أفواجاً أفواجاً أن لكل عين من عينيه نحو ٤٠٠ عين، لكل عين قرنية شفافة كالقرنية التي في ظاهر أعيننا وسميت كذلك لأنها أشبه شيء بالقرن، وحولها أهداب كأهداب أعيننا تليها عدسة أو ما يشبهها كالعدسة التي في أعيننا، ثم شبكية كالشبكية في أعيننا

ومنطقتان ملونتان بالسواد لئلا يشع النور من العين حتى يكون محصوراً فيها، وأعصاب بصرية تصل إلى الدماغ ليحكم إدراك النملة على الأشباح التي أمامه، وما أشبه عيني النملة إلا بتلك الثريات المعلقات في الأماكن الشريفة بحيث يكون في كل منها أربعمائة قنديل.

وعلى ذلك ليست تلك الثريات «النجفات» إلا مجموع قناديل مضيئة مشتركة تترقرق حسناً للناظرين، فهكذا كل عين مجموع عيون مضيئات مشرقات للنملة هاديات لها، ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ١-٣]، النملة وسائر الحشرات ضعيفة، ولقد قضت الحكمة أن لا يعطى الشيء إلا بمقدار، عميت الحشرات التي تعيش في الظلام، وهكذا التي كان عيشها رغداً لا حاجة لها في طلب الرزق، فأما أمثال النمل فإن لها من المصالح والأعمال ما لا حصر له كما أوضحته في «نظام العالم والأمم» و«جمال العالم» وغيرها، وكان من الحكمة أن لا تجتزئ بالأعين الثلاثة البسيطة، بل منحت تلك المئات من العيون بحيث ترى كل عين منها جزءاً من الأشباح التي أمامها، ولقد بحث «ملر» و«اكسنر» في هذه الأعين بحثاً مدققاً، فوجدا أن كل عين لا ترى إلا ما أمامها.

فأما الأولون فقد ظنوا أنها ترى الشبح كله كما ترى الأخريات، ولقد وضع «اكسنر» العين المركبة تحت المنظار المعظم ونظر فيها فلم تر كل عين إلا ما أمامها، وضرب لذلك مثلاً فقال: هذه الأعين كأنابيب من الزجاج متجاورة ملونة بالسواد فهل ترى كل منها ما أمامها؟ أوليس كون السواد في كل عين وكل أنبوبة زجاجية يحول دون شع النور منها، ولقد أزال «اكسنر» القرنية والمخروط ليعلم ما حكمتهما، وهل تبقى العين مبصرة كما هي أم ماذا يكون؟ فنظر فيها فوجد الأشباح اقتربت واندمجت، وعلم أنه لولا القرنية ولولا المخروط ما وضحت الأشباح للنملة ولا اختلط عليها الأشباح وضلت سواء السبيل.

يقول «اكسنر»: إن الحشرات ترى الأشباح وحركاتها بسرعة غريبة، فإن تلك الخلايا المسودة لتنقبض وتنبسط على حسب مقتضى الأحوال، كما أن إنسان العين في الإنسان يضيق ويتسع كذلك تبع كثرة النور وقلته، وذلك يعين الحشرات على سرعة الإدراك والنظر السريع بحيث لا يعوزها حركة العين ولا حركة الرأس، فإن الشبح المتحرك تصل صورته إلى مئات العيون أسرع من البرق، وتحس تلك العيون كلها مرة واحدة بتلك الحركة من جهات كثيرة، فما أسرع فرارها وأبدع خالقها، ولذلك ترى الحشرات كالذباب والنمل والنحل سريعة الحركة قريبة الهرب من كل حادث قلّ أو جلّ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧] أشهد أن الذي أبدع عين النملة وأفرغ عليها من الحكمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب غافل؛ يعطي الأمة التي أراد حياتها رجالاً مفكرين وقادة قادرين وحكماء ماهرين وعظماء مسيطرين، ويمدها بنوره وحكمته ويعطيهم من لدنه علماً، فيكون عيونها الصغيرة المستمدة من النور الإلهي العام المحيط بالكون، ثم يكلؤهم برحمته ويجعلهم تحت رعايته حتى تعيش الأمة في سعادة وهناء وحبور، أوليس الذي أمد النملة بعيونها هو الذي يمد الأمة بحكمائها وعلمائها؟ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ ﴾[الملك: ١] وهو بالشكر جدير. انتهى يوم الأحد ٢٢ رمضان سنة ١٣٣١ هـ الموافق ٢٢ يوليو سنة ١٩١٦ النمل بمدينة إسكندرية بجهة أبو وردة.

وهذا ما كتبه الأستاذ الفاضل شوقي بك بكير وكيل إدارة البساتين الآن الأخصائي في هذا الفن. لقد رأيتها وقرأتها فوجدت جميع المباحث العلمية التي فيها صحيحة وأنا مترجمها بمعرفتي. والحمد لله رب العالمين.

## النحل بعد النمل

ما كنت أعلم وأنا أكتب تفسير سورة «النحل» عدد عيون النحلة، ولذلك لم أكتب شيئاً في ذلك، ولم أعلم أن عيونها بحسب الظاهر خمساً كعيون النملة، فاعجب لما قرأته الآن من العجائب إذ ثبت أن عيون النحلة خمس: منها ثلاث عيون صغيرات مجموعة في مثلث في وسط الجبهة، فأما العينان الباقيتان فهما كبيرتان واقعتان في جانبي الرأس، وهما المقصودتان بالكلام، ويقولون: «لو كان للإنسان هاتان العينان لرأى آلافاً من الأشياء»، ويقولون: إن ملكة النحل لها ٤٠٠، ١ عدسة صغيرة، وأما النحلة العادية فإن عينها الكبيرة تشتمل على ٤٠٠٠ عدسة، وهذه الأعداد في إحدى المجلات المصرية فتأمل، وقوتها كقوة عدسات الملكة، ويقرر الأستاذ «كارل فريش» وهو أكبر عالم في دراسة النحل أن أشعة عين النحلة مثل أشعة «اكس» تخترق الأجسام الصلبة وتريها ما وراءها، وذلك بما ثبت له من التجارب، هذا ومن اطلع على ما جاء في هذا التفسير في إلقاح النبات كما في سورة «الحجر» وفي سورة «البقرة» و«الأنعام» في آية: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الحجر: ٢٢] في الأولى، وآية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٦٤] الخ في الثانية، وآية: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾[الأنعام: ٩٩] في الثالثة؛ أدرك أن النمل وغيره من الحشرات تتوقف حياة الإنسان على وجودها. ألا ترى رعاك الله أنه لولا هذه المخلوقات الصغيرة ما أمكن أن تثمر كثير من الأشجار، فهذه الحشرات هي الملقحات لها فيها يكون الإثمار، والله هو الولي الحميد، والحمد لله رب العالمين.

## اللطيفة الرابعة: كيف ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ ﴾ الخ وكيف سمع سليمان عليه السلام ذلك

إني أعلم أنك أيها القارئ لهذا التفسير تقول: إن الحكمة والفلسفة ليس فيهما ما يؤيد كلام النملة ولا أن سليمان سمعها، وكيف يسمع من غير متكلم؟ وكيف تكلم هي النمل والنمل يسمعها؟ وكيف علمت هي بحضور سليمان وجنوده، تقول ذلك في نفسك وتجيب فتقول: إن هذا ما جاء به الوحي، فلا قول لنا فيه، ولكن إذا سمعت ما أتلوه عليك الآن تدهش من العلم الحديث والحكمة.

اعلم أن الله جعل الأنوار مالئة لهذا الوجود، ولم يجعل العالم مظلماً بل جعله مضيئاً، وخلق المرآة لننظر بها ما لا نتمكن من رؤيته، وفوق ذلك جعل من ضوء الشمس صوراً تبقى رسومها إلى آخر الزمان، وخلق الحواس وهو حقاً ﴿ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٥]، فكان مقتضى هذا أن يجعل بني آدم وجميع الحيوانات تقرأ ما في صدور بعضها، بحيث يعرف الإنسان ما في قلب أخيه والحيوان كذلك.

هذا مقتضى الرحمة وسعة النور والجمال، ولعلك توافقني أنه كان ذلك أرحم بنا وأنفع، أقول لتعلم أن هذه الأمنية الآن موجودة فعلاً فينا وفي الحيوان. إن بيننا معاشر بني آدم محبة وبغضاء وأموراً كثيرة نشعر بها، وبعض بني آدم أضعفوا القوى الظاهرة فانكشف لهم بعض ما في القلوب وعرفوه بلا كلام ولا تعريف، وهؤلاء قليل من النوع الإنساني، وتوافق الخواطر من هذا القبيل.

أما الحيوانات فإنها مطبوعة على قراءة الأفكار بطريق الإلهام، والناس سيأتي لهم يوم يكون المرء مرآة لأخيه ويحدثه على بعد كالتلغراف الذي لا سلك له، ويصبح الإنسان عند كشفه لما في نفسه من تلك المنحة عالماً بما في قلب من يريد التوجه له في المخاطبة القلبية، فعلى هذا المبحث الجديد يكون قراءة الأفكار عند الحيوانات طبيعية وقد كانت كذلك عند الإنسان ولكنه غطاها لما نبغ في الخطاب والكلام فنامت تلك المزية.

وهاك ما جاء في الجرائد المصرية يوم ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٣هـ ـ ١ يونية سنة ١٩٢٥م تحت عنوان:

## التلغراف اللاسلكي وتبادل الخواطر

بحث الأستاذ «برسي» أحد علماء الطبيعة الإنجليز موضوع التلغراف اللاسلكي وعلاقته بتبادل الخواطر فكتب مقالاً طريفاً ننقله عن صحيفة إنجليزية.

بدأ العالم المذكور بحثه بالرجوع إلى أن أول من فكر في استعمال الكهرباء لنقل الكلام والرسائل هو كاتب إنجليزي في مقال نشره عام ١٧٥٣ في «سكونس مجازين»، وبعد ذلك بقرن تكلم عالم آخر إنجليزي عن التلغراف الكهربائي، وذهب في سياق بحثه إلى توقع نقل الرسائل الكهربائية بدون استعمال الأسلاك. ولئن كان موضوع التلغراف اللاسلكي اليوم قديماً في نشأته فسيجيء اليوم الذي يصل فيه المجهود الفكري إلى استعمال التليفون اللاسلكي حتى يتخاطب اثنان في طرفي الأرض معاً دون اتصال الآلتين اللتين يتكلمان بواسطتهما بشيء من الأسلاك البرقية. إن أسهل طريق لتفسير التلغراف اللاسلكي هي استعمال الظاهرة الطبيعية المماثلة لسلك تهتز بتماوجات مؤتلفة مع النغمة الصادرة من سلك آخر، على أن يتمشى كلتا النغمتين على وتيرة صوتية واحدة، فالنغمات الصوتية السارية في السلك الأول تنتقل في الهواء إلى السلك الآخر، وبفعل تموجات النغم في الهواء ينتقل الصوت إلى ذلك السلك، هذا في حالة وجود الأسلاك، ولكن في النقل غير السلكي يحصل المتكلم على الاهتزازات بواسطة الكهرباء، فتنتقل الأصوات بواسطة الأثير الهوائي إلى درجة لاسلكية متفقة في النغم مع الدرجة الأولى المنتقل منها الصوت، تنتقل التموجات الصوتية في الهواء بمعدل ألف ومائة قدم في الثانية، أما التموجات غير السلكية فتسير في الهيولى بمعدل ١٨٦ ألف ميل في الثانية، مما يقف أمامه الفكر البشري حائراً، لأن الخلاف بين السرعتين في الهواء والهيولى عظيم جداً، ويعتقد بعض العلماء اليوم أن تبادل الخواطر هو مستوى القوة التي تمكن الشخص من نقل آرائه إلى الشخص الآخر بدون أية واسطة مادية أو ظاهرية، فهل هذا الرأي ممكن أو محتمل الوقوع؟ وإجابة على ذلك يقول العالم الإنجليزي صاحب المقال: «إن نقل الأفكار قد يحدث في أوقات شاذة وحالات خاصة وذلك ما

لا يعارض فيه أحد من الباحثين، ولكنه لا ينطبق على الحالات العامة، وذلك التبادل قد يرى بوضوح بين الحشرات والحيوانات عند اقتراب الحشرة من الأخرى»، ويقول الباحثون: «إن السبب في ضعف هذه الملكة في الإنسان هو عدم استعمالها بعد أن تمكن من الكلام والخطابة». ويرى كثيرون من الطبيعيين وصائدي الحيوانات والطيور أن ملكة تبادل الخواطر تشتد ظهوراً كلما اشتدت حاجة الحيوان أو الحشرة، وإذن يظهر ذلك كثيراً بين الحيوانات في أدنى مرتبة والطيور في جميع مراتبها.

أما الإنسان فيتركب من خلايا لا عدد لها، ولكل خلية من جسمه عمل خاص، ولا تتحرك الخلية إلا تبعاً لعمل كيمائي، ويختلف تفاعل الإلكترونات في الخلية من هذا الجسم عن الخلية من الجسم الآخر. وتبعاً لذلك نرى كل رأي نتيجة لعمل الثقوب الخلوية في المخ، وعن ذلك يحدث التفاعل الكهربائي المضطرب، وقد يوجد في بعض الأحيان توافق بين خلايا مخين وتحريك تلك الخلايا، وعند ذلك فحسب يحدث تبادل الخواطر. اهـ.

فانظر ألست ترى أن هذا المبحث يقرب هذا الموضوع، وبه نعرف أن الحيوانات تكلم بعضها بنقل الأفكار، والنمل من هذا القبيل، وأن الإنسان مستعد لذلك لأنه من جملة مواهبه، ولكن هذه الموهبة تجيء تارة بطريق الوحي الخارق للعادة، وتارة بالتمرين، وهو ما سيجد فيه الناس كما رأيت، والحمد لله رب العالمين. هذا ما كتبته عند تأليف الكتاب، وعثرت عند الطبع على موضوع جميل في الكتب الإنجليزية، فهاك ترجمته تحت عنوان:

## الحشرات والنمل

إن الأرض لمزدحمة بالحشرات، وإنها لكثيرة فيها، مختلفة الحجوم والأشكال والألوان، ولها من المنافع العظيمة ومن الأعمال ما لا حد له. في الأقطار الحارة تكثر الحشرات لملاءمة الطقس لها، وأن بعضها لشديد الإيذاء والإضرار لنوع الإنسان، وليس من السهل أن يأتي الإنسان للحشرات بتعريف جامع مانع، وإنما يمكن تمييزها عن سواها من الحيوانات بثلاثة أحوال:

**الحالة الأولى**: أنها على اختلاف أنواعها وأجناسها مكونة من ثلاثة أجزاء: الرأس والصندوق والبطن.

**الحالة الثانية**: أنها لا بد أن تمر في أدوار تكوينها في أربعة أدوار: **الدور الأول**: أن تكون بيضة. **الدور الثاني**: أن تكون دودة. **الدور الثالث**: أن تكون «فيلجة» أو شرنقة، أي أن تنسج على نفسها نسجاً حريرياً تنام فيه أياماً كدودة القز. **الدور الرابع**: أن تصير تامة التكوين بأجنحة وأرجل تامة. الخ.

**الحالة الثالثة**: أن كل حشرة لها ستة أرجل.

هذه هي الخواص التي اشتركت فيها سائر الحشرات، وربما كان أنبل الحشرات وأهمها وأكثرها فائدة النمل، وإليك وصف بعض أحواله وأعماله.

## النمل

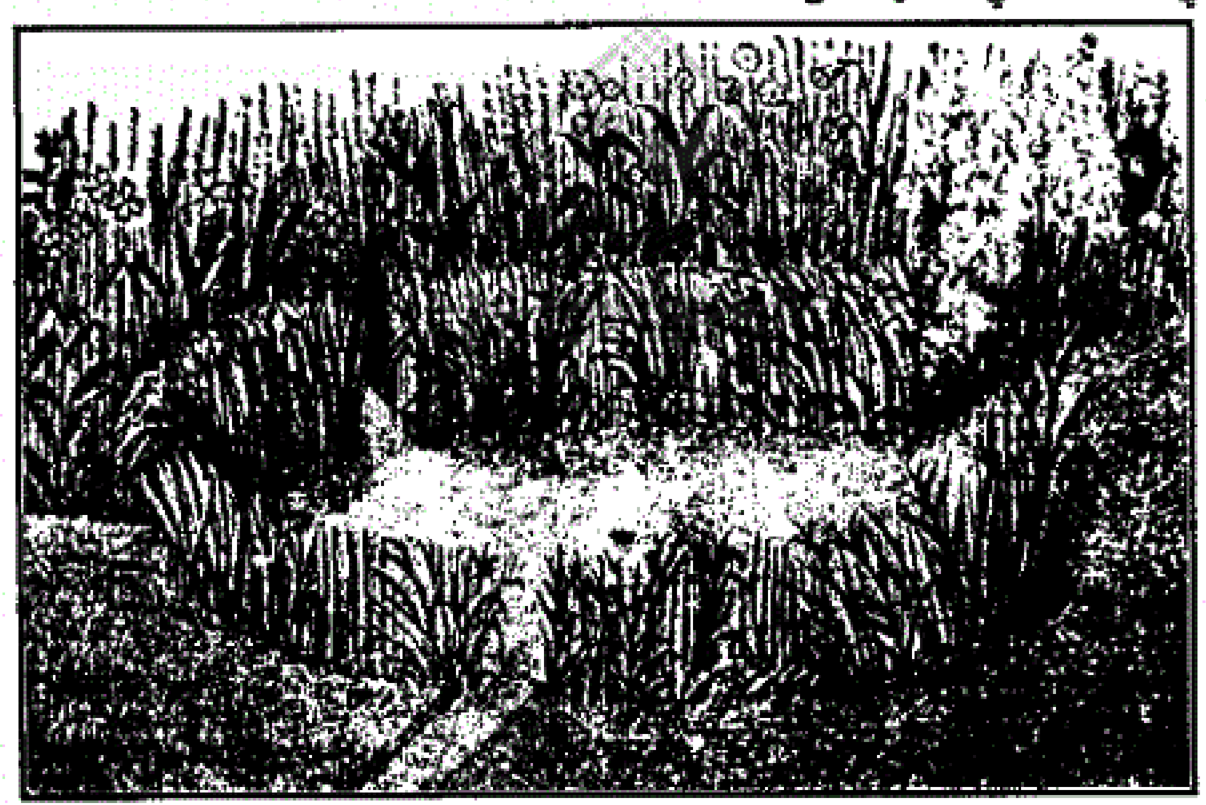
إن النمل لترى في كل مكان في الدنيا، وهي وإن اتحدت مظاهرها في سائر الأقطار تختلف اختلافاً بيناً في طبائعها وطرق معايشها في الحياة.

## مساكن النمل

إن النمل لتعيش جماعات كثيرة العدد في أماكن مبنية تحت الأرض أو بارزة فوقها كالآكام، ومساكن النمل مفصلة تفصيلاً عجيباً ومقسمة إلى حجرات مختلفات المنافع والأغراض. فترى حجرات كبيرات ليعيش فيها النمل، وهناك الأظآر «جمع ظئر» المربيات للصغار يعتنين بهن اعتناء يفوق الوصف إطعاماً وتنظيفاً وترتيباً كما تربي النساء أطفالهن في نوع الإنسان، وتحت هذه الحجرات حجرات أخرى جعلها النمل مخازن للبذور والحب ادخاراً للقوت في مستقبل الأيام، وهذه الحجرات متصلات بطرق شاذة الوضع غريبة النظام كما أنها في خارج تلك المنازل قد صنعت طرقاً غريبة توصل إلى مداخل مختلفات.

## أعمال النمل

إن من النمل ما اختص بجلب الحشرات النافعة لغذائها كما يفعل الإنسان بتربية البقر والاغتذاء بلبنه، ومنه ما يحارب ويجندل الأعداء في الميدان ويجلب الأسرى ويسخرها في عمل نافع للغالبين، ومنه ما هو فلاح حقيقي يزرع الأرض ويحصد الزرع ويخزنه كما يفعل الإنسان، وهاك صورة المزرعة النملية وهي الأرز النملي (انظر شكل ١١).



(شكل ١١ـ رسم المزرعة النملية وهي الأرز النملي)

هذه هي المزرعة النملية بأربع طرق، وما تراه الآن هو أرز النمل الذي ينمو محيطاً بالمزرعة. إن في الجزائر البريطانية نحو ٣٠ نوعاً من النمل. وفي العالم كله أكثر من ألف نوع مختلفات الأطوار. إن النمل في بعض البلدان تبني مساكنها مجتمعة، فيصل ارتفاعها من عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً فوق الأرض، وتكون بذلك صورة قرية بارزة ظاهرة للناظرين، وفي أقاليم أخرى تكون النمل قوة مزعجة مهلكة شديدة الخطر على الأحياء، وقد تكون مستعمرات النمل في دور الكتب فتختط لها طرقاً ومسالك تسلك سبلها وتذلل طرقها في بطونها، ولا يتم ذلك إلا بإتلاف الورق أكلاً وتمزيقاً، فلا يمضي زمان قليل حتى تصبح المكتبة كأنها لم تكن بالأمس، عديمة الجدوى فاقدة المنافع.

إن منظر النمل عادي نراه في الحدائق وفي غيرها من الأرضين وهن غاديات رائحات عاملات ناصبات كل حين، لا يظهر عليهن أدنى ملال أو تعب. إن كل نملة عالمة تمام العلم بما عليها من الواجبات قائمة بعملها حق القيام بكل قوة وإتقان. فإذا حل فصل الربيع شمرت النمل عن ساقها وهبت لعملها بلا إبطاء، فلو رأيت ثم رأيت جماعات كالموج غاديات رائحات بين أشجار الصنوبر التي يغلب بناء بيوتها فيها، وقد اجتمعت الجموع المائجة فوق تلك القرى والمنازل لإتمام بناء مساكنها وبناء الغرفات فوق الحجرات.

إن من النادر أن يلتفت الإنسان أو يفكر في اجتهاد النمل في عمله العجيب، انظر إلى جماعات النمل تحاول انتزاع قطعة من الخشب، وتجد كل الجد أن تأخذها لاستعمالها مع أنها أثقل من أجسامهن كثيراً، وكيف تراهن حول قطعة من الخشب كبيرة يحاولن دفعها تارة ورفعها أخرى وجذبها بقوة ليجعلاها في المكان اللائق وضعها فيه.

إن النمل تأبى كل الإباء أن يطلع أحد على أسرارها أو يتطفل عليها لمعرفة نظامها العجيب في الحياة، ولو اتفق لك أن اقتربت من أحد مداخلها الموصلات إلى منازلها لرأيت الأعمال جارية بأدق ما يتصوره الإنسان محكمة الترتيب، وليست في إتقان عملها بأهدى سبيلاً منها في لذع هذا المتطفل الجالس على الأبواب بحمتها الحادة النصال. النمل مختلفات الأنواع فلا ترى نوعين يتفقان في ظواهر الأجسام ولا في طرق أعمال الحياة.

إن النمل في الجزائر البريطانية أصغر منها في بلاد أخرى وأكبر النمل في ذاته صغير. ومن عجب أن يكون صغير الحجم دقيق الجسم وقد امتاز بالذكاء والعلم. ويدهش الإنسان من رأس ضئيلة تحوي فكراً قوياً متيناً.

إن للنمل خمسة أعين: ثلاث منهن بسيطات كأنها مثلث، واثنتان كل منهما مركبة من مئات العيون كما تقدم قريباً، وله زائدتان كالشعر تشبه الرجلين أو اليدين ينبتان على جانبي الرأس يحس بهما ويزاول بهما الأعمال كذراعي الإنسان ويديه وأصابعه، وله فكان حادان جداً وأرجلها الست ملتصقة بالصندوق.

إن بيض النمل يفقس ما بين ١٤ يوم و٣٠ ويسير في أشكاله التي قدمناها، وحينما تكون دودة أو فيلجة «شرنقة» تكون خالية من الرجلين والجناحين عاجزة يكفلها النمل الكبير، ولو رأيت ثم رأيت الآباء يحملن الأبناء في المهد من حجرة إلى حجرة طلباً للدفء والحفظ والقرار.

إن الدودة لا تنقلب إلى فيلجة إلا بعد أسابيع إذ تنسج فيها على نفسها خيوطاً حريرية أشبه بما تصنعه دودة الحرير، بل كل الحشرات هكذا، ولكن دودة الحرير أظهرهن في ذلك، ثم تنقلب حشرة تامة في آخر الأمر وذلك بعد تمام النسج وكمونها فيه بأيام قليلة، ومما تلذ رؤيته أن يشاهد الإنسان تلك الفيالج وهي الكرات الحريرية وقد أخذت النملات الصغيرة تتحرك من داخلها وقد شق عليها ذلك، فترى النملات الكبيرة أسرعت لمساعدتها وحل أربطتها وتنظيف أجنحتها وفك أرجلها من تلك الخيوط. وهذه النملات المساعدات أشبه بالقابلات والأطباء المختصين بالولادة. فخروج النمل

الصغير من النسج الحريري أشبه بالوضع، وعسر الخروج كعسر الوضع، والمساعدة هناك محتمة على الآباء في قرية النمل.

إن هذه الدنيا عجب وأي عجب. إن الأمر لعظيم. فما هذا الحنو والشفقة والحب والمساعدة للذرية النملية التي نطؤها بأرجلنا ونحقرها ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

فيا ليت شعري كيف غفل عن هذا الجمال المسلمون وأوروبا ظفرت به وهم نائمون، اللهم إنك قد وفقتني أن أؤدي ما علي لأمة الإسلام، فأسألك أن تجعل هذه المباحث عامة فيهم إنك أنت السميع العليم.

واعلم أن النمل يقطع أجنحته قصداً متى دخل في أعمال عظيمة كبناء المساكن، وهذه صورة مساكن النمل (انظر شكل١٢)

إن في (شكل١٢) بهواً كبيراً مرفوعاً سقفه على عمد، وهذا البهو العظيم المتسع الشكل يفتح فيه ثلاث حجرات صغيرات جداً بالنسبة له، وهاك بيانه:

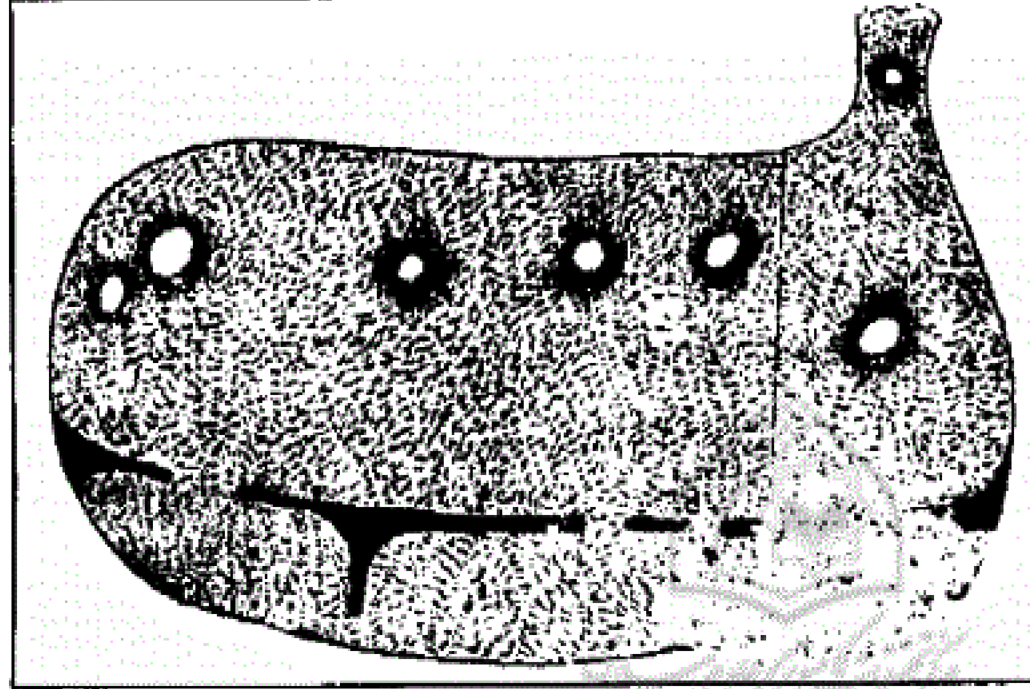
(أ) الأعمدة التي رفع سقف البهو الكبير عليها وحفظه

(ب) البهو الكبير وهو أهم ما في المسكن.

(ج) أجزاء من الحائط.

(د) الحجرات الداخلة وهي الصغيرة.

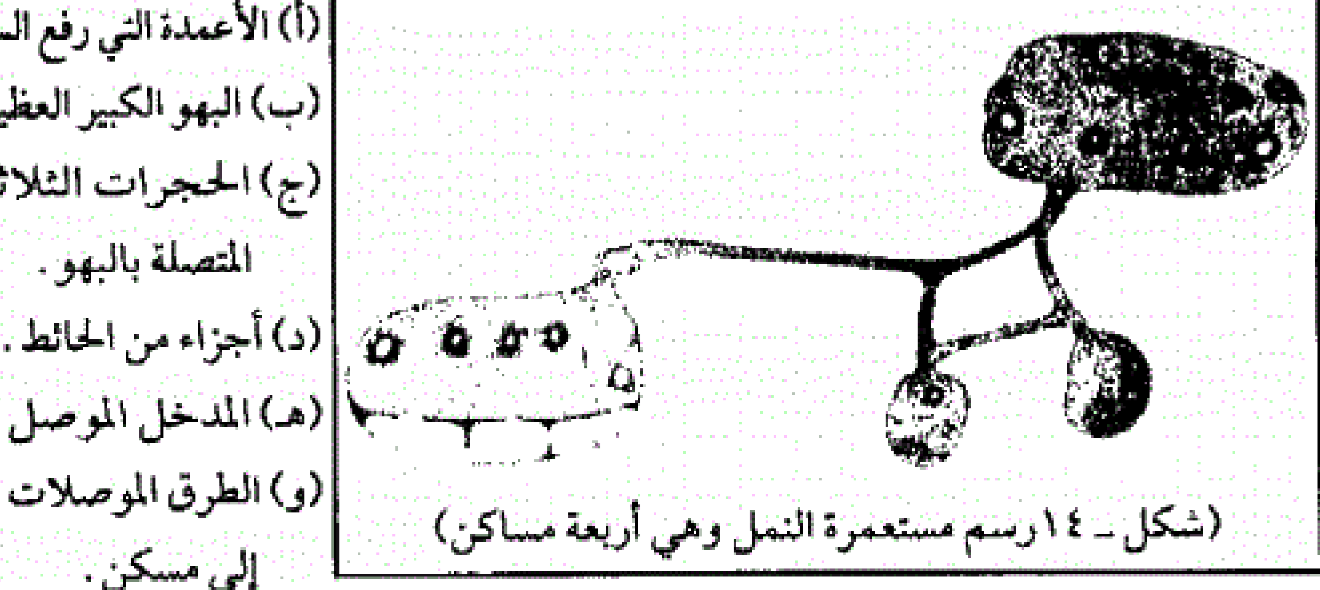
(هـ) البوابة والمدخل العام.



(شكل ١٢ ـ رسم مساكن النمل)



(شكل ١٣ ـ هذا مرتفع قدر ارتفاعه الطبيعي مرتين)



(شكل ـ ١٤ رسم مستعمرة النمل وهي أربعة مساكن)

(أ) الأعمدة التي رفع السقف عليها.

(ب) البهو الكبير العظيم الاتساع.

(ج) الحجرات الثلاثة الداخلة المتصلة بالبهو.

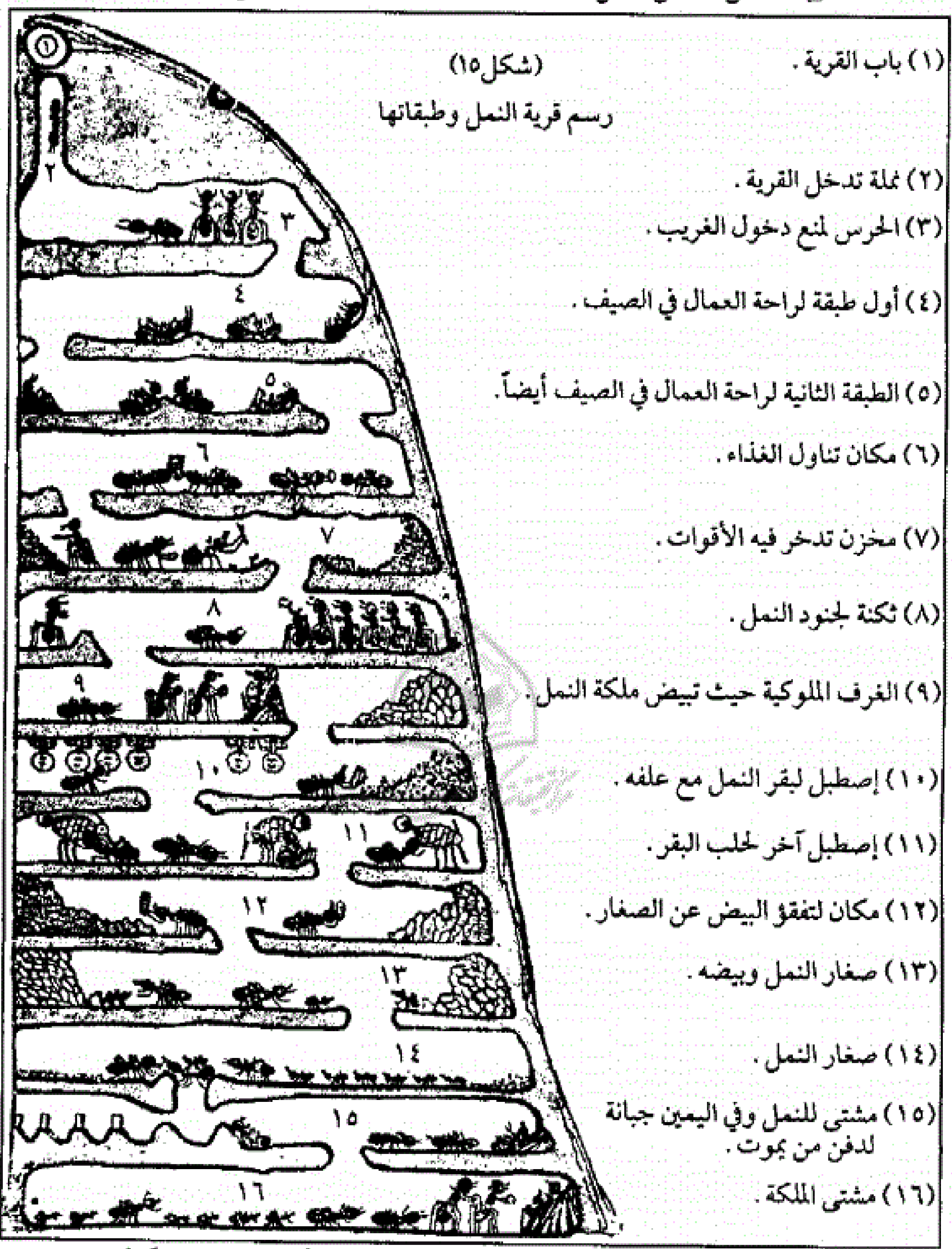
(د) أجزاء من الحائط.

(هـ) المدخل الموصل للمسكن.

(و) الطرق الموصلات من مسكن إلى مسكن.

انتهى ليلة الثلاثاء ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٦م من «لونجمان» الجزء الرابع.

هذا، وإن أحسن مساكن النمل وأجملها فيما رأينا هذه الصورة (شكل ١٥).



(شكل١٥)
رسم قرية النمل وطبقاتها

ثم إنه لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال: لقد أحسنت صنعاً وشرحت صدراً وأشعت للعلم ذكراً. إنك قد شرحت طرق النمل ومزارعه وأفضت فيه ورسمته وأديت الواجب في ذلك، فلم لم ترسم النملة حتى نطلع على أجزائها وأعضائها وندرسها حق دراستها؟.

فقلت له: لقد طال المقال وأنا أحب الاختصار لأن المقام مقام تفسير، فقال: عجباً لجوابك وما أقربه إلى المواربة، كيف اعتنيت بالعرض وتركت الجوهر. إنك أريتنا نفس مزارع النمل ورسمت الطرق

والمساكن والطرقات والمستعمرات، بل ذكرت عدد الأرجل والأجزاء التي ركبت منها النملة وهي ثلاثة، وذكرت درجاتها الأربعة في النمو، فلم رأيناك رسمت المساكن والمزارع وتحاشيت رسم النملة؟.
فقلت له: إن النملة يعرفها الناس ولكنهم قط لم يعرفوا مساكنها ولا مزارعها، وإني أقول لك الحق إنني كنت مذ أمد قد رأيت رسم الزراعة في الكتب الإنجليزية ثم مضت عشرات السنين وأنا أقول في نفسي: أين هذا الرسم؟ ولما قرب طبع تفسير هذه السورة وقع الكتاب في يدي مصادفة فسررت جداً ورسمته، أما النملة فإن الناس يعرفونها. فقال: كلا، إن الناس لا يعرفون النملة إلا كما يعرفون أجسامهم فهم في كل وقت يغدون ويروحون ولا يفكرون في أجسامهم وعجائبها. فكل يقول أنا أعرف النمل وهو لا يعرفه، ومن ذا الذي رأى أرجلها الستة أو عضويها الحساسين النابتين في جانبي رأسها؟ فرسم هذا الحيوان يجعلنا نعرف أجزاءه، إن المسلمين أصبحوا في أخريات الأمم بما فرطوا في هذه العلوم.

ويا ليت شعري كيف يسمي الله تعالى سورة باسم « النمل » وأخرى باسم « العنكبوت » والمسلمون يجهلون الحشرات ومنها النمل وهكذا العناكب. إن رسم النمل والعنكبوت وأمثالها يسهل على المسلم فهم الحيوان ودرسه، والذي يخيل لي أنك تخشى اعتراض بعض الفقهاء في التصوير، ولشدة حرصك على رضاء جميع المسلمين راعيت المتشددين فيهم، وأنت إذا فعلت ذلك وراعيته فقد تركت الواجب، وكيف تخشى ذلك وقد ألف أحد المفتين بمصر رسالة في جواز ذلك ـ هذا المقام مستوفى في سورة يونس فراجعه ـ فقلت له: الأمر لا يحتاج إلى فتوى ولا إلى تأليف رسالة ومن أجهل ممن يفتري على الله الكذب ويحرم ما هو واجب وجوباً عينياً أو كفائياً.

إن هذه العلوم إما واجبة وجوباً عينياً لازدياد الشكر لله تعالى، ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا هو العلم المحبب في الله المعرف لقدره، فالاطلاع على هذه العلوم يزيد في معرفة الله وفي شكره وهذا واجب على القادر، أي أن الزيادة فيه واجبة على من يقدر، وإما فرض كفاية من حيث منافعها العامة كما تقدم في سورة « المائدة » مشروحاً عن الإمام الغزالي مفصلاً.

ولما ترك المسلمون دينهم وأصوله وعجائب صنعه قيض الله لهم الفرنجة فأذلوهم ليرجعوا العلوم. فقال: زدني في هذا الموضوع. قلت: أنت تقول إن المفتي المصري أفتى بالجواز، وأنا أقول لك: هو واجب، ومن حرم من المسلمين الواجب فهو معتوه، ولم يرد في الكتاب ولا في السنة تحريم النظر إلى الظل. فقال: وهل الصورة ظل؟ فقلت: إن هذه الصور التي يأخذها المصورون لم يصورها أحد بل صورها الله، ألا ترى أنها عبارة عن أشعة شمسية ظلية واصلة إلى خزانة المصور فيثبتها في لوحة، فهذه الأشعة أو الظلال من الشمس، فثبوتها في ورقة لم يخرجها عن كونها ظلاً ولم يخرجها عن كون الله هو نفسه الذي رسمها بشمسه. أليس من عجب أن الناس يحتاجون لفتوى على جواز النظر إلى الظل، وإذا جاز لنا النظر إلى ظل الأشجار، فهل يحرم علينا تكرار النظر إليه؟ فقال: كلا. قلت: هكذا هنا هذا ظل أثبتناه ونظرناه فحكمه لم يتغير.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾[الرعد: ١٥] جعل الله الظل ساجداً لربه.

وقال في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾[الفرقان: ٤٥] أي: الظل، وقد أسكن الله الظل في هذا الزمان بالتصوير، وإنّما أسكنه الله في الأرض ليوقظ الناس للعلوم، فإن رسم الأشكال يوضح المخلوقات ويظهر عجائبها وأعضاءها وبدائعها، ومن ذا الذي لا يتعجب حينما يرى أن عين النملة ترى في المنظار أعيناً تبلغ المئات عداً. يراها الإنسان رأي العين وقد رأيتها أنا بنفسي. هذا هو الظل الساكن الذي أشار الله له في القرآن، فهذه الظلال قد حفظت لتزيد الناس علماً بجمال الله وحكمه وبدائعه، والمسلمون وحدهم هم النائمون.

فقال صاحبي: لقد أقمت الحجة على نفسك، فلماذا إذن أحجمت عن رسم هذه الصور وأنت موقن أن التصوير الذي جرى الكلام فيه هو المجسم. فأما هذا فليس تصويراً البتة وإنّما هو ظل. فقلت: وأزيدك أيضاً أن الإنسان يرى صورته في المرآة وهو جائز. قال: نعم. قلت: فهل إذا دامت الصورة محفوظة في المرآة يحرم ذلك؟. قال: كلا، قلت: فالناس ببحثهم في الصور الشمسية قد رجعوا إلى البلاهة والجهود المحزن. قال: إذن قد اتفقنا، فأنا أقول إن التصوير جائز وأنت تقول فوق ذلك، إن هذا لا هو تصوير ولا هو رسم، بل هو ظل أثبتناه فأنا أنتظر منك أن ترسم لنا أشكال الحيوان متى لزم. قلت: إن شاء الله عسى أن يكون قريباً. هذا الموضوع كتب قبل أن أشرحه في سورة «يونس».

هذا، ثم إن هذه اللطائف الأربع وما جاء بعدها الواردة في عجائب النمل وتركيبه تعرف معنى قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[النمل: ١٤]، وأخذ يدعو الله أن يوفقه.

وأنت أيها الذكي إذا اطلعت على هذه فاعلم أنه نعمة لك من الله بسبب القرآن، وادع الله أن يلهمك أن ترشد الأمة الإسلامية، وتنذر عشيرتك الأقربين، وتفهم من حولك من المسلمين، حتى لا يذلوا وحتى يعرفوا نعمة الله تعالى. ولما كانت العلوم بها تكون سعادة الحياة ونظام الدول أتبع ذلك بقصة الهدهد كما قدمنا، فإن الأمم لا دول لها ولا نظام إلا بالعلم، والعلم يتبعه العمل الذي طلب سليمان أن يوفق له.

فانظر كيف أعقبه الله بقوله: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ وتعرف الطيور فلم يجد فيها الهدهد ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ لأنه محجوب عني بساتر أو نحو ذلك ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ بل أكان غائباً عني. وإيضاحه أنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لمانع ما ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: بل أهو غائب؟ ثم قال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ كنتف ريشه وكجعله مع ضده في قفص ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبر به غيره ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تبين عذره. والمعنى أنه يفعل معه أحد الأولين على تقدير عدم الثالث ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زماناً غير مديد أو مكثاً غير طويل كما تقول عن قريب. فلما رجع سأله عما لقي في غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ﴾ علمت شيئاً من جميع جهاته ﴿ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ يعني بحال سبأ التي لم تحط بها.

وفي هذا الخطاب من الهدهد مكافحة لسليمان دلالة على أن الأنبياء وغير الأنبياء في الأرض قد يخفى عليهم ما يعرفه غيرهم. ونظير ذلك ما تقدم في سورة «الكهف» من قول الخضر لموسى ما معناه: «ما علمي وعلمك وعلم الخلائق بالنسبة لعلم الله إلا كما أخذ الطائر بمنقاره من هذا البحر»، فهناك أفاد أن علم الخلائق قليل بالنسبة لعلم الله، وهنا أفاد أن أعاظم علماء الأرض قد يجهلون ما

يعلمه أحقر المخلوقات . كل ذلك ليعرف الناس أقدارهم ، وليتعلم الإنسان من كل أحد ، وأن ذلك حض من الأمم الإسلامية أن يعلموا سائر الناس وأن يشغلوا كل واحد فيما اختصه الله به من القوى والإدراك والعمل ، كما سخر سليمان الهدهد لمعرفة الخبر ، فسليمان يعجز عن الإتيان بخبر سبأ ، وعظماء الدول الإسلامية المستقلة يجب عليهم أن يوزعوا الأعمال على الناس ويشغلوا كلاً بما يناسبه .

وإذا كان سليمان استعان بالهدهد فليستعن عظماء أمة الإسلام بجميع الشعب وليعلموه وليجعلوا كلاً مختصاً بما خلق له ، وقد أوضحنا هذا في سورة « البقرة » عند قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . فعلى عظماء أمة الإسلام أن يستخرجوا كنوز الآراء وجواهر الأعمال من جميع الأفراد من إنسان وحيوان ، فللنمل مزية ليست في الهدهد ، وللهدهد مزية ليست في الإنسان ، ولكل إنسان مزية ليست في غيره ، وهكذا الحيوان ، ومنها ما قاله الهدهد لسليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بخبر محقق ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن سبأ فقال : « رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة » . ولما قال الهدهد : ﴿ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قال سليمان : وما ذاك ؟ قال له : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان ، وسيأتي في سورة « سبأ » تحقيق أمرها وأمر سبأ أجمعين ، وهي من نسل يعرب بن قحطان ، والضمير في ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ لـ « سبأ » ، ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : سرير كبير ، ويقال إنه كان من ذهب وفضة مرصع بأنواع الجواهر ، قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات وعلى كل بيت باب مغلق ، ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فهم كانوا يعبدونها ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات التي لا تليق ، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إليه ، وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ بدلاً من « أعمالهم » ، أي : فزين لهم الشيطان أعمالهم ثم بينها بامتناع سجودهم لله ، أي : زين لهم عدم السجود الخ . وقرئ : « ألا » بالتخفيف ، وهي للتنبيه ، و« يا » للنداء ، أي : يا قوم ، و« اسجدوا » فعل أمر ﴿ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وصف الله بما يوجب تفرده بوجوب السجود له ، وذلك أنه يظهر الخبء وهو كل ما خفي في غيره ؛ فإشراق الكواكب وإنزال المطر وإنبات النبات وإيجاد المخلوقات كل ذلك إخراج لما اختبأ عن الأنظار بالظلام والسحاب وباطن الأرض وحالة الإمكان ، فالعالم كان خبئاً في حال الإمكان فظهر بالإيجاد ، وكما أنه يظهر ما اختبأ يعلم ما يخفى ويظهر ، فقدرته عامة في كل ممكن ، وعلمه عام في الممكنات والواجبات والمستحيلات .

ثم ذكر عظمة الله وأبان فضلها على عظمة عرش بلقيس ، فإنه إذا شملت قدرته كل شيء وأحاط علمه بكل شيء فلا جرم يكون عرشه أعظم العروش ، ولذلك قال : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، ولقد نكر عرشها وعرف عرش الله إشعاراً بما ذكرناه ، وتقدم في « هود » وفي « يونس » معنى العرش . وعظمة عرشها بالنسبة إلى ملوك الدنيا وعظمة عرش الله بالنسبة إلى جميع المخلوقات ؛ ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ سنتصرف ونتأمل ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ لأننا لا نأخذ القضايا مسلمة ولا نعمل إلا بعد تجربة واختبار وامتحان ، كما هو شأن ملوك الأمم المدبرين للممالك العظيمة

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتواري فيه ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول ، ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾ بعد ما ألقي إليها ﴿ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ لكرم مضمونه ومرسله ولغرابة شأنه ، لأن الهدهد ألقاه من كوة على نحرها فهذا وجه الغرابة ، فقيل لها ممن هو؟ فقالت : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ إن الكتاب من سليمان ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي : المكتوب أو المضمون ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ المقصود ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾ ألا تتكبروا علي ولا تمتنعوا من الإجابة ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين . وهذا الكتاب فيه وصف الله بصفات الكمال والأمر لهم بعدم الكبرياء والطاعة . ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ أشيروا علي فيما عرض لي ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ قاضيته وفاصلته ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تحضرون ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ ﴾ بالأجساد والعدد ﴿ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ نجدة وشجاعة ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أيتها الملكة في القتال وتركه ﴿ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ تجدينا مطيعين لأمرك ﴿ قَالَتْ ﴾ بلقيس مجيبة لهم على ما أظهروا من الميل إلى المقاتلة بما أظهروا من قوتهم المادية وعَددهم وعُددهم ، قائلة لهم : إن سليمان إن قاتلناه ربما دخل بلادنا فأضر بالأنفس والأموال والقرى والضياع ، وهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم وإهانتهم وأسرهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول الله إن هذه هي صفة الملوك الفاتحين ، وهو الحاصل الآن في مصر والشام وبلاد العراق وطرابلس والجزائر ومراكش ، فكل هذه البلاد لجهل أهلها دخل الفرنج بلادهم وأذلوهم وقهروهم والجهل عام ، وعسى الله أن يرجع لهذه الأمة مجدها واستقلالها ، ثم قالت : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم ﴾ رسلاً ﴿ بِهَدِيَّةٍ ﴾ أدفعه بها عن ملكي ﴿ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك ، ومرادي بذلك أن أختبره أملك هو أم نبي؟ فإن كان ملكاً قبل الهدية ورجع ، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه في دينه ، وبلقيس قالت ذلك لأنها كانت لبيبة عاقلة قد قاست الأمور وسبرتها ، فأهدت له وصفاء ووصائف وألبست الغلمان لبس الجواري بأن جعلت في أيديهم الأساور من الذهب وفي أعناقهم أطواق الذهب وفي آذانهم أقرطة وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون ، وأهدته حقاً فيه درة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت إليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت ، وأرسلت له المسك والعنبر والعود اليلنجوج ، ودعت المنذر بن عمرو ومعه أشراف قومها ، وكتبت مع المنذر كتاباً تذكر فيه الهدية وقالت : ن كنت نبياً ميز بين الوصفاء والوصائف وأخبرنا بما في الحق قبل أن تفتحه واثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل في الخرزة خيطاً من غير علاج ، وأمرت الغلمان والجواري أن يتشبه كل منهما بالآخر وقت مخاطبته لهم ، وقالت للرسول : إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك فأنا أعز منه ، وإن قابلك ببشاشة ولطف فهو نبي . فلما وصلوا إلى معسكره وعظم شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم واستصغروا لبنات الذهب والفضة في جانب ما رأوا من الأبهة والعظمة ، فوضعوها في فرج قد تركها النبي سليمان على قدر ما أحضروا من اللبنات ، فلما وقفوا بين يديه تلقاهم بالبشر والقبول والأنس ، وسألهم عن حالهم وأعطوه الكتاب ، فقال : أين الحق؟ فلما رآه قال :

إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة، وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه ويضرب به وجهه، ثم رد الهدية ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ﴾ الرسول ﴿ سُلَيْمَٰنَ ﴾ وحصل ما تقدم ذكره من ثقب الدرة وغيره ﴿ قَالَ ﴾ للمنذر بن عمرو ومن معه من أشراف قومها ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ وأنا لم أرسل للمال والمال زائل، إنما أرسلت لأعلم الناس الحكمة وأهديهم الصراط المستقيم ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ ﴾ من النبوة والملك كما رأيتم بأعينكم ﴿ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ لأنكم لم تؤتوا إلا ملكاً أقل من ملكي وأنا أوتيت الملك والنبوة ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ولا يفرح الأنبياء والمؤمنون إلا بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرح العقلاء هو خير مما يجمعون من المال ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أيها الرسول ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة بهم على مقاتلتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾ من سبأ ﴿ أَذِلَّةً ﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أسرى مهانون ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ لأطلعها على بعض ما أنعم الله به علي من العجائب النبوية والآيات الإلهية لتعرف صدق نبوتي، ولتعلم أن ملك الدنيا في جانب عجائب الله وبدائع قدرته يسير، وأن حكمة الله أوسع مما يشاهده الناس من آثارها من مجرى العادة، وأيضاً لأختبر عقلها حين أنكر عرشها.

ولما كانت الأرواح الأرضية والسماوية جميعاً قسمين: قسم نوراني إلهي، وقسم ظلماني أرضي، والأول أوسع علماً وقوة، والثاني محدود العلم والقدرة، لا فرق في ذلك بين الأرواح التي في أجسامها في الأرض والأرواح التي جردت من مادتها، سواء أكانت خارجة من عالمنا هذا أم لم ترد له بل عاشت في عالم الأرواح ولم تسكن أرضنا.

هذه قاعدة مطردة تجدها في كتب الأنبياء وفي علم الأرواح الحديث الذي ملأ الأقطار وشرحناه مراراً في هذا التفسير، بحيث إن الروح الذي كان في أرضنا وخرج من جسمه يصبح وقوته وعلمه على مقدار أخلاقه وصفاته رفعة وضعة، وهكذا جميع الملائكة، منهم من هم في أعلى مقام، ومنهم من هم أقرب إلى عالمنا، ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات: ١٦٤]، فكل روح غلبت عليها الآراء الأرضية والأحوال المادية يقل علمها وقدرتها على مقتضى ذلك، وكل روح تجردت من أخلاق أهل الأرض والأحوال المادية وكانت ذات أخلاق إلهية وحب عام ورفعة شأن واقتراب من النور الأعلى؛ كانت همتها وعلومها أوسع على مقدار ما اتصفت به من ذلك ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٢٧] ولا يشفي غلتك في هذا إلا أن تطالع كتاب «الأرواح» الذي ألفته في ذلك، إذا عرفت ذلك فإنك تفهم قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي: خبيث مارد قوي داهية، وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي: مجلس قضائك وكان يقضي كل يوم في الغداة إلى نصف النهار ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ ﴾ على حمله ﴿ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها، فلما سمع سليمان ذلك قال: أريد أسرع من ذلك، لأنه يعلم أن في الأرواح من هو أقدر على إحضاره في أقرب من ذلك، كما علمت مما فصلناه لك، لأنهم درجات كما فهمت ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو الذي صفت نفسه من ظلمات هذه الأرض، وتباعد عن الكبر والحسد والظلم،

وجميع ما في عالم المادة، وهو مغرم بالعوالم العلوية، فهو أرقى من ذلك العفريت من حيث إشراق نفسه وصفاء باطنه، هذه صفات الذي عنده علم من الكتاب، فسواء أكان جبريل أو ملك آخر أو آصف بن برخيا الذي هو صديق يعرف اسم الله الأعظم أو سليمان نفسه دعا الله بقوله: يا ذا الجلال والإكرام، أو قال: يا حي يا قيوم كما قالت عائشة، أو قال: «يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها»، أو غير ذلك، فالأصل واحد هي نفس مشرقة ملكية أو إنسية توجهت إلى الله بأي اسم كان أو بهمتها، فالمدار على الهمم والنفوس الصافية، ولا صفاء إلا بالتعالي عن أحوال المادة فلا يهمك التفصيل بتعيين الذي أحضره، ولا بالدعاء الذي دعا به وقد أدركت سر الحقيقة.

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فدع زيداً يقول في المجالس: بأن سليمان مد عينيه ونظر إلى اليمن، ودعا آصف فبعث الله الملائكة، فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض حتى نبع من بين يدي سليمان، ودع عمراً يقول: خر سليمان ساجداً ودعا باسم الله الأعظم، فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسي سليمان فقال ما قال: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أقول: قد عرفت الحقيقة، وستعرف أن هذه القصة من أكبر معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن فاق ما سأنقله لك من شأن نقل الأمتعة من أماكنها بطريق غير طريق المعجزات، وإنما هو بطريق الأرواح واستحضارها أصبح معروفاً.

إن هذه القصة ذكرها الله في القرآن، وقد علم أن الأمم ستعرف هذه العجائب، فأودع هذه المعجزة في الكتاب، ليزيد المسلمون علماً وحكمة، وليبحثوا عن عجائب صنع الله، فلئن نقل عرش بلقيس بطريق المعجزة التي لا يهتدي إليها الناس فسترى كيف تنقل الأرواح الأمتعة من أماكنها على أيدي أكابر الحكماء والفلاسفة في أوروبا، ولترى أن هذا القرآن فيه أصول العجائب أودعها فيه لهذا الزمان حتى لا ينفر المسلم من علم الأرواح. وعلم الأرواح يقصد منه تقريب نفوسنا وتمرينها على ذلك العالم الجميل حتى لا تنفر من الموت ولا تنفر من الأرواح إذا وردت إليهم، وتفرح بالموت وتفرح بلقاء الله، فليجد في هذا العلم المسلمون حتى يهتدوا بهدي سليمان، وهل ذكرها الله في القرآن إلا لهذا؟ إن سليمان عليه السلام أوحي إليه أن يوجه همته إلى إحضار عرش بلقيس بطريق العوالم اللطيفة الروحية، فحضر العرش ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا ﴾ حاصلاً بين يديه ﴿ قَالَ ﴾ وقد تلقى النعم بالشكر على مقتضى سنن المخلصين من عباد الله تعالى ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ تفضل به علي من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ ﴾ بأن أراه فضلاً من الله بلا حول مني ولا قوة ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ فلا أشكرها وأنسب العمل لنفسي فلا مال ولا جاه ولا ذكر حسناً في هذه الدنيا ولا علم ولا حكمة إلا والله يبتلي العبد بها، لأن ذلك كله تربية للخلق. فالنعم الجسمية والنعم الروحية والعقلية كلها مواهب يمتحن الله الناس بها، فمن ضل بها هوى ومن شكرها ارتقى ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن ذلك يستجلب لها دوام النعمة ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بالإنعام عليه ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ بتغيير هيئته وشكله ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

إلى معرفته وإلى الإيمان بالله ورسوله، حينما ترى أن عرشها تقدمها، وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب، موكلة عليه الحراس، فمتى عرفت أنه هو عرشها كان ذلك داعية للإيمان، فمعرفة العرش مقرونة بالإيمان، لأن المعجزة مقرونة بسبقه لها إلى سليمان، فالمدار على العقل والذكاء والفطنة ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾ وذلك لامتحان عقلها وللتشبيه عليها، لأنهم ذكروها عنده بسخافة العقل ﴿ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ ولم تقل: هو هو، لاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها، ولما ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها قالت: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ ﴾ بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك ﴿ مِن قَبۡلِهَا ﴾ من قبل هذه المعجزة ﴿ وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ منقادين خاضعين لأمر الله ولأمر سليمان ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ أي: صدها سليمان أو الله عما كانت تعبد من دون الله، وحال بينها وبينه ﴿ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ يقول الله تعليلاً لعبادتها غير الله التي صدها عنها أنها نشأت بين قوم يعبدون الشمس ولم تعرف إلا عبادتها.

وعبادة الشمس وعبادة الكواكب قد شغلت عقول الأمم أجيالاً وأجيالاً، لأن الله أكبر من كل شيء، فإذا كانت الشمس إلهاً فلا يبحث الناس عن أكبر منها. ولما نزل الإسلام والديانات التي حرمت عبادة الكواكب بحث الناس في أمر الكواكب، فرأوا الشمس أقل شأناً من غيرها وأن الله تعالى يريد إيقاظ العقول وترقية النفوس البشرية بمثل هذه الديانات التي ترتفع عن المادة من حيث الخلق ومن حيث العبادة، وقد تقدم هذا في سورة «الأنعام».

إلى هنا تم اختبار عقلها وعرف أنها ذكية، هنالك تبدى له أن يعرف ساقيها، لأنه قيل له: إن رجليها كحافر حمار، ولما كان الله لطيفاً حكيماً لا يكشف الستر ولا يفضح فكانت هذه الأخلاق شنشنة الأنبياء والحكماء والملوك العظام فلا يفضحون أحداً ولا يخزونه، بل يتلطفون فيما يريدون؛ بنى قصراً من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها، وهذا قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ ﴾ القصر ﴿ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ ﴾ إن ما تظنينه ماء ﴿ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ ﴾ مملس ﴿ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾ من زجاج وليس بماء، فحينئذ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وزاد علمها أن ملك سليمان من الله تعالى، واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾ بعبادة غيرك ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أخلصت له التوحيد والعبادة. وهل تزوجها هو من بعد أن اتخذ الحمام والنورة لأجلها، فأزيل شعر رجلها وأحبها حباً شديداً، وصار سليمان يزورها كل شهر بأرض اليمن في حصونها؟ أم لم يتزوجها، بل زوجها إلى ذي تبع ملك همدان؟ وليس في معرفة الحقيقة كبير فائدة، ولكن الرأي الثاني أصح. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة، وهنا أربع لطائف:

(١) في الهدهد الذي أحاط بما لم يحط به نبي علماً.

(٢) وفي قول بلقيس: ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾[الآية: ٣٢].

(٣) وفي قول سليمان: ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾[الآية: ٣٦].

(٤) وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾[الآية: ٣٩] الخ.

## اللطيفة الأولى:في الهدهد الذي أحاط علماً بما لم يحط به نبي مع ذكر بعض أنواع الطيور وأن هذه تشمل عجائب الأسرار في:﴿ طسٓ ﴾

« تفقد » : فعل ماض، و« الطير » : مفعول، والفاعل ضمير يعود على « سليمان »، وقد قلنا في هذه السورة إن « السين » هي أول حروف « سليمان »، و« الطاء » أول حروف « الطير »، فهنا اسمان وهما سليمان والطير، وفعل هو « تفقد »، ونحن أمرنا بالاقتداء بالأنبياء. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠] نبينا أمر بالاقتداء بهم وسليمان من المقتدى بهم، فأنا مأمور بالاقتداء بهم، والاقتداء لا يكون في الأسماء وإنّما يكون في الأفعال، والفعل « تفقد »، فهذه الحروف الأربعة: « التاء » و« الفاء » و« القاف » و« الدال » هي السر المصون والجوهر المكنون، هي الحروف التي وقعت بين « الطاء » و« السين »، « طاء » طائر و« سين » سليمان وهما المرموز لهما بما في أول السورة ﴿طسٓ﴾.

علم الله أن أمة الإسلام ستنام حوالي ٩٠٠ سنة. نامت الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى ثلاثة قرون، هي التي نبغت فيها الأمم الإسلامية، فحركت أهل الأرض كلهم وماج المسلمون شرقاً وغرباً ثم ناموا، ولكن كان فيهم أولو بقية في العلم والدين، فظهروا وبهروا وقتاً دون وقت، وبقية الأمم الإسلامية نائمون هائمون على وجوههم، جاهلون بجمال ربهم، عاكفون على الرئاسات وطلبها، والأموال وجمعها، وقد أيقظ الله حولهم أهل أوروبا والصين واليابان وأهل أمريكا الذين لم يكونوا منذ ٤٠٠ سنة إلا أمماً دبت فيهم الهمجية والجهل العميم، وبقي المسلمون بين هؤلاء وهؤلاء، لا هم في العير ولا في النفير، فأنعم الله عليهم بنعمتين: نعمة الكوارث والحوادث والأوصاب الحالة فيهم من الأمم المحيطة بهم، والطيارات المحلقة فوقهم، والمدافع الموجهة إليهم، واستنزاف ثروتهم وضياع ملكهم، وتعييرهم بالجهالة والتعدي على الدين وعلى المجد وعلى الملك. ونعمة العلم الذي يدلف إليهم من الأمم حولهم، ومن المؤلفين الذين يقومون بنشر الحكمة والعلم بينهم، ليوجهوا هممهم إلى ما أحاط بهم.

واعلم أن الكوارث والمصائب الحالة بالأمم الإسلامية لا تفيدهم ما لم يذكرهم بها المذكرون ويرشدهم لها المرشدون، ومن المنذرات المبشرات هذا التفسير، وهاأنا ذا أذكر المسلمين بقوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾[النمل: ١٤] وقد بينت أني مأمور أن أتفقد تفقد سليمان الطير. ولما خاطب الهدهد قال له: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[النمل: ٢٢] إذن التفقد يكون من نتائجه اليقين، وما الذي جاء به؟ جاء به الطير المتفقد. وتفقد إبراهيم النجوم والشمس والقمر بعد أن كسر الأصنام فقال الله فيه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام: ٧٥].

وتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم النبات والطير ليعلم أصحابه كما في حديث البخاري، إذ أخذ يسألهم عن شجرة شبه المسلم، فأخذوا يتفكرون في شجر البوادي فلم يصب في الإجابة إلا ابن عمر، ولكنه خجل أن يجيب، فأجاب صلى الله عليه وسلم بأنها النخلة لأنها تموت إذا قطع رأسها ومن رأسها تشرب، ثم قال ابن عمر لأبيه: لقد وقع في قلبي أنها النخلة، فأسف عمر على أنه لم يقله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما تفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم للطير فإنه ضربها مثلاً إذ قال: « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ».

فهذا التفقد للسماوات في قصص إبراهيم ونحوه، ولشجر البوادي والطير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللطير من سليمان، كل ذلك تذكير لنا أن نتفقد كل شيء فلا نذر كوكباً ولا شمساً ولا قمراً ولا طيراً ولا حجراً ولا شجراً إلا تفقدناه، وهذا أمر واجب، وهذا الوجوب يختلف باختلاف الأشخاص، وإنّما قلت: إنه واجب، لأنا مأمورون بالشكر وبالنظر ومأمورون بالفكر، ولا شكر إلا بعلم ولا علم إلا بنظر ولا نظر إلا بالتفقد. إذا ظن المسلم أنه بقوله: أنا آمنت بالله، قد أتم ما عليه فهو مغرور، سرى له هذا الغرور من شيخه الذي لقنه العلم فأوقفه عند حد محصور فحصر عقله وكبله، فكبلت الأمة كلها وأحاطت بها الأمم وزملتها ودثرتها وأنامتها، فبعض شيوخ العلم وبعض شيوخ الطرق يلقنون تلاميذهم: ألا تقرؤوا الكتب غير ما لقناكم.

ونحن نقول: كلا، أيها المسلمون تفقدوا كل شيء، ألم يتفقد سليمان الطير؟ ولماذا أنزل إلينا هذا القول؟ ولماذا رمز الله لنا بـ«الطاء» و«السين» في أول السورة؟ لماذا يقول الله لنا في أول السورة: ﴿ طسٓ ﴾. يقول لنا ذلك لأنه علم أننا سنكون أمة نائمة مئات السنين، وسيأتي علينا هذا الزمان زمان العرفان والنور، فيسأل الشبان قائلين: لم ذكر الله ﴿ طسٓ ﴾ وهذان الحرفان لا معنى لهما، فأي فائدة في ذكرهما؟ فنحن نجيب بأن أمثال هذه الحروف جعلت أشبه بالمفاتيح لفتح ما أغلق على المسلمين أجيالاً وأجيالاً، واكتفائهم بكتب موروثة وعلوم محصورة، وقد عمي أكثر الناس عن قوله تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة: ١٤٦] والشكر لا يتم إلا بعلم والعلم عام، وعن قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بربه وأمر بازدياد العلم، فما بالك بنا نحن؟ فنحن مأمورون بازدياد العلم من باب أولى. ولهذا كله الرمز بالحروف الأربعة الواقعة بين الفاعل «سليمان» ومفعوله «الطير».

## كيف يتفقد مؤلف هذا التفسير

أنا إلى الآن لم أتمم تفقد نفسي ولا تفقد العالم، وأقول: تفقدت نفسي وتفقدت السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهذا مذكور في هذا التفسير، فأما نفسي فإني عجبت لها، رأيتها لا تقف عند حد تهتز طرباً لبهجة النجوم والشمس والقمر، وتفرح بعلوم الليل والنهار والشجر والنجم وما في باطن الأرض من المعادن والعجائب، لم أجد لها نظيراً في عالم الحيوان، فكل طير قانع بما خلق له كما ستراه هنا، فترى الطيور الدجاجية تحضن أولادها وتعتني بصغارها مثل الحجل والحمام. وترى الطيور ذات الأرجل الكفية كالبط فرحة بالحبوب والحشيش، وكذا الإوز والبجع، وترى الطيور الشاطئية تمد منقارها وعنقها الطويلين لتتغذى بالزواحف المائية مثل أبي قردان واللقلق فتفرح بذلك ولا تطلب غيره. وهكذا الطيور المتسلقة المتغذية بالثمار، والطيور التي تنقر الخشب تكتفي بالحشرات، والطيور الدورية كذلك، وهكذا الطيور الجارحة تأكل الطيور الأهلية والسمك، وليس لها همة فوق ما عندها أرى هذه الطيور كل غاد ورائح يطلب ما خلق له فرح بما عنده عاكف على ما لديه. وأرى الزواحف كالسلاحف قانعة بما عليها من الدرقة التي تأوي إليها متى دهمها خطر أو أحست بعطب، وهذه هي قلعتها وحصنها. وأرى التمساح من الزواحف اشتدت عنايته بما هو غاية أمنيته، وهي بيضه الذي يدفنه في الرمل على الشاطئ. وأرى الحرباء فرحت بما لديها من القدرة على التلون ومجاراة ما

حولها في لونه لتحفظ بذلك نفسها، وهكذا مما لا تسعه هذه المقالة. تفقدت نفسي فوجدتها مخالفة لهذه الحيوانات، فلكل حيوان خاصية لا يتعداها وهو بها فرح وهو بها فخور، أما هذه النفس فإني وجدتها تسعى لتعرف كل شيء، فيا أيتها النفس هل أنت كل شيء حتى تبحثي عنه؟ فأجابتني قائلة: نعم أنا قبسة من نور ربي، أنا مرسلة إلى هذه الأرض، وكل نفس من نفوس بني آدم قد أرسلت إلى هذه الأرض، ووضعت في هذه الأجسام، وهذه الأجسام ما هي إلا آلات بها تصطاد المعاني من هذه العوالم، وهذه العوالم بها غذاؤنا وشربنا ولباسنا ومساكننا وحصوننا وبتحصيل ذلك تقوى عضلاتنا بالحركات، وتقوى عقولنا بالتفكير، وتبتهج نفوسنا بالجمال والزينة. ثم إننا نذر هذه الأجسام في الأرض ونذهب إلى العوالم العليا، وكل قد أخذ من الأرض زاداً علمياً وأخلاقياً على مقدار همته، وهناك تكون الدرجات على مقتضى الهمم لا غير. هذا كلام نفسي لي وهذا كله رمز «الطاء» و«السين» في أول السورة، فـ«طاء» الطير و«سين» سليمان يفتحان لنا باب التفقد، كما تفقد سليمان الطير، وتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء، فكان قبل صلاة الليل يقف وهو ينظر النجوم ويقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الخ، وتفقد الأمم أمة أمة، فأرسل لهم رسله يدعونهم إلى الإسلام، وبعد إرسال رسله أخذ يحاربهم، ثم تمم أصحابه عمله، فتفقدوا الأمم، وجاسوا خلال أرضهم من بلاد فرنسا إلى بلاد الصين ثم ناموا، ونحن أبناؤهم، فأخذت الأمم تتفقدنا كما كان آباؤنا يتفقدونهم، فأصبحنا عند تلك الأمم كالطير عند سليمان، فسليمان تفقد الطير وآباؤنا تفقدوا الأمم، وهذه الأمم أخذت تتفقدنا وقد قالوا: إن أبناء العرب من الأمم الإسلامية الآن قد رجع كثير منهم إلى سكنى القفار الموحشة والصحراء الكبرى ولا يعلمون أن آباءهم كانوا ملوكاً لهم دول عظيمة. هذا من تفقدهم لنا.

واعلم هداك الله أن هذا التفسير من مقدمات نهضات عظيمة سترج الأرض رجاً وتقوم أمم عظيمة لا يدري إلا الله مقدار عظمتها، يعلمون أن هذه العوالم كلها كتاب من الله كتبه لنا ونحن قراؤه.

## تذكرة بما اتفق لي أيام تلقي العلم

إن الذي كان له الفضل في مدرسة «دار العلوم» هو المرحوم علي باشا مبارك وزير المعارف، ولقد كان يدخل الدروس بمدرستنا فرحاً بنجاحه في إقامة هذه المدرسة. ولقد قال مرة: ليكن في يد كل منكم «كناش» يكتب فيه كل ما يعن له من بناء شامخ أو نور باهر أو جمال ظاهر أو حادثة غريبة أو مسألة عجيبة، فإن ذلك يكون عدة له وحكمة تنفعه، وقد انتفعت بهذا. ومما قاله أيضاً: إن العلم لا حد له وليس العلم قاصراً على ما في الكتب فجدوا فيه وتعلموا وادرسوا الدنيا بعقولكم. أقول: وأنا أوصي بهذه الخصلة فإنها خير معوان على الحكمة العامة، ومن حافظ على هذه الخصلة من صغره وهو ذو ميل طبيعي للحكمة والعلم والكتابة فإنه يهنأ بالحكمة والعلم، ويكون نوراً لأمته، ويكون إنشاؤه نعمة عامة للأمة، ويرقي أمته على مقدار همته، وهو يحس في نفسه بسعادة وحبور وسرور لا يعلمه إلا هو وربه.

ولأقتصر على هذا في معنى «الطاء» و«السين» في أول السورة، ولأخص تفقدي في هذا المقام بما هو أليق به، وهي الطيور فأتفقدها من وجهين:

## الوجه الأول

### أن أذكر بعض عجائبها الظاهرة، فأذكر بعض الطيور، ثم ما هو شبيه بها

### الطيور

الطيور حيوانات فقرية تضع بيضاً يخرج منه صغارها بعد التفريخ، وحيث إنها ترتفع في الهواء خلق الله تركيب بنيتها مناسباً لذلك، فشكل جسمها بأعظم شكل مناسب لشق الهواء بسهولة، وخلق لها أجنحة بدل الأطراف المقدمة، وليس لها أسنان وفمها منته بمنقار، وعلى ذلك تزدرد أغذيتها من غير مضغ، ولذا جعل الله معدتها قوية جداً وهي «القونصة»، وجعل لها حوصلة فيها تلين الحبوب قبل وصولها إلى القونصة، وبما أوجد فيها من قوة الإلهام تصنع أعشاشها وترقد على بيضها وتحن على صغارها، ومنافعها كثيرة فمنها ما يستعمل لحمه غذاء وبيضه كذلك، ومنها ما يدفع مضار عظيمة كتبديد الحشرات والديدان المضرة بالمزروعات، وتنقسم إلى جملة رتب:

### (١) الطيور الدجاجية

وهي تشمل الطيور الأهلية التي تستعمل لحومها وبيضها غذاء، وتشمل الدجاجة المعتادة وهي أكثر الطيور الدجاجية نفعاً من أجل لحمها الذي يستعمل غذاء وبيضها الكثير الذي يحصل فقسه صناعة في معامل مخصوصة تسخن إلى حرارة مناسبة، كما يحصل ذلك إذا احتضنت الفرخة بيضها، والدجاجة تعتني بصغارها بحيث إذا طرأ عليها خطر تجمعها تحت أجنحتها وتدافع عنها بقوة، وأما الديك فلا يهتم بأمرها، والفراخ الرومية والهندية تنسب للطيور الدجاجية، وكذا القبج وذكره يسمى حجلاً وهو يعرف أيضاً بدجاج البر. (انظر شكل ١٦).


(شكل ١٦)
القبج المعروف بالحجل

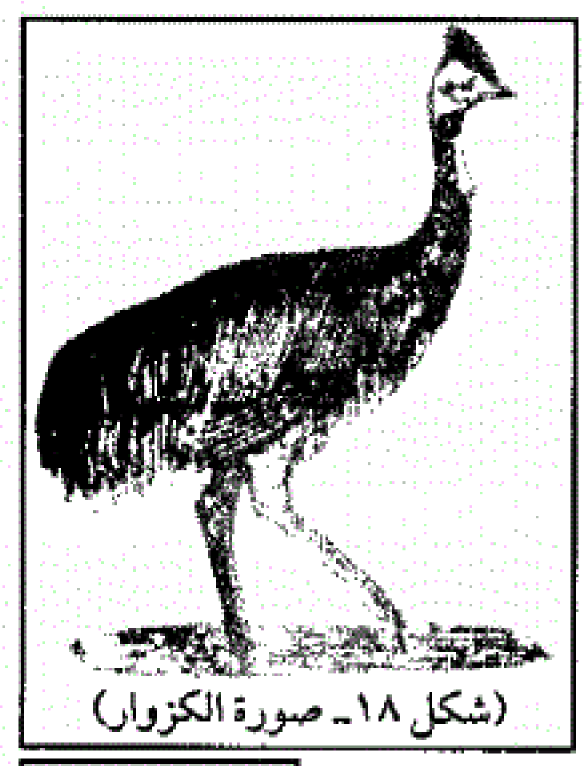
والحمام الذي يعيش أزواجاً وأنثاه تبيض بيضتين تستولي حضانتهما هي والذكر بالتبادل، وكذا اليمام والسلوى المعروف عند الناس بالسمان، والطاووس وهو من أجمل الطيور ويتميز بذنبه الطويل المزين بريش لماع مرغوب فيه جداً وهو غالي الثمن.

### (٢) الطيور ذات الأرجل الكفية

هي طيور يوجد بين أصابع أرجلها غشاء يصير أرجلها كمجاذيف، وجسمها مستطيل يشبه السفينة، وريشها مغطى بمادة زيتية تمنعها من البلل بالماء فلا يثقل جسمها فتعوم بسهولة وترغب وجودها في الماء، ومنها البط ويستعمل لحمه غذاء، وغذاؤه الحبوب والحشائش، ومنه نوع يسكن الأجزاء القطبية يسمى «ايدر»، (انظر شكل ١٧). يوجد أسفل بطنه ريش ناعم تحشى به الوسائد الخفيفة، والإوز المعتاد لا يخالف البط إلا قليلاً في الجسم والطباع. ومنها البجع وهو طير ظريف أبيض يقتنى زينة في الفساقي.


(شكل ١٧ ـ رسم الايدر)

## (٣) الطيور الشاطئية


(شكل ١٨ـ صورة الكزوار)

هي طيور أرجلها طويلة عارية عن الريش وعنقها ومنقارها طويلان جداً، وهذا يساعدها على سرعة الجري في مياه المزارع لتتغذى بالزواحف المائية والأسماك والديدان، وبعضها يتغذى بالحبوب والحشائش، ومنها أبو قردان وأبو مغازل، واللقلق الذي يفترس الزواحف التي على شاطئ النيل بكثرة، ولذا كان محترماً جداً عند قدماء المصريين حتى كان من قتله الإعدام. والنعامة وهي أكبر الطيور فيصل علوها إلى مترين ونصف. (انظر شكل ١٨)، وهو طير يسكن الهند ورأسه مزينة بقلنسوة.

## (٤) الطيور المتسلقة


(شكل ١٩) صورة نقار الخشب

هي طيور تتسلق على فروع الأشجار بسهولة لتتغذى بالثمار أو بالحشرات التي على الأشجار، ولذلك خلق الله إصبعين من أصابعها متجهتين إلى الأمام وآخرين إلى الخلف، وهي مشهورة ببهاء ريشها وغلاء ثمنه، وتشمل الببغاء وهي بأنواعها مشهورة بخاصية حكاية الأصوات، ونقار الخشب (انظر شكل ١٩). ومنقاره قوي يشق به قشور الأشجار ليأكل الحشرات.

## (٥) الطيور الدورية


(شكل ٢٠ـ صورة القنبر)

هي طيور صغيرة بعضها مشهور بجمال صوته وبعضها ببهاء ريشه، وهي تنتقل من إقليم إلى آخر ومعظمها يتغذى بالحشرات، ومنها البلبل المشهور بحسن صوته، والعندليب والخطاف المشهور بعصفور الجنة، وهي تبدد الحشرات الموجودة في الهواء، والقنبر (انظر شكل ٢٠)، وهو طير يبتدئ في التغريد في فصل الربيع، وهو من الطيور التي تغرد حال طيرانها، والغراب والهدهد يتغذيان بالديدان.

## (٦) الطيور الجارحة

هي طيور لا تعيش إلا بالسلب والنهب، ولذا خلق الله جسمها معد لذلك، فجعلها قوية منقارها كلابي وأرجلها منتهية بأظافر كلابية حادة وطيرانها شديد، وحاسة بصرها قوية جداً بها تدرك فريستها من بعد، وهي تقابل الحيوانات الكاسرة من الحيوانات الثديية، ومنها النسر ويسمى «ملك الطيور» لقوته وشجاعته، فيرفع فريسته بين مخالبه، والعقاب طائر كبير عنقه خال عن الريش، والصقر طائر في قامة الدجاجة وهو أجمل الطيور الجارحة شكلاً وأكثرها شجاعة وخفة ولذا كان يعلم الصيد في القرون الوسطى، والحدأة وهي مشهورة بشراهتها وخطفها لصغار الطيور الأهلية والسمك، والبوم والمصاصة من الطيور الجارحة أيضاً لكنها قليلة القوة، أعينها واسعة يدخل فيها

بالنهار ضوء شديد يحدث غطشتها، ولذا لا تطير إلا ليلاً ولا يسمع لطيرانها صوت ولذا تستولي على فريستها أثناء نومها بسهولة، وهي نافعة جداً لأنها تبدد الحيوانات القراصة الصغيرة والحشرات المضرة والزاحفات (انظر شكل ٢١).

(شكل ٢١ـ رسم الحدأة)

هذا ما أردت ذكره من الطيور ليكون تذكرة للذاكرين، فإذا رأى المسلم الطير في شواطئ البحار أو فوق رؤوس الجبال أو في الحدائق الغناء فإنه لا يأنس بها أنساً علمياً إلا إذا عقل الفرق بينها وبعض خواصها كالذي ذكرناه هنا، ومتى عرف ذلك وغيره أصبح في بهجة وصارت العوالم حوله جنة أعدت له في الدنيا وله في الآخرة مزيد.

## (٧) الحيوانات الثديية ذات الأيدي الجناحية

أما ما يشبه الطيور فهو «الخفاش» وهو من الحيوانات الثديية ذات الأيدي الجناحية أو الوطواط، ويتميز بوجود ثنية من الجلد ممتدة بين أطرافه المقدمة والخلفية على شكل أجنحة بها يطير كالطيور (انظر شكل ٢٢)، وهو حيوان ليلي يهرب من الضوء بالنهار لضعف بصره، وقد عوضه الله قوة في إحساسه، ويتغذى بالحشرات ولذلك هو نافع وهذه صورته. انتهى من كتاب المختصر المفيد.



(شكل٢٢ـ صورة الخفاش)

## الوجه الثاني

أتفقد طيران الطيور كي يفتح باب الطيران في الأمم الإسلامية ليشاركوا الأمم في الطيران، وقد جاء في «مجلة الجديد» ما نصه:

## طير الإوز العراقي الذي هو معجزة من معجزات الطبيعة

ليس عجيباً أن تعوم الإوزة، فإن تكوين جسمها على شكل قارب، ولكن ما يثير الدهشة عند العلماء كيف أنها تستطيع أن تحلق في الجو بهذا التكوين العجيب، بل تطير بكل سرعة وسهولة، مع أنه لو صنعت آلة ميكانيكية على مثلها لكان من المستحيل أن تطير بالنسبة لتركيبها المرتبك.

ولما كان العلماء والمخترعون يقتبسون على الدوام من مدهشات الطبيعة ويصنعون على مثالها فقد توجه التفات بعض العلماء إلى دراسة طريقة الإوز في الطيران لاقتباس ما يمكن أن يكون له فائدة عظيمة في تقدم الطيارات. (انظر شكل ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧).



(شكل ٢٣)

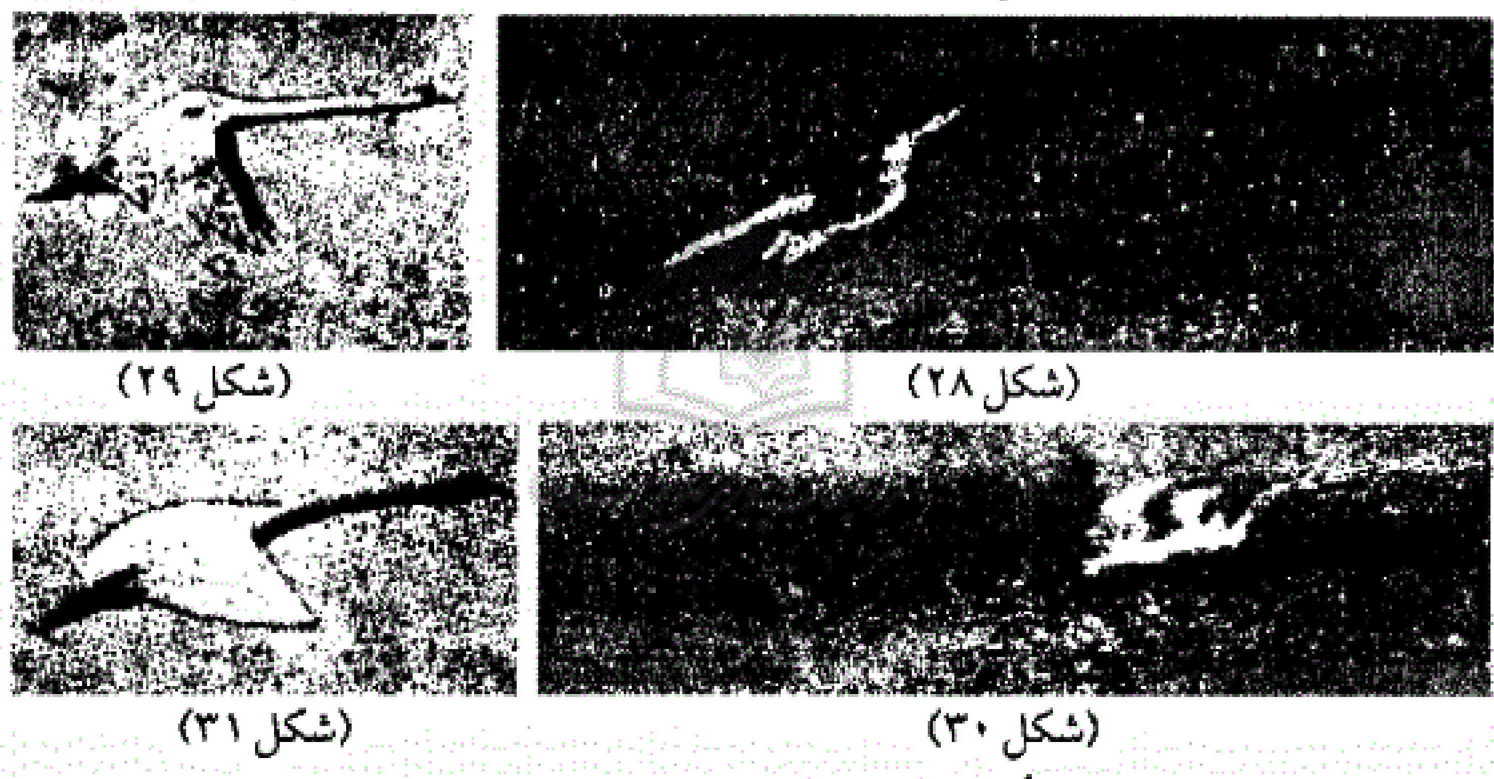


(شكل ٢٤)



(شكل ٢٧) (شكل ٢٦) (شكل ٢٥)

ويلاحظ عند محاولة الإوز للطيران أنها تنهض من الماء ملوحة بجناحيها في الهواء بحركة مختلطة بين السير والطيران مادة رقبتها الطويلة إلى الأمام، ولا تلبث حتى تنتظم حركات جناحيها وتندفع بقوة إلى الاتجاه الذي تريده، فيكون عنقها الطويل الممتد هو الحافظ لتوازن جسمها في الجو وليس عليها إلا الاستمرار في تحريك الجناحين وضغط الهواء إلى أسفل، ولذلك تجعل جناحيها ينحنيان كثيراً نحو الأرض، فهل يستطيع الإنسان أن ينقل عن الطبيعة شكل هذه السفينة الهوائية العجيبة؟ ذلك ما سيبرهن المستقبل على إخفاقه أو نجاحه. (انظر شكل ٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١)



(شكل ٢٩) (شكل ٢٨)

(شكل ٣١) (شكل ٣٠)

ومن تفقدي للطير ما قرأته تحت هذا العنوان في نفس المجلة:

## الحرف والفنون والصناعات عند الطيور

ألقى الأستاذ «كاثلان» محاضرة على عدد كبير من علماء فرنسا و أعضاء الأكاديمية عن حياة الطيور وطباعها وغرائزها، ومن أغرب ما ذكره في محاضرته أن لكل نوع من الطيور استعداداً خاصاً للحرف والصناعات والفنون، ولكنها تختلف عن الإنسان بأن الطير لا يزاحم أنواع الطيور الأخرى ولا يحسن غير العمل الذي تمليه عليه غريزته.

وقد ضرب الأستاذ الأمثلة على ذلك فقال: «إن الغراب يشبه عمال المناجم، فهو لا يجيد إلا الحفر والتنقيب، والحمام الزاجل بما عرف عنه من الميل للأسفار الطويلة يماثل المولعين بالرحلات من بني الإنسان، والبلبل بتغريده يؤدي بين الطيور فن الغناء، والطير المسمى «روسيرول» يشبه البوهيميين في التشرد وعدم الاستقرار في مكان، فتراه يوماً يعاشر نوع «الكناري» من العصافير، وتجده في يوم آخر قريباً من خلية النحل».

على أن الطيور لم تحرم من مهرجين ومضحكين، إذ يقول الأستاذ كـاثلان: «إن بين العصافير فصيلة زرقاء اللون دأبها الإتيان بحركات بهلوانية مضحكة».

ويلحق بذلك ما قرأته أيضاً وهو:

## هجرة الفيران من إنجلترا بقيادة فأر أعمى

يروي التاريخ كثيراً عن مهاجرة الفيران وانتقالها على شكل قطعان كبيرة من بلد إلى آخر وتدميرها ما تجده في طريقها حتى تأتي على الأخضر واليابس. وقد حدث أخيراً في إنجلترا على أثر نزول الأمطار الغزيرة في منطقة «لي» أن هاجرت الفيران في تلك المنطقة فسارت في طريق «ايدمونتون» صفوفاً متلاصقة يقودها فأر أعمى. وكان لهذه القطعان الثائرة الجائعة منظر يلقي الرعب والجزع، فخلا الطريق من المارة وركاب البسكليت حتى الكلاب المعروفة بجرأتها وشجاعتها لم تملك أنفسها من الخوف والتنحي عن الطريق لهذا الجيش المغير، وانتهت هذه الهجرة عند غابة شاسعة صادفتها الفيران في سيرها فتفرقت في نواحيها ومساربها. اهـ.

## سر من أسرار الطاء والسين

هذا السر قد تبين يوم السبت ١١ مايو سنة ١٩٢٩م

إن هذه السورة قد ذكر الله فيها أمتين من الأمم وهما أمة النمل وأمة الهدهد. والنمل من دواب الأرض والهدهد من أنواع الطير الذي يطير بجناحيه، أفليس هذا كالتطبيق على آيه «الأنعام» إذ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، فمن دواب الأرض النمل التي تبسم سليمان ضاحكاً لما سمع قولها، ومن الطائر ذي الجناحين الهدهد الذي سأل عنه. إن الله يوقظ المسلمين بهذا فيقول لنا استيقظوا أيها النائمون. هذا نبي من أنبياء بني آدم وهذه أمم أمثالكم، ولجلالة قدر هذه الأمم اهتم لها هذا النبي لإيقاظكم، ألا ترون أنها أمم أمثالكم؟ والمثلية في هذا المقام يجب أن تسترعي أسماعكم، فهل هذه المثلية تمر عليكم مرور النسيم على الحصباء. ألم يأن لكم أن تعرفوا أن دراستها واجبة كدراسة الأمم حولكم؟ والأمم الإسلامية التي تعيش وتموت وهي جاهلة نظام الحشرات كالنمل ونظام الطيور كالهدهد ونظام أمم الأرض الأخرى ولو إجمالاً، مستعدة للطامة الكبرى والذلة والوقوع في براثن الاستعمار، كما جهلت الدولة العباسية أمر أمة التتار المجاورة لها أيام «قطب أرسلان»، وكما جهل المصريون قدرة الفرنسيين أيام احتلالهم أرضهم كما قدمنا ذلك، فكان هلاكهم على يديهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

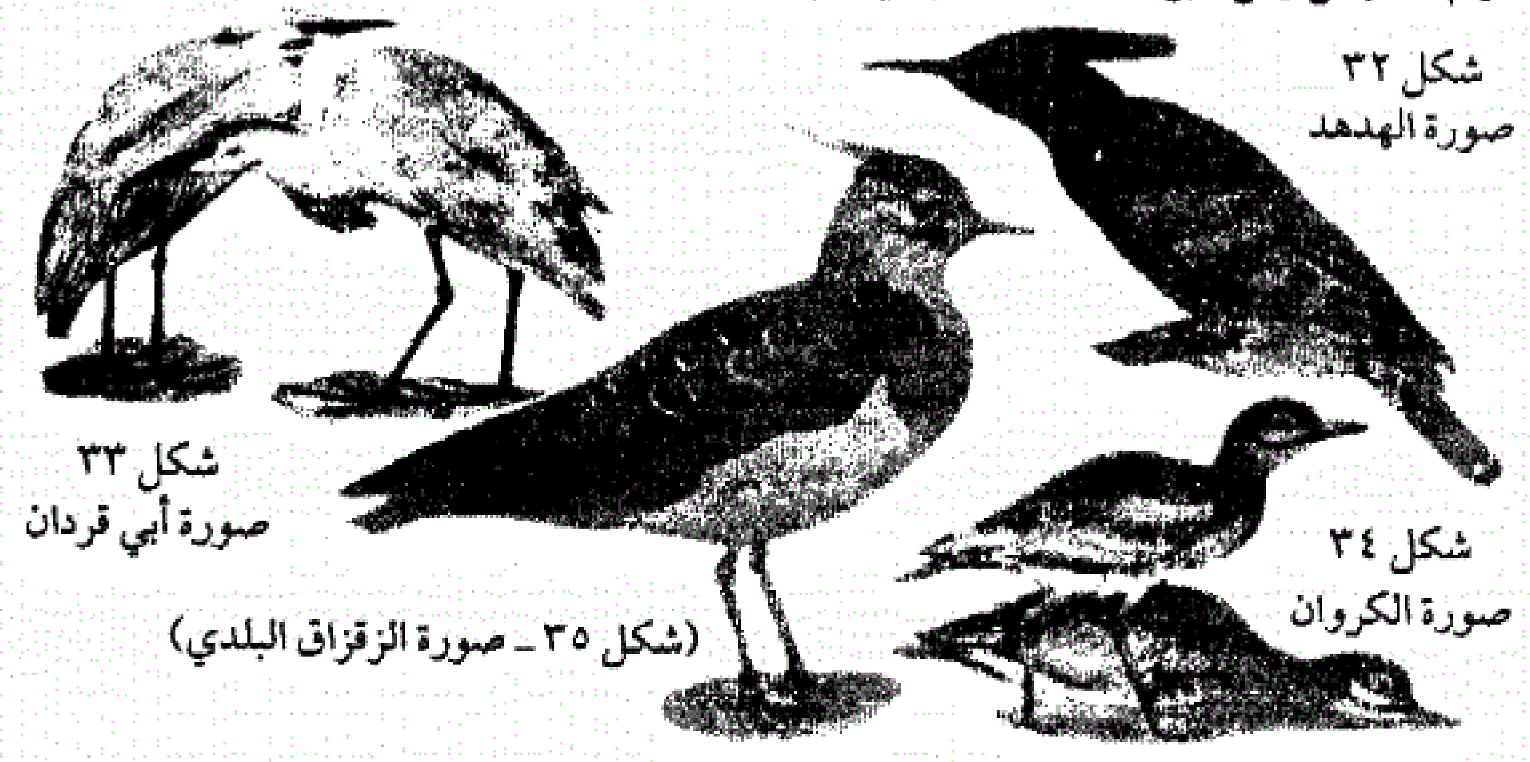
اللهم إنك بحر في «الطاء» و«السين» المشيرين للطائر ولسليمان قد أيقظت فينا ذكرى جهلنا بعوالم الطير وعوالم الحشرات، فقد تقدم تقريباً في «رسالة عين النملة» أن في أوروبا علماً يسمى «أنتومولوجي»، أي: علم الحشرات، فهذا العلم اليوم يدرسه القوم في أوروبا ونحن نستمد من علومهم كما تقدم. سترى إن شاء الله صورة النمل مع صورة العنكبوت للموازنة بينهما.

وأما الطيور التي تفقدها سليمان وخاطب منها الهدهد فإن الأمم حولنا درستها دراسة تامة، لماذا هذا؟ لأن حياتنا لا تتم إلا بمعرفة خواصها وأحوالها. ألا ترى إلى ما ذكرته لك في أول سورة «يوسف» أذكرك بما كتبته هناك، وإني قد كنت مفكراً في أمر الدودة التي كانت تفتك بالبرسيم والذرة

وغيرها، وإني كنت أرى «أبا قردان» في إبان صغري يأكل هذه الدود أكلاً لماً، وأخذت أجمع آراء الفلاحين وأنا مدرس بالمدارس الأميرية وكتبت مقالة في «مجلة الملاجئ العباسية» سنة ١٩١٢م، فأصدرت الحكومة بعد ذلك أمراً بعدم صيد «أبي قردان»، ثم درس رجال الزراعة بقية الطيور فأصدروا أمر بتحريم صيدها، ومنها الهدهد الذي خاطبه سليمان عليه السلام.

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت الذي جعلتنا وجعلت الطيور وجعلت الحشرات أمماً مشتركة في العمل، أنت أشركت معنا الهدهد وأبا قردان والزقزاق الشامي والزقزاق البلدي وغيرها، جعلت هذه كلها شركاء لنا في زرعنا، أي أنها مساعدات لنا على زرعنا، فلولا هذا الهدهد وأبو قردان وأنواع من العصافير وغيرها مما تقدم مصوراً مشروحاً في أول سورة «يوسف» ما تم لنا زرع ولا در بيننا ضرع.

اللهم أنت المحمود على النعم. أنت معلم الجهال ومعلم العلماء، أما العلماء فهم الأمم التي سبقتنا بالعلم وانتفعت بعلوم آبائنا وهم الأمم الغربية والأمريكية وأمة اليابان ونحوها. وأما الأمم الجاهلة فهم أكثر المسلمين الحاليين، هذه الأمم التي نفرت من العلم وقنعت بالجهل وكذب عليها صغار الشيوخ فرمزت لهم بهذين الحرفين ﴿ طسٓ ﴾، فرأوا «الطاء» في أول الطير و«السين» في أول اسم سليمان عليه السلام فاستيقظوا إلى علوم الطير وعلوم الحشرات، ورأوا أن هذا الهدهد وأبا قردان والكروان والزقزاق البلدي (انظر شكل ٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥) التي تقدمت هي وغيرها في سورة «يوسف» هي المساعدات للناس في حفظ زرعنا، وقد منعت حكومتنا المصرية الناس من صيدها لحفظ زرعنا. إذن خطاب سليمان للهدهد إيذان بما فيه وفي أمثاله من المنافع وأنه مساعد لنا في حفظ زرعنا لأنه يأكل الدود الآكل لزرعنا، فله علينا الحفظ والكرامة، بل يحرم قتله هو وما معه من الطيور لأن قتلها قتل لنا، وإن لم يتضح بأجلي بيان فيما علمنا إلا فيما كتبناه في هذا التفسير. هنالك عرفنا يا الله حكمة إنزال قصص سليمان مع الهدهد، وأن له ولجميع الطيور شؤوناً لا تعرف إلا بالدراسة كما للحشرات ولجميع دواب الأرض، وأن المسلمين لا حياة لهم إذا جهلوا الأمم حولهم من بني آدم ومن دواب الأرض ومن طير السماء، هذا سر من أسرار «الطاء» و«السين»، والحمد لله رب العالمين.



شكل ٣٢
صورة الهدهد

شكل ٣٣
صورة أبي قردان

شكل ٣٤
صورة الكروان

(شكل ٣٥ ـ صورة الزقزاق البلدي)

## تحريم صيد هذه الطيور

أيها المسلمون، هذه الطيور المذكورات هنا مع الهدهد وهي: «الكروان والزقزاق البلدي وأبو قردان» هذه الأربعة من طيور تبلغ فوق الثلاثين عداً تقدم ذكرها في سورة «طه» هي التي تأكل الدود. وبعبارة أخرى هي تساعدنا في زرعنا، فهل يليق بالمسلم أن يعيش ويموت وهو لا يعلم ما ينفعه من الطيور وما يضره، وتكون حياة الطيور وموتها تابعين للمصادفة العمياء والناس يعيشون بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

هذه الطيور آكلات للدود ويأكلها الدود ينمو زرعنا وبنموّ زرعنا نعيش، وهنالك نعبد الله ونقوم بالأعمال النافعة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. هل يرضى المسلم أن يكون هو المختص بالجهل دون الأمم، الناس في الشرق والغرب يدرسون هذه الطيور وحكوماتهم الناهضة تحرم صيدها، وأنا أقول: إن هذه الطيور متى ثبت نفعها لزرعنا حرم صيدها حتماً، وإذا خالف في هذا مذهب من المذاهب فخلافه هنا يزول متى ثبت ضرر هلاك ذاك الطير.

هذه مسألة واحدة من آلاف المسائل في هذه الحياة نام عنها المسلمون قروناً وقروناً جهلاً وغفلة عن خطاب سليمان عليه السلام للهدهد إذ اعتبره أمة من الأمم، وكم في الجو وفي الأرض وفي أضواء الكواكب وفي العناصر من علوم قصر فيها المسلمون تاركين قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]. انتهى.

## من أعجب أسرار الطاء والسين ﴿ طسٓ ﴾

### ما خطر لي ليلة الاثنين ١٣ مايو سنة ١٩٢٩

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت المنعم، أنت المعلم، اللهم أيدتنا وعلمتنا فلك الفضل ولك النعمة ولك الحمد، جعلت ما بين «الطاء» و«السين» علوماً وعلوماً. ومنها ما أذكره الآن: وهو أن تفقد سليمان للطير وكلامه مع الهدهد بعد أن سمع كلام النملة يفتح لنا باب السياسة والعلم على مصراعيه، ولأذكر لك من ذلك أمرين:

**الأمر الأول**: أن الأمم لا تكون إسلامية حقيقة إلا إذا فطنت لعمل النملة ولعمل الهدهد، أما عمل النملة فإنها حافظت على دولتها من المفاجأة ولو من غير قصد فحذرت قومها من سليمان وجنده، والحق يقال إن الأمم التي لا عيون لها ولا جواسيس تتخلل الأمم كلها فتعرف الخطر فتتوقاه أخطر من النمل، وأولئك أضل من الأنعام. فيا ويح أمة إسلامية تنزلت عن النمل في سياستها بترك الحذر، ألم يقل الله: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[النساء: ٧١]، وأكد ذلك بأن النملة حذرت قومها من نبي من أنبياء الله لا يقصد إضرارها، أما عمل الهدهد فإنه كشف أحوال أمة أخرى. إذن لا بد من أمرين: محافظة على الدولة، وكشف لأحوال الأمم الأخرى والعلوم.

**الأمر الثاني**: أن مخاطبة الهدهد لسليمان كانت بغاية الحرية، فإنه يقول له ـ وهو يملك ذبحه ونتف ريشه وحبسه وإذلاله: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[النمل: ٢٢] الخ، فهذه الخصلة تدل على حرية تامة، ولم ينزل الله هذا إلا ليعلم أهل الأرض قاطبة أنه لا يمكن استخراج قوى النفوس الإنسانية

إلا إذا كانت متمتعة بحرية الرأي كما تمتع الهدهد بذلك، فأما إذا صغرت نفوس الناس من الضغط والذل في أي أمة فإن الإنسانية العامة يعتريها النقص بمقدار ما فقدت من قوى كانت كامنة في تلك النفوس، فحرمت ثمراتها كما أوضحته في كتابي «أين الإنسان»، وعلى المسلمين أن يثبتوا هذه الحرية ويستخرجوا آراء المسلمين بها، ثم يعاونوا عليها في الأرض كلها. اهـ.

## الكلام على الهدهد تفصيلاً وعلى فن الطيران في عصرنا الحاضر

ذكر الله الهدهد وأنه أخبر سليمان بما لم يحط به علماً، وهذا فتح لباب فن الطيران، وهذا الفن هو سلطان الأمم اليوم، يا عجباً، هدهد يذكره الله في القرآن ويخبر سليمان وهو نبي بما لم يحط به علماً، فما بالك بنا نحن الذين علم عندنا، فنحن أحرى أن نحرص على المواصلات بيننا بكل طريق وسبيل ممكن ومنه فن الطيران.

إن منشأ فكرة الطيران كانت عند الأمم كلها قديماً، وإني أذكرك أيها الذكي بما مر في سورة «المائدة» عند ذكر الغراب وابن آدم، وأن الهواء أخف من الماء (٨٠٠) مرة، والبخار أخف من الماء (١٧٢٨) مرة، ولذلك نرى السحاب يرتفع في أعلى الجو، ولا جرم أن قاعدة «أرشميدس» لها السلطان على هذه العوالم، فإنك ترى أن الجسم في الماء يخف بمقدار حجمه في نفس الماء، ومعنى هذا أن الحديد والنحاس والحجارة وغيرها إذا غمست في الماء فقدت من وزنها مقدار حجمها من الماء، وعلى ذلك لا يعوم السمك على وجه الماء إلا إذا نفخ الكرة الهوائية الداخلة في جسمه حتى يكبر حجمه ويكون وزنه قريباً من مساواة وزن حجمه من الماء، فإذا ضغط السمك كرته الهوائية فخرج الهواء صغر جسمه فصار أثقل من مقدار حجمه من الماء فنزل إلى أسفل، وهذه القاعدة هي التي استخرج العلماء بها الوزن النوعي للأجسام، فيقال: هذا المعدن وزنه النوعي (٥) أو (١٠) أو (٣١) وهكذا، أي أنه أثقل مما يساوي حجمه من الماء بهذه المقادير، وهذه القاعدة نفسها تسري على ما يطير في الهواء، فما البالون الآتي ذكره إلا على هذه القاعدة، أي أن يكون الحجم الطائر في الهواء أخف منه، كما أن السمك يكون أخف من الماء حتى يعوم. إذن هذه قاعدة واحدة في الهواء والماء ولكن النوع الإنساني لم يقف عند هذا الحد، فقال: كلا، لا بد لي أن أقلد الطير، والطير جسمه ثقيل فعلي أن أطير بجسمي الذي هو أثقل من الهواء مئات المرات، وعلي أن أدرس الطير في الجو وأعلم كيف تمكن من الطيران وجسمه أثقل من الهواء، ولكم تغزل الشعراء وأدخلوا في غزلهم أنهم يطيرون إلى أحبابهم بأجنحتهم، ويقول شاعرهم:

أسرب القطا هل من يعير جناحه ... لعلي إلى من قد هويت أطير

الخ. ولقد ورد في قصة حسن الصائغ المصري وصف الطيران الخيالي بالأثواب والريش وهكذا. وفي آداب اليونان أنهم كانوا يشيرون إلى استخدام الأجنحة وتقليد الطير. وفي الآثار المصرية من صورهم بصورة أناس ذوي أجنحة، ثم انتقل الخيال إلى العمل:

(١) ففي القرن السادس عشر حاول رجل إيطالي الطيران فسقط وكسر عظمه ومات.

(٢) وفي القرن السابع عشر فعل مثله رجل ألماني فمات.

(٣) ومثله مستر «كيزفرنسوس» في القرن الثامن عشر فلم ينجح.

(٤) ومثله عباس بن فرناس صاحب الصحاح كما هو معلوم.

هنا دخل النوع الإنساني في الجد والعمل بعد الخيال وأخذوا يدرسون الطيور، فأول من درس الطيور وحركاتها «بورلي» سنة ١٧١٣، فدرس حركات عدة أنواع من الطيور وعضلاتها الصدرية، فأفتى بعجز الإنسان عن الطيران، ولما يئس الناس من ذلك رجعوا إلى فكرة المناطيد المبنية على نظرية الخفة والثقل التي ذكرناها، وقنعوا بما نقله «جان بيار بلانشاد» الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر، الذي قطع بحر المانش من «دوفر» إلى «كاليه» في المنطاد سنة ١٧٨٥م، ولكن الإنسان لم ييئس من فكرة المشاكلة للطيور، فقام «ليليانتال» يمتحن قوة الطيور ثانياً، فظهر له أن هناك سراً آخر غير قوة العضلات في الطائر، وهو أن يحوم الطائر في الجو، فإذا قدر الإنسان أن يصعد إلى الجو بقوة رافعة وأخذ يحوم؛ فإن ذلك يفتح له باب الطيران، وذلك بعد أن درس الطيور عشرين سنة، ولكنه مع صحة نظريته قد مات ضحية التجارب سنة ١٨٩٦.

ومن المعلوم أن الإنسان كله أشبه بجسم واحد، فماذا حصل؟ تنبه لهذا العمل الشابان الأمريكيان «ويلبور» و«أورفيل رايت»، وأخذا يصنعان الطيارة المنبسطة الأجنحة المسيرة بالقوة ويحسنانها حتى سنة ١٩٠٥، فطار أحدهما في الهواء مسافة (٢٤) ميلاً في مدة ثمان وثلاثين دقيقة، فهذا أول النجاح في الطيران.

وقد اشترت حكومة الولايات المتحدة، «طيارة رايت» بمبلغ ٢٥ ألف دولار للمخترعين معاً. هنالك ظهر فن الطيران وشاع في سائر أنحاء العالم، فظهر أن طيران الطير في الجو له نظام خاص، فمن الطير ما يجري أولاً على الأرض ثم يطير قليلاً قليلاً ويصعد، وذلك لأنه برفع جناحيه يخلو المكان من الهواء فيحل محله هواء آخر مما يحيط به، فهذا الهواء بهجومه على جناحي الطائر يرفعهما إلى أعلى، فإذا أعاد الكرة مرة أخرى ورفع الجناحين زادت قوة الرفع بالهواء الهاجم على الجناحين. إذن سر الطيران راجع لأمر عجيب أي حسن السياسة والنظام، فخفض الجناح ورفعه أشبه بالمراوح التي يحرك بها الهواء، والهواء بعد الرفع يهجم فيعطي قوة، وهذه القوة تضرب طيرين بحجر، أولاً: ترفع الطائر بضغطها على الأجنحة إلى أعلى، وثانياً: تدفعه إلى الأمام، لأن الهواء الهاجم إنّما يأتي من الخلف، لأن الطائر حينما يخفض جناحه يرجع الهواء إلى خلف فإذا رفع الجناح هجم الهواء الخلفي على الجناح بمقدار دفعه، فهو إذن يرفعه إلى أعلى ويدفعه إلى الأمام معاً. إذن يأس الناس من الطيران أولاً: ناشئ من اعتقادهم أن قوة العضلات هي السبب، ونجاحهم ثانياً بسبب ما عرفوه في سنة ١٩٠٠ أن هناك سراً غير القوة الجسمية غير السر الذي عرفوه في البخار وحسن استعماله، فهاهنا الارتفاع في الجو والسرعة إلى الأمام جاءا معاً بالحكمة في استعمال الهواء وحسن النظام الذي وضعه الله في الطير. فلما عرفه الإنسان فعل مثل ذلك، ولذلك تجد الطيارة يجب أن تجري على الأرض أولاً ثم تأخذ بالارتفاع قليلاً قليلاً بما تفعله محركاتها من الأمام كما تفعله أجنحة الطيور.

## الاحتفال بهذين المخترعين في هذه الأيام

جاء في الأخبار العامة هذه السنة ما يأتي:

في ١٧ ديسمبر احتفلوا بمضي ٢٥ سنة على تجربة الأخوين «ولبر» و«أورفيل رايت» في فن الطيران. ولد «ولبر» المذكور في ٢٦ أبريل سنة ١٨٦٧ في بلدة «ملفيل» بولاية «انديانا» من أعمال الولايات المتحدة الأمريكية. وولد أخوه «أورفيل» سنة ١٨٧١، ولما تعلموا علومهما الثانوية فتحا دكاناً لإصلاح الدراجات «العجلات» ثم اعتنيا بأمر الطيران، وفي ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ طار أحدهما بطيارة من صنعهما مسافة ١٦٠ ذراعاً، فلبث في الجو ١٧ ثانية، فكان بذلك أول إنسان طار بطيارة أثقل من الهواء. وفي ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٥ طار «أورفيل» بالقرب من بلدة ديتوت مسافة ٢٤ ميلاً بسرعة ٣٨ ميلاً في الساعة، ولكن الأغنياء لم يتقدموا لمساعدتهما بالمال فذهب «ولبر» سنة ١٩٠٨ إلى فرنسا. وفي ٢١ سبتمبر فاز بجائزة «ميشلن» بعدما طار ٥٦ ميلاً فذاع صيته حالاً. وفي سنة ١٩٠٩ طار فوق «نيويورك» مسافة ٢١ ميلاً في ٣٣ دقيقة و٣٢ ثانية. وفي سنة ١٩٠٩ منحهما الكنغرس «مجلس الأمة الأمريكية» وساماً ضرب لهما خاصة، ثم اشترت الحكومة طيارتهما بستة آلاف جنيه.

وقد توفي «ولبر» سنة ١٩١٢ ولا يزال أخوه «أورفيل» حياً وهو رئيس المهندسين في شركة طيران كبيرة، إذن الطيران بالطيارات التي هي أثقل من الهواء ابتدأ من سنة ١٩٠٣ في شهر ديسمبر واشتهاره في (٢٥) ديسمبر سنة ١٩٢٨، والطيارة الأولى بقيت ١٧ ثانية في الجو، والطيارة الآن أي بعد (٢٥) سنة تبقى محلقة في الجو ٦٠ ساعة، وسرعة الطيران الأولى لا تزيد عن (٣٨) ميلاً في الساعة والآن تبلغ (٣١٩) ميلاً في الساعة وذلك في الطيارة المائية التي ركبها الكابتن «دارسي كريج» الإنجليزي في نوفمبر سنة ١٩٢٨.

إذن الناس من سنة ١٩٠٣ ابتدؤوا عصراً جديداً، وينتظر الناس أن يكون الطيران شائعاً سنة ١٩٣٦. ثم إن البالون «غراف» زبلين بلغ طوله ٧٦٢ قدماً، والبالون الإنجليزي المنتظر إتمامه طوله ٧٢٠ قدماً، ويمكنه أن يجتاز (٩٠٠٠) ميل من غير أن ينزل إلى الأرض وهو يحمل مائة مسافر. والبالون الأمريكي الذي يبنى الآن طوله ٧٨٠ قدماً ويسير في سرعة ٨٥ ميلاً في الساعة، فالبالونات متقدمة لأنها تستطيع أن تحمل مائة مسافر. أما الطيارات فلم تصل إليها، نعم الآن يشتغل مهندس ألماني بعمل طيارة من هذا القبيل، ويظن الناس اليوم أن زيادة السرعة في الطيران ربما تصل إلى خمسمائة ميل في الساعة بعد أن تدرس طبقات الجو العالية دراسة تامة.

اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة التي بها فهمنا قولك في سورة «الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، فهذه الحكمة وهي رد الفعل في الهواء وضغطه على الجناحين بعد خفضهما هي الداخلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، فهو الذي أبدع هذا الشكل من الحكمة وأودعه الطير وقلده الإنسان. كل ذلك لمناسبة الهدهد الذي جرى من سليمان إلى بلقيس في بلاد اليمن، والحمد لله رب العالمين.

## جوهرة في قوله تعالى بعد آية الهدهد:

## ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

من اللطائف البديعة أني كنت راكباً في قطار السكة الحديدية المتوجه إلى المرج لعمل في الحقل،

فقابلني رجل من المرج، فقال: ألا تتذكرني، أنا الذي كنت أطالع التفسير مع فلان في بلدة المرج، فتذكرته فقال: أريد أن أسألك لم يقول الله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[النمل: ٢٦] تارة، ويقول تارة أخرى: ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[المؤمنون: ١١٦]. فقلت له: إن الملك قد يكون عظيم العرش عظيم الملك دولته مشرقة على أمم كثيرة ولكنه غير كريم، أما الله فإنا نشاهد أن ملكه واسع وعرشه عظيم، ومن طبع الملك العظيم في أهل الأرض أنه يذهل الملك عن تفقد الأمور الصغيرة، فليس في قدرة ملك من ملوك الأرض أن يبادر إلى إجابة كل مريض وكل فقير وكل يتيم وكل عجوز وكل أرملة، بل يكل ذلك إلى نوابه في الأقاليم، فملوك الأرض كلما اتسع ملكهم كثرت حاجات الناس إليهم، وعلى مقدار ذلك يكون ضعفهم عن القيام بها، فهذا مستحيل عقلاً وعادة، فأما الله فإنه مع سعة ملكه وعظمته فإنه تجلى لكل امرئ في نفسه فشكا إليه أمره وأغاثه وأعانه وليس ذلك في ظاهره فحسب، بل يتجلى له في داخله وقرارة نفسه ويحدثه ويسأله فيجيبه مرة ويؤجل الإجابة مرة أخرى، ثم هو يلازمه في الحياة وبعد الموت ولا يفارقه، ونراه يكون مع الطير ومع الحشرات ومع دواب الفلوات، ولا يذر دودة في حجر ولا طيراً على شجر ولا ذئباً في فلاة ولا مخلوقاً دق أو جل إلا وهو معه يناجيه في سرائه وضرائه. فهذا هو الكرم الحقيقي، وهذا معنى قوله تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ١١٦]، لأن الملك الحق هو الذي يتصف بهذا، إن الملك الحق هو الذي يتفقد رعاياه في سرهم وعلانيتهم، وهذا بعض السر في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[المؤمنون: ١١٦] فهذا هو الكرم الحقيقي وهذا هو الملك الحقيقي.

أما ملوك الأرض فملكهم ليس حقاً بل ملوكهم مجازيون، ومن آيات رعايته ودلالتها المشاهدة أن كوكب الشمس تراه النحلة والنملة والملك الصعلوك وساكن الأرض والمريخ وبقية السيارات وغيرها، كأنها له وحده، وكأنها لا تقابل غيره وكذلك القمر. فإذا كانت الشمس التي لا تعقل هذا عملها فكيف بالخالق الحكيم؟ فهو مع الجميع سراً وجهراً. وإذا كان ابن سينا والغزالي يقولان: «إن ذا العقل الكبير يكلم رجلاً ويكتب بيده ويسمع بأذنه رجلاً آخر ولا يلهيه واحد من هذه الشؤون عن الآخر». فهذا فتح باب أن نعرف أن العقول الكبيرة كالملائكة تسع خلائق كثيرة في آن واحد، فالله إذن أوسع وأعلم وهو الحكيم العليم، فإذا سمعت الله يقول في سورة «المؤمنون»: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[الآية: ١١٥]، فهو من هذا الباب لأنه كريم، ومن أجل كرمه إنه لما خلقنا لم يرد بذلك مجرد وضعنا في الأرض مدة ثم يهلكنا، نعم لا حرج على الخالق ولكنه لا يفعل ذلك، ويقول لنا: اطمئنوا يا عبادي أنا خلقتكم ورزقتكم وابتليتكم بالشر والخير وعلمت سركم وجهركم وحافظت عليكم وأجبت دعاءكم وأنعمت عليكم بنعم لا تحصوها، ولكن أهم من هذا كله أنكم لا تفنون فأنتم تعيشون أبداً سرمداً، وإذا كنتم أنتم تأنفون أن توصفوا بالعبث فهل أرضى بالعبث في صنعي؟ ومن أين اتصفتم بصفة الأنفة من العبث إلا بالفيض من آثار قدرتي وعلمي، فإذن أنا أبقيكم في دار أخرى، ولذلك أتى بها بصيغة الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٥].

ثم وصف نفسه بالعلو والعظمة ووصف عرشه بالكرم وليس من الكرم أن يخلق أرواحنا ثم يهلكها بلا مزية ولا منفعة كأنها مزج البحار أو هبات النسمات أو خطرات الأوهام، إذن نحن نرجع لله بعد حين.

فلما سمع ذلك الرجل، قال: هذا كاف واف. فقلت: الحمد لله رب العالمين. ولما كان ذلك السؤال قبيل طبع هذه السورة ألحقته بها، وأنا أحمد الله على التوفيق. تم الكلام على اللطيفة الأولى.

## اللطيفة الثانية : في قول بلقيس :

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾

هذه الآية تدل على ما كان عند العرب من أمر الشورى وأنها قديمة العهد، ومن عجب أن الأمة العربية بعد الإسلام في هذه الأجيال القريبة نسيت مجد آبائها الأقدمين ونسيت مجد السلام، يقول الله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٢]، وينقل الكتاب عن أسلافنا أن مجالسهم كانت شورية. فيا عجباً، لا أخلاق الآباء اتبعنا ولا الدين نهجنا. إن أمة العرب اليوم قد انحلت عراها واختل أمرها، وأذكر لك حادثة واحدة، ذلك أنه منذ خمسة أعوام وأنا أكتب في تفسير هذه السورة كانت تدور الحرب بين أمير نجد الذي احتل مكة وبين علي بن الحسين الذي هو ملك جدة. فالأول يريد إخراج علي منها والثاني يدافع عنها. وقد حضر وفد ينوب عن مسلمي الهند يحمل تفويضاً منهم ليفاوض المتحاربين، فمنع الملك على الوفد من السفر إلى مقابلة ابن السعود أمير الوهابيين. ولما طلبوا منه أن تكون مكة وبلاد الحجاز محكومة بالقوانين الشورية وبالنظام الدستوري وأن يحكم البلاد مجلس شورى يديره رئيس ويكون أعضاء المجلس بالانتخاب؛ أبى على الوفد ذلك وقال: إن البلاد لا يوافقها ذلك.

فتعجب من أمم الإسلام اليوم كيف أصبح بعضها لا يلوي على دين ولا على مجد سابق، بل أكثرهم مستبدون ظالمون.

ومن آيات الله أن يجعل الإشراق بعد الظلام، وقد بزغ فجر الحرية في الإسلام وستشرق شمسه على الأقطار كلها، وإذا كان المسلمون اليوم في أدنى درجات الانحطاط بالنسبة لغيرهم فما ذلك إلا علامة على سرعة تبدل الحال ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك: ١-٢]، والضد يتبع ضده فكما يتبع النهار الليل هكذا سيتبع العدل الظلم والرفعة الضعة ومن يعش يره والله مقلب الليل والنهار، انتهت اللطيفة الثانية.

## اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى :

﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾

هذه الآية والآيات السابقة كقوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ [النمل: ١٩] الخ دلالة على أن نعمة العلم هي كل شيء وهي كل نعمة، ألا ترى إلى سليمان وقد دعا الله فيما تقدم لما سمع كلام النملة وفرح بالنعمة، كيف أخذ بعد ذلك يتفقد الطير ويكلم الهدهد وينظر في شأن الملك وإسلام الأمم المجاورة له، انظر كيف ذكر قصة بلقيس وهداها وإحضار عرشها بعد أن نال نعمة العلم بعجائب الحيوان كالنمل.

فهو أولاً منح نعمة العلم ثم منح نعمة هداية الناس، فلا ملك إلا بعد العلم ولا هداية للناس إلا بعد العلم، وانظر كيف يقول بعد حديث النملة: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[النمل: ١٩]، ويقول بعد أن رأى عرش بلقيس: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[النمل: ٤٠]، فكأن الإنسان في جميع أحواله مختبر، فبالعلم مختبر وبالنعم مختبر وبالكرامة الإلهية مختبر والأنبياء بالمعجزات مختبرون، وهذا كله من قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥]، فلا فرق بين نبي ولا مؤمن، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

## جوهرة في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾
## مع قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾

حضر إلي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يتحدث معي في أهم ما في هذا التفسير، فقال: إن هذه السورة اشتملت على آيتين مرتبتين ترتيباً ذكياً عجيباً. فأولهما تدل على الملوك إذا دخلوا فاتحين بلاداً أفسدوها وأذلوا الأعزة فيها، وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[النمل: ٢٣].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢]، يظهر لي أن ورود هاتين الآيتين من حيث الترتيب مقصود، وكأنه يقول سبحانه: إن هؤلاء الظالمين لا بد أن تخرب بيوتهم وتصبح خاوية على عروشها، وما أحسن الإفاضة في هذا الموضوع حتى تتجلى الحقيقة ناصعة، فإن هذا الزمان زمان ظهور الحقائق الواضحة، أما الإجمال فلا يكفي أولي الألباب. فقلت: إن هذا المقام يعوز البحث في أصل نشأة هذا العالم ونظام ذراته، والسير في الموضوع من الذرات إلى الأجسام إلى الأمم بحيث تكون العلوم مستخدمة فيه، وهذه سنة في الأسلوب خطرت لي هذه الليلة مساء الأربعاء ٢ يناير سنة ١٩٢٩م. فقال: وما هذا الأسلوب الذي خطر لك؟ فقلت: إن هذا الإنسان لم يكن على هذا النمط إلا لما في تركيبه من القبول لهذه التنوعات السياسية. فإذن لنتجاذب أطراف الحديث في أصل نشأته ونشأة العوالم التي ركب منها. فقال: قل موجزاً. فقلت: إن الإنسان والحيوان مركبان من مادة نارية مضطربة. فقال: أريد أن أفهم ما تقول. فقلت: قد قدمت في سورة «البقرة» مم يتركب النبات، ولا جرم أن النبات غذاء الحيوان، والنبات والحيوان غذاء الإنسان. فمتى عرفت العناصر التي تركب منها النبات في سورة «البقرة» أدركت الاضطراب في السياسة وفي النظام الاجتماعي.

## مزاج هذه الدنيا محرق

(١) العناصر المحرقة مثل البوتاسا والبوتاسيوم.

(٢) المعادن فيها قوة تحكم العناصر.

(٣) النبات له نفس تضبطها وهو مختلف باختلافها.

(٤) الحيوان كثير الاختلاف والنفس حولت تلك الأحوال إلى عواطف.

(٥) الإنسان بعقله حولها إلى عواطف أعلى.

(٦) وهكذا آراء فلاسفته كالفارابي وأفلاطون في مدنيته.

(٧) ثم ما حال الأمم المغلوبة والغالبة.

(٨) هو في ذلك لم يرتق عن الحيوان.

قال صاحبي: يا عجباً، أي مناسبة بين علم السياسة وعلم الكيمياء. إن العناصر المذكورة في سورة «البقرة» عند آية الطير وإبراهيم تعرف بعلم الكيمياء، ولا مناسبة بين هذا العلم وعلم السياسة ونظام الدول. فقلت: خير لنا أن لا نطيل وأن نهجم على الموضوع حتى تظهر لك جلية.

قال: إذن لتبينها هنا بطريق يخالف طريق ما في سورة «البقرة» بعبارة أوضح لتكون هنا فائدة غير ما هنالك.

فقلت: نعم، العناصر التي يتركب منها النبات هي النيتروجين «الأوزوت» الذي تتركب منه العضلات في الحيوان. والكربون الذي يتركب منه الدهن في الحيوان أيضاً والأودروجين الذي يدخل في الماء مع الأوكسوجين. فهذه الأربع معروفة في النبات والحيوان. ويضاف إليها: (١) البوتاسا. (٢) الصودا. (٣) الجير. (٤) المغنيسيا. (٥) حمض الفوسفوريك. (٦) حمض الكبريتيك. (٧) سلكا. (٨) كلور. (٩) أوكسيد الحديد. هذا ما ذكرته هناك.

(١) البوتاسا: من البوتاسيوم، وهو معدن أبيض فضي اللون إذا قطع، غير أن سطحه يسود سريعاً، وإذا ألقي في الماء يشتعل بنور بنفسجي، وهناك تتكون البوتاسا.

(٢) الصودا: من الصوديوم، وهو معدن فضي اللون لين، إذا ألقي في الماء الحار أو أحمي قليلاً يشعل بنور لامع أصفر فاقع، وكل أملاح الصوديوم إذا اشتعلت تكسب اللهب لوناً أصفر.

(٣) الجير، هو أوكسيد الكالسيوم، والكالسيوم المذكور هو فلز ذو لمعان أصفر يتغير بسرعة في الهواء الرطب إذ يتكون طبقة سنجابية من الكالسيوم على سطحه، وإذا سخن على صفيحة من البلاتين التهب، فيحترق بلهب شديد اللمعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة. ثم إن أوكسيد الكالسيوم المذكور وهو الجير المعروف يحصله الناس بحرق كربونات الجير في فرن يسمى في مصر «قمينة» ويسمى الجير الحي، ومتى حصلنا الجير الحي المذكور بالحرق ونديناه بالماء فإنه يسخن الماء ويصير له بخار ثم يتشقق ويزداد حجماً، وإذا كان ذلك الماء كافياً استحالت قطع الجير الحي إلى مسحوق أبيض يسمونه «الجير المطفأ».

(٤) وأما حمض الفوسفوريك فهو مركب من الفوسفور مع غيره، والفوسفور قسمان: أصفر وأحمر؛ أما الأصفر فهو سريع الاشتعال، ولذلك يجب حفظه في الماء لئلا يشتعل من حرارة الهواء الاعتيادية، وأما الأحمر فلا يشعل بسهولة، ولذلك يمكن حفظه في الهواء مثل سائر المواد، وهو لا يوجد إلا مركباً مع الكلس والصخور، وهو يكون مع التراب، والتراب يدخل النبات، والنبات يدخل الحيوان، فالفوسفور جزء من عظامها، فهو يتكون مع الأكسوجين ويكون فيها حمض الفوسفوريك وعظام الرجل الواحد يستخلص منه خمس رطل فوسفور خالص.

(٥) المغنيسيا: هو مركب المغنسيوم مع الأكسوجين، فالمغنسيوم معدن فضي اللون لين قابل لأن يسحب شريطاً وخيوطاً، ولا يكون صرفاً في الطبيعة بل مركباً مع أجزاء أخرى مثل المادة الفحمية «الكربون» ومع المادة الرملية «السليكا»، والمغنسيوم إذا أشعلناه يعطي نوراً لامعاً أبيض صافياً. وبخار المغنسيوم أسود وهو يصعد منه بدون احتراق.

(٦) حمض الكبريتيك: هو مركب من الكبريت مع غيره. والكبريت موجود في الطبيعة صرفاً في جوار البراكين وقد يكون مركباً، وهو جامد أصفر اللون قصم ذو رائحة خاصة سريع الاشتعال وعند الاشتعال يكون غازاً قوي الرائحة معطساً خانقاً ساماً وله ألفة شديدة للمعادن. والكبريت يتكون مع الأكسوجين فيكون حامض الكبريتيك الذي يقال له في التجارة «روح الزاج» الذي يستعمل في الصابون.

(٧) والسليكا: هي مادة مركبة من السليكون مع الأكسوجين، والسليكون مادة بلورية سوداء ويستحضر بإزالة الأكسوجين من السليكا، والحجر المسمى بالكوارتس أو دب الملح المتبلور إنّما هو سليكا صرف، والرمل والصخور الرملية كلها سليكا صرف أو ممزوج ببعض المواد الأخرى، وهكذا بعض الأحجار الكريمة مثل الجمشت واليعب واليشم وهو الحجر اليماني والعقيق والياقوت وحجر الصوان والخلخيدوني سليكا، وأنواع الرمل الملونة سليكا ملونة بأوكسيد الحديد أو مواد أخرى، وهو موجود في قشر جميع أنواع القصب والخيزران وسوق الحبوب والحشائش وذلك سبب إيذاء حروف السكاكين بها، والسليكا موجود في أكثر المياه الطبيعية في حال الذوبان وبكثرة في مياه الينابيع الحارة في «سيلانده» والزجاج والخزف الصيني والفخار والآجر سليكات، والزجاج يصنع بإحماء مزيج من الرمل الأبيض «السليكا» والكلس أو الصودا أو البوتاسا مع أوكسيد الرصاص.

(٨) أما الكلور وهو «الكلورين» فهو لا يكون حراً في الطبيعة، ويكون فيها مركباً مع الصوديوم وهو ملح الطعام، والكلور الذي هو الجزء المتمم للملح غاز مفطس لونه مصفر مخضر رائحته مفطسة خانقة يحدث سعالاً شديداً وهو سام.

(٩) أما أوكسيد الحديد فهو الأكسوجين متحداً بالحديد، والحديد قليل جداً في النبات وهو معروف فلا نطيل به.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا من علم الكيمياء وقد أطلت فيه وإني أخاف أن قراء هذا التفسير تنبو طباعهم مع علمي بأنك تحاشيت في هذا المقام أن تأتي بما يصعب من أوصاف هذه العناصر، ونحن الآن في تفسير آيتين من كتاب الله تعالى، آية: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[النمل: ٣٤] الخ، وآية: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[النمل: ٥٢].

إن هذا المقام يحتاج إلى حصر وجمع العلوم بحيث تكون هذه الكيمياء منسجمة مع ما سيأتي بعدها ويكون الموضوع هيئة واحدة لا انفصام لها حتى تأخذ بمجامع القلوب، لأن هذا المقام حقيقة غريب، وإذا انتظم شمله والتأمت أطرافه واستوفيت تفاصيله، سرى في العقول الإنسانية كلها لا الإسلامية وحدها، وحصلت به فكرة نافعة لهذا العالم الإنساني.

فقلت له: إن الأمر في هذا المقام سهل، فإننا نقول: إن جميع النباتات مركبات من هذه التسعة ومثلها الحيوان والإنسان، لأن هذين على مقتضى النبات، فإذا رأيت الذرة والقمح والشعير والقطن والبرسيم وأمثالها فاعلم علماً ليس بالظن أن أزهارها وأوراقها وأغصانها وعروقها الضاربة في الأرض كلها مركبات من هذه العناصر.

(١) فاستحضر أمامك قطعة من البوتاسا. إن هذه البوتاسا منها ما تسمى بالبوتاسا الكاوية ومحلولها يستعمل في تحضير الصابون اللين أي: «الصابون البوتاسي»، وانظر كيف يشتعل إذا ألقي في النار، فهذا جسم ناري لا غير.

(٢) وأحضر أيضاً قطعة من الملح فإن فيها الكلور وهي المادة المغطسة وفيها الصوديوم وهي المادة المحرقة.

(٣) وقطعة من الجير الحي.

(٤) والعيدان الفوسفورية التي يوقد بها الناس إذ تلتهب بالحك، قد جعل الفوسفور متحداً مع مادة أخرى في أعلى العود وبه يكون الالتهاب.

(٥) وقطعة من الكبريت الذي تقدم لك وصفه.

(٦) وقطعة صخر رملية.

إذا جمعت هذه أمامك فقل: إن أمامي كل نبات وكل حيوان، ما هي النباتات على الأرض؟ هي مواد محرقة، مواد كلها مهلكة. اللهم إنك أنت الحكيم وأنت العليم وأنت الجميل، يا الله رأينا جمالك في الدنيا قبل الموت، رأينا في هذه المادة حكمتك وبدائعك وجمالك. لماذا هذا؟ لأنك صنعت قطننا وذرتنا وقمحنا من مواد محرقة، ولماذا كانت محرقة مهلكة؟ لأنها مخلوقة وسائر العناصر التي تبلغ نحو (٨٠) من ذرات ضوئية، وما هي إلا نقطة تسمى «إلكتروناً» تكون في المركز ثابتة وهي كهرباء موجبة وأخرى تدور حولها وهي تسمى بروتوناً وهي كهرباء سالبة، وتدور السالبة حول الموجبة ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة، وباختلاف عدد الإلكترونات والبروتونات تكون هذه صوديوماً وهذه كبريتاً وهذه فوسفوراً وهكذا.

اتضح الأمر وظهر وعرفنا أن هذه القطع التي أمامنا الآن وفيها ملح الطعام المشتمل على جسمين مهلكين وفيها البوتاسا الخ كلها عبارة عن كهرباء اختلفت أجزاؤها فاختلفت أوصافها فكانت النتيجة أنها جميعها مواد محرقة، لماذا؟ لأنها مركبات من كهرباء أو من نور الحركة السريعة والحركة توجب الحرارة، والحرارة تكون كهرباء وتكون نوراً وهكذا.

إن من الأجسام الداخلة في النباتات الكبريت، والكبريت يتركب البارود منه، ومن ملح البارود ومن الفحم، فمن ملح البارود ٧٨ في المائة، ومن الكبريت عشرة، ومن الفحم ١٢. إذن البارود دخل في تركيبه الكبريت، ذلك الكبريت الذي دخل في النبات كما سيأتي وصفه، ومقادير أجزاء البارود عند الدول الآتية ما يأتي بيانه:

| | فرنسا | ألمانيا | إنجلترا |
|---|---|---|---|
| ملح البارود | ٧٥,٠٠ | ٧٤,٠٠ | ٧٦,٠٠ |
| كبريت | ١٢,٥٠ | ١٠,٠٠ | ١٠,٠٠ |
| فحم | ١٢,٥٠ | ١٦,٠٠ | ١٤,٠٠ |

هذا تركيب البارود عند هذه الأمم.

إذن الكبريت الذي دخل في القطن وفي القمح وفي الذرة وفي البرسيم دخل في البارود، المادة التي تركب منها غذاء الإنسان وغذاء الحيوان نار مشتعلة، فكيف اطمأنت هذه النار وكيف سكنت. وما الذي أسكن هذه النار وأقرها حتى أصبحت طعاماً لنا وشراباً وفاكهة وأبا متاعاً لنا ولأنعامنا، ثم كيف تكون هذه الأرض ناراً ملتهبة أو كهرباء مذبذبة وتصبح مخضرة، وكيف تكون حركات ذراتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية، فما الذي كسر تلك الحرارة وأخمدها وثبتها فانقلبت حالاً إلى عناصر فيها تلك الخواص المحرقة؟ ما الذي أخمد تلك النار المتقدة؟.

إن خواص الكلور وخواص الصوديوم وخواص البوتاسيوم وخواص الكبريت كلها ترجع إلى الحرارة والاحتراق، ولكن هذه بالنسبة لحرارة الكهرباء في ذراتها قليلة إنها محرقة جداً فإن الحركة السريعة فيها أعظم والحركة تتبعها الحرارة. أما الجواب على ذلك فإنه يظهر لي أن هذه العناصر فيها قوة من عالم آخر غير العالم الأرضي سكنتها فأخضعت تلك الذرات المشتملات على القوة الموجبة والقوة السالبة الكهربائية، وهذه القوة نسميها نفساً معدنية وبها حفظت تلك الحركات وانقلبت إلى خواص عرفناها في الصوديوم والبوتاسيوم والفوسفور والكبريت. ثم إن هذه العناصر أيضاً دخلت في النبات.

## الكلام على النبات

فانظر إلى البوتاسا فهي في شعر القطن (٥٠٠ ,٥) في المائة، وفي بذره (٣٢ ,٣) في المائة، وفي خشبه (٣٢ ,٩) في المائة. وقد دخلت في عود القمح (٣٢ ,٩) في المائة، وفي حبه (٣١ ,٥٤) في المائة، وفي تبنه (١٥ ,٤٦) في المائة، وهكذا بقية العناصر لها نسبها كلها مذكورات في سورة «البقرة» فارجع إليها عند الطير وإبراهيم. فإذا قرأت هذا الموضوع هناك وضممته إلى ما هنا عرفت أن مطعوم الإنسان والحيوان عبارة عن هذه القطع التي أحضرتها أمامك الآن وأكثرها محرقة مهلكة. فيا ليت شعري ما الذي قلب وضعها؟.

والجواب على ذلك أن هناك نفساً نباتية كنا فيما مضى نعدها أقل من النفس الحيوانية، ولكن الكشف الذي تقدم في سورة «الحج» على يد عالم هندي أبرز لنا أن النبات يحس ويتحرك، فبناء عليه أصبحنا نعجب من كهرباء موجبة وسالبة اختلفت مقادير جزئياتها وحركاتها فأعطتنا عنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً، أعني أنها في المعادن أعطتنا فوسفوراً محرقاً وكبريتاً محرقاً وبوتاسيوماً كذلك وإن تنوعت الصفات، وهاهنا ارتقت في الإعطاء فإنها أعطتنا الغذاء كالبر، والفاكهة كالتفاح، والدواء كالسنامكي والخروع، والداء كشجرة تسمى «الداتوره»، والسام المخدر كالأفيون عند كثرته أو عند قلته، وأعطتنا الحلو والحامض والمز والحريف، وأعطتنا ما لا يتناهى من العجائب والحكم مما لا يحصره العد، ويا ليت شعري من أين جاءنا ذلك الذي سميناه نفساً هنا في المعدن وفي النبات.

فقال صاحبي: إنها كامنة في المادة كمون ماء الورد في الورد. فقلت: وإذا كانت هذه التي سميناها نفساً نباتية وما قبلها التي سميناها نفساً معدنية إنّما ظهرت بعد الكمون في تلك الذرات الكهربائية فلماذا لم تبرز أرضنا حرارة كحرارة الشمس وتستغني عن حرارة الشمس؟ إن أرضنا لا تنال حياة لحيوان ولا نمواً لنبات إلا بماء وحرارة، ولكن الحرارة تأتي من الشمس والنجوم لا من

الأرض، والماء يستحيل حصوله إلا بضوء الشمس المثير للبخار المجري للهواء الحامل للسحاب المطر على الأرض الجارية بسببه الأنهار، فلا نهر ولا سحاب ولا رياح إلا بالشمس. وإذا احتاجت أرضنا إلى أمرين وهما: إصلاح الظواهر بالحرارة، وإصلاح البواطن بنفس مدبرة. ورأينا أنها عجزت عن إصلاح أسهل الأمرين وهو ظواهر الأجسام بالإنضاج، فمن باب أولى تعجز الأرض عن أن تضم بين جوانحها أعظم الأمرين وهي النفوس المدبرة، فثبت بهذا البرهان أن المادة ليست فيها نفوس مطلقاً لا نباتية ولا حيوانية ولا ما سميناه نفوساً معدنية، لأنها محتاجة جد الاحتياج إلى حرارة الشمس ولإصلاح ما عليها من حيث ظاهره. إذن للنبات نفوس جاءت من عوالم أخرى نجهلها كل الجهل، وهذه النفوس المجهولة لنا كل الجهل تحل في النبات عند استيفاء شرط الإنبات وتحدل تلك الذرات وتستخرج بها وفيها أفانين الصور والأشكال والثمرات العجيبة.

## الذرات في عالم الحيوان

ثم إذا وجهنا نظرنا تلقاء الحيوان ألفيناه مركباً مما تركب منه النبات لأنه غذاؤه، وحكم المركب حكم أجزائه، فهذه البوتاسا وهذه الصودا وما عطف عليها داخلات في أجسام الحيوان، ولقد أتت بالعجب العجاب فيه أكثر مما في النبات.

فإذا رأينا الكبريت قد دخل في البارود «بارود الحرب» غير ما تقدم مع الفحم وملح البارود بهيئة خاصة، بحيث يكون نقياً مع فحم نباتي خاص، فهناك يأتي بالمقصود من الحرب، وهكذا إذا رأيناه ــ أي الكبريت ــ مع أخويه مستعملاً في المخاليط المضيئة والمفرقعة والمحرقة في الحرب وفي الصواريخ التي جعلت لإحراق مواد العدو والقابلة للاحتراق بترتيب غير ما تقدم وأجزاء بحيث تختلف عما قبلها، فتكون ثلاثة أجزاء من البارود المحبب و(٤) من البارود الترابي و(٢٨) من الكبريت، ولهب هذا الصاروخ يكون متسعاً وإذا أريد بالصواريخ إنارة الأماكن لترى ليلاً يكون من ملح البارود (٨) أجزاء والكبريت (٢) ومن الأنتيمون جزء واحد، والضوء يكون شديداً.

وقد تظهر الصواريخ بهيئة مطر فهذه تكون بأجزاء بهيئة غير ما تقدم. وإذا نظرنا إلى نفس الكبريت الذي جعلناه مثالاً هنا في النبات واقتصرنا على القطن ألفينا كما تقدم داخلاً في شعره بهيئة حمض الكبريتيك نحو (٨) في المائة تقريباً وفي بذره (٢) في المائة وفي الخشب (٥) في المائة.

إذن الكبريت الذي أعان على أنواع البارود والصواريخ وكشف الأماكن وإحراق العدو هاهو ذا أعان في النبات أي في القطن خاصة على حصول شعر القطن. ذلك الشعر المركب من شعرات هي أنابيب مفرطحات مركبات من مادة «سليولوز»، وهذا الشعر بخلطه بحامض النتريك وبحامض الكبريتيك يكون هو قطن البارود الذي إذا سخن احترق بحيث لا يترك فضلة، وهذه المادة جعلت مع مواد أخرى وصبت في قوالب فصارت مفرقعات، فالكبريت كما دخل في المفرقعات المعدنية دخل في المركبات النباتية.

## الحيوان

ثم إنه هو وجميع المواد الأخرى يدخل في جسم الحيوان. إن الحيوان يغتذي بالنبات ويتشكل ويتمثل بمادته، فيحصل هناك تنوع لا حد له، فبينما نرى الحية السامة المتغذية بالمواد العفنة والأسد

الضاري المغتذي بلحم الحيوان والنمر والطيور الكاسرة نرى أنعاماً ودواب وطيوراً مغردة سارة وأخرى مرقشة الصور جميلة الهيئة متقنة الأجسام، ونرى الجو والبحر والبر ملئت أنواعاً يخطئها العدو كلها مختلفة الصور والإدراكات والأعمال والأمكنة والأغذية وهكذا. كل هذه لم تخرج عن كونها مركبات من المواد المحرقات المتقدمة، وهنا يرد نفس السؤال المتقدم: لم أصبحت المادة الكهربائية التي هي إلكترونات «كهربائية موجبة» وبروتونات «كهربائية سالبة» تجري حول الأولى؟. أقول: لم أصبحت هذه في الصوديوم حرارة، وفي النبات أغذية وأدوية، ثم أصبحت في الحيوان حساً وحركة وحياة وتعقلاً لأمور المعاش، وأجهزة للعنكبوت داخلة في جسمه منها يستخرج نسيجه الذي يستعمله لاصطياد الحشرات كالذباب مثلاً، وفي النحل لاصطناع العسل وحفظ الولد ونظام الجمهورية، وفي حيوان المرجان لإحداث جزائر وجزائر تعد بعشرات الآلاف في البحر. انظر صور جزائره في آخر سورة «الفرقان» فيما تقدم.

وهكذا كيف انقلبت تلك الحركات الذرية الضوئية الكهربائية اتحاداً بين أنواع الذرات المكروسكوبية المحدثة للجدري والحمى فتعاونت تلك الحيوانات التي لا ترى على إهلاك نوع الإنسان أو أنواع أخرى كالخيل والأنعام وهكذا. أقول: والجواب على ذلك عين الجواب المتقدم في النبات. إن الأرض والمواد التي فيها ليس عندها شيء كامن فيها يصنع هذه العجائب كالقوى المخيلة في أدمغة الحمير التي بها تعرف الطرق والمسالك وتحيط بها علماً يقصر عنه الإنسان، وإذا كانت أرضنا كما تقدم لم تجد في عناصرها حرارة تغنيها عن حرارة الشمس للحياة ولا ضياء ينير السبل فكيف قدرت هذه المواد أن تحدث لنا نفوسنا دراكة تعطي حيواناتنا الأمرين معاً نظام تركيبه وهدايته إلى معاشه وإلى سبله في حياته.

فإذا كانت الأرض عجزت عما به الإضاءة والإنضاج فما أعجزها وأضعفها عن أن تأتي لنا بالقوة النامية الحيوانية والإدراك والتدبير ومعرفة الطرق وتربية الذرية. كلا. ثم كلا. إن هناك نفوساً ليست من هذه المادة رفعت القوة التي في العناصر فنوعت حرارتها التي كانت محرقة في الكبريت ومفرقعة في القطن إلى حس في الحيوان وتبصر فيه وإدراك وهداية بالنجوم والشمس والقمر.

## الإنسان

هاهنا نأتي إلى عالم الإنسان ونقول فيه ما قلنا في الحيوان، ولكننا نرى فيه عجائب لا تحصى، ففيه الأنبياء والحكماء والملوك، وفيه النصابون واللصوص والسفاكون. أقول: لا غرابة فمادته معروفة إياك أن تنسى أنه هو نفسه فوسفور، وما معه فهو كالنبات وكالمفرقعات المتقدمة، فهذه النفس التي دخلته من عالم أعلى من عالمنا يجب أن تكون على شاكلة الجسم، ذلك لأن الظرف يلائم المظروف، كما أن الصدف ملائم للجوهر فيه، هنالك يظهر لك لم كان البون بين الناس عظيماً، فهذا ملك وهذا شيطان، ذلك لأن الاختلاف في الإنسان أعظم من الاختلاف في الحيوان، وفي الحيوان أعظم من الاختلاف في النبات، وفي النبات أعظم الاختلاف في المعادن. إن المسافة هنا شاسعة جداً، فالنفوس الحالّة في الأبدان إما أن تغلب هي فتقلب القوى الهائلة في الذرات التي علمت إنها كهرباء كلها إلى منافع وفضائل، وإن غلبت قوى الذرات أنزلت النفس إلى مراتبها وغلبت طباعها.

إن بين نفوسنا وبين المادة مشاكلة. إن المادة كهرباء كما قدمنا، وهي شديدة الحركات ونفوسنا يظهر أنها من عالم ألطف جداً، فغرها سراب هذه الكهرباء فخدعت بها فدخلتها فحبست فيها وأخذت تسعى طوعاً أو كرهاً. وهاهي ذه تجاهد وقد حولت تلك القوى المادية المهلكة إلى حس وحركة وخيال وقوة مفكرة وقوة حافظة، وأخذ العالم ينطبع في قوى هذه النفس انطباعاً وكأنها نور أشرق من لدن الحضرة الإلهية. ولما نزل إلى الأرض وغمرته المادة أخذ يتطلع كرة أخرى إلى الملأ الأعلى فظهرت في لوحة نفسه صور السماوات والأرضين على مشاكلة طبعه الإلهي الذي نسيه فهو من نور إلهي، وهنا يقع التفاضل.

فالنفوس الضعيفة تتصور العالم كله إجمالاً ولكنها لا تعير هذا التصور التفاتاً ولا تعقله بل تهمله، والنفوس الكبيرة تعلم علماً ليس بالظن أن هذه القوة والقدرة خلقت فينا لندرس بها هذا الوجود، وإلا فلماذا نراها حاضرة عندنا؟ ولماذا نراها في عذاب واصب في هذه الأرض لا راحة لنا؟ كل ذلك لنعلم أننا مخلوقون لعالم أعلى ولن ندركه إلا إذا عرفنا قيمة أنفسنا التي لا تفتأ تذكرنا بمجدنا الأثيل وعلمنا الرفيع وشرفنا الأعلى.

هاهو ذا الإنسان هو المركب من تلك العناصر المحرقة والنفس الحالّة فيه ليست من هذا العالم بما قدمنا من البرهان، لأن هذا العالم الأرضي لم يقدر أن يستغني بضوء لنفسه من نفسه، فهو عن ضوء العقل أعجز، إذن نفوسنا من السماوات أي من عوالم أشرف من الأرض. هذا هو البرهان الذي اطمأنت له نفسي. هذا هو البرهان الذي أبني عليه ما يأتي:

أولاً: أذكر نظام الإنسان في مدنيته.

ثانياً: أتبعه بغاية ما وصل إليه بعقله وذكائه في اجتماعه وسياسته.

ثالثاً: أذكر كيف كانت الأمم المغلوبة لغيرها يسرع إليها الفناء.

رابعاً: أذكر أن الأمم الغالبة تلحقها في ذلك مع ذكر شواهد التاريخ.

خامساً: أبين أن الإنسان في ذلك لم يبلغ شأو الحيوان في الإبداع حتى أنه عجز عن أن يصنع ما صنعه المرجان من إحداث أرض تنفع الإنسان و الحيوان.

سادساً: أتبع ذلك بخطاب عام للأمم الإسلامية كلها شرقاً وغرباً.

كل ذلك تفسير لهاتين الآيتين: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[النمل: ٣٤] الخ، وقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢]. فهاهنا إذن ستة أمور:

## الأمر الأول: في ذكر نظام الإنسان في مدنيته

### سياسات الإنسان

هل لك أيها الذكي أن أسمعك كلام العلامة الفارابي الذي لخصته في كتب كثيرة مثل كتاب «نهضة الأمة وحياتها»؟ أذكر لك الآن ما ملخصه. إن من الناس من قالوا: إنّما الحياة هي اللذات، فعكفوا عليها وتركوا ما وراءها، وهؤلاء يسمون ذوي الحياة الحسية. وآخرون يقولون: إن المدار في الحياة على الكرامة فلنعش على الكرامة والعظمة، لأن المقصود من الحياة ذلك، وآخرون يرون أن الحياة يجب أن تكون بالغلبة، فيفعلون فعل الأسود والنمور، وآخرون قالوا: إن الإنسان مدني بالطبع،

وهؤلاء انقسموا قسمين: قسم مدينته فاضلة، وقسم مدينته فاسقة. فأهل المدينة الفاسقة هم: (١) إما اجتمعوا بطريق النسب والعصبية وغلبوا غيرهم. (٢) أو بطريق اللغة، فأهل اللغة الواحدة يستعبدون سواهم. (٣) وإما بالوطن، فأهل الوطن الواحد يستعبدون سواه. (٤) وإما بالدين، فأهل الدين الواحد يذلون سواهم ويدوسونهم. (٥) وإما بالمعاهدة، فالدول المتعاهدة المتعاقدة تستعبد غيرها. (٦) وإما بالمصاهرة، فالأمم التي يتصاهر ملوكها أو ذوو الأمر فيها يكونون عوناً على من سواهم. (٧) وإما بالاستعباد، فالأمة تستعبد أخرى وهما معاً يستعبدان أخرى وهكذا. (٨)وإما بملك جامع يجمعهم فيكونون حرباً على من سواهم.

هذه هي التي ذكرها الفارابي في كتاب «أهل المدينة الفاضلة»، وجعل هؤلاء كلهم أهل مدينة فاسقة خارجة عن الحق، وإياك أن تظن أن الاجتماع الذي اجتمعه المسلمون من هذه المدينة الفاسقة لأن المسلمين الأولين كانوا يعرفون لماذا يخضعون الأمم، كانوا يخضعونها للرابطة الإنسانية الدينية وليعلموهم، فلما انحطت مدارك المسلمين نسوا أن الفتوح للدين ولرقي الأمم، فأذلوا الأمم فطردهم الله من ديارهم، هذه آراء أهل المدينة الفاسقة في نظر الفارابي، وعلى هذا القول تكون الأمم المعاصرة لنا كلها فاسقة، لأنها اجتمعت بالوطن وبالعصبية أو بالمعاهدة، فإنك ترى أن الإنكليز تعاهدوا مع اليابان على الروسيا سابقاً فهزموها فهذه غلبة بالمعاهدة وكذلك اجتمعت أوروبا سابقاً أيام حرب «البوكسر» في الصين على حرب هذه الأمة، ولم تنل أوروبا كلها منها حظها، وهاهي ذه الآن غلبت أوروبا كلها.

والمقصود من هذا المقال أن الأمم الحالية في رأي العلامة الفارابي فاسقة، وذلك أنها ليست تراعي إلا نفسها وتريد الخير الخاص مع إذلال غيرها وإهلاكهم، وهذه الخصلة بعينها هي التي كانت في نفس المادة، لأنك علمت أن المواد المعدنية الداخلة في النبات وطباعها نارية، وهذه الطبيعة النارية هذبها أولاً القوة المعدنية، ثم القوة النباتية، ثم القوة الحيوانية، فلما جاء الإنسان بقيت فيه طبائع النار، وهاهو ذا آخذ بالتهذيب شيئاً فشيئاً، هاهنا أقف وقفة لأنظر معك أيها الذكي.

لقد تبين من هذا كله أن الإنسان الحالي لا تزال فيه طبيعة النار المتقدة، وهذه النفس التي نزلت من السماء وهبطت إلى الأرض ودخلت هذه الهياكل الجثمانية لم تزل طبائعها تقترب من طباع الآساد وطباع الكبريت والفوسفور والكلور، إن المادة أشبه بجهنم، فهي جهنم الصغرى والله كونها بهندسة ونظام دقيق قد استبان لك في دقة الحساب، إذ يدخل العنصر الواحد في أنواع من النبات تختلف باختلاف النبات كالبرسيم والقمح وكالقطن، فترى ذلك في سورة «البقرة» في الجدول هناك عند آية الطير وإبراهيم إذ يكون الوزن مختلفاً باختلاف النبات، ولولا هذا الوزن لم يكن قطن تلبسه ولا بر تأكله ولا برسيم تأكله الدواب، فالحساب في ذرات هذه كلها جار بلا خطأ، ولو حصل أي اختلاف في الحساب لم تكن هذه الحياة ولا هؤلاء الأحياء. إذن الله فعل مع المادة التي نعيش فيها مثل ما سيفعل مع النار يوم القيامة.

إن الجبار يضع قدمه في النار ـ كما في الحديث ـ فتقول: قط قط. فهاهو ذا سبحانه وضع النفوس المعدنية والنباتية والحيوانية فانتظمت أحوالها. ولقد هذبت هذه المادة تهذيباً حسناً وسارت سيراً مستقيماً

بسبب حساب الذرات الذي هو أوفق لهذه النفوس التي نزلت للأرض من عوالم أخرى، فالله على صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[الأنعام: ١٥٣] الخ، وقال: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦].

ولا جرم أن الدواب والنبات كلها موزونات ذراتها بوزن لا عوج فيه، ولولا ذلك ما عاشت ولا نما الحيوان ولا النبات ولا وجد في الأرض، ويقال في الصراط: «إنه أدق من الشعرة وأحد من السيف»، وصراط الله كذلك، لأنه لولا هذا الحساب ما كان حي، ولذلك ذكره عقب ذكر الدواب، ونحن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٦-٧]، وصراط الذين أنعم عليهم هو صراط الله، وصراط الله هو الذي عرفته في نظام هذا الوجود. إذن وصلنا إلى المقصود.

هذه أرواح بني آدم جاءت إلى الأرض وجعلهم خلفاء أرضه. لم يجعل الله عقولنا كعقول الحيوان بل فتح لنا باب الفكر، وقال: انظروا، فنظر الفارابي هذا النظر في نوع الإنسان وقال إنهم فساق، ثم ذكر آراء العلامة الفارابي في سياسة الإنسان.

## أهل المدينة الفاضلة

وقد ذكرت هذا المقال في مواضع من هذا التفسير وأنا أجمله الآن. قاس مجموع الأمة على نظام الجسم الإنساني وأخذ يشرح الجسم كالأعضاء وأعصاب حس وأعصاب حركة، ويتكلم على أعضاء الهضم، وأن الفم يخدم المعدة، والمعدة تخدم الأمعاء، وهكذا. ويلخص كل ذلك في أن الأعضاء منها خادم ومخدوم، والقلب كالوزير للدماغ وهو مجلس القوة الحاكمة، واستنتج من ذلك كله أن كلًا من أبناء الأمة يوضع في مركزه الذي استعد له، فكما استعدت العين للإبصار والأذن للسمع والمعدة للهضم والدماغ للتفكير؛ هكذا يجب أن يكون أرباب الرأي هم الحكماء وأرباب القوة هم الجيوش وهكذا، وأبان أن التركيب إذا اختل اختلت المدينة وصارت فاسقة، ويرى أيضاً أن أهل الأرض كلهم يجب أن ترتب دولهم على هذا المبدأ بحيث تكون كل دولة في مركزها الخاص بها اقتصاداً وعملاً، ويصبح الناس كلهم أمة واحدة، فإن خالفوا ذلك كانوا فساقاً، ولكنه لم يوضح تعليمهم العام بل تركه لمن يفهم ذلك بعده، وأنت ترى أن آراءه تستمد من نفس الطبيعة وتنحو النحو الذي أثبته لك في هذا المقام.

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذي ألهمت الحكماء فعبروا عن صراطك المستقيم بما شاهدوه في عملك، قاس الفارابي نظام الأمة على نظام الجسم الإنساني وهكذا جميع الأمم، وإن كان قوله إجمالياً، وأنا قلت هنا: إنك أنت أخضعت المادة بالنفوس التي أنزلتها إلى الأرض، وهذه النفوس من النور الذي أبدعته، فنفوسنا نور إلهي ولذلك يسمونها بالجزء الإلهي فينا، ونحن الآن لم نصل إلى الدرجة التي بها نسعد في هذه الحياة، لأنك أنت على صراط مستقيم، ونحن لن نسر على صراطك الذي نقوله كل صباح: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[الفاتحة: ٦-٧]، ومن أعظم المنعم عليهم أولئك الذين تكون مدنيتهم على هذا النمط ويكونون في السلام الذي نقوله في التشهد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وأنت تقول لنا: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَٰحِهَا ﴾[الأعراف: ٥٦]، وتقول لنا: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[القصص: ٧٨]، فجعلت الدار الآخرة مرتبة على عدم العلو في الأرض وعدم الفساد فيها، فقولنا في الصلاة: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، تدخل فيه تلك الحال التي يكون الناس فيها أمة واحدة إذ يكونون مصلحين في الأرض غير مفسدين، وهم منعم عليهم لا يريدون العلو بل يكون الملك والعرش للمنفعة العامة وخدمة المجموع لا للأغراض الخاصة التي هي شأن أمم الأرض قاطبة اليوم.

أنا قلت لك: إن العلامة الفارابي لم يبين تعليم الأمم ولم يفصله، ولكن الذي تعرض للتعليم هو أفلاطون في جمهوريته التي جعلها على لسان «سقراط» أستاذه، فأنا أورد جملاً منها الآن بما أراه في زماننا.

## آراء أفلاطون في سياسة الإنسان

ذكر أفلاطون في المقالة الخامسة من جمهوريته أن التعليم لا يختص بالرجال بل يعم الرجال والنساء معاً، وقال: إن التفاوت بين الرجل والمرأة راجع للتفاوت في التعليم، وبذلك يشاركن الرجال في الحرب والوظائف المدنية ويتعلمن الموسيقى والرياضة البدنية كالرجال سواء بسواء، وهنا ذكر كلاماً لا ينبغي لأنه لا يوافق حالنا ولا ديننا. وقال في المقالة السادسة: إن معرفة الوجود الحقيقي لا تكون إلا للفيلسوف لأنه هو وحده الذي يحتقر الظواهر، وهو وحده الذي ينفر من الكذب، وهو يحقر ما يستعظمه الجمهور من متاع الدنيا، إذ لا يريد إلا التشبه بالنظام الأزلي. وأخذ يذكر تربية الحكام فقال: يجب أن يكونوا قادرين على العلم والعمل فيصطفى أذكى أهل المدينة وأكثرهم حافظة وأصبرهم على التعب، ويمتحنون في الأشغال الفكرية والجسمية ويؤخذ أفضلهم للرياسة. ثم قال: وهذا الجد والنصب والتعب لا بد منه لمن يريد أن يرتقي إلى معرفة أعلى العلا وهو معنى الخير المحض ـ وهو الإله في كلام أفلاطون ـ ثم قال: إن الخير للمعاني كالشمس لبقية الموجودات منها يستمد كل موجود، وبقاؤه ولا يعرف إلا بها. ولا طريق لها عنده إلا العلم الإلهي الذي له طريقان: طريق الجمع: وهو الاستقراء، أي: الارتقاء من المعاني المفردة إلى ما هو أرفع منها إلى أن يبلغ إلى جمعها تحت معنى عام. والثاني: طريق التحليل والتقسيم بين المعاني الجامعة إلى أن ينتهي التحليل إلى المعاني المفردة. انتهى من ترجمة الأستاذ «سنتلانه».

ولعل بعض هذه المعاني غامض فأوضحه قائلاً: «إنه يقول: إن الله سبحانه وتعالى كالشمس فكما أن الشمس بها ظواهر الحياة وبها هدايتنا لطرقنا، هكذا الله به قوام الحياة وبه هو معرفة المعاني، فهو المحيي وهو الهادي، وعقولنا إن لم تستمد منه لم تعرف شيئاً، كما أن أجسامنا إن لم يحيها هو لم تحي». وطرق الاستدلال التي ذكرها هي في العلم الإلهي من فن الفلسفة بحيث يدرس الإنسان هذه الدنيا إما بالتحليل والتقسيم وإما بطريق الاستقراء. ومن اطلع على هذا التفسير عرف مجمل ما يقوله. وذكر في المقالة السابعة مسألة المعرفة، وضرب للناس مثلاً بالمغارة التي تحت الأرض وفيها أناس مغلولون منذ صباهم معتقلون فيها، في رقابهم أطواق من حديد تمنعهم كل حركة، ولم يروا إلا ما أمامهم من نور إذ لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ووراءهم نار على ربوة وهي تنير المغارة، والنار طريق

وبجانب الطريق حائط على طوله، وقد كثر المارون بهذه الطريق، وهؤلاء المارون يحملون تماثيل مختلفة وأنواعاً من البضائع، ثم إن أصحاب المغارة أشبه بنا الآن لأنهم لم يروا من أنفسهم إلا الظل، ولم يروا نفس الأشياء، وهذا الظل للتماثيل والأمتعة، ثم إن هؤلاء إذا تحدثوا فإنهم يجعلون لتلك التماثيل أسماء ويحكمون بأنه ليس في الوجود سواها، فإذا انطلق أحدهم من المغارة فإنه يستحيل أن يقدر على مقابلة الأنوار إلا تدريجاً، فهنالك يتعود ذلك المنطلق منهم على أن يرى ظل الأشياء أولاً في الماء ثم يرى نفس الأشياء، ثم ينظر السماء ليلاً أولاً فيرى الكواكب ثم يرى القمر ثم الشمس، ثم يعلم أنها سبب الفصول والأعوام، وسبب كل ما يحدث على الأرض، وكل ما يراه في المغارة، ثم يرجع إلى أهل المغارة ليهديهم إلى ما هدي إليه شفقةً منه عليهم، وهنالك يتعود على الظلمة شيئاً فشيئاً حتى يقدر أن يعيش معهم، ثم يحدثهم فيسخرون منه وينسبونه للجهل، وربما تحدثوا بقتله.

ثم قال: فهذه حال الناس في الدنيا بالنسبة إلى حقيقة المعرفة، فالمغارة هي هذا العالم المحسوس، والنار ضوء الشمس، والأسير المغلول الذي خرج من المغارة هي النفس إذا ترقت إلى عالم المعاني، فإذا بلغت النفس أقصى العالم المعقول فهنالك تعرف بعض معنى الخير المحض ـ يريد الله ـ فإذا شعرت بذلك عرفت أن الخير المحض ـ يريد الله ـ هو علة كل ما في هذا العالم من الجمال والخير، ومتى أدرك الإنسان ذلك صغر لديه كل ما في هذا العالم وتعذر عليه توجيه همته إلى الأمور السخيفة التي هي مطمع أبناء جنسه وشغل أعمارهم في هذه الدنيا. اهـ.

ثم قال أفلاطون: ومن هذا يستدل على أن المعرفة لا تحصل للنفس دفعة واحدة كما يفتخر به بعض الناس إذ يقولون: نحن ندخل المعرفة مرة واحدة في النفوس الخالية منها كما يفعل بالمكفوف البصر بأن يرجع له الإبصار، والحق على خلاف ذلك وهو أن كلًّا منا له قدرة طبيعية على إدراك العلم وله كذلك آلة معه لهذه الغاية، والحيلة فيه أن يحول هذه الآلة والنفس أجمع من مشاهدة ما يفنى إلى ما هو موجود في الحقيقة إلى أن يتعود شيئاً فشيئاً على مشاهدة ما هو كالشمس في الوجود، وهو الخير المحض ـ يريد الله.

ثم قال أفلاطون: وعلى هذا فليس الأمر أن نحصل على الإبصار، إذ الإبصار حاصل لكل منا لكن آلته لم تنظر حيث يجب أن تنظر، فينبغي تقويمها لكي تنظر حيث يجب.

ثم رتب على هذا كيف تكون تربية الحاكم الفيلسوف ليستعد للحياة النظرية والعلمية معاً، فقال بعد الفراغ من التربية المفروضة على جميع أصحاب الرياسة وهي الموسيقى والرياضة البدنية يصطفى منهم من هم أقوى جسماً وأصح عقلاً وأصبر على المشاق وأتقى وأنقى وأكثر قوة على التعرض للمخاطر وابتعاداً عن الملاذ والشهوات، فيعلمون أولاً علوم الرياضيات الحساب والهندسة والموسيقى، فهذه العلوم مع الاحتياج إليها في العمل تعود النفس على مراقبة الأشياء الدائمة التي لا يلحقها التغير لاقترابها من الوجود المحض «الله».

ثم يتلو هذا التعليم الرياضة الحربية مدة عامين أو ثلاثة، ثم الرياضيات من جديد، حتى يبلغ التلميذ من عمره ثلاثين سنة، ثم يتعلم العلم الإلهي فيبحث عن علل الأشياء وجوهرها العقلي، وهذا هو البحث عن الوجود، قال أفلاطون: إن هذا العلم لبقية العلوم كالشخص للظل وكالعلم لمجرد

الظن، ويستمرون في هذا العلم خمس سنين، ثم يدرب في العلوم الحربية وغيرها، ثم إذا انتهوا من ذلك كله يقلدون أمر المدينة بصفة حكام وذلك إذا بلغوا من العمر خمسين سنة. انتهى.

وقال في المقالة الثامنة: فذكرت أن هذه هي المدينة الفاضلة وهؤلاء هم حكامها، فإذا فسدوا نزلت مدينتهم ورجعت فاسقة، فتكون أولاً عسكرية وهي الخاضعة للقوة الغضبية، أما المدينة الفاضلة فهي خاضعة للقوة العاقلة، ثم حكومة الجمهور ثم حكومة الجبر والفسق، وهي حكومة الفرد. ثم أبان أن هؤلاء المتعلمين هم الأشراف وحكومتهم تسمى «حكومة الأشراف»، ثم قال: إن فساد المدينة الفاضلة ينشأ من فساد النسل وتنازل الأولاد في أخلاقهم وأفكارهم عن شرف آبائهم، ومن ذلك ما يقع بينهم من تفرق الآراء والتشاجر وكثرة الفتن، ويكون مآل أمرهم أنهم يقسمون المكاسب والأموال فيما بينهم ويسخرون بقية أهل المدينة لخدمتهم بعد أن كانوا لهم حراساً وحكاماً، فيغلب عليهم حب السلطان والمال وينفرد كل واحد برأيه، فإذا تمادى الأمر على ذلك وكثرت الثروة وانتشر فيهم حب الترف والإسراف والحرص على المال فقد ينقص بقدر ذلك من احترامهم للفضائل ويزداد إعجابهم بالأغنياء واحتقارهم للفقراء.

إذن تتبدل هيئة المدينة شيئاً فشيئاً وتصير الرياسة إلى الأقل وهم الأغنياء. إذن تكون المشاركة في الحكومة على قدر المكاسب، وإنه لا حق في الرياسة إلا لأصحاب الأموال دون غيرهم، وعلى ذلك تنطبع أخلاق أهل المدينة بحب المال والبخل وعدم المروءة والحرص، ثم يدوم الأمر على ذلك فيصبح المال في يد زمرة قليلة من الأغنياء ويزداد الفقراء يوماً فيوماً لأجل ما يؤخذ منهم من الربا وما يباع من مكاسبهم لخلاص الديون، ويزداد الأغنياء بقدر ذلك ثروة وقدرة. وإذن تكون المدينة فريقين: الفريق الأكبر هم الفقراء، والأقل هم الأغنياء الذين بيدهم زمام الأمور فينهمكون في اللذات والإسراف ويتبع ذلك الكسل وضعف الأبدان وفساد المزاج وعدم الصبر على المتاعب والمشاق، فإذا رآهم الفقراء على تلك الحال وشعروا بغلبة عدوهم ووفور قوتهم على قوة الأغنياء لا يلبث الأمر أن تشب نيران الفتنة والثورة في المدينة، فربما يغلب الفقراء فيأخذون في قتل الأغنياء وإجلائهم عن المدينة ـ وقد حصل هذا فعلاً كما قدمته في سورة «النحل» ببلاد الترك وبلاد الروسيا حرفاً بحرف هو بعينه، فقد أخرج بنو عثمان وقتل القيصر وانتهت هذه الفتنة ـ ونهب أموالهم فتصير الحكومة إليهم ويستبدون في المدينة بالأمر، وهذه هي الحكومة الجمهورية ديموقراطياً، وهنالك تمام الحرية وإزالة عنان الأحكام والموانع والفروض الواجبة، فيتبع كل من الأفراد هواه ويصير الأمر كالفوضى بينهم لا حاكم ولا محكوم ولا ثبات ولا اتحاد، وتستمر الحال على هذا المنوال إلى أن يسقط اعتبار الأحكام من نظر الجمهور، وهذا إفراط في الحرية، فلا بين الراعي والرعية حاجز، ولا بين الأب وابنه قيد، وينحل كل رباط، فيحصل إذ ذاك العكس، فالشيء إذا جاوز الحد انقلب إلى ضده، والإفراط في الحرية يوقع الأمة في العبودية التامة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[النبأ: ٢٦].

هنالك عند تفاقم الأمر يصبح الأمر بيد واحد مستبد برأيه، ولا يعتمد إلا على قوة سلاحه فيطغى ويجور ولا يأمن أحد ظلمه، وهذه هي الحكومة الجبرية وهي آخر هيئات الحكومات التي تتغير إليها المدينة الفاضلة وهي أخسها مرتبة وأضرها عاقبة على الأمة.

وفي المقالة التاسعة ذكر أفلاطون أخلاق النفس الجبرية المشاكلة للمدينة الجبرية فقال: إنها النفس العديمة العفة والحياء، المنطلقة في ميدان الخلاعة والظلم والاستبداد لاستيلاء النفس الشهوانية فيها على النفس العاقلة، فهي أشبه شيء بنفس السكران والمجنون، فإذا كثر مثل عدد تلك النفوس في المدينة كانوا للجبار المتسلط عليها من أقوى الدعائم للاستمرار في ظلمه، وسعادة هذه النفوس وسعادة الجبار المتسلط عليها لا معنى لها إلا الشقاء المستمر، بل هم أشقى الناس وأحقهم بالشفقة، وأهل مدينتهم أشقى أهل المدن.

فإذا رتبنا الهيئات الخمس المذكورة وجعلنا الموازنة بين ما لكل منها من السعادة جملة وأفراداً عرفنا أن مراتب السعادة تتناقص فيها على قدر تنازل المراتب، فأعلاها درجة في السعادة «مدينة الأشراف»، فالمدينة سعيدة وأفرادها سعداء، وهكذا بالترتيب إلى آخرها، وهي الهيئة الجبرية فهي أقلها سعادة وأكثرها شقاوة، ثم قال: إن أسعد الناس وأفضلهم وأعدلهم هو من ملك نفسه ونظمها على هيئة «مدينة الأشراف»، وأشقى الناس هو أظلمهم وأخبثهم، وهو الذي على هيئة «المدينة الجبرية» فهو ظالم لنفسه وغيره ولم يترك للعقل ولا للعدل مجالاً.

والمقالة العاشرة التي هي آخر الكتاب ذكر فيها أنه يجب الحجر على الشعراء والمشخصين وغيرهم من الصنائع التي شأنها تمثيل الأهواء والعواطف المموهة، لأن في عملهم إغراء النفوس وحملها على ما يشاهد أو يسمع من أنواع الشهوات والغضب والفسق والحزن المفرط والضحك المفرط وغير ذلك من أنواع العواطف المناقضة لاعتدال النفس وما يجب حفظه من رياسة النفس العاقلة، قال لأنه ليس من أنواع المجاهدة ما هو أعظم خطراً وأعسر مباشرة من الجهاد الموقوف عليه أن يكون المرء فاضلاً لا خبيثاً، فلا ينبغي أن تغفل عن العدل ولا عن معيشة الفضائل لأجل شيء آخر سواء كان الكسل أو المال أو السلطان أو جزيل الشعر. انتهى ما ذكره أفلاطون ترجمة الأستاذ سنتلانه.

نعم أنا ذكرته مجملاً سابقاً وهنا فصلته تفصيلاً أوسع لما سأورده هنا، فهاأنا ذا أيها الذكي ذكرت لك مبدأ الأمر وهو هذه العناصر التي في أرضنا، ومنها الصودا والبوتاسا والكبريت التي هي من جملة ما في النبات والحيوان والإنسان من العناصر، وأنها محرقات ملتهبات، كما أن الأكسوجين أيضاً ملتهب وهو من أهم أجزاء تلك المواليد، وأن هذه النفوس النباتية والحيوانية تصرفت في هذه الطبائع فحولتها إلى ما هو أكمل، ثم إن هذه النفس الإنسانية أكمل وقد لعبت بها هذه المادة فرجعتها إلى أخلاقها، والنفس تارة تكمل لأنها من عالم أعلى، وتارة تسفل لأنها انحطت إلى هذا العالم المضطرب المحترق، ثم ذكرت لك أخلاق النفوس البشرية في كلام الفارابي، وأن المدينة الفاضلة نتيجة كمال هذه النفوس ككمال النظام في الجسم الإنساني، وقلت إنه لم يبين التعليم بياناً واضحاً، وأتبعته بكلام أفلاطون وإن كنت أجملته في غير هذا المكان لأنه ذكر التعليم وأوضحه، وفي كلامه الأصول التي سأبني عليها إن شاء الله ما حصل في أمتنا الإسلامية، وما في ذلك من العجب والعلم والحكمة وبدائع الأفكار وعجائب التصريف الإلهي في هذا النوع الإنساني، وكيف يتشابه الأولون والآخرون. اهـ.

## التعاليم الإسلامية

### ماذا أصاب أمتنا الإسلامية من الأهوال السياسية بمخالفتها في التاريخ وتطبيق الآية على السابق وعلى اللاحق

وإذا فرغت من الكلام على الأمر الأول وهو ذكر نظام الإنسان في مدينته، وعلى الأمر الثاني وهو ذكر غاية ما وصل إليه بعقله وذكائه في اجتماعه وسياسته، أبين الأمر الثالث والرابع اللذين فيهما أن الأمم المغلوبة لغيرها يسرع إليها الفناء، وأن الأمم الغالبة تلحقها في ذلك الفناء، وأذكر شواهد التاريخ على ذلك كما وعدت، ولأقدم مقدمة في ذلك فأقول:

لا جرم أننا الآن في تفسير آيتين من كتاب الله تعالى وهما: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾ [النمل: ٢٣] الخ، وقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل: ٥٢]، فلأبين ما يناسب كلام أفلاطون من القرآن.

اللهم إنك أنت الذي خلقت هذه المادة وأنت الذي جعلتها محترقة مضطربة، وأنت الذي خلقت أرواحنا والقوى المعدنية والنباتية والحيوانية، وجعلت هذه النفوس من عندك مهيمنات على هذه الأرض، واصطفيت من هذه النفوس الإنسانية ألطفها، وأمرتها أن تفكر تارة باجتهادها وتارة بأن توحي إليها، فالحكماء بالجد والتفكير والأنبياء بالوحي، وأنزلت العلم على قلوب حكماء في الصين والهند وبابل وقدماء المصريين، وقد تشابهوا في أصولهم، وكان من بقيتهم الوارث علم قدماء المصريين «أفلاطون» ومن معه من الحكماء.

ثم إن هذا الفيلسوف ألف كتبه ومضى إليك ولم يقدر على إيجاد أمة من الأمم، بل بعده بعشرات السنين ذهبت دولته وهي اليونانية وحلت محلها دولة الرومان، وورثوا ديارهم وعلومهم وتمسك بها أمثال «سنيكا وشيشرون» الفيلسوفين الرومانيين، وتسلطت هذه الدولة على أمم كثيرة ثم فسقت، ولكنك قبل أن تخربها أردت أن تظهر أمة أخرى بشكل عجيب فعمدت إلى بلاد قليلة النبات لا علم عند أهلها، فهم في قفرهم أبعد الناس عن كل علم وتهذيب، واصطفيت واحداً منهم وقلت له: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، فهذه الآية قد فسرها «سقراط» الذي زالت وولت أمته ودولة أمة اليونان بعدها، فقد قال في المقالة العاشرة المتقدم ذكرها بوجوب الحجر على الشعراء والمصورين والمشخصين الخ، لأن هؤلاء يفتحون على الأمة أبواب الفسوق والعصيان، فتضعف الأبدان والعقول وتصبح مدنهم فاسقة، وقلت له: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وهذا إجمال يفصله ما تقدم في مقالات «سقراط» قبل المقالة العاشرة كما سمعته من المدينة الغضبية وهي العسكرية، والمدينة الجبرية وهي حكومة الفرد المستبد ومن المدينة التي تحت حكم الأغنياء وكيف ينتهي أمر هؤلاء بضعف الأجسام وضعف العقول بالانهماك في الشهوات، فيذهب ملكهم ويضيع مجدهم، فهذه المدينات الأربع التي ذكرها أفلاطون وإن كان في بعضها نظر ما سأوضحه بعد، هي التي ذكرها الله في القرآن بهذه الآية.

وقلت له: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠]، وقلت له: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٣]، وقلت له: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾[القصص: ٧٦-٧٧]، وقلت له: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٧٩-٨٣].

فهذا كلام لمن اصطفيته من هؤلاء الذين لا علم عندهم ولا مدنية، فلما اطلعنا على خلاصة فلسفة الأمم السابقة ألفينا تفسير هذه الآيات قد حضر في العقول من عندك قبل نزول القرآن، كأنك أنزلت هذه المعاني أولاً ثم أنزلت القرآن، لنطلع الآن عليها ونجعلها شرحاً لها، كما أنك خلقت النبات قبل خلق الحيوان ليكون مرعى له، وخلقتهما معاً قبل خلق الإنسان ليكونا سعادة له، فهذا الدين أنت أنزلته على نبي أمي وأمته أميون، حتى إذا قرؤوا كتب الأمم السابقة دهشوا وقالوا: يا عجباً يا ربنا يقول أفلاطون في جمهوريته فيما تقدم هنا: إن أولئك الملوك المستبدين في شقاء في حياتهم، وهم معرضون لزوال الملك بعد ضعف أجسامهم وعقولهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن هذه الأموال والنعم الظاهرة التي يعظمها الجمهور عند طائفة من الناس وهم الفلاسفة عذاب واصب لأنهم اطلعوا على الخير المحض، وهؤلاء الفلاسفة يجعلون حياتهم كلها تقوية لعقولهم بالعلم الرياضي والإلهي ولأجسامهم بالتمرين الحربي.

فالعظمة والسعادة إذن ترجعان إلى شيء غير المال وهو قوة العقل بالعلوم جميعها لا سيما معرفة الخير الأعظم وهو الله، ومعرفة الخير الأعظم لا تأتي إلى الناس بغتة، فلا بد من ممارسة العلوم العقلية والصناعات العملية هذه في وقت وهذه في وقت آخر، حتى يقوى العقل ويقاوم الإنسان جميع الشهوات، وتسلم لصاحبه مقاليد المدينة ويتولى نظام الأمة. إذن ما كان يفكر فيه الحكماء جاء به نفسه القرآن، فهمه المسلمون أم لم يفهموه، عقلوه أو لم يعقلوه، فكم وضع الله من بذور في الأرض فخرجت زرعاً نضراً والناس لا يعقلونه، فإذا رأينا أمماً إسلامية ماتت وأخرى حية وهم جميعاً لا يعلمون هذه العلوم، فليس هذا بدعاً فهذه أعمال الله، ينزل الخير ولكن هذا الخير ينتظر أصحابه وهم قراء هذا التفسير وأمثاله ومن على شاكلتهم، بل إنهم حين يقرؤون هذا يزيدون دهشة واستغراباً لهذا الاتحاد العجيب بين العلوم المخزونة عند الأمم، وبين الدين المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم.

فهذه هي الآيات التي أنزلتها يا الله على من اصطفيته من أمة العرب فأصبحت المدينات الأربع التي هي أدنى من مدينة الأشراف منطبقة في الأغلب على هذه الآيات، فإذا كان هذا الفيلسوف يقول إن بني آدم جميعاً لا يرون من الخير ولا الحقائق إلا صورها، ولا يعرف الحقائق حق معرفتها إلا الذين تدرجوا في العلوم وقتاً فوقتاً، كأن يتعلموا العلوم الرياضية أو الإلهية سنين، ثم تتلوها سنون أخرى يتعلمون فيها الأعمال الحربية تقوية لأبدانهم، ويعيدون الكرة هكذا دواليك، فهؤلاء في نظره هم الذين يعرفونك أنت ويريدون ملكك على صراطك المستقيم، فإذا كان هذا رأيه على علاته فهاأنت ذا يا الله قلت: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ١٨٥] الخ، وقلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥] الخ، وقلت: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨]، فلا اطمئنان لدولة إلا بمعرفتك أنت، وقلت أيضاً: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[الأنفال: ٦٠] وقال علماء الإسلام باستحباب السبق والرمي لتقوى الأبدان وهكذا، وقد جمعت ذلك كله في قولك: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[البقرة: ٢٤٧].

هذه يا الله آيات دينك المنزلة على النبي الأمي، وهذه آراء حكماء خلقتهم قبله، وكلها مجهولة عند عامة هذا الإنسان، فالعامة لا يعرفون إلا الترف والنعيم والغلبة والراحة ويظنون أنها هي أهم السعادات، فجاء العقل الذي خرج من بين هذه الحواس المغلولة في وسط هذا الإنسان المحبوس في مغارة «أفلاطون»، وقال: أيها الناس أنتم غافلون، أنتم لا تعرفون من السعادات إلا ظلها، ولا من العلوم إلا صورها، أما حقيقة السعادات وحقيقة العلوم فليس لها سبيل إلا بالعقول، ثم جاء الوحي مؤيداً لذلك كل التأييد، بل أصبح ما وهبته للعقول غذاء وتقوية وشرحاً لما أنزلته بالوحي، فاصطلح العقل والوحي في هذا التفسير، وتعانق القديم والحديث، واطلع عقلاء المسلمين على خلاصة علوم الأمم فسيصبحون أمة لا نظير لها في السابقين. والحمد لله رب العالمين.

هاهنا يا الله عرفنا اتجاه الفلسفة اليونانية الأفلاطونية والقرآن الذي أنزلته على نبيك العربي فماذا وجدنا؟ وجدنا أن هذا الفيلسوف لم يكون أمة وإنما تآليف نقلتها أمة الرومان فالعرب فأمم أوروبا، وهاهي ذه تدور بين الأمم في أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى، ووجدنا أن نبيك العربي بالوحي خلقت على يده أمة وصلت مشارق الأرض ومغاربها، فلننظر الآن ماذا كان يفهمهم حتى ارتقوا؟ هاهو ذا القرآن والحكمة اتفقا على أن المال والاستكثار منه مضعف للأمم مزيل للملك، فانظر أيها الذكي ماذا جرى؟ أحلت الغنائم وهذه الغنائم في الحكمة سبب ضياع المجد والعقل والسعادة كما أجمع عليه الدين والفلسفة كما علمت، فقال الله لهم: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال: ٦٨]. إذن أخذ الغنائم قد اشتم منه رائحة الغضب السماوي، وتقدم عند تفسير هذه الآية أن محمد بن إسحاق قال: لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ». هذا الذي ذكرته هناك، إذن هذه المسألة قد اختبأ فيها غضب من الله ولا يظهر أثره إلا في وقته، أي: حيثما تظهر ذرية غير صالحة وتستعمل هذه الغنائم في شهواتها، ويجعلون الأمم عبيداً لهم ولا يكونون نافعين لهم، بل آكلين أموالهم باسم الدين، ولذلك

ورد في حديث البخاري الذي ذكرته عند تفسير الآية أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: يا رسول الله أوَيأتي الخير بالشر؟» الحديث، فارجع إليه في سورة الأنفال في أولها. إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم صرح بهذا وعلم ما ستلاقيه أمته من هذه الغنائم وفتوح البلدان، فإنه أظهر للذي سأله عن ذلك أن فتوح البلدان وإن كان خيراً فإنه يكون شراً على نفوس استعظمته ووضعته في غير موضعه بخلاف الصالحين.
إذن رسولك صلى الله عليه وسلم علم الأمة معنى القرآن، وهو أن الغنائم ليست للذات، بل هي لنفع الأمم لا غير، وإن حادت عن هذه الجادة انقلبت عذاباً واصباً ما له من دافع، ثم سمعنا رسولك صلى الله عليه وسلم يقول في رواية الترمذي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «إن سرَّك اللحوق بي فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه» وقال عروة: فما كانت عائشة تستجد ثوباً حتى ترقع ثوبها وتنكسه، وفي حديث الترمذي أيضاً عن علي قال: «بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا مصعب بن عمير رضي الله عنه ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة، ثم قال: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟ قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة، فقال: بل أنتم خير منكم يومئذ». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنّما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحم» أخرجه الشيخان والترمذي.

وفي رواية: «ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثاً حتى مضى لسبيله». وفي رواية: «ما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير» أخرجه الترمذي وصححه. فهذه هي التعاليم يا الله التي أنزلتها على نبيك الأمي فألفيناه يفسر القرآن بقوله وفعله ويقول لهم: إن في الغنائم لداء دفيناً، وذكرهم بالعذاب وبكى وبكى معه أبو بكر، وجاء عمر فطلب أن يعرف سبب بكائهما حتى يبكي أو يتباكى فإذا هي نفس الغنائم، هذه هي الأحوال النبوية في العصر الأول، فماذا جرى بعد ذلك.

## الكلام على تخريب الفاتحين للممالك
## وكيف يجازون بزوال ملكهم بعد ذلك من ابن خلدون

وصلنا الآن من المقدمات في الفصلين الثالث والرابع إلى المقصود منهما، وهو أن الملوك يذلون أهل البلاد وهؤلاء الظالمون أيضاً تخرب بيوتهم، ولأذكر لك مجملاً من كلام العلامة ابن خلدون في تاريخه في الجزء السابع فانظر ماذا يقول، وهذا نصه:

قال: لما فرغ شأن الردة من أفريقيا والمغرب وأذعن البربر لحكم الإسلام وملكت العرب واستقل بالخلافة ورئاسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسي الملك بدمشق، واستولوا على سائر الأمم والأقطار، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق، وفرغانة في الشمال، والحبشة في الجنوب، والبربر في المغرب، وبلاد الجلالقة والإفرنجة في الأندلس، وضرب الإسلام بجرانه، وألقت

دولة العرب بكلكلها على الأمم، ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسميهم في نسب عبد مناف والمدعين استحقاق الأمر بالوصية، وتكرر خروجهم عليهم فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر، حتى توغرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعددت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من علي إلى من بعده من بني هاشم، فقوم ساقوها إلى آل العباس، وقوم إلى آل الحسن، وآخرون إلى آل الحسين. فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام فيها اليمنية، فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً، وخلص منهم في الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فجدد فيها دعوة الأمويين، وانقطع ما وراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية، ثم نفس آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فخرج المهدي محمد بن عبد الله المدعو بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور، وكان من أمرهم ما هو مذكور.

واستحملتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة، وفر إدريس بن عبد الله أخو المهدي من بعض وقائعهم في المغرب الأقصى، فأجاره البرابرة من «أوربة» و«مغيلة» وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، وبثوا دعوة إدريس وبنيه من بعده في أهله من زناتة مثل «بني يفرن» و«مغراوة» وقطعوه من ممالك بني العباس، واستمرت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديين.

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويبثون دعاتهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبد الله المحتسب بأفريقيا إلى المهدي ولد إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا أفريقيا من يد الأغالبة، ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستيقنوا الوعد الصادق أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة، ولا تقوضت مباني الدين بتقويض معالم الملك، وعد من الله، ولن يخلف في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله، فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك وقيام بالدعوة إليه إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بأفريقيا ومكناسة بالمغرب، ونافسهم في ذلك زناتة وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدهم قوة، فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم، فكان لبني يفرن بالمغرب وأفريقيا على يد صاحب الحمار، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم، ثم كان لمغراوة على يد بني خزر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة.

ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك ولبني عبد الواحد بالمغرب الأوسط ملك آخر، فقاسمهم فيه بنو توجين وبطن من «مغراوة» حسبما نذكر ونستوفي شرحه ونذكر أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكناها في أخبار البربر، والله المعين لا رب سواه ولا معبود إلا إياه. انتهى ما أردته منه، والله أعلم.

ولا ريب أن هذا الإجمال هو الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم، فإنه خاف من فتوح البلدان ومن الغنائم، وقد تحقق ما خافه، والحمد لله رب العالمين.

## سر ارتقاء العرب ثم انحلال دولتهم

قلت لك آنفاً: إن الله لما أعظم دولة الرومان واستفحلت وعلم أنها ستنحل عمد إلى أمة بدوية فاصطفى أفضلها وعلمه، ثم وازنت بين ما أوحي إليه وما جاء على قلوب الحكماء، لأن المادة منه والحكمة منه والوحي منه، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١١٥]، وإنّما الجاهل هو الذي ضاق عقله فلم يتسع إلا إلى بعض هذه، فالعقول والأجرام والدين كلها من الله، بل الخير والشر كله منه، وكلاهما عند العقول سواء في الإفادة والتعليم. أقول: فلما أخذت دولة الرومان تنحل كان الله قد أعد دولة أخرى خرجت من البادية لتعليم الناس، وأباح لها الغنائم لأن هذه الغنائم ساعدتها في فتح البلدان، وطيرهم بالمال والرجال، فذهبوا إلى الهند والصين وإلى أمم الفرنجة وأصبحوا كلهم تحت حكم أمة واحدة، لم يرد الله بهذا في حكمته إلا أمراً واحداً هو نشر الدين في هذه الأصقاع، لأن هذه الأمم في عالم متأخر وهي أرضنا التي علمت أنها عالم كله نيران متأججة، وهو على صراط مستقيم، فليس من العدل عنده أن يجعل أمة واحدة تقود العالم كله، لأن ذلك ليس هو العدل الذي أنزله في الأرض، فلا بد لكل أمة أن تستخرج مواهبها، وهل تستخرج مواهبها بتسليط أمة واحدة عليها، لذلك أرسل الله نبياً أمياً صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن عجزت الفلسفة والحكمة في الأمم عن إسعاد الأمم، إن الفلاسفة أجمعين عجزوا أن ينشروا علماً واحداً في العالم كله يجمع الأمم، ولم يتسن لسقراط وأفلاطون المعتبرين عند جميع الأمم أكبر جبابرة العقول أن يوجدا أمة تنشر هذه التعاليم، فاختار الله أمة العرب وطيرها في البلاد شرقاً وغرباً ووضع لها مع ذلك داء دفيناً وهو المال وفتوح البلدان، وألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحذرهم المال ويخوفهم الفتنة بالمال، فلما توفاه الله أخذوا هم يتبعون سنته.

ولقد سمى المسلمون أبا بكر خليفة، وهكذا من بعده فهم خلفاء لا ملوك، إذن مال الله ليس لهم بل هم خلفاء على عباده، وجميع الناس خلفاء على أموالهم وتسلطهم على الأمم أولاً وبالذات لتعليم الدين، فلم يزل الدين يتمكن في قلوب الأمم وشيطان الطمع يوسوس في قلوب العرب بحيث يكون الخلف منحرفاً عن السلف ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩].

هنالك دالت دولة العرب وحلت محلها دول أخرى ثم ذهبت وحلت أخرى محلهم، لماذا كل هذا؟ لأن الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]، فلم يخص العرب بالملك بل هو سخرهم كما يسخر النحل والحشرات لإلقاح النبات، والنحل إنّما تسعى للعسل، وكما سخر الذكور والإناث لإنجاب الذرية، وهم إنّما اجتمعوا للشهوة لا غير، فهذه الشهوة قد سخرهم الله بها حتى ولدوا الذرية ثم ذهبت وضعفت وحل محلها ما هو أعلى وأغلى، وهو الاتحاد والعطف عليهم والمعاشرة وتدبير المنزل، هكذا إذا كان بعض من كانوا ساعين في فتوح البلدان لا يريدون إلا عرض الدنيا، فإن عملهم أنتج تلقيح أفكار الأمم بالدين الإسلامي، مع العلم بأن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ما كانوا يريدون إلا إعلاء كلمة الله، ولولا ذلك ما أذابوا مهجهم في الحرب ولا توغلوا في الأمم شرقاً وغرباً.

إذن أنت يا الله هكذا أردت، حذرت من المال وحذرهم نبيك صلى الله عليه وسلم، وطيرتهم في الشرق والغرب فنشروا الدين، ثم أخذت تسلب من الأبناء ما منحته الآباء لتمهد الأسباب لترك آبائنا العرب البلاد لأهلها، كما أنك حكمت بموت صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم لما أتممت الدين فقلت له ولهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة: ٣]، فهو صلى الله عليه وسلم مات لما أتم ما أوجبته عليه، والعرب ماتت دولتهم لما أتمت ما خلقت لأجله، لأن الدين لك أنت والأرض لك، ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٨]. إذن كل ما حصل في أمم الإسلام مصداق للقرآن وللحديث ولفعل النبي صلى الله عليه وسلم ولكلام الفلاسفة اليونانيين والمسلمين.

## نبذة من أسباب ذهاب دولة أمة العرب

**مصداقاً للآيات والأحاديث، ولقوله صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بأنهم يغدون في حلة ويروحون في أخرى وأنهم توضع أمامهم صفحة وترفع أخرى**

جاء في «الرحلة الأندلسية» ما ملخصه: أنه قد كثر زواج ولاة الأندلس من العرب وأمرائهم من الإسبانيين، وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد تزوج بالسيدة «إيلونا» أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات إثر جروحه في واقعة شريس التي تغلب عليه فيها طارق بن زياد، وتزوج الأمير محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بإسبانية اسمها «مارية» ورزق منها بولد عبد الرحمن الناصر، وتزوج الحاكم ابن الناصر بن أبي عامر بنت «سانكو» ملك بافاريا ولدت له ابنه عبد الرحمن وكانوا يسمونه سانكو الصغير لميله إلى ملاذه وجرأته على الدين في سيرته الشخصية، وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين بإسبانية اسمها «حباب» وخلف منها ابنه رشيد، وتزوج السلطان محمد بن أبي الحسن بن الأحمر بالسيدة «ثريا» الإسبانية وولدت له ابنه أبا عبد الله، وكانت أم عبد الحق بن أبي سعيد سلطان بني مزين إسبانية. قال: وقد فشا الزواج والتسري بالإسبانيات من القوط وغيرهم بين الأمراء والرؤساء من العرب، وكان لهذا العنصر الجميل شيء من التأثير فيهم، ظهرت نتائجه الخبيثة عند ضعف الدولة، كما كانت سبباً في استكانة هشام المؤيد إلى حاجبه ابن أبي عامر، تلك الاستكانة التي ساعدت عليها في أول الأمر أمه، فلما اختلفت مع المنصور وهو قوي الإرادة لم تقدر على كسر حدته، فلما كبر ولدها ظهر أثرها فيه فأصبح جباناً لا يسعى إلا إلى لذاته وقضى في حياته على الدولة الأموية، وهذا من أسباب ضعف العرب في أوروبا، كما كان من أسبابها كذلك ضعفها في بني العباس بالشرق، إذ كانت أم المستعين بالله العباسي صقلبية، وأم المهتدي رومية، وأم المقتدر تركية وكانت كثيرة التدخل في أمور الخلافة مدة ولدها وتجتمع بالوزراء والقواد في مجلسها وتصدر إليهم أوامرها من غير علم ولدها، فلذلك أخذت الدولة تضعف في الشرق، واستبد الأتراك بدولة بني العباس كما ذهبت دولة بني أمية بالأندلس بنظير ذلك فيما علمت، وبعد ذلك ظهرت التربية الأجنبية في عبد الرحمن بن أبي عامر، فبه قضي على الدولة العامرية، وفي الرشيد بن مأمون بضعف الموحدين، وفي عبد الحق بن سعيد المريني ملك المغرب بضياع الملك من بني مرين، وفي أبي عبد الله بن الأحمر بالقضاء على حكم العرب في الأندلس.

وقد كان الزواج بالإسبانيات ليس خاصاً بالأمراء، بل تعداهم إلى العامة، بل نسبوهم إليهن على غير عادة العرب، فقالوا: ابن الرومية وابن القوطية، بل هذا التلقيح ظهر أثره في البربر فرقق من أخلاقهم وقلل من حدتهم.

هذه أحوال أمم العرب شرقاً وغرباً، فهل تعجب بعد هذا البيان إذا تذكرت ما قدمته لك في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [الآية: ١١٤]، إذ ذكرت لك هناك انقسام الدولة العباسية في الشرق إلى دول مختلفة أوضحتها هناك بعد انحلالها، وكذلك لا تعجب إذا عرفت ما أذكره من انحلال الدولة الأموية بالأندلس وانقسامها إلى عشرين دولة صغيرة مثل: «إشبيلية. جيان. سرقسطة. الثغر. طليطلة. قرمونة. الجزيرة الخضراء. مرسية. بلنسية. دانية. طرطوشة. لاودة. باجة. مالقة. بطليوس. لشبونة. جزائر البليار. قرطبة»، راجع كتاب «الرحلة الأندلسية» لصديقنا البتنوني، فهذه النبذة التاريخية ملخصة منه. هذا مصداق الأحاديث المتقدمة والآيات وآراء الفلاسفة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر به وجعل المال والغنائم سبباً للحرمان إذا استعملت للشهوات، وتذكر حديث الرواح في حلة والغدوّ في حلة، وقوله تعالى: ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وآراء أفلاطون إذا أصبحت أخلاق الأبناء على خلاف أخلاق الآباء وهي المدينة التي انحرفت عن مدينة الأشراف، وهي كذلك المدينة الفاسقة عند الفارابي. إذن ما حصل لأمم العرب قبلنا هو مقتضى قواعد الدين والحكمة، وإني أحمد الله حمداً كثيراً على ما ألهم وعلم وألهم وأسعد فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون.

هاهنا اطمأنت النفس للعلم وعرفت الحقيقة بقدر الطاقة البشرية، وما كان يخيل لي مرة في أول حياتي أن أطلع على هذا الجمال والبهاء والحكمة، وأصل إلى بهجة الحكمة والعلم بمقدار طاقتي بحيث يكون شراباً صافياً وطريقاً معبداً يسير به أهل العلم في حياتي وبعد موتي، وعليه يبنون مستقبلهم في هذه الحياة، ويعرفون نظائره من المؤلفات في زماننا حتى يحيوا ما اندرس من معالم العلم والدين، ويوقظوا أمماً خملت ودولاً هلكت، فالله كما أذهب ملك كثير من الأمم الشرقية فأنامهم أجيالاً هو لا محالة معيد لهم مجدهم، لأنه جعل العالم دولاً، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وهو يقلب الليل والنهار، فهاهو ذا قد أعد العدة ومهد الطرق لخلق أمم جديدة في الشرق. فهو كما مهد لذهاب دولهم بأن أمر مترفيهم بالأندلس من الأمويين والعباسيين ففسقوا فيهم فحق عليهم القول فدمر دولهم تدميراً. هاهو ذا سبحانه أخذ يهيئ الأسباب لإرجاع شباب دول أخرى من أبنائهم قد ناموا أمداً طويلاً، ومن تلك الأسباب هذا التفسير وأمثاله، فسيقرؤه ويقرأ أمثاله رجال وشبان، وستقوم أمم وأمم أعلى كعباً وأرقى وأشرف دولاً من الأمم السابقة في الشرق، إذ يعتبرون بما حل بآبائهم، ويظهر فيهم مؤلفون يعلمونهم ما كان يجهله آباؤهم، وإذ ذاك يعرفون معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، ويعرفون أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن جاء يسأله عن الساعة أن ذلك حين تلد الأمة ربتها، وحين يتطاول الرعاة في البنيان، وهذا هو الذي حصل فعلاً في الشرق والغرب كما علمت، فإن الإماء ولدن الملوك كما رأيت في بني العباس وبني أمية، وهكذا نساء الأجانب على وجه العموم، فكان ذلك سبباً في فساد الدول الإسلامية وضياعها.

فإذا علموا ذلك فهموا أن جوابه صلى الله عليه وسلم للسائل عن الساعة جاء على الأسلوب الحكيم، إذ يسأل السائل عن الساعة العامة، فأجابه هو عن الساعة التي تضيع فيها دولة العرب، وقد عرفت المعجزة في ذلك كما كتبته في كتابي «التاج المرصع».

وهاهنا آن أن ألقي إليك ما عقدت له هذا المقال في الأمر الثالث والرابع وهو لب الأمرين، وما تقدم إنّما هو مقدمات لهذا اللب وهو: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[النمل: ٣٤] الخ، وأن ﴿ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾[النمل: ٥٢]، كما قاله أبو نصر الفارابي في المدينة الفاسقة التي لم تكن على سنن الجسم الإنساني الطبيعي، وكما قاله أفلاطون في المدينة التي مالت عن سنن مدينة الأشراف فسأسمعك الآن فصولاً تؤيد ما تقدم من كلام العلامة ابن خلدون وهما مطلبان:

المطلب الأول: كيف يحصل الفساد والخراب في الأمم المغلوبة.

المطلب الثاني: كيف تقع الأمم الظالمة في سوء أعمالها وتذهب دولهم.

## المطلب الأول: كيف يحصل الفساد والحرب في الأمم المغلوبة على أمرها تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

**فصل**: قال العلامة ابن خلدون ما نصه:

(١) إن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم.

(٢) وأن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء.

(٣) وأن الأمم العربية ـ لما تركت الدين رجعت إلى قسوتها الأولى ـ إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.

(٤) وأن العرب ـ أي: بعد أن تركوا الصبغة الدينية ـ أبعد الأمم عن سياسة الملك.

(٥) وأن الظلم مؤذن بخراب العمران.

هذه هي الفصول التي ذكرها ابن خلدون مبرهناً عليها بحوادث، وسأذكرها لتعلم لماذا ذهبت دول آبائنا في الشرق وفي الأندلس، وتعلم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[الرعد: ٦]، وهنالك تفرح بنعمة العلم إذ تقف على الحقائق وتنفع الأمم الإسلامية بعلمك وعملك واجتنابك ما فعله المتأخرون. فقال رحمه الله تعالى في الأول:

### الفصل الأول
### في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها، فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها، فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة، واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك، وقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾[المائدة: ٢٢] أي: يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى، ولما عزم عليهم لجّوا وارتكبوا العصيان وقالوا له:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾[المائدة: ٢٤]، وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية، وما يؤثر في تفسيرها، وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد، وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة، مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدّره لهم، فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة، وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به، فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة، لم يأووا فيها لعمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً كما قصة القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه.

ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب.

ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر، سبحان الحكيم العليم، وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية، وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله.

ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه، لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف، وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيته ضعيفة لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل كما قدمناه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل»، فهو دليل صريح على أن الغرم موجب للذلة، هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر، فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر.

من هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك، وهو غلط فاحش كما رأيت إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة، وانظر فيما قاله «شهربراز» ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل «شهربراز» أمانه على أن يكون له، فقال: «أنا اليوم منكم، يدي في أيديكم وصغري معكم فمرحباً بكم وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم». فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف. هذا ما قاله العلامة ابن خلدون في الفصل الأول.

فأما ما قاله في الفصل الثاني وهو أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء فهذا نصه:

## الفصل الثاني

## في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتمار، إنّما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مغلبين لكل متغلب، طعمة لكل آكل، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا.

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده، وهذا موجود في أخلاق الأناسي، ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة، وأنها لا تسافد إذا كانت في ملكة الآدميين، فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء، والبقاء لله وحده. واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة، ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير. يقال: إن سعداً أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت، ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت وإنّما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره. ولهذا إنّما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من طبيعة الحيوانات العجم كما قلناه، أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز، كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والإفرنجة بالأندلس، فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون في الفصل الثاني.

فأما ما قاله في الفصل الثالث وهو أن الأمم العربية ـــ أي التي تركت الدين ـــ إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، فهاك نصه:

## الفصل الثالث

## في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلة، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له، فالحجر مثلاً إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك، والخشب أيضاً إنّما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل

العمران، هذا في حالهم على العموم، وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه، فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخراب العمران، وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن. والأعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها، وإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران، وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً، فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد، وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم، وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها، بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض، فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم، والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها، وتقدم ذلك أول فصل، وأيضاً فهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقض. قال الأعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال: «تركته يظلم وحده»، وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمن قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وأفريقية والمغرب لما جاز إليه بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

انتهى ما قاله العلامة ابن خلدون في الفصل الثالث.

وأما ما قاله في الفصل الرابع وهو أن العرب ـ أي الذين تركوا العمل بالدين ـ أبعد الأمم عن السياسة فهذا نصه:

## الفصل الرابع

## في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالاً في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش، ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطراً

إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليهم شأن عصبيتهم فيكون فيها هلاكه وهلاكهم، وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته، وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم، وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد، فلا يكون ذلك وازعاً وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه، فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران، فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمناه، فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنّما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم. كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب، ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم بيعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم.

ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم، وأقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا السياسة، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم، وما كان لأحد في القديم من الأمم ما كان لأجيالهم من الملك، ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس، لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه، والله يؤتي ملكه من يشاء. اهـ.

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون في الفصل الرابع، وقال في الفصل الخامس ما نصه:

## الفصل الخامس: في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

وهنا ذكر الناس إذا اغتصبت مكاسبهم وقهروا على ما ملكوا وانتهبت من أيديهم كسلوا عن العمل وانقطعت آمالهم وقعدوا عن العمل لعلمهم أنه ذاهب من أيديهم، وضرب لذلك مثلاً ما ذكره المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين أيام بهرام بن بهرام، وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم، إذ سمع البوم وسأل بهرام الموبذان عن معنى كلامها، فقال له: إنه يعلمه وإن الأنثى لما طلبها الذكر شرطت عليه أن يقطعها عشرين قرية من الخراب، فقال لها: إن دام بهرام أقطعتك ألف قرية. فتنبه الملك فقال له الموبذان: لا يتم الملك إلا بالشريعة، ولا تتم الشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، والرجال بالمال، والمال متوقف على العمارة، والعمارة بالعدل، والعدل

ميزان منصوب بين الخليقة، وأفهمه أنه قد انتزع الضياع من أهلها فهلكت الرعية وضاع الجند وهرمت الدولة، فاتعظ الملك وعدل فانتظم ملكه. وهكذا أخذ يبين أن الدولة العظيمة لا يظهر فيها أثر الظلم دفعة واحدة بل يكون بالتدريج، ثم يظهر بعد حين كالأمراض الدائمة، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١]. انتهى المطلب الأول.

## المطلب الثاني

## كيف تقع الأمم الظالمة في سوء أعمالهم وتذهب دولهم

## تبياناً لقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢]

وفي هذا المطلب جوهرتان:

## الجوهرة الأولى: ما قاله العلامة ابن خلدون

## إن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

قال: وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقدار وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها، فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه، إنّما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون بما آتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، حتى يصير ذلك خلقاً لهم، فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلاً عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم، فقد تبين أن الترف من عوائق الملك، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة: ٢٤٧]. اهـ.

فهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[النمل: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢]. وبهذا تم الأمر الرابع من الأمور الستة.

الأمر الخامس: في أن الإنسان وإن قلد الحيوان في صناعاته فإن هناك من الأعمال ما عجز عن نظيره الإنسان فيجب عليه أن يجدّ فيه.

## الأمر السادس

## خطاب الأمم كلها شرقاً وغرباً

وهذان الأمران ستراهما في آخر هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] الخ.

ولكن هنا أتم الكلام على نظام الأمم الإسلامية الذي ظهر في التاريخ ونقلته عن ابن خلدون، فماذا فعل الله تلقاء هذا؟ علم الله قبل أن يرسل نبينا صلى الله عليه وسلم أن أمم العرب والأمم التي معها ستقوم دولهم بالعصبية لأن استعداد أهل الأرض إذ ذاك لم يتجاوز هذا المقدار من الفضائل، وعلم أنهم سيجوبون الأرض شرقاً وغرباً وأنهم سينشرون الدين ثم تنطوي دولهم واحدة بعد الأخرى، فماذا أعد لأهل الأرض؟.

أولاً ـ أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأن فتوح البلدان سيكون فتوح شر، وغاية الأمر أنهم مسخرون، وأخبرهم بأنه يخاف عليهم من ذلك الفتوح وأن البطنة والترف سيهلكهم، فعل الله ذلك كله معهم.

وثانياً ـ خلق أمماً أخرى وأعدها لعمارة الأرض وأرسلهم من جزيرة قحلاء في الأرض ليعلموا الأمم لما علم بعلمه القديم أن فارس والروم قد قتلتهم البطنة، هكذا هذه الأمم الإسلامية أعد لها أمماً تحل محلهم إذا أضناهم الترف وأهلكهم النعيم كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم، وما تلك الأمم التي أعدها الله لعمارة الأرض واستعمارها.

## الجوهرة الثانية

## ذكر بعض الممالك التي أعدها فاحتلت بلاد بعض المسلمين لما ذهبت دولهم

ذكرت لك أيها الذكي فيما تقدم هنا إجمال الكلام على ممالك الإسلام، وأنهم ذهبت دولهم دولة بعد أخرى من عرب وغيرهم، وقلت لك: إنهم على وتيرة واحدة: حرص على الدنيا. ترف وشهوة. ظلم للرعية. ذل الرعية، ذهاب الدولة. فهأنا ذا أذكر لك الممالك التي كان أعدها الله لتحتل بعض بلاد الإسلام، وهذه الممالك التي سأذكرها لك امتازت بأنها لا تجعل الأحوال موقوفة على الملوك، بل الشعب قائم بترقية نفسه بخلاف تلك الممالك، فقد كان المدار غالباً عندهم على الملوك، فإن مالوا للعلم والإصلاح مالوا إليهما، وإلا فلا، فكانت الشعوب تتبع المصادفات، وهكذا لا يتزوجون الأجانب لئلا يفسد النسل، فتضيع الدولة وتذهب هباء منثوراً، وهكذا لا يأمنون الأجانب فلا يولونهم الوظائف العالية في بلادهم بخلاف الأمم الإسلامية كالتركية، فلأذكر لك دولة إنجلترا وفرنسا الخ.

## دولة إنكلترا

كانوا في أول أمرهم كالوحوش، ومساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الأعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين، وكان عملهم صيد الحيوانات بها يعيشون وحالهم كأجلاف العرب، وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع الماء، وأول ظهور أمرهم كان قبل المسيح سنة ٥٥ ق. م على ما يقول السيد أحمد ابن السيد زيني دحلان، ثم لم يزل أمرهم يظهر ويقوى ولم يستقلوا إلا سنة ٨٢٧ب. م وسنة ٢٤٣ هـ، وكان دخولهم في النصرانية قبل الهجرة بست وعشرين سنة، وهم فيهم الكاثوليكية والبرتستانت والدهرية وهم مجتمعون من قبائل شتى، وفيهم جماعة من «الكليتيين» ولهم جزيرتان منفصلتان «بريطانيا» و«إيرلنده»، وصارت دولتهم عظيمة، واستولوا على الهند سنة ١٧٥٧م، أي سنة ١١٧٢هـ، وتم استيلاؤهم على الهند سنة ١٨١٦م أي سنة ١٢٠٨هـ، وذلك بعد حروب كثيرة،

واستولوا على جبل طارق الذي في المغرب سنة ١١١٦هـ، إذ انتزعوه من الإسبان في ذلك التاريخ، والإسبانيون قبل ذلك انتزعوه من المسلمين سنة ٨٦٧ هـ، وهذا الجبل مفتاح البحر الأبيض المتوسط وهو مقابل للجزيرة الخضراء التي هي من بلاد الأندلس ويسمى جبل طارق، وطارق هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، وموسى مولى عبد العزيز بن مروان الذي هو أخو عبد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز، فسمي الجبل باسم طارق المذكور لأنه نزل بالمسلمين عنده لما قصد فتح الأندلس، ولذلك يسمى «جبل الفتح» والعامة يسمونه «جبل الطار»، وهكذا دخلوا مصر بعد ذلك.

## دولة الفرنسيس

أما دولة الفرنسيس فقد ابتدأ ملكهم سنة ٤٢٠ب. م قبل الهجرة بمدة (٢٦٢) ذلك ابتداء نظام ملكهم، وقبل ذلك كان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل استقلالهم، بل كانوا تارة يستقلون وتارة يحتلهم غيرهم. ومبدأ أمرهم كان قبل الميلاد بخمسة قرون، وكانت اليونان تحكمهم، ولما غلب الرومان اليونان حكموهم فلم يكن ملكهم مستقلًا، وكانوا يعبدون الأصنام المصورة على صورة الكواكب فهي أشبه بديانة أهل الهند عباد الأوثان، ثم دخلوا في النصرانية سنة ٤٩٦ وأول من دخل منهم فيها الملك «كاويس»، وهم كاثوليكية وبعضهم على المذهب البروتستاني، ومنهم من لا يتدين بدين، بل كثير منهم من ينكرون الصانع، وقد حصل بينهم وبين الإنجليز حرب دامت (١١٦) سنة من سنة ١٣٣٧م أي سنة ٧٣٨ هـ، والصلح كان سنة ١٤٥٣م أي ٨٥٧ هـ، وهذا يسمى حرب المائة سنة.

واستولت الفرنسيس على الجزائر بأفريقية سنة ١٢٤٦هـ وفي سنة ١٢٩٦ أدخلوا المحاكم التونسية في حمايتهم، وقد استولوا على مراكش في أيامنا هذه.

## دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك

هذه كانت تحت حكم إسبانيا ودار الحرب بين الدولتين مدة ثمانين سنة واستقلوا سنة ٩٨٧هـ وفي تلك السنين استولوا على بلاد جاوه، وكان دخولهم النصرانية في الزمن الذي دخل فيه غيرهم من أوروبا.

## دولة إسبانيا

كانت تابعة لدولة اليونان فالرومان ثم بعض ملوك أوربا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتحوا الأندلس، فكان الأندلس تحت يد إسبانيا إلى سنة ٩٢ هـ، فانتزعه المسلمون منهم وبقي معهم ملك ضعيف في آخر الأندلس، ووقعت بينهم حروب كثيرة، ثم انتزعوا الأندلس من المسلمين شيئاً فشيئاً إلى أواخر سنة ٩٠٠ هـ، ثم أخرجوا من بقي من المسلمين بالأندلس في سنة ١٠١٠ واستقلوا بالملك، وكانوا أولاً يعبدون الأصنام ودخلوا في النصرانية في الزمن الذي دخل فيه غيرهم.

انتهى من كتاب السيد أحمد ابن السيد زيني دحلان المترجم عن اللغات الإفرنجية.

هذه هي الدول التي أردت ذكرها هنا، لأن هؤلاء أكثر من يحتلون اليوم بلاد الإسلام. ذكرت دولهم ليعلم المسلمون أنهم لما جعلوا الممالك مغانم واقتتلوا على ذلك لأجل الترف والنعيم في العصور المتأخرة أبعدهم الله عن الملك وأجلس غيرهم على عروشهم. وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[الإسراء: ٨].

## استعمار الفرنجة لبلاد الإسلام وهل يدوم؟

اعلم أن الله عز وجل كما قدمنا قد أعد الأمم العربية لفتح البلاد لما أصبحت الأمم القديمة لا تصلح لإدارتها، ولما فسدت الأجيال العربية والأمم التي حلت محلها أعد أمماً أخرى كالإنجليز وكالفرنسيس، ولكن هذه الأمم سلكت مسالك العرب في القرون المتأخرة، وإنّما أرسل هؤلاء فاحتلوا بلاد الإسلام ليوقظ فيهم روح الحمية لعلهم يعقلون، والزمان سيستدير دورته، وهاهي ذه الأمم الشرقية آخذة في الرقي مجدة لأخذ مكانها تحت الشمس، ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾[الروم: ٣]، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

ولكن هنا أخاطب الأمم الإسلامية فأقول: هاأنتم قرأتم تاريخ أسلافكم واطلعتم على ما حل بهم في الشرق والغرب وظهر لكم هذه الخصال:

الخصلة الأولى: أن الترف والنعيم هما المقصودان لكل من طلب الملك في الأمم الإسلامية المتأخرة في الأندلس وفي بلاد الشرق.

الخصلة الثانية: أن هذا الترف والنعيم حملهم على ظلم الرعية كما في آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾[النمل: ٣٤].

الخصلة الثالثة: أن تلك الأمم المظلومة تذل بهذه الأعمال.

الخصلة الرابعة: أن الأمم الظالمة تضعف قواها الجسمية والعقلية بسبب الغفلة والكسل والاتكال على عمل غيرهم.

الخصلة الخامسة: أن هؤلاء المالكين ينقرضون أيضاً.

الخصلة السادسة: أن أمماً أخرى تحل محلهم.

الخصلة السابعة: أن هؤلاء يحصل لهم ما حصل للسابقين حذو النعل بالنعل.

ونتيجة ذلك أن الأمم ما هي إلا كدود مخلوق في جثة الميت، وهذا الدود لما فني جسمه يأكل بعضه بعضاً، حتى إذا بقيت في آخر الأمر دودتان أكلت أقواهما أضعفهما ثم ماتت الآكلة بالجوع. هذا تاريخ الأمم المتأخرة الإسلامية.

## لطيفة في هذه الأمم

في هذه الأيام حصل أمر مهم لا بد من ذكره في التفسير لأنه يناسب هذا المقام لأن الله عز وجل قد أيد هذا التفسير تأييداً عظيماً. ذلك أنه في يوم ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٩ دعاني الأستاذ أحمد زكي باشا لحفلة شاي جمعت علماء الشرق وعلماء الغرب، فلأذكر ما دار فيها لأنه أكبر شاهد على ما وصل إليه جيلنا العربي من التضرع للأمم، وهذا نص الخطبة:

أنتم تعلمون أيها السيدات والسادات أنني أغتنم كل فرصة سانحة لأكون واسطة التعارف بين أكابر الإفرنج وأفاضل العرب، ولي في ذلك مطمح بعيد المدى وهو أن يكون هذا التفاهم سبباً في خلق جو جديد من الصفاء والوفاء بين الشرق والغرب، فهذه الغيوم التي نشكو من تواليها لا بد لها من الانقشاع، وتلك الإرهاقات التي نعانيها من سياسة البطش والاستعمار لا مناص لها من التبدد والزوال.

أما الامتيازات الأجنبية التي تجعل أكبر عزيز في بلادنا مهاناً في عقر داره ومهضوم الحق بإزاء الآفاق الطارئ عليه فقد انقضى زمانها ودالت دولتها في كل البلاد ماعدا مصر.

هذه الامتيازات هي العقبة الكبرى في سبيل التفاهم بيننا وبين أوروبا، لأنها أكبر سبة لكرامتنا القومية ولماضينا المجيد، ولا دواء لهذه العلل القاسية إلا عن طريق أهل الرأي المجردين عن الهوى وهم أفاضل الإفرنج ذوو الأخلاق الطاهرة والضمائر الحية، أولئك الذين لا تعميهم مصالحهم الشخصية فيصوروننا بأشكال لا تنطبق على الواقع، ولكنها ترجع بالفوائد المادية عليهم وحدهم دون غيرهم، هؤلاء المستشرقون والمستعربون هم القادرون على بث الدعوة بين قومهم ليحملوهم أخيراً وبعد تمادي الزمان على الاعتراف بأن العرب جديرون بأن يتبوؤوا مركزهم تحت الشمس، لأنهم على الأقل مساوون لبعض الأمم العائشة في النصف الشرقي من أوروبا.

لقد كان من دواعي اغتباطي أن يجتمع في هذه الفترة القصيرة سيدات من كرام العائلات الشرقية والإفرنجية بجانب رجال من الطراز الأول على ضفاف البحر الأبيض المتوسط للتعاون على إنشاء قنطرة أدبية فوق ذلك البحر المجيد لتسهيل التواصل والتعاون بيننا وبين أوروبا الرشيدة، أتوجد فرصة لتحقيق هذا الغرض أحسن من التي أتاحها لي الزمان في هذه الساعة، ثم أخذ الأستاذ زكي باشا في تقديم المحتفل بهم إلى الحاضرين حسب ترتيب أسمائهم في الحروف الهجائية، فذكر أولاً الأستاذ جميل بيهم فالأستاذ أنجلو جويدي فالدكتور شخت فالسيد عبد الرحمن القصبي فالسيد العرفي فالمستر كراين فالأستاذ ليتمان فالأستاذ مارجوليت فالأستاذ نايلنو فالأستاذ يهودا، ذاكراً عن كل منهم ما كان فيه من الغناء والكفاء لتعريف الحاضرين بهم، إلى أن قال:

يا سادة العرب. ويا أفاضل الإفرنج، مفروض عليكم أن تتضافروا على تحقيق الأماني الكبار التي يترمقها أبناء الشرق على العموم ويحن إليها العرب بنوع خاص.

فيا سادة العرب، ويا أفاضل الإفرنج، مفروض عليكم أن تتضافروا لتحقيق هذه الغاية بقلوب يعمرها الإيمان بحقوق الإنسانية على الإنسان، مفروض عليكم أن تتعاونوا هنا وفي ما وراء البحار على تهيئة الرأي العام في ديار أوروبا وأمريكا لإدراك هذه الحقيقة التي نفعت الحلفاء في أيام الحرب والتي سيحتاجون إليها بلا شك كلما تجدد الخطب واشتد الكرب.

مفروض عليكم أن تتواصلوا بالفعل والعمل إلى تحقيق تلك الأمنية العالية الشريفة وهي المجاهدة في ديار أوروبا وأمريكا حتى يعرف أهلوهما بأن العرب جديرون بالرعاية والاحترام، جديرون بالحرية الصحيحة جديرون بالاستقلال التام.

ولي كل يوم موقف ومقالة　　　أنادي ليوث العرب ويحكمو هبوا

ثم دعي للكلام حضرة لطفي بك رئيس نقابة موظفي الحكومة، فألقى كلمة نوه فيها بما للمستشرقين من الفضل في خدمة العلم واللغة العربية، وختمها بالترحيب بهم وشكر الحاضرين على تلبية الدعوة، وبعد أن انتهى أسعد بك من كلمته وقف الأستاذ «ليتمان» المستشرق الألماني فاستهل الكلام بقوله: نحن الغربيين متشكرون جداً لسعادة زكي باشا لهذه الحفلة التي جاءت فريدة في مجموعها، ولو أنها جاءت على الحركرك «كذا»، ثم قال: إننا ونحن في ألمانيا نقول ألمانيا فوق الجميع،

وأنتم أيها المصريون تقولون في وطنكم: مصر فوق الجميع، ولكن كلمتنا في هذا الاجتماع هي العلم والتفاهم بين الأمم الشرقية والغربية فوق الجميع.

وبعد ذلك دعي للكلام الأستاذ «مارجليوث» المستشرق الإنجليزي المشهور وهو في العقد الثامن من عمره، فحيا الحاضرين وشكرهم على حفاوتهم واحتفائهم، وخص بالشكر العلامة زكي باشا على هذا الاجتماع الذي سيبقى ذكراه في الأفئدة طول العمر على ممر السنين، مستشهداً بأحد أبيات المتنبي. اهـ.

وإنّما ذكرت هذا لأنه اجتماع جمع من عظماء الشرق والغرب، وكنا نحن أبناء العرب نطلب المساعدة من علمائهم في إخراجنا من ذل الاستعباد، ذكرت هذا ليعرف أبناؤنا بعد ذلك فيحترسوا.

## الذي أراه في إسعاد هذه الأمم الإسلامية في المستقبل

أيها المسلمون إياكم أن يزعجكم ما نقلته عن ابن خلدون في قوله: إن الأمم العربية لا تتسلط إلا على البسائط، وإنها ما دخلت أمة إلا أسرع إليها الفساد، وإنها خربت أمماً وأمماً كما تقدم، فإنه هو نفسه قال: إن ذلك ما حصل إلا بعد أن تناسوا الدين ورجعوا إلى طبيعتهم. ثم إن الله ما فعل ذلك إلا تحقيقاً لوعده إذ قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، ثم هو سبحانه وعدنا أخيراً فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧]. إنا وصلنا إلى أدنى مراتب الإسلام في قرون وقرون سواء أكنا عرباً أم تركاً فهذه الأمم كانت تجهل الدين جهلاً تاماً، وهاهو وعد الله عز وجل بإحياء أممنا قد ظل إبانه وأقبلت أيامه.

## اجتماع الأمم بالعلم بعد الاجتماع بالعصبية

لقد تبين لكم من تاريخ الدول الإسلامية من كلام ابن خلدون أن قوامها لم يكن إلا على العصبية فلا مهدي إلا بالعصبية ولا ملك إلا بها، وقد تقدم أن العصبية تضمحل وتضعف بالترف والترف من نتائج الملك، إذن الاجتماع بالعصبية والقرابة أمره زائل بالبرهان العملي. لقد وضح الصبح لذي عينين، وجاء الحق وزهق الباطل، إذن هذه القرون ذهبت ولم تفز الإنسانية من الدين الإسلامي في سياستها بطائل، وما مثل المدينة المقامة على العصبية والنسب إلا كمثل العشق المبني على جمال الظاهر فإنه ذاهب متى قضى العاشقان شهوتهما وكسر سورة العشق والهيام بفتور الشهوة، وعلى مقدار ضعفها يقل العشق ثم يزول بتاتاً. فأما الحب المبني على العلم فلا حد لدوامه، فحب الشاب لفتاة لمجرد النظر الظاهر ليس كحب المتعلم للعالم الذي بهره بعلمه وسحره ببديع بيانه فيا بعد ما بينهما. إن الاجتماع الإنساني المبني على اللغة والنسب أو المعاهدة أو التغلب أو نحو ذلك مما ذكره الفارابي وربما تراه في آخر تفسير السورة، كل هذا لا ثبات له، فإن هؤلاء تنحل رابطتهم متى خنعوا للترف وخضعوا للذات، فأولئك تذهب مدنيتهم هباء منثوراً.

## الطريق الأقوم لسعادة الأمم الإسلامية المستقبلة ودوام ممالكها

إنّما السبيل إلى ذلك أن تسعى كل أمة من الأمم الإسلامية حالاً إلى تعليم جميع أفراد الأمة رجالاً ونساء، وأن يتعاون أهل العقل وذوي الوجاهة وأرباب الأموال في تثقيف الشعب كله.

فإذا وقع كتابي هذا في يد رجل ذي منزلة سامية فليفكر فيما أقول، وليسع حالاً مع أمثاله وأصحابه وأهل الوجاهة وأرباب الأموال وليشمروا عن ساعد الجد وليعلموا الشعب كله وليفتحوا دور التعليم ولتكن هناك مدارس ليلية يتعلم فيها الفلاح والصانع مبادئ القراءة والكتابة، ولتكن لهم مناهج بها يدرسون ما ينفعهم في صحة أبدانهم وطرق معاشهم ومعادهم، وليعرفوا ما حولهم من الخيرات في الأرض، وسيكون منهم أفراد ممتازون خلقهم الله في كل قطر، فهؤلاء يتعلمون ما يواتي عقولهم ويناسب أمزجتهم من العلوم والصناعات، وهؤلاء يكونون عماد الأمة يقودون هؤلاء العامة في أمور دينهم ودنياهم.

وقد قدمت أمثال هذا القول في كثير من فصول هذا التفسير مثل ما ذكرته عند قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٣] في آخر «البقرة»، وهذا واجب على كل أمة وقعت تحت الفرنجة، أما المستقلون فأمرهم معلوم فهم جميعاً قد استيقظوا، والله معين لكل مجد.

إن ما أكتبه الآن متى عرفه المسلمون لا يقف في طريقه مدفع ولا نار. إن العلم أمر روحي والعقائد متى رسخت فلن يعيقها عائق ولن يصدها صادّ، بل تأخذ مجراها وتنتهي إلى نهايتها، فإذا قرأ المسلمون علوم الأمم المحيطة بهم وأشرب حبها قلوبهم فهنالك يظهر جيل جديد مغرم بجمال الله، مغرم بارتقاء الإنسانية، مغرم بالسلام العام، عالم ما يقوله في صلاته: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] لا رب المسلمين وحدهم، وإذا كان الله مربي العالمين فلنكن متخلقين بأخلاقه ولنطلب منه أن يهدينا الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو صراط الله الذي عرفناه في السماوات والأرض من القيام بالقسط والعدل والنظام والإحكام العام لا الخاص، وحينئذ يكون كبار الأمم مشوقين لأن يقلدوا النظام العام فهم كحملة العرش أو كالملائكة الذين يقومون بنظام هذه العوالم كلها، وهذه الحال هي الأنسب لما نرى من جمال الكواكب ولما نرى من عموم أنوارها، وهذا كله فعل الله الذي نطلب منه الهداية لصراطه.

إن المسلم خلق لحياة أعلى من حياة هذه الأمم، ومتى قرأ الناس هذا التفسير وأمثاله اشرأبوا إلى هذه الحياة وعملوا لها، ولن يقف الإصلاح بعد ذلك، لأن العشق العام في الأرض للنجوم وللعوالم وللأنوار وللكشف الحديث ولاستخراج ما في الأرض والهواء من النعم الإلهية يزداد جيلاً فجيلاً.

ثم إن هذه الحال لا يخاف زوالها لأن زوالها سببه الترف والنعيم، والترف والنعيم إنّما يكون عند القوم الذين جمعتهم العصبية كالممالك الإسلامية بعد العصور الأولى، والترف مهلك ولكن الأمم الذين يعرفون هذه العلوم ويدركون هذا الجمال وتكون لهم حكومات انتخابية ويصطفون فيها أرقاهم عقولاً وأذكاهم وأصلحهم، يدبرون أمورهم مع عموم التعليم وانتشاره وعموم الحركة العلمية والصناعية مع سن قانون يحرم البطالة، والاستجداء من الناس لا يخاف عليهم ما كانت تخافه الأمم السابقة، فأين الترف والنعيم والبطالة والكسل والاتكال على ما يجبى من الناس بالعسف والظلم، فلا ظلم اليوم ولا اغتصاب للأموال، بل هو نظام ثابت وكل مغرم بعلمه أو بصناعته قائم بواجبه، هناك يكون العدل والحب والحق والسعادة. اهـ.

## عبرة تاريخية في آية: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾

اعلم أيها الذكي أن هذا النوع الإنساني لا يزال في مبدأ تطوره أنه أشبه بالأطفال أو المراهقين الذين يختصمون ويتقاتلون ويرجم بعضهم بعضاً بالحجارة، وهم أبداً في هرج ومرج، هذا هو نوع الإنسان، ذلك النوع الذي امتلأت نفوسه بالبر والإحسان والرحمة، ثم غطى ذلك كله الشهوات واللذات فاستحلى ما كان مراً، واستحسن ما كان قبيحاً، فترى طائفة منه يجتمعون ليدبروا الحيل لأخذ أموال الناس في ظلام الليل البهيم وهم اللصوص، وآخرون يتربصون في طريق السابلة فيقفون في القفار والأودية بعيداً عن العمران، وهم بمنجاة من القانون والشرطة ويعبثون بالمارة قتلاً وسرقة ونهباً، وقد تكون تلك الفئة أكبر وأكبر حتى تكون جيوشاً جرارة يقودها ملك، كما اتفق للسلطان سليم، ذلك الرجل المسلم الذي قرأ كتاب الله عز وجل، فهذا الملك لم يحجزه الدين ولا العقل عن إذلال بعض الأمم الإسلامية، وهم في ديارهم آمنون. إن هذا الإنسان لا تزال طباعه وحشية، ونفوس كثير منه سبعية، لا يحترمون الإنسانية العامة، ولا الأخوة الآدمية ولا الأخوة الدينية الخاصة.

لقد رأينا ملوك أوربا قد أجمعوا كيدهم وأتوا صفاً لمحاربة المسلمين في دارهم أيام صلاح الدين الأيوبي، وأشد من هؤلاء همجية وأكثرهم وحشية من يفتكون بأمة ويميتون آلافاً من الناس وهم على دينهم، وهم شرقيون مثلهم، بلا إثم ارتكبوه ولا ذنب جنحوه إلا أنهم أحياء مسلمون، ذلك هو السلطان سليم سلطان الأمة التركية وهو من بني عثمان، فقد انقض على مصر سنة ١٥١٧ إفرنجية، والبلاد كانت بلاداً صناعية زراعية وكان لها أسطول قوي يحمي تجارتها بينها وبين الهند، وهكذا بينها وبين أوروبا، فهؤلاء الترك لما دخلوها شنقوا سلطانها «طومان باي» بمصر بعد ما قتلوا السلطان الغوري ببلاد الشام، وشتتوا شمل المصريين وأخذوا أعظم العمال في البلاد، وهم ألف صانع وحملوهم إلى الأستانة، وفصلوا ما بين مصر وأوروبا والهند، فأصبحت البلاد زراعية واستحالت ضعيفة بعد أن كانت قوية، وماتت الصناعة فيها ولحقها البوار وحل بها الكساد، وصار الناس طبقتين اثنتين: طبقة الفلاحين للعمل، وطبقة الموظفين للعظمة والمال والجاه، أما طبقة الصناع فهي ليست ذات بال، ولقد سرت الروح الزراعية في البلاد وأهملت الصناعة، واستولى الحكام على أهم موارد البلاد وهم ظالمون. وسرى ذلك الداء في الأمة أربعمائة سنة، ولازال لهذا الخلق بقية باقية في البلاد إلى وقتنا هذا، كل ذلك من همجية الإنسان الأولى وقسوته وطغيانه.

فهذا ملك مسلم لم يمنعه دينه من تغيير طباع أمة قد خلقنا الله فيها في هذا الزمان، وأرادت أن تجاري الأمم ولكنها بطيئة التقدم بما ورثت من صفات وضعها في أبناء بلادي السلطان سليم الذي أعظم أمر الحكام فلهم السطوة والثروة وسواهم لا هو في العير ولا في النفير. وامتد هذا الخلق في أهل بلادي في عصرنا الحاضر إذ استقلت البلاد استقلالاً اسمياً ومع ذلك بقي هذا الخلق في أهلها فمنعهم من التخلص من قيود الاحتلال. مثلاً نجد رئيس حكومة إيطاليا «ماسوليني» راتبه ٣٠ جنيهاً شهرياً. وهذا مثل ضربته لنظرائه في أوروبا، ولكن مصر فيها اليوم أي سنة ١٩٢٨م نحو ٦٠ وزيراً يتناول كل منهم معاشاً قدره ١٥٠٠ جنيهاً في العام، وابتلعت الوظائف مالية حكومة البلاد فصارت تقرب من نصفها، وهذا سبب الخلق الذي ورثناه من سلاطين آل عثمان لما حكموا البلاد.

وكما أثر سلاطين آل عثمان في أخلاق أمتنا المصرية أثروا في قوتها العلمية، فإن الفاطميين أسسوا الأزهر وعلموا فيه مذاهبهم ٢٠٠ سنة، أي مدة بقاء دولتهم بمصر. وفي نظير الأزهر أسس «نظام الملك» المدرسة النظامية في بغداد لتعليم الدين الإسلامي على مذهب أهل السنة ليقاوم التعليم الشيعي في مصر، لا سيما ما كان منه في «دار الحكمة» أو «دار العلوم» التي أسسها الحاكم بأمر الله بمصر. ولما تغلب صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين سنة ٥٦٧هـ أبدل تعليم المذاهب الأربعة بتعاليم الشيعة في الأزهر ودعا للخليفة العباسي، وأدخلت فيه العلوم الرياضية والنجوم وغيرها، وحج إليها الطلاب أفواجاً من أقاصي البلدان.

ولما زالت الدولة الأيوبية ودخلت مصر في حكم المماليك أولاً ثم في حكم الأتراك أخيراً انحط شأن اللغة العربية والعلوم، وكان آخر انحطاط وتدهور لها في القرن الثامن عشر المسيحي، ثم أخذت تسترد البلاد بعض مكانتها أيام محمد علي باشا، ولا زالت في ارتفاع وانخفاض للآن تمشي ببطء وتتعثر في أذيال الخجل بين الأمم، وهذا زمان نهوض الأمم جمعاء، فلا بد من نهوض هذه البلاد، وإنما ضربت هذا المثل وهو مثل المصريين مع الترك، لأبين لك بكل جلاء ووضوح كيف يكون إفساد الملوك إذا دخلوا قرية، وكيف يجعلون أعزة أهلها أذلة؛ فالإفساد في مصر شمل القوة العقلية والقوة الصناعية وقوة العفة، فعلم الرياضيات ونحوها والطب وأمثالها ألغيت من الأزهر الشريف، وهكذا الصناعات، وهكذا ماتت العزة القعساء، والهمة الشماء وهي العفة والتبري من الترف، فإن الترف ما دخل أمة إلا أفسدها، فكثر في مصر الحكام المترفون المنغمسون في اللذات، واستمر ذلك الخلق حتى لصق ببعض أهل بلادي الآن. والدليل على ذلك مرتب الوزراء الضخم المتقدم ذكره، قال تعالى لقوم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ١٥].

فعلى الأذكياء قراء هذا التفسير أن يكونوا قادة للأمم الإسلامية، وليعلموا أهل البلاد صغيراً وكبيراً بالتدريج، وليجدوا في إفهام الشعب هذه المعاني، وليمرنوهم على الصناعات والعلوم، وليمنعوهم من الترف والنعيم، كما كان الترك قبل انقلابهم الأخير إذ اختصوا بالحرب والعظمة على الناس، فانغمسوا في الترف على طول الزمان لتملكهم رقاب الأمم واستنزافهم أموالهم ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤].

إن المسلمين في المستقبل غيرهم بالأمس، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦]، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ١٥].

## اللطيفة الثانية: في نقل عرش بلقيس ونحوه

لأنقل لك من «كتاب الأرواح» شذرة تناسب هذه المقام، قد جاء في صفحة ٥٥ ما نصه: وإليك الآن كيفية مخابرة الموائد وفقاً لتعليم الأرواح ذاتها المنقول في «كتاب الوسطاء» للمعلم الفيلسوف «آلان كاردك» وهاهو ذا:

س ـ هل السيال العام عنصر الأشياء كلها؟.

ج ـ نعم كل ما في الكون مركب من العنصر الأصلي.

س ـ هل من مناسبة بينه وبين السائل الكهربائي؟ .

ج ـ إن الثاني مركب من الأول .

س ـ في أي حالة يظهر السيال العام على بساطته الأصلية؟ .

ج ـ لا تظهر بساطته الأصلية إلا في الأرواح النقية ، أما في عالمكم فهو متقلب أبداً متغير تتركب منه المادة الكثيفة المحيطة بكم ، إنّما السائل الذي يقرب منه بالأكثر في أرضكم هو السائل المغناطيسي الحيواني .

س ـ كيف يتمكن الروح من تحريك الجماد؟ .

ج ـ يمزج السائل من السيال العام بالمائع الحيوي المنبعث من أعصاب الوسيط .

س ـ هل تنهض الأرواح المائدة بأيديها المجسمة على نوع القول؟ .

ج ـ بل عندما يريد الروح أن يحرك مائدة يحييها حياة اصطناعية بواسطة السيال العام والسائل المنبعث من الوسيط وبعد ذلك يجتذبها ويحركها بقوة ما به من السائل الخصوصي المنبعث منه بفعل الإرادة وعندما يكون الجرم الذي قصد تحريكه ثقيلاً جداً يستعين بأرواح أخرى تأتي لمساعدته .

س ـ هل الأرواح التي تأتي لمساعدته أدنى منه وتحت أمره؟ .

ج ـ الغالب هي أرواح مقارنة له .

س ـ هل لكل الأرواح كفاءة على إتيان تلك الأعمال؟ .

ج ـ لا تأتي هذه الأعمال إلا أرواح سفلية لم تتجرد بعد من المؤثرات المادية .

س ـ لسنا نجهل أن الأرواح العلوية لا تتنازل لعمل ما لا يليق بها فقط نسأل عما إذا كان لهذه الأرواح المجردة عن الماديات مقدرة على إنشاء هذا العمل إذا أرادت؟ .

ج ـ لها القوة الأدبية كما لغيرها القوة الطبيعية ، فإذا افتقرت إلى هذه تستخدم من يملكها كما تستخدمون أنتم العتالين لرفع الأثقال .

س ـ يظهر من قولك أن العنصر الحيوي مستقر في السيال العام ، وبما أن الجسم الروحاني مركب من هذا السيال فبدونه لا يستطيع الروح عملاً في المادة الهيولية .

ج ـ نعم وهو يحيي المادة الجمادية بنوع ما حياة اصطناعية فتطيعه منقادة لإشارته ، إذن لا يحرك المائدة أو يرفعها بقوة ذراعه بل المائدة الحية تتحرك من نفسها لإشارته .

س ـ فما دخل الوسيط في هذا الحادث؟ .

ج ـ قد قلت لكم إن المائع الحيوي الذي لا يملكه إلا الروح المتجسد أي الوسيط يستعيره الروح الذي لم يتجسد ويمسكه بمقدار من السيال العام ، وبهذا المزيج يحيي المائدة ، وهذه الحياة مؤقتة تتلاشى مع العمل وأحياناً قبل نهايته إن كان السائل المنبعث من الوسيط ضعيفاً .

س ـ هل يستطيع الروح أن يعمل بمعزل عن الوسيط؟ .

ج ـ كلا . فقط يعمل أحياناً من غير علم ، أي أن من الناس من ينبعث منهم هذا السائل الحيواني من غير علم منهم فيستعيره الروح ويحدث تلك الأعمال البديهية من دون وجود وسيط ظاهر يساعده على عمله .

س ـ هل المائدة التي أحياها الروح تعقل ما تفعل؟.

ج ـ لا عقل لها أكثر مما للعصا التي تشيرون بها، لأن ما بها من الحياة الصناعية تجعلها فقط منقادة لمحركات الروح، فلا تتوهموا أن الطاولة المتحركة روح لأنه ليس لها من ذاتها فكر ولا إرادة.

س ـ ما العلة المتغلبة في الحوادث الروحانية، أهي الروح أم السوائل؟.

ج ـ الروح هي العلة والسوائل هي الواسطة الآلية ووجود كليهما ضروري.

س ـ ما وظيفة إرادة الوسيط في هذه الحوادث؟

ج ـ وظيفته إحضار الأرواح ومساعدتها على تنفيذ السوائل.

س ـ هل فعل الإرادة ضروري بوجه الإطلاق؟.

ج ـ أنها تساعد على العمل وتزيده قوة ولكن ضرورتها ليست بمطلقة لأن الحوادث تتم أحياناً رغماً من هذه الإرادة حتى بدون علمها، وهذه برهان على كون علة الحوادث ليست في الوسيط.

س ـ لماذا ليس لكل الناس هذه الخاصية؟.

ج ـ لاختلاف الأمزجة وللصعوبة التي يلقاها الروح في تركيب السوائل، فبعض الوسطاء لا ينبعث منهم المائع الحيوي إلا بفعل الإرادة، وغيرهم يتدفق منهم بسهولة طبيعية، فيستعيره الروح ويعمل فيه بدون علم منهم، لهذا ليس لكل الوسطاء قوات متساوية.

س ـ أيستقر الروح الفاعل بالمادة داخلها أم خارجاً عنها؟

ج ـ يعمل في كلا الحالتين لأن الروح ينفذ في الجماد ولا يعوقه عائق عن الدخول في أحصن الأماكن والنفوذ في أكثف المواد.

س ـ كيف يعمل الروح عند طرقه الموائد؟.

ج ـ مطرقته السائل الممتزج الذي يستعمله في التحريك وفي الطرق، فعندما يحركها ينقل إليكم النور مرأى تحريكها، وعندما يطرقها ينقل إليكم الهواء صوت طرقتها.

س ـ لا يصعب علينا إدراك ذلك عندما يطرق الروح الجماد، ولكن كيف يستطيع أن يسمعنا أصواتاً وألفاظاً مركبة؟.

ج ـ بما أنه يعمل في الجماد لا يعسر عليه العمل في الهواء أيضاً، وأما الألفاظ المركبة فيقلدها كما يقلد باقي الأصوات.

س ـ تقول إن الروح لا يستعمل يديه في تحريك الموائد مع أنه شوهد في جملة حوادث نظرية ظهور أصابع تمر على ملامس الأرغن لضرب الألحان، أليس هاهنا حركة الملامس متأتية عن ضغط الأصابع لها.

ج ـ يتعذر عليكم بعد إدراك طبيعة الأرواح وكيفية فعلها إلا بأمثلة متقاربة لا تملأ أذهانكم فلا تتصوروا طرائق أعمالها مشابهة لطرائقكم، أما قلت لكم: إن فعل الروح مناسب لطبيعته وإن سوائل الجسم الروحاني تنفذ في المادة وتحييها حياة صناعية، فعندما يضع الروح أصابعه على دساتين الأرغن يضعها حقاً بل يحركها، ولكن ليست القوة العضلية هي التي تضغط على الملامس، بل الملامس التي يحييها كما يحيي المائدة تتحرك من نفسها بفعل إرادته وتحدث الصوت، وقد يحدث أمر يصعب

عليكم فهمه، وهو أن بعض الأرواح السفلية المتأخرة لا يزال غرور الحياة متركباً عليها فتظن بنفسها أنها تعمل كما لو كان لها جسم مادي، فلا تدري بعلة ما تأتيه من الأعمال كما لا يدري الفلاح بأصول الألفاظ التي يركبها، فإذا سئلت هذه الأرواح كيف تضرب على الأرغن أجابت أنها تضرب بأصابعها لجهلها بالعلة الحقيقية، فيحدث الفعل فيها غريزياً دون أن تدري بأصوله وهكذا قل عن الألفاظ التي تسمعها.

س ـ يظهر في بعض الحوادث الروحانية ما هو مناف لكل النواميس الطبيعية المعروفة، أفلا يجوز الاشتباه في صحتها؟.

ج ـ السبب في ذلك بعد الإنسان عن معرفة كل النواميس الطبيعية فلو عرفها كلها لأصبح روحاً علوياً، ففي كل يوم تظهر اكتشافات جديدة تكذب من ظن بنفسه أنه قد بلغ منتهى المعرفة ولم يبق شيء خافياً عليه. فبهذه الاكتشافات المستجدة ينبه الله الإنسان أنه لا يثق بأنوار علومه إذ سيأتي يوم فيه يعود علم العلماء خزياً لهم. ألا ترون يومياً أجراماً تتغلب حركتها على قوة الجاذبية كقلة المدفع المقذوفة في الهواء والمنطاد المتطاير في الفلاة، كفاكم تكبراً يا بني البشر. الأحرى بكم أن تقروا بضعفكم وعجزكم عن إدراك كل شيء.

قال شير محمد لما سمع هذا القول: هذا رجوع إلى ما قيل في القرون الأولى والأعصر المظلمة من أن الأرواح لها قدرة على رفع الأثقال وعظائم الأعمال بأسباب يزعم القوم أنها طبيعية. قلت: نعم ولا عار على العلم إذا كشف اليوم ما أنكره أمس، وهذا يا شير محمد رجوع منك إلى مبدأ الترفع والاستكبار عن القول بصحة ما قيل في الأعصر الغابرة، ولكن علينا أن نخضع للعلم وندع الكبرياء فالدليل واضح والصدق راجح.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

قال: إذن هات القصة الثالثة عسى أن تكون أوفى حجة وأهدى سبيلاً وأقوم قيلاً وأرجح بياناً وأقوى تبياناً وأعز مراماً وأرفع مقاماً.

قلت: روى العلامة «والاس» الإنجليزي في صفحة ٧٢ من الكتاب المذكور ما نصه بالحرف الواحد: أعجب ما رأيت من وساطة الآنسة «نيشول» إيجادها زهوراً وفواكه داخل غرفة محكمة الغلق، ففي أول مرة بدا على يدها هذا الحادث كانت في منزلي بصحبة بعض من أخصائي، فبعد أن تناولنا الشاي لأننا كنا في فصل الشتاء دخلنا حجرة صغيرة مغلقة وما قعدنا برهة من الزمان حتى لاح على المائدة التي جلسنا حولها كمية وافرة من الزهور منها شقائق النعمان والخزامى والأقحوان الأصفر وخلافها من الزهور الربيعية، وكل أوراقها غضة ناضرة مكللة بالندى الرطب، فيستها كلها وحفظتها باعتناء بعد أن علقت عليها شهادة ممضاة من الحضور. وحوادث كهذه تكررت أمامي مئات من المرار وفي محلات شتى وظروف مختلفة، فتارة جاءتنا الزهور بكميات وافرة وطوراً مصحوبة ببعض ثمار يطلبها الحضور. وفي إحدى الجلسات طلب صديق لي إلى الروح إحضار دوار الشمس فما مضى هنيهة حتى رأينا أنه انحط على المائدة هذه الزهرة وعلوها ستة أقدام وجرثومتها مكسوة بكومة من التراب. وفي جلسة أخرى حضرها المسيو «أولف ترولوف» والكولونل «هارفي»، وقد

قصد هؤلاء الأشراف قبل إقامة الجلسة أن ينبشوا الغرفة جيداً في كل أنحائها وأوعزوا إلى مدام « ترولوب » بأن تفحص جيداً كل قطعة من ثياب الآنسة « نيشول » ، ثم جلسنا حول المائدة والمسيو « ترولوب » قابض على يد الوسيطة ، وبعد مضي عشر دقائق استنشقنا جميعاً أريج زهور ، فأوقدنا حالاً الشمعة فوجدنا أذرع المسيو « ترولوب » والآنسة « نيشول » مكسوة بزهر النسرين . اهـ .

وأغرب المنقولات التي تحدثت بها مؤخراً المجلات الروحانية منقولات الزهور على يد الوسيطة « حذروت » ومنقولات الآثار القديمة والنباتات حتى الأسماك وبعض الطيور الحية على يد الوسيط الشهير « بايلي » ، وقد شهد هذه الغرائب كثير من مشهوري العلماء في أستراليا وإيطاليا وألمانيا وخلافها من الممالك الأوروبية التي تجول فيها الوسيطان المذكوران . روى المعلم الفيلسوف « آلان كاردك » في كتاب « الوسطاء » حادثاً نقلياً شاهده عياناً ، والأسئلة التي طرحها على الروح الذي أتم الحادث والملاحظات الأصولية التي علقها روح علوي على أجوبته كما يأتي :

س ـ نرغب إليك أن تفيدنا لم لا تقوى الروح على إحضار المنقول إلا عند إلقاء الوسيط في السبات المغناطيسي؟ .

ج ـ السبب في ذلك طبيعة الوسيط ومزاجه فما أستطيع عمله مع هذا وهو نائم أستطيع إنشاءه مع آخر وهو يقظان .

س ـ لم تتأخر طويلاً في إحضار المنقول وتهيج بشدة رغبة الوسيط في ذلك؟ .

ج ـ إطالة الوقت ضرورية لي لمزج السوائل ، أما تهييجي لرغبة الوسيط فمن باب التسلية والمزاح . ( ملاحظة الروح العلوي ) لم يصب في جوابه ولا أدرك غاية تهييجه لرغبة الوسيط فظنها باباً من التسلية مع أن مفعولها إثارة رشح السائل الحيوي بزيادة ، وهذا ناتج عن الصعوبة التي يلقاها الروح في هذا الحادث عندما لا تكون وساطة الوسيط بديهية .

س ـ هل للحضور تأثير في إنفاذ عملك؟ .

ج ـ إن إنكار الحضور ومقاومتهم تربكنا في العمل جداً فلهذا نؤثر بسط ما لدينا أمام ناس مؤمنين خبراء بأصول الروحانية .

س ـ ومن أين أحضرت الزهور والحلاوى؟ .

ج ـ قطفت الزهور من البساتين .

س ـ ومن أين أخذت الحلاوى ، أما دري البائع بنقصانها؟ .

ج ـ إني آخذ الحلاوى من حيث أشاء ولا يتضرر البائع بذلك لأني أضع له بدلها .

س ـ والخواتم التي أحضرتها أليست ذات قيمة فكيف لا يتضرر صاحبها بخسارتها؟ .

ج ـ أخذتها من محل لا يعرفه أحد بنوع إلا يحصل لأحد ضرر من ذلك . ( ملاحظة الروح العلوي ) ليس الجواب بمستوفى الشروط ، والروح يحاول فيه إقناعكم باستقامته وعدم تضرر أحد بسرقته ، والحال أن الشيء لا يعوض إلا بمثله وذي قيمة واحدة ، فلو أمكن للروح إبدال الشيء بنظير ما احتاج إلى أخذ الأول بل استعمال الشيء الثاني مكانه .

س ـ هل تقوى على إحضار زهور من كوكب آخر؟ .

ج ـ كلا. هذا مستحيل. ( ملاحظة الروح العلوي ) أجاب بالصواب وذلك لاختلاف السوائل المحيطة بكل من الكوكبين.

س ـ هل تستطيع إحضار زهور من خط الاستواء؟.

ج ـ أستطيع نقل الشيء من أي بقعة من الأرض كانت.

س ـ هل تستطيع رد الأشياء التي أحضرتها وإرجاعها إلى مكانها؟.

ج ـ كما استطعت إحضارها أستطيع إرجاعها.

س ـ هل تشعر بتعب في إنشاء العمل؟.

ج ـ لا يكلفني العمل تعباً طالما أنا مأذون فيه، إنّما تلقى العناء الشديد في أعمال لا يؤذن لنا فيها. (ملاحظة الروح العلوي) لا يشاء أن يقر بما ينويه من التعب الجسيم من عمل كهذا مادي على نوع القول.

س ـ ما الصعوبات التي تلقاها؟.

ج ـ أخصها سوء السوائل وعدم ملاءمتها لعملنا.

س ـ كيف تحضر المنقول؟ هل تمسكه بيدك؟.

ج ـ كلا. بل أخفيه فيّ. ( ملاحظة الروح العلوي ) بل هذا غلط لأن الروح لا يخفي المنقول في شخصيته بل يمزج شيئاً من سائل جسمه الروحاني الشديد التمدد والانبساط بجزء من السائل الحيوي المنبعث من الوسيط، وبهذا المزيج يستر المنقول ويحمله.

س ـ هل يعسر عليك إحضار شيء ثقيل الوزن؟.

ج ـ لا فرق لوزن المنقول عندنا وإنّما نؤثر جلب الزهور لطيبها ولطافتها. ( ملاحظة الروح العلوي ) هذا صحيح فإنه يستطيع إحضار ما وزنه مائة ومائتان كيلو دون أن يرتبك بهذا الثقل، فقط بما أن كمية السائل الممزوجة يجب أن تكون مناسبة لجسم المنقول. وبعبارة أخرى: بما أن القوة هي بموازنة المدافعة ينتج أن الروح لا يحضر زهوراً أو أشياء خفيفة إلا لعدم وجوده في الوسيط أو في نفسه المائع الضروري لنقل ما هو أثقل منها.

س ـ هل يتوقع أحياناً اختفاء أشياء سببها الأرواح؟.

ج ـ نعم قد يتوقع ذلك ويمكن استرجاع الشيء بالتوسل إلى الروح في رد ما أخذه. ( ملاحظة الروح العلوي ) هذا صحيح وقلما يرد الروح ما أخذه، ولكن بما أن فعلاً كهذا يستدعي ظروف النقل ذاتها فينتج أن وقوعه نادر جداً، وضياع الشيء يتأتى عن طيشكم لا عن فعل الأرواح.

س ـ أليس من المنقولات ما يصوغها الروح من نفسه بما يأتيه من التغيرات في السيال العام؟.

ج ـ أنا لا أستطيع ذلك ولكن روح أرفع مني لا يعجز عنه.

س ـ كيف أدخلت هذه الأشياء الغرفة وهي محكمة السد؟.

ج ـ أدخلتها معي وأنا محتضن لها بجوهري، ولا أستطيع أن أشرح أكثر من ذلك.

فلما أن سمع ذلك شير محمد رأيته استبشر وفرح وابتهج وانشرح وقال: يا سيدي إن مثلي أنا وطلاب العلم في هذا المقام كمثل صبية صغار مات عائلهم وهم لا سبد عندهم ولا لبد ولا حول بيدهم ولا قوة. يفترشون الثرى على الجبوب ويلتحفون السماء بعد الغروب، فقال لهم قائل: أيها

الصبية المعدمون واليتامى المملقون هل جاءكم نبأ عما تملكون من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث مما تركه أبوكم في قرية تبعد عنكم بأميال وأنتم لا تعلمون، فقالوا: ما لنا بهذا من علم إنّما نحن صعاليك محقورون وصغار منهوكون، وفقراء محرومون، وأذلة معدومون. ولكن هذا الكلام قد ترك أثراً في أفئدتهم، ومزج الفرح بترحيبهم، فأنشؤوا يتساءلون ويسألون الركبان من كل غاد ورائح عن هذا النبأ العظيم، وهم بين تصديق وتكذيب وتقريب وتبعيد ورجاء ويأس وأمل وقنوط، حتى إذا جاء من بيده الحل والعقد وقال: هلموا يا أبنائي فانظروا، هذه أرضكم وخيلكم وأنعامكم، فقروا عيناً، وانشرحوا صدراً، وطيبوا نفساً، واصبروا قليلاً لنبلوكم حتى تبلغوا سن الحلم فإن آنسنا منكم رشداً دفعنا إليكم أموالكم، وعسى أن تعرفوا قيمتها، وتقوموا بحقها، ولا تتهاونوا في حفظها، وعسى أن تكونوا من المفلحين.

ذلك يا أستاذي مثلنا وقد عشنا في الدنيا جاهلين، وقرأنا كتب المرسلين فسمعناهم حدثونا بحديث البقاء بعد الموت، وذكروا عوالم تملأ السهل والجبل والبر والبحر تكتنفنا أنى توجهنا، وتعيش معنا أنى عشنا، وتلقي إلينا علماً وتدلي إلينا بحكمة، وأن منها من ترفع الأثقال من مكان إلى مكان. أوليس من العجب أن حديث بلقيس وسيدنا سليمان في هذه السورة له اتصال بهذا الحديث.

ومن ذا الذي كان يدور بخلده أو يخطر بقلبه أو يهجس له أن العلم يكشف لنا جواز نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام، قال تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل: ٣٩-٤٠].

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. بعد أن كانت تلك القصص مما نسمعه ونؤمن به لفظاً ولا نعقل له معنى. اتضح الأمر وظهر وتجلى للعيان، وعلمنا أن ذكر مثل هذه القصص لاستيقاظ الأمم بعلم الأرواح ليرقوا شعوبهم، وأن البحث في تلك الأحاديث من أقوى أسباب ارتقاء العقول وارتفاع الأمم ليكون الشك سبباً للبحث، والبحث مقدمة الوصول. انظر كيف يقول الله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[النمل: ٤٠]. ولا جرم أن غرائب عالم الأرواح نعمة علمية، فمن الناس من يستمسك بها، ومنهم من لا يبالي ويقول: لا خير فيما لا طعام فيه ولا لباس ولا لذة ولا جاه، فما لنا وما للأرواح والآخرة والأولى، ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية: ٢٤].

ثم قال شير محمد: يا سيدي سيقول السفهاء من الناس: هل كان الذي عنده علم من الكتاب محضراً للأرواح؟ قلت: إن قال قائل هذا فقل له: ذلك لا علم لنا به وهذا مقام لا نصل إليه، وإنّما مقامنا أن الكشف الحديث أظهر وجود مخلوقات حية عاقلة روحية تصديقاً للقرآن لها قدرة على حمل الأثقال، فهذا ما نرمي إليه ليثق من لا يؤمن بالقرآن أن ذلك حق، فأما ما عدا ذلك فما لي به يدان، ولست أدخل في هذا الميدان مع من لا يعقل البرهان، فقال: حسن. انتهى ما نقلته من كتابي «الأرواح». وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

## القسم الثالث

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

## التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بأن اعبدوه ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ مؤمن وكافر يختصمون في الدين ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ العافية والرحمة ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة إليه من كفركم ومعاصيكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لا تعذبون في الدنيا ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا ﴾ تشاءمنا ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائد فتفرقت كلمتنا وحبس القطر عنا وذلك بشؤمك وشؤم من معك ﴿ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما يصيبكم من الخير والشر مكتوب عنده، وسمي طائراً لأن لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم، ويقال: طائركم عملكم لسرعة صعوده، وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، وهذا إضراب عن بيان طائرهم وهو مبدأ ما ينزل بهم من الشر إلى ذكر سببه، ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ تسعة أنفس وهو من الثلاثة إلى العشرة، والنفر من ثلاثة إلى تسعة ﴿ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح ﴿ قَالُوا۟ ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ أي: احلفوا به ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ لنباغتنّ صالحاً وأهله ليلاً ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ ﴾ لولي دمه ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ ما حضرنا ﴿ مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ أي: قتل صالح وأهله فما ندري من قتله ولا من قتل أهله ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ ونحلف إنا لصادقون ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا ﴾ غدروا غدراً حين قصدوا قتل صالح ومن آمن معه من قومه ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ دبرنا تدبيراً بأن عجلنا الهلاك لهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك. ثم أبان ذلك فقال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ

كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم ﴾ أهلكنا التسعة. يروى أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه فوقعت عليهم صخرة من جبالهم فطبقت عليهم الشعب فهلكوا وهلك الباقون في أماكنهم من الصيحة. وإلى هلاكهم أشار سبحانه بقوله: ﴿ وقومهم أجمعين ﴿٥١﴾ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ بظلمهم وكفرهم ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ لعبرة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ قدرتنا ﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الكفر والشرك فلذلك خصوا بالنجاة ﴿ ولوطا ﴾ واذكر لوطاً، ثم أبدل منه قوله: ﴿ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وهو إما من بصر القلب. ولا ريب أن اقتراف الفاحشة من العالم بها من أقبح الذنوب، وأما من بصر العين لأنهم كانوا يأتونها وبعضهم يبصر بعضاً، ولا جرم أن فاحشة العلانية أقبح من فاحشة السر. ثم بين تلك الفاحشة وعللها بالشهوة إيماء لازدرائها ومنافاتها الكمال متى خلت من الحكمة في خلقها، وهي أن يطلب منها النسل فقال: ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ اللاتي خلقن لذلك ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح أو تجهلون العاقبة ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ يتنزهون عن أفعالنا ويعدونها قذراً ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ قدرنا كونها من الباقين في العذاب ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ هي الحجارة، أي: أمطرنا على شذاذهم والمسافرين منهم ﴿ فساء ﴾ فبئس ﴿ مطر المنذرين ﴾ مطرهم. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة. والحمد لله رب العالمين.

## جوهرة: في قوله تعالى أيضاً: ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ أيضاً

اعلم أن الأمم الإسلامية أصابها ما أصاب الأمم، فإنهم ظلموا فخسروا البلدان التي فتحوها مصداقاً لحديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ». إن الله عز وجل بالمرصاد لكل أمة، والله عز وجل لما أنزل القرآن جعله نوراً مبيناً، وأمر المسلمين أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس فيجعلوا العالم كله أمماً متعاونة فلا ظالمة ولا مظلومة. ولقد ظهر في أوروبا وفي الشرق من الآراء ما يناسب ما ذكرناه ليزول الظلم من أهل الأرض، وهو الذي كان يأمر به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ يأمر بالعتق والرحمة، ويقول الله: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴿١١﴾ وما أدراك ما العقبة ﴿١٢﴾ فك رقبة ﴿١٣﴾ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿١٤﴾ يتيما ذا مقربة ﴿١٥﴾ أو مسكينا ذا متربة ﴿١٦﴾ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ [البلد: ١١-١٧]. إن المسلم هو الذي يوصي غيره بالصبر وبالرحمة العامة. وليعلم المسلمون أن أهل الأرض مستعدون لذلك.

فإذا بلغ المسلمون ذرى المجد في العلم والعمل فليرقوا الإنسانية، والدليل على أن الأمم قابلة لذلك لطيفتان:

## اللطيفة الأولى

## في رأي فيلسوف الصين «كونفوسيوس» في دولية العالم

معلوم أن تعاليم «كونفوسيوس» الفيلسوف كانت ترشد الشعب الصيني العظيم وتكون مصيره، ومع أنه قد مضى عليها ألوف السنين يقول دارسوها: إنها تحوي من الآراء والنصائح والنظريات ما يكاد يكون عصرياً. مثال ذلك: ما اقتبسه «المستر الفرد مارتن» من هذه التعاليم عن دولية العالم وهو بالترجمة كما يلي:

عندما يسود مبدأ الدولية يصير العالم بأسره جمهورية واحدة، وتنتخب الأمم أفاضل ذوي مواهب ومقدرة، فيتكلمون عن الاتفاق الحقيقي ويثقفون الوئام العالمي، ويصبح الناس والحالة هذه لا ينظرون إلى والديهم بأنهم والدوهم فحسب، ولا إلى أولادهم بأنهم أولادهم فحسب، وسيعين للمتقدمين في السن معاشاً حتى وفاتهم، ويدبر عملاً لرجال تقعدهم الشيخوخة، ويقدم للأحداث ما يساعدهم على النمو والتقدم في مراحل الحياة.

أما الأرامل والأيتام والمقطوعون والعجزة من تأثير الأمراض، فكلهم تتكفل بهم الحكومة، وسيضمن لكل رجل حقه ولكل امرأة شخصيتها. انتهت اللطيفة الأولى.

## اللطيفة الثانية

في ذكر ما جاء عن أحد الضباط الأوروبيين إذ مدح الأمير عبد الكريم بعد انخذاله. وهذا نص ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٦ مارس سنة ١٨٢٩م.

### عواطف كريمة

#### كابتن كننج في شعره

عرفنا من قبل الكبتن كننج رجلاً أبياً هماماً أعجب بشجاعة الريفيين وساءه ما يلقى حقهم من باطل أعدائهم، فانتدب يسعى للمسلم بين عبد الكريم وأعدائه سعياً لم يقصر فيه، ولكن خيبة ظلم السياسة وكبرياؤها، فهل عرف قومنا أن هذا الرجل الإنكليزي الشريف شاعر رحيم القلب على النفس، ويستعرض في شعره الماضي والحاضر ليشيد بذكر العظماء ويقضي حق البطولة أنى وجدها؟ وهل عرفوا أن لعظماء التاريخ الإسلامي من شعره المكان الأول والنصيب الأوفر؟ طلع علينا «الكابتن كننج» منذ عامين بطائفة من شعره سماها «موت أكبر وقصائد أخرى» خص بمعظم صفحاتها جلال الدين أكبر شاه ملك الهند العظيم فمثل هذه العظمة على سرير الموت محتضرة، وما أوسع هذا مجالاً لقريحة شاعر كبير القلب ذكي الفؤاد.

ثم نشر هذا العام طائفة أخرى من شعره عنوانها: «أبو عبد الله وقصائد أخرى»، وهي مائة وخمسون صفحة من الشعر الجيد تستغرق قصة أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة أربعاً وثلاثين ومائة صفحة منها، وقد أعطى فيها الشاعر للتاريخ نصيبه وللإنسانية حقها، وأن النفس الكبيرة التي تقدر البطولة وتحدب عليها في بأسائها هي التي وقفت بالكبتن كننج على أبي عبد الله في أيام نحسه، كما وقفت به من قبل على جلال الدين أكبر في سرير موته، وكذلك قطعة عن جنة العريف فيها للشعر والقلب العطوف مجال واسع.

وأعظم ما في الكتاب من بعد قصيدتان: إحداهما: في رثاء المرحوم سعد باشا زغلول، وكان الشاعر قد رآه حين قدم مصر منذ سنة ونصف، وفي هذه القطعة يصف بلفظ موجز وقع المصاب في مصر، ومكانة الزعيم الفقيد من قلوب أمته، ثم يهيب بالمصريين ألا تيئسوا وسيروا على سنة زعيمكم فالمستقبل وضاء أمامكم. وحسبنا من نبل الأخلاق والانتصار للحق أن يقف الشاعر هذا الموقف من رجل مات وهو في نضال سياسي تخاصم فيه الإنجليز «قوم الشاعر» والقطعة الثانية نظمها حين أحدق بالزعيم الريفي عبد الكريم نحسه فاضطره إلى الاستسلام لعدوه، والشاعر يمثل فيها ريفياً محتضراً يفتقد زعيمه العظيم. انتهى الكلام على القسم الثالث من السورة.

## القسم الرابع

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ
خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ
ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا
كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾
قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾
وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ

إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ
دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا
بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥)
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)
وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ
(٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩)
وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)
وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ
(٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

اعلم أن الله عز وجل لما قص في السابق من هذه السورة نبأ داود وسليمان وقوم لوط وثمود، وقد ورد ما استبانت به عظمة الله وإنعامه على عباده من علم وحكمة لداود وسليمان، واطلاعه عليه السلام على عجائب الخليقة وبدائع الحيوانات في الجو وفي التراب، وابتهاجه بمعرفة غرائزها وطبائعها وعجائبها، وإلمامه بمراتب الجن والشياطين والملائكة وما خولهم الله من قدرة وعلم، وكيف رتبتهم مراتب ونظمهم صفوفاً كل فيما استعد له من عفاريت يقدرون على الأعمال بمشقة، والملائكة يزاولونها بسهولة تبعاً لنفوسهم ومراتبها في الحياة والرقي، ومن نصر واعتلاء على أهل الكفر كما في قصة ثمود وقوم لوط، إذ أهلك الله الكافرين ورد كيدهم إليهم وأوقعهم في حفرة حفروها وداهية لغيرهم طلبوها.

لما قص الله ذلك وعرفت منته وفضله العظيم استبان به أن النفوس الطاهرة الراقية تنال العلم والنصر؛ فلا جرم يستحق سبحانه الحمد على إنعامه، وهؤلاء الأنبياء المخلصون سلموا من الأذى ونصروا على أعدائهم، هاتان نتيجتان لما تقدم، إنعام من الله وأمان للذين اصطفاهم، ولا جرم أن ذلك يرجع إلى أصل الموضوع وهو التوحيد، فالنعم الواصلة للمخلصين من الأنبياء وغيرهم والسلامة الموجهة إليهم لأنهم وحدوا الله وساروا على نهجه في الأعمال الشريفة وتخلقوا بأخلاقه، فإذن وجب أن نبين آيات من آياته وعجائب من بدائعه ليلحق الخلف بالسلف ويقرأ الناس في سطور هذه الكائنات آيات الجمال كما قرأها سليمان في عالم الحشرات والطيور وعالم الجن والملائكة ليحذوا حذوه في شكر الله وليكون هذا العلم ابتلاء لهم وامتحاناً، حتى إذا عرفوا الموهبة شكروا النعمة والتحقوا بالمقربين كما قال سليمان: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾[النمل: ١٩]، وكما

قال: ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. هذا هو المقصود من ذكر هذه الآيات الآتية: وهي:

(١) خلق السماوات والأرض.

(٢) وإنزال الماء من السماء.

(٣) وإنبات النبات.

(٤) وإبداع الحدائق البهجات.

(٥) وجعل الأرض قراراً بحيث أمكن الاستقرار عليها فاستقر عليها الإنسان و الحيوان.

(٦)وخلق الأنهار الجارية في خلالها.

(٧) وخلق الجبال التي ينزل المطر منها في الأنهار.

(٨) وإبداع حواجز بين الماء المالح والعذب بحيث لا يختلطان.

(٩) وإجابة دعاء من اضطر إلى الله والتجأ إليه من كل مكروه.

(١٠) وكشف الضر عن الإنسان.

(١١) وجعل الناس سكاناً للأرض بالوارثة عن السابقين، فيتصرفون فيها قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة.

(١٢) وهداية الناس بالنجوم والعلامات في ظلمات الليالي بالبر والبحر وفي مشتبهات الطرق كما يقال: طريق عمياء وظلماء، للتي لا منار فيها، فأودع في قلوب البشر علوماً بها عرفوا طرق البحار ومسالكها ومدارات النجوم، وألهموا أن تكون لهم الإبرة المغناطيسية لتدلهم على جهة الشمال تقريباً ومتى عرفوها عرفوا سائر الجهات بها.

(١٣) وإرسال الرياح مبشرات قبل المطر ليستعد الناس لنزولها فرحين مستبشرين.

(١٤) ولا جرم أن من قدر على هذا قادر أن يعيد الخلق كما بدأه.

(١٥) ومن تأمل عرف أن الله يرزق الناس بأسباب علوية وسفلية معاً، فالعالم كله متفق في أعمال نتائجها متوافقة، فقد اتحدت الأسباب السماوية والأرضية وتعاونت على رزق الإنسان والحيوان، ولا يصح هذا الاتحاد إلا إذا كان الصانع واحداً، ولو تعدد فكان لكل إله عمل من هذه الأعمال لم تكن النتيجة كما هي حاصلة بهذه الوحدة، لأن اختلاف المدبرين يقتضي اختلاف النتائج والنتائج متحدة متعاونة. إذن الإله واحد.

(١٦) ولا جرم أن ذلك يدل على أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ولا يعلمه سواه لأن هذه النتائج الصادقة لا يستخرجها إلا العالم بها ولا يعلمها سواه، فإذن لا يعلم الناس متى يبعثون.

(١٧) بل إنهم فوق ذلك تكامل علمهم في الآخرة واستحكم بدلائل وحجج قاطعة، ومع ذلك هم متحيرون فيها شاكون، بل هم فوق ذلك عمي عنها لا يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم، وهذا وإن ذكر أنه لمن في السماوات والأرض ليس القصد منه إلا الذين كفروا.

هذه المسائل السبعة عشر هي من قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]، إلى قوله: ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦].

واعلم أن هذه النعم المذكورة تذكرة للمسلمين وتبصرة لهم أن يعرفوا نعم الله تعالى ويفقهوها ويدرسوها ويعملوا بها كما فعل سليمان عليه السلام، فإنه لما علم علم الحشرات طلب من الله أن يلهمه الشكر على ذلك العلم، ولما نال الملك في الأرض ووصل إلى أقصى ما يرام من العلم جعل هذا اختباراً، فهكذا فليكن حال المسلم فليدرس السماوات والأرض والمطر والنبات والأشجار والبحار ويتوجه إلى الله، وعلى المسلمين أن يكونوا علماء بالنجوم وبالطرق في البر والبحر بالعلوم المختلفة وأن يذللوا الطبيعة بالدراسة لا بالمعجزة كسليمان عليه السلام، وأن يكونوا مصلحين في الأرض حتى تلحقهم كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال بأمر الله: الحمد لله على ما أنعم على عباده، وحيا كل مصطفى من عباده النافعين لخلقه الهادين لهم المرشدين الصادقين، فلتكن في عدادهم صفاء وصدقاً لتدخل فيمن حياهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، ولتكون عاقبتك في الدنيا والآخرة كعاقبة سليمان وداود وأمثالهما.

## تفسير الكلمات في هذه الآيات

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله شكراً له على نعمه التي يسديها لكل مصطفى من نبي ومؤمن، وتلك النعم علوم وهداية ونصر، وأن يحيي هؤلاء الذين اصطفاهم ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم ﴿أَمَّنْ﴾ بل أمن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ بساتين ذات حسن يبتهج بها من رآها ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: إنكم لا تقدرون أن تنبتوا شجرها ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ بدل من «خلق السماوات والأرض» وكذا ما بعده ﴿قَرَارًا﴾ دحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ ظرف، أي: وسطها وهو المفعول الثاني، والأول ﴿أَنْهَٰرًا﴾، و﴿بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ مثل ذلك ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب، لأن الجبال متصلة بالطبقة الصوانية نابتة منها، وهذه الطبقة لو اقتلع جزء منها لاضطربت النار وخرجت من باطن الأرض، فكانت براكين فاهتزت وخرجت بعد الاضطراب الكثير ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب ﴿حَاجِزًا﴾ مانعاً أن يختلطا ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المكروب المجهود المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر، فهي إذا نزلت بأحد بادر إلى الالتجاء والتضرع إلى الله ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الضر إذ لا يقدر على تغيير حال من فقر ومرض وضيق إلى غنى وصحة وسعة إلا الله القادر ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ بأن ورثكم سكناها ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكرون تذكيراً قليلاً، ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قدام المطر ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ نطفاً في الأرحام ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات، ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن مع الله آلهة شتى. ﴿قُل﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة، والمعنى أن الله هو الذي يعلم الغيب وحده،

﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى ينشرون و« أيان » أصلها أي وآن ، ﴿ ادَّارَكَ ﴾ تكامل وانتهى واستحكم . يقال : أدركت الفاكهة ، تكاملت نضجاً ، وأصله تدارك ، فأدمغت التاء في الدال وزيدت ألف الوصل ليمكن التكلم بها ﴿ عَمُونَ ﴾ جمع عمٍ وهو أعمى القلب . وقيل : ادارك ، بمعنى اضمحل ، كما يقال : تدارك بنو فلان ، إذا تتابعوا في الهلاك . أي : اضمحل علمهم في الآخرة . انتهى تفسير بعض الكلمات ، والله أعلم .

## لطيـــفة

اعلم أن هذه المذكورات التي عددها (١٧) هي التي تفهم المسلم كيف يحمد الله . إذ حمد الله إنّما يكون على نعمة ، والنعمة ما لم يدرسها الإنسان لا يفهم معناها ، وإذا لم يفهمها فلا حمد له كما شرحناه في سورة « الفاتحة » .

ألم يعلم المسلمون أن هذه هي التي يحمد عليها . إن الحمد ثناء بجميل لأجل جميل اختياري فإذا لم يعرف الإنسان المحمود عليه فلا حمد له ، والله أمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله ، وذلك الحمد يكون في العبادة وفي العلم ، أما في العبادة : فالمسلم يقرأ الفاتحة ويحمد الله فيها على أنه مربي العالم كله وهو يرحمه ، وكذلك نرى المسلم يقول : « التحيات لله » فالمسلم يحمد الله ويقول التحيات له ، ويقول المسلم أيضاً في الرفع والاعتدال : « ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » . هذا حمد المسلم في العبادة ، فانظر أثر العبادة ، إن أثر العبادة يظهر في العلم ، انظر أيها الذكي ، إن الحمد في الصلاة على تربية العالمين وملء السماوات والأرض وما بينهما وملء كل شيء بعد ذلك ، انظر أليس هذا هو ما في هذه السورة؟ ألم يذكر الله هنا بعد ذلك الحمد المحمود عليه؟ ألم يذكر السماء والأرض والمطر والنبات والأنهار والبحار والهداية في البر والبحر وإرسال الرياح؟ انظر ، إن الله لم يذكر في هذا علم الحيوان لأنه تقدم في قصة سليمان وذكر الإنسان في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، فإذن المحمود عليه هنا جميع هذه العوالم وهي المذكورة في قول المؤمن : « ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض الخ » ، فانظر كيف أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا : « الحمد لله » ، ثم ذكر المحمود عليه سبيل العلم لا سبيل العبادة ، فالعبادة مجرد تذكرة ، وأما هنا فهو علم ، فإذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وقال : « الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض » ، فنتيجة ذلك أن يدرس هذه العوالم بقدر إمكانه ، وعلى قدر فهمه فيها يكون ارتقاؤه إلى الله تعالى .

هذا مقصود الحمد هنا وهو الدراسة والعلم ، فلا حمد إلا بمعرفة المحمود عليه ، والمحمود عليه هو هذه المذكورات ، وهذه المذكورات هي عجائب السماوات والأرض وما بينهما من نمل وهدهد وجن وملائكة ومطر ونبات وبر وبحر وجبل ، الخ . هذا هو الحمد ، أما السلام في قوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] فاعلم أن ذلك هو الدرجة الثانية ، وهي ترجع إلى الأخلاق والفضيلة ، والإنسان مادام مبعداً عن حب الناس جاهلاً بالجامعة الإنسانية فهو بعيد من ربه ، فالإنسان سعادته بأمرين : الأمر الأول : العلم وقد علم في الحمد . الثاني : في الحب العام ، والحب العام أشار له بقوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] .

أتدري أيها الذكي أين هذا في ديننا؟ ابحث عنه تجده في التشهد، تجد المسلم يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، ويقول المسلم مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم: السلام عليك، يحييه إجلالاً ويبشره بشرى على بشرى بالسلامة كما تحييه الملائكة، وهذه التحية من بواعث السرور والمودات. يسلم المؤمن على النبي وعلى نفسه وعلى كل عبد صالح، وهذا عين قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل: ٥٩]، فليفكر المؤمن وقت الصلاة في هذا المعنى وليقل: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إن التفكر في هذا المعنى يحدث ألفة بينه وبين الأرواح الشريفة التي ارتقت إلى عالم الصفاء والنور، حتى إذا مات أحس بالألفة الجامعة بينه وبينهم فلا ينفر منهم ولا يأنف، هذا هو المقصود من هذا السلام.

وليفكر فيمن اصطفاهم الله بالعلم والحكمة وليأخذ بأحسن ما عملوا به، كما قال تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠]، والاهتداء بهداهم إحكام للرابطة بين المرء وبين الصالحين، فهنالك رابطتان: رابطة بالتسليم في العبادة، ورابطة بالقدوة الحسنة في العلم، كقصة سليمان هنا، إذ يتبحر الإنسان في العلوم ويخوض في بواطنها من علم طبيعة وعلم أرواح، ويزيد في الإخلاص لله والتسليم له، فلا يغتر بما أعطي بل يقول: ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[النمل: ٤٠] الخ، فمن اقتدى بعالم أو بنبي في خصلة فقد عظمه وحياه، وهو أيضاً في كل صلاة يسلم عليه، وبهذا فهمنا: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل: ٥٩].

وصار الملخص أن نتبحر في العلوم ليتم حمدنا لله، وأن نقتدي بالأنبياء ليكون ذلك رابطة تجمعنا بهم، وهذه رابطة أوكد من رابطة التحية، كما قال صلى الله عليه وسلم: «أنت مع من أحببت» وكما قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[النساء: ٦٩-٧٠].

واعلم أن الذين اصطفاهم الله أشبه بآباء الناس، وكما أن الله عز وجل منزه عن المادة مربي العالمين مسعد لهم ليرقيهم من حال إلى حال، فكذلك هؤلاء الصالحون يسيرون على السنن الذي سنه وإن كانوا في هذه الأجسام، فهم وإن شاركوا الناس في أمور الحياة لا يريدون بها إلا القوة على المنافع العامة للأمم، وكلما كان الإنسان أزهد في المادة وأحب للعلم وأكثر مساعدة وحباً للناس كان أقرب لله، وكلما نزل عن ذلك كان أبعد عنه، إن الله أعطانا دروساً التي في الحياة، قلل الشهوة البدنية زمن الكبر، وأكثر من المصائب في المنازل وفي المدن وفي علاقات الأمم بعضها ببعض وفي الأجسام، كل ذلك ليفهم الناس أن هناك حياة أرقى من هذه، وكأنه يقول: أيها الناس إن هذه الحياة ليست أعظم حياة، إن ربكم قادر وليست قدرته واقفة عند هذا الحد، إن هناك حياة أوسع من هذه الحياة وأعلى منها، وعلى مقدار إخلاصكم في أعمالكم وخلوص نفوسكم من علائق هذه الحياة تتصلون بعالم أرقى، والعالم الأرقى يكون فيه عباده الذين اصطفى كسليمان، إنه لم تفتنه زخارف الدنيا، إن الملك وطاعة الملوك لم تؤثر في نفسه. إنه يذكر ربه في وادي النمل، كما يذكره وهو على عرش بلقيس، ويفوض الأمر له وذلك هو عين التفويض وباب الحب، فلتقتدوا به وبالأنبياء، ولتكونوا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

## جوهرة في قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾

وفيها لطيفتان: اللطيفة الأولى: في شرح هذه العجائب. اللطيفة الثانية: في بهجة الحدائق

## اللطيفة الأولى: في شرح هذه العجائب

وفيها خمس مطالب:

(١) في قوله: ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾[النمل: ٦٠].

(٢) وفي قوله: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[النمل: ٦١].

(٣) ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾[النمل: ٦١].

(٤) ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾[النمل: ٦١] الخ.

(٥) وفي قوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[النمل: ٦٢] الخ.

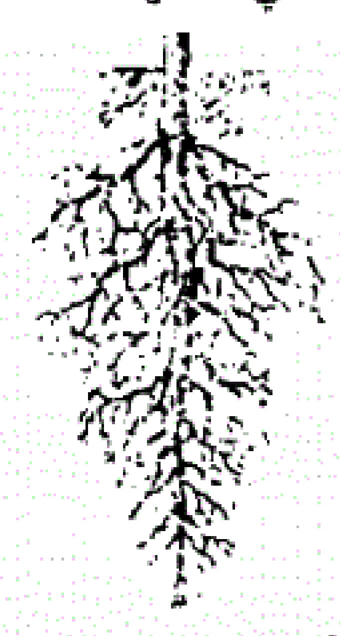
## المطلب الأول: في الحدائق ذات البهجة

يعيش الإنسان في هذه الأرض وأكثره في غفلة محجوب عن جماله وبهائه وحسنه، إن العالم في نظر أكثر هذا الإنسان حجب وراءها حجب مسدولة، بل هو مظلم قاتم لا لذة فيه ولا جمال إلا اللذة الحيوانية، فالناس يعيشون مسحورين بما أعطوا من حواس، وبما نالت تلك الحواس من اللذات الحقيرة، وينظرون إلى الهواء وإلى الماء وإلى المعادن كالحديد والكبريت والبوتاسيوم والصوديوم والجير والمغنيسيا والفوسفور والسلكا «الرمل» والكلور وغيرها، نظرهم إلى أمور جامدة فاترة خامدة لا تحرك هممهم ولا تبعث من نشاطهم، اللهم إلا علماء الصناعات المتعلقات بهذه الكائنات، وإلا علماء الكيمياء ومن نحا نحوهم، ورجال الصناعات والعلوم الجزئية كلهم نظرهم جزئي وبحثهم محصور في دوائر ضيقة، ولكن من حسن الحظ أن هذا الإنسان خلقت فيه طائفة عقولهم أوسع ونظرهم أعلى وحكمتهم أشرف ونورهم أبهى وأجلى وأجلّ وأجمل، إذ ينظرون بهيئة تندرج تحتها كل العلوم، تلك الطائفة هم خلفاء الله في أرضه، هم الذين جعلوا في الأرض أوصياء على هذا الإنسان المسكين المحبوس في الأرض المغمور في حمأتها الممنوع عن الجمال، فهؤلاء يقولون: نعم العالم الذي نحن فيه في ظاهره جماد جاف، وعند البحث ننظر فنرى هذا الهواء وهذا الماء فيهما عناصر الأكسوجين والأودروجين والأوزوت ويصحب هذه الثلاثة الكربون، فالماء فيه العنصران الأولان والهواء فيه العنصر الأول والثالث والكربون أي الفحم معروف، وهذه الأربعة تجتمع ويخلق منها كل نبات وكل حيوان مع إضافة مقدار قليل من العناصر التسع المتقدمة التي أولها الحديد وآخرها الكلور. من هذه العناصر أو أكثرها يكون النبات ويكون الحيوان. إذن الهواء وهذا الماء وقليل من الكبريت وقليل من الفوسفور الخ هو نفسه هذا الإنسان وهذا الحيوان وهذا النبات، فما هو إلا أن يأخذ الإنسان حب القمح أو حب الشعير أو الذرة أو البرسيم أو الخردل أو اللوبيا أو الخشخاش أو الجزر ويزرعها في أرض صالحة ويتعهدها بالطرق المعروفة، فإنه يرى بعد أيام أن النبيتة التي كانت في داخل تلك الحبوب أخذت تنمو، وأخذنا نلاحظ أن هناك:

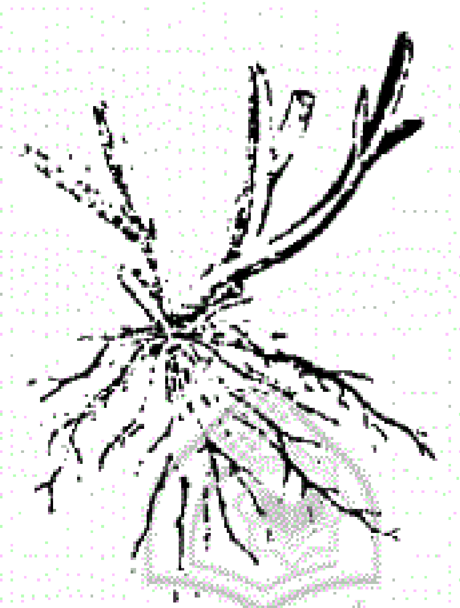
(١) جذراً: وهو المنغرس في الأرض وله فروع ويعرف بالمجموع الجذري.

(٢) وساقاً: وهو الجزء الذي يرتفع في الهواء ويتفرع فيه، وأن من الحب الذي زرعناه ما هو ذو فلقتين مثل اللوبيا والفول، ومنه ما هو ذو فلقة واحدة مثل القمح والشعير.

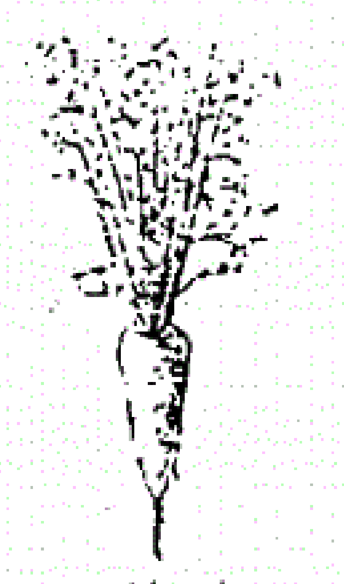
(٣) وأن المجموعات الجذرية إما وتدية، وإما ليفية، وإما درنية. فالوتدية هي التي يستمر الجذر الأصلي في النمو مع بقائه أكبر من فروعه، وذلك مثل جذر البرسيم والخردل والخشخاش. والليفية تكون قليلة النمو وجذيراتها كثيرة، مثل جذر القمح والشعير والذرة، وأغلب النباتات ذات الفلقة الواحدة. والدرنية تكون منتفخة ممتلئة بالمواد الادخارية التي يتغذى بها النبات في المستقبل، مثل الجزر والبطاطا والفجل واللفت والبنجر وهكذا. وهذه صور أنواع الجذور الثلاثة: الوتدي والليفي والدرني. (انظر الأشكال ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨).



(شكل ٣٦ ـ جذر وتدي)



(شكل ٣٧ ـ جذر ليفي)



جذر الجذر
(شكل ٣٨ ـ جذر درني)

(٤) وأن الجذر لا يحمل أوراقاً وله قلنسوة تصون تحته، وله منطقة نامية بالقرب من طرفه، وله منطقة ماصة وهي منطقة الشعيرات الجذرية، وله منطقة مثبتة خالية من تلك الشعيرات وليست ماصة وهو متفرع إلى جذيرات صغيرة، وهو متجه رأسياً من أعلى إلى أسفل ويسمونه الانحناء الأرضي، ويؤثر على هذا الاتجاه عوامل أخرى مثل الرطوبة والضوء ونحوهما.

(٥) إن الساق تحمل أوراقاً وبراعم، وهي المجموع المكون من قمة الساق ومن الأوراق الصغيرة التي تحميه، وليس لها شعيرات ماصة كما للجذور، وليس لها قلنسوة، ونموها طرفي ودون الطرفي، وتتجه رأسياً من أسفل إلى أعلى وتحمل الأوراق وتعرضها للهواء، وتوصل العصارات من الجذر إلى الأوراق ومن هذه إلى الأعضاء الأخرى، وقد تؤدي وظائف الأوراق وتقوم مقامها، وتمتلئ بالمواد المدخرة في بعض النبات كالقصب والتين الشوكي والبطاطس، ومتى نما النبات ترى له أزهاراً تنشأ عليه ويطلق على مجموعها اسم «الفرخ الزهري»، ثم تذبل الزهرة وتستحيل إلى ثمرة.

(٦) وأن الأجزاء الرئيسية للنباتات الزهرية هي الجذر والساق والورقة والبرعم والزهرة والبزرة، ثم ما الذي نراه من العجائب في الجذور والساق؟ أما الجذر فانظر ماذا جرى فيه، لقد رأيت أيها الذكي بعينك نظامه في باطن الأرض فهو إما مثل الوتد، وإما مثل الليف، وإما مثل الدرن، ثم انظر ماذا حصل، حصل كل العجب وأي عجب بعد أن نرى ساقاً وورقاً وبرعماً وزهراً وثمراً.

كل ذلك حاصل بسبب الجذور الممتدة المتفرعة في الأرض، ماذا فعلت تلك الجذور يا ترى؟ هذه الجذور فيها فتحات شعرية، تلك الفتحات الشعرية تمتص المواد من الأرض، أي المواد تمتصها؟ تمتص ما فيها مما ذكرناه من العناصر وهي الأكسوجين والأودروجين والأوزوت والكبريت والحديد والفوسفور الخ، وكيف تمتصها؟ تمتصها بمقادير خاصة، مقاديرها في القطن غير مقاديرها في الفول غير مقاديرها في الورد جميل الرائحة غير مقاديرها في العنب. انظر ما تقدم في سورة «البقرة» واقرأ الجدول المذكور عند مسألة إبراهيم والطير، واعجب لاختلاف المقادير التي يتناولها النبات هناك وبها تختلف السوق والأوراق والطعوم والروائح والأغذية والفواكه.

فيا ليت شعري، أين الحكمة التي تعلمتها تلك الفتحات الشعرية حتى امتصت ما يليق بنباتها طعماً ولوناً وقدراً. ثم إن النباتات تبلغ مئات الألوف عداً، وقد اختلفت اختلافاً مدهشاً عظيماً، فكيف اختلفت الفتحات الشعرية فيها اختلافاً بمقدار اختلاف ظواهرها. ثم إن الكبريت والحديد والفوسفور والسليكا والأكسوجين وما شابهها هي هي نفس الكمثري التي نأكلها والورد الذي نشمه والزيت الذي نستعمله. إذن نحن لم نستعمل شيئاً إلا تلك المواد التي نشاهدها من ماء ومن هواء ومن معادن أرضية، ولكن هذا السحر الحلال الذي ظهر في الأعمال التي ظهرت في حب القمح وفي حب الذرة وفي نوى التمر والمشمش هو الذي أرانا هذه العجائب. لا تمر ولا بر ولا ذرة ولا ورد إلا أجزاء هوائية ومائية ومعدنية تقدم ذكرها اختلف تفاعلها فاختلفت أفاعيلها.

فصدق الإمام الغزالي إذ يقول: إن المشعوذ البارع لن يفعل مثل ما نراه في الطبيعة ولكن الناس لاعتيادهم على مشاهدة هذه العجائب أنسوا بها فلم يروا فيها غرابة ولا عجباً، ومن عجب أيضاً أن المادة المسماة «الكلوروفيل» هي التي تجعل للنبات لون الخضرة، وخاصة أجزاء النبات التي تحتوي على الكلوروفيل. إنها متى كانت معرضة للضوء تمتص «غاز الكربونيك» من الهواء وتحلله إلى كربون وأكسوجين فتحفظ الكربون وتطرد الأكسوجين. وتعرف هذه الظاهرة «بالتمثيل الكلورفيلي» إذن هذه الخضرة تفعل في النبات فعل التنفس في الحيوان، فالحيوان يبقي الأكسوجين ويطرد الكربون بالتنفس، والنبات بالمادة التي أحدثت له الخضرة طرد الأكسوجين وأبقى الكربون بعكس الحيوان.

ولما كان النبات الذي يعد بمئات الألوف مختلف النتائج والثمرات اختلفت طرق امتصاصه من الأرض بالشعيرات الجذرية كما تقدم، واختلفت طرق تصرف المادة الخضراء في هيئة تنفسه. فاعجب لاختلافين: اختلاف الفتحات الشعرية في الجذور الأرضية، واختلاف الخضرة في الأوراق الهوائية. الخضرة واحدة ولكنها تختلف اختلافاً بالقوة والضعف. وبهذا الاختلاف يختلف فعلها التنفسي في الهواء، وتكون الثمرات والأشكال على مقتضى الاختلافين، ويرجع كل هذا إلى هواء وماء وكربون وحديد وفوسفور وكبريت مما تقدم ذكره. فجمال الأزهار وبهجة الثمار وابتسام الورد وبهجة البساتين، هذه كلها هي نفس الماء ونفس الهواء ونفس الفحم ونفس الكبريت. فيا ليت شعري، من أين جاء للهواء وللفحم أن يعقل أن الجذر لا بد أن يشتمل على قسم يثبت في الأرض وعلى قسم ينمو فيها وعلى قسم آخر يمتص الغذاء في الأرض، والغذاء لا بد أن يكون مناسباً للفاكهة وللحب ولمطالب الحيوان ولمطالب الإنسان الغذائية والدوائية والفاكهة. حارت العقول يا رب فيما نراه وما ألفناه.

هذا هو قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾[النمل: ٦٠]، هذا هو تفسير هذه الآية، أي: فكيف نبت هذا الشجر وما هذا الشجر إلا مواد نراها ولكننا لا نقدر أن نصنع هذه الأعاجيب منها. فنحن أمام هذا النظام أشبه بجميع الناس أمام الخطباء والشعراء إذ يعرفون الكلمات والحروف والمعاني، ولكنهم لا يقدرون أن ينظموا أشعاراً كامرئ القيس، ولا نثراً مثل عبد الحميد الكاتب. فالله يقول لنا: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٩]. هاهو ذا النبات وهكذا الحيوان، هذه كلها من المواد التي تعرفونها فهل تقدرون على هذا النظام؟ كلا. ثم كلا.

(٧) ثم إن الساق إما أن تكون قائمة، وإما أن تكون زاحفة، وإما أن تكون متسلقة. فالأولى كالأشجار المعروفة وكالقمح والذرة. والثانية كالخيار والقرع والشليك. وهذه لما كانت فروعها يجب أن تكون كثيرة الماء ضعفت فامتدت على الأرض وحملت الأرض عنها ثمارها، فترى البطيخ والقرع وأمثالها على الأرض لضعف تلك السوق المائية عن حمله.

(شكل ٣٩)
صورة محاليق الكرمة

والثالثة تتسلق السياج وجذوع الأشجار الأخرى كاللبلاب الذي يلتف حول الأجسام التي يتسلقها، وبعضها كالكرمة والبازلاء يثبت بتلك الأجسام بواسطة «محاليق» وهي خيوط رفيعة تلتف حول الأجسام التي تصادفها، ومحاليق الكرمة غصون محورة ولذلك نراها قد تحمل براعم. أما محاليق البازلاء فهي أوراق محورة.

ثم إن غصون السوق الهوائية قد تتحول إلى أشواك للدفاع عن النبات كما في البرتقال. (انظر شكل ٣٩).

فانظر لغصن انقلب تارة إلى محلاق لرفع شجرته، وتارة إلى شوك ليحفظ النبات ثم الورق انقلب إلى محلاق لبرفع شجرته أيضاً.

(٨) ثم انظر إلى عجائب العلم والحساب والهندسة في النبات أذكرك بما تقدم في سورة «الحجر» عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الآية: ١٩]. فتأمل شكل ١، وشكل٢، وشكل٣، وشكل ٤ في سورة «الحجر» وتأمل رعاك الله نظام أوراق النباتات المختلفة وكيف كانت محسوبة بحساب عجيب فتراها على الأغصان بينها مساحات متساوية تكون دائرة تامة.

فانظر إلى هذا الحساب هناك وإلى هذه الدقة في الهندسة والحساب البديع، واقرأ بقية شرح الحساب هناك ثم ارجع إلى أول المقال. فأول المقال أنه ليس عندنا شيء إلا هذا الماء وهذا الهواء وهذا الحديد، ثم انظر هذه التنوعات في الجذور وفي السوق وفي الأوراق وفي الأزهار وفي النتائج وفي حساب الأوراق على الساق ونظامها وأعدادها ودوائرها. هذا معنى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ [النمل: ٦٠]، وكيف نبت شجرها ونحن إذا لاحظنا نظام الجذر لا نلاحظ نظام الساق ولا الزهر ولا الفاكهة ولا حساب الأوراق. فهذا كله حاصل ولا يختل عمل بسبب مزاحمة الآخر له.

هذه الملاحظات الثمانية التي ذكرتها لك أيها الذكي في الحدائق والأشجار وسائر النبات متى تأملتها وجدتها شرحاً لعلم الفلسفة القديمة والحديثة.

وقبل أن أذكر آراء الفلاسفة أقدم القول في الحدائق فأقول:

اعلم أن الحدائق ذات البهجة على قسمين: حدائق في البر وهي معروفة، وحدائق في البحار عرفها الناس في أيامنا هذه، وذلك باختراع آلة عبارة عن غرفة يمكن الغوص بها على أعماق بعيدة في الماء، وتتصل بالسفينة بواسطة أنبوبة تحمل الهواء، ومن مزاياها أن حركتها يميناً وشمالاً لا تتنافى مع حركة السفينة وسيرها، وهي تتسع لرجلين أحدهما يتولى إنارتها وإنزالها وإصعادها، والآخر للقيام بتصوير المناظر، ثم هي مزودة بنظارة يبلغ قطرها مترين وسمكها سنتيمترات كثيرة بحيث يمتد منها البصر على مساحة واسعة. ذلك إلى أنها تستخدم لعكس الأشعة وتسهيل استكشاف المناظر.

وقد استطاع هذا المخترع وهو «المستر ويليام سن» المشهور باستكشافاته البحرية أن يرتاد في غرفته هذه مياه جزائر «البولينيز» وأن يشاهد من عجائبها ما أثار دهشة العلماء. فمما ذكره أنه رأى من النباتات المتباينة الألوان ما يشبه أجمل الحدائق فوق اليابسة، وأن هذه الحدائق تسكنها حيوانات مختلفة الأنواع. فمنها حيوانات رخوة وذوات أصداف لم تكن معروفة حتى الآن، وهي تتطاحن وتتنازع أكثر من تطاحن حيوانات اليابسة وتنازعها. وأغرب ما ذكره المستر «ويليام سن» أن من هذه الحيوانات ما يشابه النبات في شكله، ولكنها حيوانات ضارية إذ تنقض على الأسماك التي ليست من نوعها فتفترسها، ثم كان من أثر مشاهداته أن كشف لنا ظاهرة عجيبة وهي أن الأسماك الكبيرة كالنوع الذي يسمونه وحش البحر أو كلب البحر ليست على ضخامة جسمها أشد الأسماك فتكاً وأكثرها خطراً، فحياتها هدف لسمك صغير له أسنان حادة ينهشها به ثم ينفث في جسمها مادة سامة تقتلها ساعتها.

وشاهد المستر «ويليام سن» معركة بين فصائل مختلفة من السمك تنوعت فيها الأسلحة والآلات، فكان من هذه الآلات المركبة في جسم الأسماك ما يشبه السيف، ومنها ما يقرب شكله من المنشار، أما أضعف هذه الأسماك فهو ما كان يحمل في جسمه شوكة يطعن بها خصمه. انتهى من مجلة الجديد.

## تطبيق المذاهب الفلسفية في جميع الأمم على نظام النبات

(١) قام في اليونان «تاليس» بأكثر من خمسة قرون قبل الميلاد، فقال أصل العالم الماء، لماذا؟ لأنك رأيت الماء داخلاً في النبات والحيوان.

(٢) ثم قام بعده «أنكسيمانس» فقال: كلا، أصل العالم الهواء.

(٣) ثم قام «أنكسيمندر» فقال: أنا لا أعتبر إلا المادة العامة، فأما الماء والهواء فما هما إلا فرعان. ومثله «ديموقراطيس» إذ رجع إلى الجزء الذي لا يتجزأ، وقد أخذ به علماء الأشعرية من أمتنا الإسلامية.

(٤) ثم قام فيثاغورث وقال: لا أيها الناس كلا. ثم كلا. ما لنا وللماء والهواء والمادة، أصل هذا العالم إنّما هو العدد والحساب لأني رأيته منظماً.

(٥) فقال «أنكساغورس»: كلا. أيها الناس هل يكون الحساب بلا حاسب والنظام بلا منظم، هناك عقل يعقل هذا العالم.

(٦) ثم جاء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس فقالوا بإله منظم للعالم.

هذا ملخص مذاهب اليونان وتبعهم الرومان وقامت أوروبا فلم يخرج مفكروهم عن هذه الآراء، فأما أهل الهند فإني رأيت في كتاب «راجا يوقا» أن قوماً منهم أشبه بـ«تاليس» ومن معه لا يرون للعالم صانعاً وهم «السنخ»، وقوم مثل «أنكساغورس» يرون له عالماً به، وآخرون يشبهون أفلاطون ومن معه، فـ«اليوجيون» يقولون: إنه عالم بما لا نهاية له ومعلم لكل عالم في العوالم كلها، والذين يتبعون كتاب «الفيدا» يقولون: هو عالم وصانع للعالم كله جزئيه وكليه مستدلين بالنظام الموسيقي.

وبناء على ذلك أصبحت عقول أهل الغرب وأهل الشرق ترجع إلى ما تراه الآن في هذا النبات. فأهل السيخ في الهند وتاليس ومن معه في اليونان لم ينظروا إلا إلى ما أمامهم كما ينظر العامي في هذا النبات ولا يفكر إلا في المادة وحدها، فأما اليوجيون في الهند وأتباع الفيدا وهو الكتاب المقدس عندهم فإنهم لاحظوا ما هو أعلى من حيث نظام الأوراق والأزهار وحسابها، كما لاحظها أفلاطون وسقراط وشرحاها جيداً كما نقلته عنهما في رسالتي التي سميتها «مرآة الفلاسفة»، فقالوا بأن للعالم إلهاً نظمه وهو حكيم مبدع، إذن مسألة النبات التي شرحتها هنا قد شرحت أدوار الفلسفة في الشرق والغرب، وقد أصبح ما كان من الفلسفة عسر الفهم؛ عويصاً على العقل، مشتتاً للفكر، موجباً للإلحاد، للجهل الفاشي ولصعوبة الكتب، مشاهداً بالبصر سهل الفهم شارحاً للصدر قريباً من العقل يفهمه المتوسطون.

أما أنا فإني أحمد الله عز وجل إذ وقفت على هذه المذاهب واختصرتها هنا وطبقتها على النبات واستبان بهذا أن الناس في مشاهدة هذا العالم أشبه بالعميان الست الذين شاهدوا الفيل وكل حكم عليه بما وقع تحت حسه، فاقرأه في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الآية: ٥٣]. ومن أدرك ما كتبته الآن ووقف على تفصيله في غير هذا المكان فإنه لا محالة ينظر لاختلاف مذاهب الفلاسفة في الغرب، والشرق في عصرنا نظر البصير إلى الفيل وقد سمع العميان الست يدرسونه، ولكل رأي فيه وهو من آرائهم يسخر، وقد عرف أن كلاً منهم قال بعض الحقيقة، أما هو فقد وقف عليها وهو من الموقنين. انتهى الكلام على المطلب الأول في قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل: ٦٠].

## المطلب الثاني: في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾

أقول: لقد تقدم رسم القارات كلها في سورة «النور» فارجع إليها هناك وانظرها مع الحدائق البهجة والنبات والحيوان.

## المطلب الثالث والرابع

## في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾

فالمطلب الأول هو النبات، ولما كان النبات لا بد له من قرار أتبعه بالمطلب الثاني، ثم أتبعه بما كان سبب إنباته فذكر الأنهار، والأنهار لا تكون إلا بالسحاب والمطر والثلج الذي يكون في الجو تارة وتارة يقع على الجبل فينزل الماء في داخله ويخزن فيه فتنبع منه العيون ويمد الأنهار في الأوقات المختلفات، فانظر في سورة «النور» وتأمل هذه المطالب هناك، فإنك تجد في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ [النور: ٤٣] الخ، صورة السحاب الذي ليس بمركوم، والسحاب المركوم، والسحاب

الذي يخرج منه الودق، وهكذا ترى الثلج الذي هو كالجبال في الجو الذي يخلق البرد فيه وهو معرض لوصول الهواء الحار إليه فيرجع مطراً، وهكذا جبال الثلج التي تحفظ فوق الجبال مثل جبال الألب المرسومة هناك، وهكذا الثلج الذي يكون فوق الجبل ويرى نازلاً منه في النهر كنهر الرون الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط كما يصب فيه النيل الخارج من خط الاستواء من البحيرة المسماة بحيرة فكتوريا، فهذه الثلوج وهذه الجبال تراها مرسومة في تفسير تلك الآية فلا حاجة لإعادتها هنا.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل: ٦١] فانظره في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ [الآية: ٥٣] الخ. اهـ.

## المطلب الخامس في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

وهذا أمر لا يعرف إلا بالوجدان، ولكل حيوان ولكل إنسان في الأرض شؤون تخصه لا يعرفها غيره، والله أمده بإمداد خاص وأنقذه من خطر هو أدرى به وحده، ولكل ذي نفس مع ربه سر لا يدركه سواهما، ويظهر لك في مثالنا أنك تراه نوع غصن الكرمة فجعله محلاقاً، وقد تقدم رسمه، ونوع ورقة البازلاء فكانت كذلك كما تقدم، ونوع غصن البرتقال فصار شوكاً لحفظ النبات، فهو قد راعى ما يحتاجه البرتقال من الحفظ وما تحتاجه البازلاء والكرمة من المحاليق لترتفع بها على غيرها فأمدها، فهو إذن يحافظ على الجزء كما يحافظ على الكل، ويراقب الورقة الصغيرة ويفعل فيها ما تقتضيه المصلحة. فهذا نظير إجابة المضطر إذا دعاه. هذا ما فتح الله به في هذه الآيات، كتبته ليلة الاثنين ١٥ أبريل سنة ١٩٢٩.

## البهجة في: ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾

أكتب هذا صباح يوم الخميس ٦ يونية سنة ١٩٢٩ إذ كنت متوجهاً لزيارة بعض الأصحاب في شارع الصليبة الموصل بين ضريح السيدة «زينب» إلى القلعة، فبينما أنا أسير إذ رأيت أمراً غريباً، رأيت منظراً جميلاً وحديقة بهجة في الجهة الشرقية لجامع ابن طولون، ذلك المسجد الذي أسس منذ نحو مائة وألف سنة فوق جبل «يشكر»، ولقد كنت قبل اليوم أرى هذا المسجد حوله مبان قذرة وبيوت ضئيلة كأنها الأكواخ، مشهدها يقبض النفوس ويجلب البؤس، وهذا القبض والبؤس بسبب تلك القاذورات والحيوانات الذرية والرطوبات المنتشرة، التي تكون سبباً في المرض وفساد الصحة وضعف الأجسام والنفوس والأخلاق، ولقد مضت لي شهور وشهور لم أمر من هذا الشارع.

إن حكومتنا المصرية لما لها من الاتصال برجال الغرب أرادت أن تجاريهم في تحسين القاهرة وتجميلها فاشترت تلك البيوت الحقيرة وغيرها وهدمتها وصنعت في محلها هذه الحديقة، فاستوقفت نظري ولم أشأ أن أندفع في المسير حتى أتأمل هذه الحديقة. المسجد فوق الجبل والشارع منحط عنه بما يزيد على ١٢ متراً، فبناء عليه جعل هذا المنحدر الذي هدمت البيوت المبنية فوقه حديقة ظريفة مكونة من سبع قطع متجاورات: القطعة الأولى: جهة الشارع في أسفل المنحدر بيضاوية الشكل يحيط بها سور من الحديد قد زرعت حشائش تكون طول السنة مخضرة ويسمونها «قازو» وفي وسطها روضة ظريفة صغيرة مزروعة أشجاراً أوراقها طويلة أزهارها كبيرة محمرة يسمونها «كنه» أو سنبل، وهذه الروضة الصغيرة أيضاً بيضاوية الشكل كمدار الكواكب كلها فإنها بيضاوية، ويحيط بها أشجار السرو

الجميل، وكل هذه إنّما اختيرت لأنها مخضرة طول العمر لا يتحات ورقها، ولا يطمع الناس في أكل ثمرها، فكأن الإثمار يضيع رونق بعض الأشجار وينهك قواها فلا تبقى على رونقها طول السنة.

هذه هي القطعة الأولى، والقطع الست الباقية كلها مستطيلات الشكل يحيط ببعض سورها شجر يسمى «توية» أخذوا هذا الاسم من اللغات الإفرنجية التي جلبوا هذه الأشجار منها. هذه هي الحديقة التي رأيتها. وأنا الآن أراك أيها الذكي تقول لي: لقد وصفت حديقة لا قيمة لها، وفي الدنيا حدائق جميلة بهجة، وهذه بالنسبة لها أثر بعد عين أو عدم بالنسبة للوجود.

فأقول: أنا لم أكتب هذا المقال لأسمعك هذا الوصف. كلا. بل إني أريد أن أذكر ما خطر بنفسي حين رأيت هذه الحديقة، تذكرت أن هذا المكان كنت أسكن منذ ٢٠ سنة بالقرب منه وما كان له هذا الرونق، فتغيرت الحال، فقلت في نفسي: هذه أجسامنا التي نعيش بها نرى الله يقلبها من حال إلى حال ثم يهدمها ويحدث غيرها، فإذا رأينا الأرض الملاصقة لمسجد ابن طولون لما هدمت بيوتها ظهر لها رونق جديد هكذا فلتكن أجسامنا بعد أن تهدم تظهر أرواحنا بمنظر جميل شارح للصدور، وهذا الخاطر ليس هو المقصود الأول من هذا المقال، بل المقصد الأهم من هذا هو تذكير المسلمين بقوله تعالى: ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ﴾[النمل: ٦٠].

ما هي البهجة هنا؟ يظن الجهلاء وصغار العلماء أن البهجة في مناظر الحدائق وظواهرها، مع أن خضراء الدمن أي تلك الحشائش التي تنبت في الأماكن المستقذرة تكون ذات بهجة أيضاً. كلا. إن المدن إذا ازدحمت بالسكان وتراكمت فيها الأقذار ضاقت الأنفاس فيها وتعذر على الناس القيام بأهم شؤونهم لما يتخلل شوارعهم وأزقتهم من المزابل والأتربة والقمامات والقاذورات فتنبعث منها الروائح الكريهة وتكثر الحميات وتضعف الأبدان، ولا يبقى في المدن إلا أناس قويت أجسامهم فتحملت هذه المهلكات فعاشت، والأمم مادامت جاهلة لم يظهر فيها مفكرون ترضى بهذه الحال وتعتقد أنه لا مفر منها وأن هذه هي الحال العامة، وليس هناك خير منها فيجوس الوباء خلال الديار فيجرف الأجيال جيلاً بعد جيل والناس لا يعقلون. فأما إذا تخللت الحدائق المدن كهذه الحدائق هنالك يتجدد الهواء وسط المدينة، فكأن المدينة بهذه تنفست بعد أن كانت لا تنفس لها. وبيانه أن النبات بينه وبين الحيوان اشتراك فعلي في الحياة، فالإنسان والحيوان يخرج الكربون «الفحم» من أنفاسهما ويأخذه الهواء ويوصله إلى الأشجار، ومعلوم أن أوراقها أشبه بالرئة فتأخذ من الهواء المادة الفحمية الآتية من أنفاس الإنسان والحيوان وتعطي الهواء مادة الحياة التي يسمونها الأكسوجين، وتقول أيها الهواء: خذ مادة الحياة هذه وسلمها بسلام إلى إخوتي وأخواتي: الإنسان والحيوان، فيحمل النسيم تلك التحية ويسير إلى أن يوصل إلى تلك المادة وهي «الأكسوجين» إلى الإنسان والحيوان فيتنفسان بها، أي يجذبانها من الهواء ويدخلانها في المادة الدموية فتنظفها وتعطيها قوة الحياة فيكون الدم شريانياً بعد أن كان وريدياً.

فأنا إذا وقفت أمام هذه الروضة الصغيرة كنت كأني أسمع تلك الأوراق والأشجار والأزهار تخاطبني بهذه المعاني، وتقول: قل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها: لماذا كانت مساكنكم في مصر ومراكش والجزائر وتونس والعراق وغيرها أقل رونقاً وبهيجة وتنبعث منها الروائح الكريهة؟ أجهلتم العلوم ونبذتم العلماء؟ أم لم تفهموا قول الله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ﴾[النمل: ٦٠]

فهذه البهجة التي تظهر في رونق الأشجار والأوراق تنبعث منها لنفوسكم بهجة وحياة، فتكون هناك سعادة القلوب وانتعاش المدن وقلة الوباء وارتقاء الأمم.

فهاأنا ذا أكتب هذا للمسلمين فأقول: قد بلغت اللهم فاشهد. فلما كتبت هذا حضر صديقي العالم، فقال: هذا كلام حسن، ولكن ما معنى قولك: قد بلغت اللهم فاشهد، هل أنت بلغت ديناً؟ وهل الحدائق ذات البهجة يجب أن تتخلل المدن الإسلامية حتى تقول: ألا هل بلغت اللهم فاشهد. هذه قالها النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ولكن قالها في أمور هامة وهو حفظ الأنفس والأموال والرفق بالعبيد وبالنساء. أما هذا الذي تقوله فلا هو في العير ولا في النفير، وإنّما أنت رجل رأيت حديقة في مكان كنت تسكن قريباً منه وكان مكاناً مزدحماً بالسكان قذراً فأصبح مكاناً جميلاً فأثر في خيالك، هذا أول الأمر وهذا آخره.

قلت: يا صاح اسمع. ألست ترى بعد هذا البيان أن فيه حفظ الأنفس وصحتها؟ قال: بلى. قلت: ومتى صحت الأنفس كثرت الأموال؟ قال: بلى. قلت: أليس من هذه الأنفس النساء والعبيد؟. قال: بلى. قلت: أو مصدق أنت بالقضايا العلمية التي ذكرتها لك؟ قال: نعم. قلت: إذن فقد الصحة وحصول الوباء المتكرر في البلدان يميت نساء وعبيداً وأطفالاً ورجالاً، ولكن هذا الموت ليس بالسلاح المعروف وإنّما هو بسلاح آخر أرسله الله لأهل الأرض لجهلهم، فيحصد الأرواح حصداً، أفلا تتذكر أن هذه المباحث فروض كفايات؟ قال: بلى. قلت: وتركها إثم على الأمة كلها؟ قال: بلى. قلت: ولذلك يعم المرض ولا يخص وكذلك الوباء. كل ذلك عقاب على ترك فرض الكفايات. قال: نعم. قلت: فماذا تريد بعد هذا البيان؟ أليس في ترك هذا الإصلاح هلاك الأنفس الذي حذر منه صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى. قلت: إذا وصلنا للمقصود ودخل هذا الموضوع في نفس الحديث المذكور وصار الإثم خاصاً بمثلي ومثلك، فإذا لم نقنع الناس إقناعاً تاماً فإنهم لا يعلمون، فافهم ما قلت وفهمه للناس، أفلا يحق لي أن أقول: قد بلغت اللهم فاشهد. قال: لقد أقنعتني بحسن بيانك «إن من البيان لسحراً». فقلت: الحمد لله رب العالمين.

## اللطيفة الثانية: في بهجة الحدائق

هذه الآيات باب نلج منه لندخل أبواب الحدائق الغناء والحقول الخضراء والبساتين البهجة المدهامات، وهذه ذكرى لما كان ديدني أيام شبابي، ومشربي في أول حياتي، ولوع بالأشجار والأزهار والزروع والأعشاب، أجلس على حافة الأنهار وعلى شطوطها وفي المزارع وتحت الأشجار، وأسمع تغريد طيورها وغوير أعشابها ورنين حشراتها، وأرى مستقرها ومستودعها، وكم كنت أطرب لمرأى جمالها وبديع نظامها وتفنن أوراقها وبدائع أغصانها وترنح فروعها وبهجة حسنها. ولقد كان يخيل إلي أنها مراقص فاتنات ومغان مرنحات ذات معان مبهجات. وكأنما تغريد أطيارها وغوير أعشابها ورنين حشراتها وهي تردد في الجو أفانين ألحانها وعجائب نغماتها وبدائع هزجها ورملها جماعات من الموسيقين الفنيين، يضربون على دفوفهم ويغنون على أعوادهم، وقد برعوا في فنونهم وانتظموا في صفوفهم فأبهجوا السامعين.

هذه كانت حالي أيام الشباب لا سيما إذا جن الليل وأرخى سدوله ونظرت الراقصات الحسان والناعسات الطرف، المضيئات دياجي الظلمات، الباسمات الثغور الشارحات الصدور الداعيات إلى جمالهن أجمل العقول وأكبر النفوس وأن هلموا إليّ وأقبلوا علي. إن ابتسام الزهر وافترار الثغر وبهجة الورد واعتدال القد وحمرة الخد كلهن مشتقات من بسماتي وبهجة أنواري ومحاسن إصداري وإيرادي فلا تقصدوا إلا إليّ ما تعولوا إلا عليّ، وارفعوا النفوس إلى العلا وأنتم مبتهجون.

كانت هذه قصة خيالي في مبدأ حياتي في الرياض المشتبكات والحقول الخضرات، فهل كان يجيش بقلبي أو يمر بخاطري ما ظهر الآن وبهر من عالم الحشرات وغنائها، وأن تلك الحدائق والحقول كان فيها تلك المعاني حقيقة لا مجازاً وحساً لا خيالاً، وهل كنت أعلم إذ ذاك أن من أنواع الحشرات ما بلغ التعاون بينهما مبلغاً عظيماً، وأصبحت حضارتها أبلغ في الحقيقة من حضارة الإنسان.

إن هناك نظاماً يفوق الوصف في تلك المخلوقات، قد قرأته في سور كثيرة لا سيما في هذه السورة، مثل أن العلماء راقبوا النمل فوجدوا الواحدة منها تصل شواربها بشوارب الثانية فيحصل هناك ضجة كبيرة في تلك الجماعات. إنها متعاونات، إنها متحدات، إن بينها تخاطباً بطريق التلغراف الذي لا سلك له، كيف لا وقد أدهش العلماء أن رأوا جماعات منها تقطع الأميال في الليل لتنقذ حشرة وقعت أسيرة، فمن أخبرها؟ وأي واسطة للتبليغ غير ذلك؟.

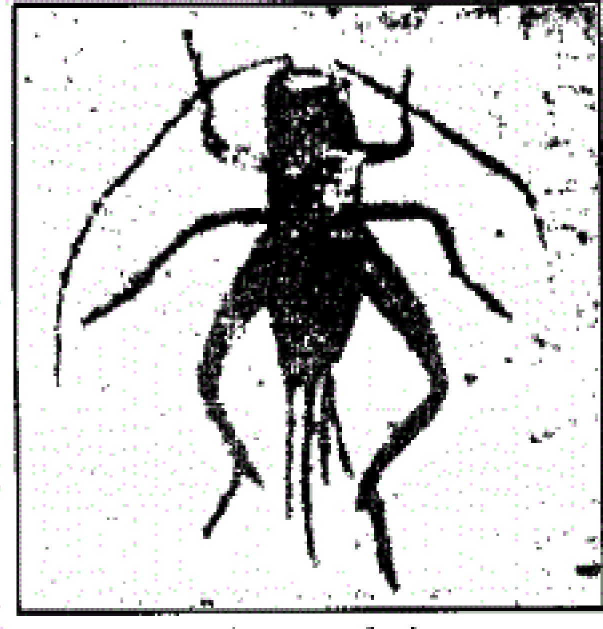
يظن العلماء أن لها لغات لكن لا نسمعها. وقد أثبتوا أن لها مغاني وآلات طرب بقسميها، وهما ذوات النفخ كالمزمار وذوات النقر كالطبل. مثاله «السيكادا» وهي نوع من الذباب الكبير، فإن له طبلاً ينقر عليه كطبل الإنسان، وهذه صورته (شكل ٤٠).



(شكل ٤٠)
رسم ذباب كبير له طبلة
يحدث بها صوت الموسيقى

وهكذا هناك حشرة تفرغ جذع شجر الهليون أو غيره فتجعله كالطبلة فيسمع لذلك صوت مستمر. وهذه صورة الجدجد وغناؤه معلوم. (شكل ٤١).

وهناك الخنفساء التي تعزف بطريق خاص بها وتشد عضلات الرجلين المقدمين والرجلين المؤخرين فيظهر بينهما غشاء رقيق مشدود فتعزف عليه ويظهر لها صوت جميل مثل «الناي»، أليس هذا هو عين قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨].



(شكل ٤١)
صورة الجدجد «الصرصور»

أليست الخنفساء القبيحة المنظر التسعة لها ما لنا من أنواع الموسيقى والغناء والألحان ، فهاهي ذه المماثلة لم تقتصر على حال دون حال ، بل وصلت إلى الزينة ، وهي نوع الموسيقى التي كنت أتخيلها في الحقول وما هي بخيال ، بل كان الوجدان يقتطف ويختطف ذلك الفرح وتلك البهجة من بين الأعشاب ، ويلقيها إلى نفسي فأتخيل النغمات وإن كنت لا أسمعها ، وأستطرف تلك المعاني وإن كنت لا أدركها .

## مغاني النمل

وهل كان يدور بخلد أحد من أهل العلم قبل الآن أن للنمل آلات موسيقية ، وأنها تحك بأجسامها في أوراق الأشجار ، فتحدث صوتاً في بعض الغابات يسمعونه على بعد عشرين قدماً ، وبين كل نملة وأخرى مسافة معلومة ، فتحدث هناك نغمة خاصة ، ويكون البدء وتكون النهاية في وقت واحد وهذا جهاز التنفس في الحشرات والغشاء الرقيق الذي يحدث الصوت . (انظر شكل ٤٢ وشكل ٤٣) .



(شكل ٤٢ )
جهاز التنفس في الحشرات والغشاء الرقيق الذي يحدث الصوت

(شكل ٤٣ )
رسم الخنفساء الوغلية وهي طائرة

إن أجنحة الحشرات تتحرك بسرعة تفوق الوصف بل تصل إلى (٣٥٠) مرة في الثانية في الحشرة المسماة بالزجاجة الزرقاء ، وليست موسيقى الحشرات كلها بالنقر أو الاحتكاك . كلا . بل منها ما له جهاز تنفسي كجهاز الإنسان . يقول علماء الحشرات : ما من نوع من أنواع الحشرات إلا وله نغمات خاصة به ، وإذن قوة الإنسان لن تقدر أن تدرك ذلك ، وقد قطعوا الأمل أن يدركوا ذلك بآلات ، لأنهم يقولون : «إن الإنسان أدق نحو مليون مرة من أشد الآلات العلمية إحساساً» .

بهذا نفهم قوله تعالى : ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[النمل : ٦٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات : ٢٠-٢١] . أفلست أنا أيها الذكي على حق إذا قلت وأنا في تلك الحقول أيام الشباب : إن النجوم الباسمة الثغر ليلاً تقول هلموا إلي لأن أرضنا فيها معان بديعة عجيبة قد استبهمت علينا فشوقتنا إلى المعرفة العامة في الأرض وغيرها ، وبالمعرفة تكون السعادة ، ومتى طرنا من هذه الأرض أدركنا جمالاً أرقى ومحاسن أبهى والسلام . انتهى .

وأقول أيضاً : هل كان يخيل إلي وأنا في حال الشباب جالساً في الحقول كما قدمت آنفاً أن هناك شجرة تسمى «شجرة السائح» نقلاً عن مجلة الجديد ، وها هي ذه (انظر شكل ٤٤) .

(شكل ٤٤)

شجرة السائح في حديقة النباتات في « جورجتون » عاصمة غيانا البريطانية ، وهي تحتوي دائماً على كمية كبيرة من المياه النقية الصالحة للشرب ، فإذا ثقب أحد الفروع يتسرب الماء من الفتحة بقوة وكل فرع به مخزن مستقل من الماء

أم كان يخيل إلي أن هناك عواطف للحب بين أنواع الحيوان والطير كما ترى من مغازلة الطاووس لأنثاه (شكل ٤٥) .

فلقد جاء في مجلة الجديد أيضاً ما نصه :



شكل ٤٥
رسم مغازلة
الطاووس لأنثاه

## مغازلات الحيوانات والطيور وهدايا العشاق

تقدم الأستاذ «جوليان سوريل هكسلي» بجامعة أكسفورد إلى الجمعية العلمية الإنكليزية بأبحاث هامة أثبت فيها أن كل الطرق والإجراءات التي يتفنن في عملها الذكور والإناث من بني الإنسان لاستمالة القلوب موجود ما يماثلها من كل وجه بين الحيوانات والطيور، فإنه يكون بين الجنسين فيها المغازلات والغناء والرقص وتقديم الهدايا إلى آخر ما يصير بين المحب والحبيب، وليس ذلك قاصراً على الأنواع العليا. فالأستاذ «هكسلي» يثبت أن بعض الحشرات تتعطر بروائح الثمار والأزهار كي تكون محبوبة، ومن المعروف أن كثيراً من الطيور والحيوانات حتى الأنواع الزاحفة منها تعرف أغاني الحي وتكثر منها لاستمالة القلوب.

## حب العنكبوت المبصر

ويرى الأستاذ «هكسلي» أن لكل نوع من الحيوان طرقه الخاصة به حسبما يتفق مع تكوينه، فالعنكبوت مثلاً قسمان: قسم يتجول ويصطاد فريسته، وقسم يتخذ بيوتاً من النسيج الدقيق الذي يغزله ويرى أن العنكبوت الأخير لا يبصر، فللعاشق منه طريقة غير التي يتبعها العاشق من النوع الأول، فالعنكبوت المتجول الذي أبصر عنكبوته من نوعه أخذ يدنو منها بأرشق حركة، ثم إذا صار أمامها يأخذ في الرقص حولها بكل مهارة ودقة، حتى إذا وجد أنه أثار ميلها إليه ألقى بجسمه أثناء رقصه فوق جسمها وقد تسبقه هي باحتضانه فيرقصان معاً نحو مائة دورة قبل اتصالهما العنيف الجنوني.

## حب العنكبوت الأعمى

وأما العنكبوت الأعمى وهو الذي يتخذ البيوت الخيطية، فإنه يعبر عن عواطفه في الحب بطريقة أخرى غير الرقص، لأنه لا تراه حبيبته حيث يدنو من بيت معشوقته بكل مهارة، كأنما هو روميو تحت شرفة جولييت، فلا يحطم لها خيوط البيت ولكنه يهز أحد الخيوط برشاقة وينقر عليه بخفة وبطريقة خاصة تفهم منها العنكبوتة أن الطارق هو روميو لا ذبابة، وهذه الإشارة الأولية لا بد منها وإلا فإن المعشوقة العمياء ربما حسبته فريسة وأكلته، وقد يجيء العنكبوت حاملاً إلى حبيبته فريسة من اللحم المختار ملفوفة في خيوط من الحرير على سبيل الإهداء، فإن تقديم الهدايا ليس خاصاً بالإنسان، بل هو غريزي في بعض أنواع الحيوانات والطيور، ويوجد نوع من الذباب يصنع الذكر منه «باقة» من الأزهار الدقيقة ويقدمها للأنثى ليشعرها بحبه، وذلك بأن يخرج إفرازاً يصنعه على شكل فقاقيع صغيرة ويجمع قطعاً من أوراق الأزهار ويلصقها عليها، فإذا صنع باقته كذلك وضعها على رجله وقدمها لحبيبته.

## حب الفراش

ومن البديهي أن تأنق الطبيعة في زخرفة الفراش بأبهج الألوان الجذابة لم يحصل عبثاً، فلا بد من أن تطورات الانتخاب الطبيعي لاختيار النوع الأمثل كانت على أشد حرارة بين هذه الحشرات. وهل معنى ذلك إلا اشتداد العواطف الحارة بين الذكور منها والإناث. على أن أنواع الفراش لا تقنع باستمالة العشيقات ببهيج الألوان، فتجمع إلى ذلك التعطر بأريج الأزهار كما هو مشاهد عند العلماء الذين يشمون عند دراسة أنواع الفراش ما تحمله أجسامها من الروائح العطرية المختلفة.

## غناء الحشرات

وليس الإنسان وحده الذي يرسل زفرات فؤاده بالألحان والأنغام، فإن أقل الحشرات تعبر عن وجدانها وتستميل عشيقاتها بالغناء، ومنه ما تسمعه أذن الإنسان كما في الجدجد والناموس وغيره، وقد يكون أهم سبب له إشعار الإناث بوجود الذكور أي الإعلان عن أنفسها.

## دموع التمساح

وقد يضرب المثل بدموع التمساح دلالة على أنه بعيد عن التأثر بالعواطف الرقيقة، ولكن علماء التاريخ الطبيعي الذين درسوا حياته في مواطنه الطبيعية يرون أنه شديد التأثر بميوله وعواطفه الجنسية إلى درجة الجنون، فهو يثور ثورة يكاد ينفجر منها إذا أغضبته الأنثى.

## الحب بين الطيور

ويقرر العلماء أن حياة الطيور تكاد تكون موقوفة على مناورات الحب والاستمتاع به، ولكل نوع منها إجراءات وطرق عجيبة لإيجاد الاتصال بين الذكور والإناث. وذهب بعض العلماء إلى أن أرقى مثل للزواج بين بعض أنواع الطيور حيث يجعل الذكر كل أعماله لإسعاد الأنثى وهي راخمة على بيضها في العش دون أن يتألم من أية مشقة في إعالتها وإعالة أفراخها الصغار، ويرى الدكتور «لودلو» العالم الأمريكي أن تغريد الطيور مكون من ألفاظ غزلية وسواها حسبما تشعر به من الانفعالات والميول الجنسية نحو بعضها، فهو في الحقيقة لغة عواطف الطير، ويرى الأستاذ «هكسلي» أنه من الخطأ البين حتى بين رجال العالم أن تجعل كل الانفعالات النفسية حقاً مقرراً على الإنسان وحده، وتترجم ظواهر هذه الانفعالات في الحيوان والطير من هذه الناحية وحدها، في حين أن الحقيقة والأمر الطبيعي أن تعتبر هذه الانفعالات من غرائز الكائنات الحية، وأن الإنسان المتسلسل منها محتفظ بنصيبه منها مثل أي كائن حي.

وصفوة القول إن الصفات الحسية والعواطف المختلفة التي استأثر بها النوع البشري حيوانية قبل أن تكون إنسانية، ولم تبلغ درجتها الحالية إلا بعد أن تطورت فيه وفي أسلافه من أقدم العصور حتى هذا العهد. اهـ من مجلة الجديد.

## بهجة الإبصار في أوراق الأشجار

لما كتبت هذا واطله بعض العلماء عليه أخذ يحادثني قائلاً: لقد ظهر لي جمال العلم والحكمة في شجرة البرتقال وشجرة الكرم والتنوع فيهما، ولعمر الله لقد أنعشني وأبهج قلبي أن أرى المحلاق في شجرة الكرم وأرى الشوكة في شجرة البرتقال وأن لهما مزية ظاهرة، مع أن أكثر هذا النوع الإنساني لا يعرفون من الشوك إلا أنه خلق لمجرد الإيذاء، وأن هذا المحلاق وجد اتفاقاً، فهذا القول يفتح لنا مجالاً للتبصر والبهجة، هذا من العجب العجاب، فهل تتوسع لنا في هذا الموضوع حتى إذا تفيأنا ظلال الحدائق الغناء شرحت صدورنا بأوراقها وأزهارها وتباين أشكالها وتفنن أثمارها وتقول:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

ونرى في الزهر والنبات ما يراه علماء البديع في تعليم المبتدئين قول الشاعر يصف مجاهداً قتل في الحرب:

تردي ثياب الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وهم فرحون طربون طرباً لفظياً في ذكر الحمر والخضر وما يزاولونه مما يسمونه الجناس في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[الروم: ٥٥]، من اتفاق لفظ الساعة في الموضعين واختلاف المعنيين، وهكذا مما هو معروف مشهور، فقلت: سهل ما بدا لك في أنواع الزهر والورق، فقال: لقد انبهم علي السر فيما يأتي:

(١) ورقة القصب والذرة والقمح. (٢) ورقة البازلاء وورقة الورد.
(٣) ورقة الحناء. (٤) ورقة المشمش مثلاً.
(٥) ورقات الفجل والخروع. (٦) ورقات العدس والترمس.

هذه الورقات مختلفات اختلافاً بيناً، فهل تشرحها لي شرحاً يشرح صدري شرح الله صدرك كما انشرحت وطربت لمعرفة السر في شوكة البرتقال ومحلاق العنب. فقلت: أذكر لك ما أعلمه في هذا المقام على مقتضى أصول علماء النبات.

اعلم أن الله عز وجل قد أبدع في نظام هذه النباتات إبداعاً لا حد له، وما إبداع الناس في تركيب كلامهم ولا تزويقهم لصنوف عباراتهم إلا قبسة من أنوار الجمال الأعلى، ولكن أنى يستوي السابق والضليع.

** ليس التكحل في العينين كالكحل **

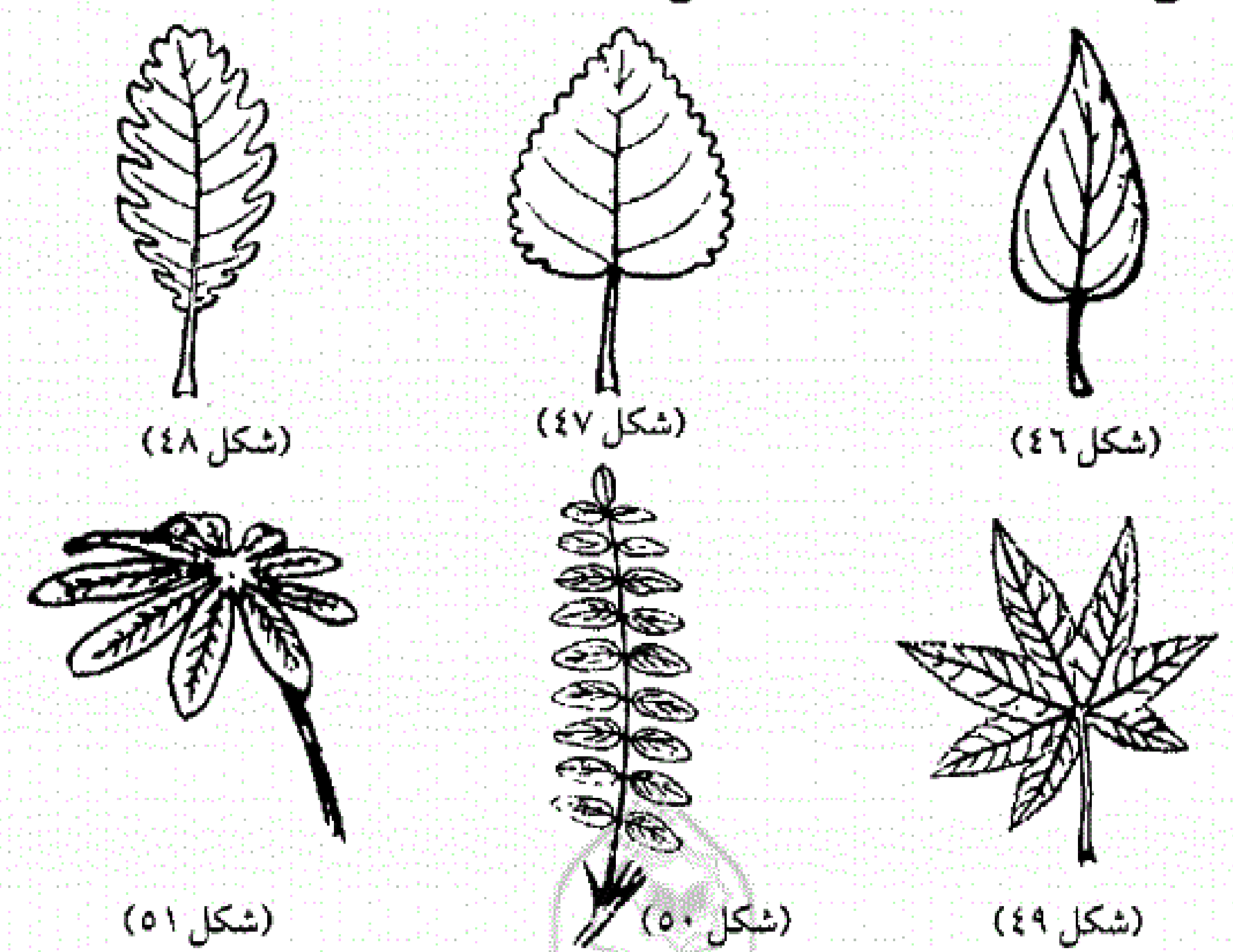
ففي الطبيعة التي أبرزها الله لنا من الجمال ما يبهر الأبصار ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن الإبداع عام في أوراق النباتات وفي أزهارها وفي أثمارها. والإبداع في الأوراق نوعان: النوع الأول: في نفس تكوين الأوراق. النوع الثاني: في نسبة بعضها إلى بعض.

## الكلام على النوع الأول: وهو تكوين الأوراق

اعلم أن الله عز وجل أرسل لنا من لدنه نورين: نوراً حسياً، ونوراً معنوياً عقلياً، وضرب النور الحسي مثلاً للنور العقلي، فكما أننا نرى الشمس واحدة وقد عم نورها الآفاق وأشرقت بها الأقطار ولم تذر نباتاً ولا حيواناً ولا صغيراً ولا كبيراً إلا نشرت عليه ملاءة من أنوارها وهي واحدة، هكذا نرى أنه هو واحد، وقد بعث من لدنه نوراً عقلياً وحكمة قدسية هندست خلق الأوراق والأزهار بحكمة وإتقان بحيث يراعي في ذلك أن يظهر جميع الممكنات، فكل ممكن في الوجود يبرزه. وبعبارة أوضح أنه كما نوع منافع الأشجار والزروع نوع ظواهرها، فهذه التي ذكرتها فيها الحبوب كالقمح والذرة والبازلاء والعدس، وفيها الفاكهة كالقصب والمشمش، وفيها الخضراوات كالفجل، وفيها الدواء كالخروع، وفيها الزينة كالروائح العطرة في الورد والأصباغ الجميلة في الحناء.

ولا جرم أن ما نحتاجه إما ضروري كالحبوب، وإما كمالي كالفاكهة والخضر، وإما دواء كالخروع، وإما زينة كالحناء والورد. فهذه التي ذكرتها جمعت نموذج ما نحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا، فهذا النوع الموافق لحاجاتنا بالحكمة والتدبير يقابله تنوع في ظواهر الأشكال بحيث يشمل كل ما يمكن حصوله في العقل. إن عقولنا لا تتخيل في الورق إلا أحد هذه الصور: أن تكون حافتها مستوية لا أسنان فيها، أو أن تكون فيها أسنان صغيرة، أو أن تكون الأسنان كبيرة لا تبلغ نهاية الورقة، أن تكون الأسنان بالغة نهاية الورقة، فهذه الأنواع الأربعة وجدت في هذه الأوراق التي ذكرتها، فمثال الأول

ورقة الحناء (انظر شكل ٤٦)، ومثال الثاني ورقة المشمش (انظر شكل ٤٧)، ومثال الثالث ورقة الفجل والخروع (انظر شكل ٤٨ و٤٩)، ومثال الرابع ورق العدس وورق الترمس (انظر شكل ٥٠ و٥١).



(شكل ٤٦) (شكل ٤٧) (شكل ٤٨)

(شكل ٤٩) (شكل ٥٠) (شكل ٥١)

ومن العجب أن النبات ذا الفلقة الواحدة كالقمح غالباً نرى ورقته لها عروق متوازية. وأما النبات ذو الفلقتين كالعدس والترمس فإن ورقه غالباً ما يكون مشبهاً هيئة الريش كورقة العدس أو مشبهاً راحة الكف كورقة الترمس، ثم إن هذه الأوراق كلها لها أعناق وتلك الأعناق إنّما خلقت لها لترفعها عن الأغصان حتى تلاقي ضوء الشمس وتتمتع بالهواء، ولولا هذه الأعناق لبقيت جاثمة على أغصانها، فهذه الأعناق الرافعة لها إنّما خلقت لهذه الحكمة ولولاها لم تخلق، ولذلك ترى ورق القرطم لا عنق له، بل الورقة حينئذ يسميها علماء النبات جالسة لجلوسها على مستقرها، إذ لا حاجة إلى انفصالها عنه لأنها متمتعة بالهواء وبالضوء بلا حاجة إلى ما يرفعها. ثم إن هذا العنق الذي يرفع الورقة ربما احتاج إلى ما يحفظه، ومعلوم أنه لا بد منه للورقة، والورقة نافعة للشجرة، لأن الورقة أشبه بالرئة في الحيوان، بها يكون ما يشبه التنفس فيه، فهي بما فيها من المادة الخضراء «الكلوروفيل» تنقل غاز الكربونيك من الهواء فتحلله، وتأخذ الكربون «الفحم» وتطلب الأكسوجين في الجو فيذهب للحيوان، إذن هذه الأوراق لا بد منها لحياة الشجرة، ولذلك اقتضت العناية أن يرفعها ذلك العنق، فتقابل الهواء والنور ليتم فعلها فتأخذ من الهواء الغاز، وبغير النور لا تقدر على عملية التنفس. وقد جاء في كلام علماء الفقه: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، فإذا وجب وجود هذا العنق ليتم عمل الورقة واحتاج إلى ما يحفظه فليصنع له ما صنعه الناس في حفظ رقابهم من حوادث الجو. إن الناس يضعون على رقابهم أربطة في بلادنا وفي أكثر بلاد العالم لتقيهم الحر والبرد، ورقابنا لا بد لنا منها


(شكل ٥٢)

فتحفظها، كما أن رقاب الأوراق لا بد منها لها، لذلك اقتضت الحكمة الخفية أن عنق ورقة البازلاء وعنق ورقة الورد يخلق لهما ما يسميه علماء النبات «أذنين»، وهما إما كبيرتان كما في البازلاء (انظر شكل ٥٢)، وإما صغيرتان كما في الورد، وترى الحماية لعنق ورقة السنط بالسلاء، ثم إن العنق إما محيط بالساق كما في القمح والقصب والذرة فهو أشبه بالغمد، وإما غير محيط به بل لا ضخامة فيه كالكتان. فهذا جواب ما سألت عنه.

إذن ظواهر هذه الأشجار قد أخذت الأشكال التي يتصورها العقل، وبواطنها تنوعت إلى ما نحتاج إليه في حياتنا، فالظواهر والبواطن في النبات توجب علينا دراستها لتحيا أجسامنا وترقى عقولنا. انتهى الكلام على النوع الأول في نفس تكوين الأوراق صباح يوم الجمعة ١٩ أبريل سنة ١٩٢٩.

## النوع الثاني: نسبة الأوراق بعضها إلى بعض

وهذا تقدم شرحه مع رسم بعض الصور في سورة «الحجر» عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الآية: ١٩] فلا نعيده.

وأما الكلام على الأزهار فقد تقدم أيضاً في أول سورة «الشعراء» وفي أول سورة «الحجر» وفي سورة «الأنعام» فليراجع.

## ذكرى الجمال والحكمة ومخاطبة المؤلف لصانع العالم بمناسبة عجائب الأوراق المرسومة فيما سبق

في هذا اليوم الأحد ٢١ إبريل سنة ١٩٢٩ بعد كتابة ما تقدم أخذت نفسي تحدثني كأني أخاطب صانع العالم قائلاً: يا الله إني وجدتك لم تذر صغيرة ولا كبيرة في هذا العالم إلا دبرتها ونظمتها، أضأت شمسك وأنرت قمرك ونجومك وأرسلت أشعتها على الأرض، ولم يغادر هذا النور المحسوس صغيرة ولا كبيرة إلا أضاءها، هذه شمسك الجميلة لم يكفها إرسال النور على السيارات حولها وعلى الأرض، بل شمل نفعها الذرات والحشرات كما شمل الأنعام والإنسان، ووجدتك أنت حبوت بالتدبير الممالك الصغيرة والكبيرة الحيوانية والنباتية من حيث عمومها، ولم تذر حشرة ولا حيواناً ذرياً إلا أكملت خلقه، ولا نباتاً صغيراً ولا كبيراً إلا أحكمته، ويزيدني دهشاً أن أرى بعيني ورقة الورد وورقة البازلاء وورقة السنط محميات محفوظات مكفولات في كنفك، فأعطيت الأولى حافظاً لها يقيها، والثانية حافظاً لها أقوى، والثالثة أعنتها بشوكة تقيها العاديات. حكم لا يفطن لها الناس يمرون عليها وهم عنها غافلون، من ذا الذي كان يظن أن الحكمة والعناية تصل إلى ورقة السنط الضعيفة وأختيها، من ذا الذي كان يعقل أن هذه الزوائد والرواقد على البازلاء والورد وضعت لمنفعة.

اللهم إنه لولا الحجاب المسدول بيننا وبينك لظهر نورك البديع فأحرق الأجسام والقلوب والأفئدة، هذه النفوس الأرضية قبسة من نورك، وقد حجبتها في المواد الطينية، فهي الآن في غفلة ولولا

الغفلة لم تعش طرفة عين ولم يستقر لها قرار، إني لأحس في نفسي بأن في هذه الأرض أناساً منا نحن قد اطلعوا على الحقائق، فرأوك في كل ورقة وشجرة وزهرة وحجر ومدر وكوكب، فعاشوا في النعيم الذي لا نعيم يوازنه ولا سعادة تضارعه، وهؤلاء لو تزينت لهم الحور العين وأغدقت عليهم سائر النعم وملكوا الجنات والولدان لم يأبهوا بها ولم يطربوا لها، بل يرون نورك الذي بهرهم أعظم سعادة وجمال، وأن احتجابه عنهم أشد العذاب.

أقول هذا موقناً به، وهذه الطائفة التي تصورتها تصبح اليوم في نعيم، وإن كانت في هذه الديار لا تشتاق إلى حال أرقى مما وصلت إليه، لأنها ترى رب الدار وتقول: «الجار قبل الدار» ولا يروقها إلا وجهك.

إن في الأرض أناساً تمت سعادتهم قبل دخول الجنان ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[المائدة: ١١٩].

أقول هذا لمشاهدته في هذه العوالم، ولما عرفته أثناء هذا التفسير من إبداعك في صنعك ورأفتك بكل ضعيف وكفالتك للذرات والحشرات وصغيرات الأوراق والأزهار وإلهامك لكل حي ما يصلحه، والآن فهمت قولك: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾[الطارق: ٤]، وقولك: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾[هود: ٥٦]، وقولك في قصة قارون: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ﴾[القصص: ٧٦] الخ وقولك: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾[القصص: ٧٧]، وقولك: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]، وقولك: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾[القصص: ٧٨] الخ، فأنت لا تحب الفرحين، وأنت لا تحب المفسدين، ولا تحب الذين يريدون علواً في الأرض، وتأمرنا بالإحسان للناس كما أحسنت إلينا، وذلك كله تجلى لي في هذه الورقات وإبداعك فيها، أنت راعيت أضعف الورق في السنط وفي الورد وفي البازلاء، فهكذا أنت تراعي كل إنسان من باب أولى، ويصيبه الخير والشر فلم الفرح ولم الحزن إذا لم يكن هناك عمل إلا عملك أنت، ولا فرح إلا بما يعمله الإنسان مستقلاً ولا عمل له في الحقيقة. والمفسد في الأرض خالف منهجك الذي رأيناه في رعايتك هذه الورقات، والعلو على الناس خلاف سنتك، فأنت تحفظ هذه الورقة كما تحفظ الشمس والقمر والإنسان، وضوء شمسك لا يتكبر على الخنفساء مثلاً ويختص بالإنسان، فعلى الناس أن يقتدوا بك في عملك.

وهذه الزروع والأشجار قد تركت للناس ثمارها فأحسنت لهم كما أنك أحسنت إليها، أفلا يجب علي أن أنشر بين الناس هذا الكتاب وغيره اقتداء بعملك وسيراً على منهجك، إنك أنت الحكيم العليم.

أيها الذكي هذا هو الذي قرأته في هذه الورقات فاقرأه معي وأحسن كما أحسن الله إليك.

واعلم أن الله عز وجل لا يكره منا إلا حب العلو وحب الفساد، أما نفس العلو فهو أمر واجب كأن يكون الإنسان حاكماً أو أستاذاً، واليد العليا خير من اليد السفلى. ومعلوم أن المعطي خير من الآخذ، ولكن لا يرى أن له فضلاً في ذلك بل يعلم أنه لله. وإذا قهرنا أعداءنا وجب أن لا يكون ذلك لمجرد الانتقام، بل يكون ذلك لإصلاح أهل الأرض كما كان ذلك دأب الصحابة في محاربة الأمم فلم يكن انتقاماً، بل كان عملاً يراد به الإصلاح، كما أن الله يزيل نبات الصيف ويجعل محله نبات الشتاء

للإصلاح لا للفساد في الأرض. هكذا فلتكن أعمال الناس. هذا ما تذكرت عند نظر هذه الأوراق المرسومات، والحمد لله رب العالمين.

## سعادة مؤلف التفسير وسعادة قرائه

هذه هي السعادة التي كنت أنشدها بين الحقول والأشجار وعلى شواطئ الأنهار وأنا شاب وفتى. كنت أنشد الحقيقة والحقيقة هي نفس السعادة، ما هي الحقيقة التي كنت أنشدها؟ كنت أريد أن أعرف ما وصل إليه عقل الإنسان في معرفة هذا الوجود. فهأنا ذا اليوم أعلن أن ورقة السنط وورقة البازلاء وورقة الورد وآلافاً أمثالها في الأرض والسماء قد أعطت نفسي الإيمان الذي أيقنه أفلاطون وأرسطاطاليس وقبلهما سقراط من أمة اليونان. والإيقان الذي أيقنه مؤلف كتاب الفيدا بالهند. والإيقان الذي أيقنه «كانت» الألماني و«سبنسر» الإنجليزي ومئات غيرهم. هاهم أولاء كلهم قد وصلوا إلى نقطة واحدة هي ما ذكرته الآن في هذه الوريقات. أيقن أفلاطون. بماذا أيقن؟ أيقن بمبدع للعالم لأجل هذا النظام، وبعده «أرسطاطاليس» وقبله «سقراط»، وتغلغل مذهب «أفلاطون في عقول المفكرين من أمم النصارى والمتصوفين من أمم الإسلام وفي أمم غيرهم، وتقابل هذا المذهب مع مذهب الفيدا في الهند ومع آراء أمم أوروبا الحالية، أي: العقول الراقية هناك ومع وحي جميع الأنبياء. إذن أنا الآن أعلن أني اكتب متفقاً مع أكبر العقول في الأمم قديماً وحديثاً، ولهذا الإجمال تفصيل في رسالتي المسماة «مرآة الفلسفة» وسأكتبها في هذا التفسير إن شاء الله تعالى. اهـ.

هاهنا نرجع للتفسير اللفظي، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾[النمل: ٦٧] الخ، هاهنا ذكر الله أقوال الكفار والرد عليهم في أمر الآخرة.

(١) يقول الكافرون: كيف تخرج نحن وآباؤنا بعد أن أصبحت أجسادنا تراباً؟ وكيف يصير التراب أجساداً؟.

(٢) إن هذه المواعيد قد سمعها آباؤنا من قبلنا، وما هي إلا أحاديث الأقدمين يتحدثون بها في سمرهم ومحاوراتهم، وليس لها حقيقة.

(٣) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالنظر في الأمم التي كذبت، فلقد كذبوا فلما كذبوا أهلكوا.

(٤) ذكر الله أنهم يستبطئون العذاب الذي وعدهم به، ذلك أنه أمرهم بالاعتبار بالأمم السالفة فكأنهم قالوا: وأين العذاب الواقع بنا كما وقع بهم؟ فأجاب قائلاً: عسى أن يكون تبعكم ولحقكم بعض ما تستعجلون منه كيوم بدر، وكالمصائب التي تحل بالناس في أموالهم وأولادهم وفي مدنهم وفي منازلهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[التوبة: ٥٥]. والعذاب على قدر الإحساس، وما دام الإنسان غافلاً يظن أن هذه الحياة هي كل شيء، فليعلم أنه يعذب بكل حادث حل به لتعلقه بهذا العالم وارتباطه به، فبقدر الارتباط يكون العذاب، فيحزن لفقد المال والولد ولكل طارئ يطرأ لغفلته، فهذا هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[النمل: ٧٢].

(٦) ذكر أن الله ذو فضل على الناس، فإنه غمرهم في النعمة وهم لا يشكرونها.

(٧) ذكر أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويعلم ما غاب في السماوات والأرض.

(٨) والقرآن أيضاً من علمه تعالى، فهو يقص على بني إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه، وهو هدى ورحمة للمؤمنين، وبعد ذلك خاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ ﴾[النمل: ٧٨] الخ.

## تفسير بعض الكلمات في هذه الآيات

من قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[الآية: ٦٧].

إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٧٧].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ من قبورنا أحياء والعامل في «إذا» ما دل عليه ﴿ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ وهو نخرج، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث، وهذه الجملة تبيان لعمههم وازدياد ضلالهم وجهالتهم، ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل وعد محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ هذا تهديد لهم على التكذيب وتخويفهم بأنه ينزل بهم ما نزل بالمكذبين قبلهم ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم، فإن الله يعصمك من الناس ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ العذاب الموعود ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ تبعكم ولحقكم، و«اللام» مزيدة للتأكيد ﴿ بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حلوله وهو ما تقدم من عذاب النفوس والمعاملات وإزعاج الأمم، كل ذلك يكون قاسياً على النفوس ما دامت مغرمة بالدنيا، فإذا كانت نزاعة إلى الشرف والفضيلة والعلم وحب الله خف عنها ما تجده في الدنيا وزال عنها في الآخرة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

واعلم أنه لا شكر للنعمة إلا بعد إدراكها وفهمها، ومتى فهم النعمة شكر الله بقلبه واعتقاده وقام بالعمل لطاعته وأثنى على الله بلسانه، وكيف يشكر نعمة هو يجهلها، فالحمد لله فيما تقدم والشكر له هنا يوجبان درس هذه العوالم المذكورة فيما تقدم، ولتعلم أن الإمام الغزالي ألف باباً من أبواب الإحياء في شكر الله تعالى وذكر فيه درس العلوم، ومتى فهمت هذه السورة ومقاصدها عرفت أن شكر المسلم لن يكون إلا بدراسة هذه العلوم والعوالم وعجائبها، وهؤلاء الكافرون لجهلهم بالله قصروا علمهم على هذه الحياة وأنكروا سواها. ولو أنهم درسوا هذا الوجود لعرفوا أنه لم يخلق سدى، وأن هذه الحياة لو لم تكن هناك حياة بعدها لكان ذلك نقصاً في الخلق أو الحكمة، فما الحكمة في خلق الناس وموتهم بلا فائدة لهم. إن ذلك نقص مشين في خلق العالم وفي الحكمة. فالوقوف عند الحياة الدنيا إخلال بالعلم وبالشكر لله وجهل به، وكفى بالجهل كفراً بنعمة الله وعدم شكره، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: ما تخفيه صدورهم وما تعلنه من عداوتهم له ليجازيهم ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: خافية فيهما وغائبة، وخافية من الصفات الغالبة، و«التاء» فيهما للمبالغة كما في رواية، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ يبين لهم ﴿ أَكْثَرَ

ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين وقد كان بنو إسرائيل يختلفون في التشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم المنتفعون به ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِۦ ﴾ بما يحكم به وهو الحق، أو بحكمته ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء منها ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فثق بالله ولا تبال بمعاداتهم ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره فلا ناصر لك سواه، أما هم فلا طمع في مشايعتهم ومعاضدتهم لأنهم كالموتى وكالصم والعمي ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لأنهم لا ينتفعون باستماعهم ما يتلى عليهم ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ دعوتك إلى الحق والهدى ﴿ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ معرضين ولا جرم أن الأصم إذا ولى مدبراً قطع الطمع في إسماعه برفع صوت أو نحوه ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ إلى الهدى حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ إلا من يصدق بالقرآن إنه من الله ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون، من: أسلم وجهه لله، ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: إذا وجبت الحجة عليهم أو إذا لم يرج صلاحهم بالطرق المعروفة في آخر الزمان ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة». وورد فيه أيضاً: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً». ولم يرد في الصحيح على ما أعلم ما ذكر من صفاتها من أن معها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الحق ليجتمعون فتقول لهذا يا مؤمن، وتقول لهذا يا كافر، وأن اسمها الجساسة، وطولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان، ويقال لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير الخ، وأنها تخرج من الصفا، فكل ذلك لم أره في الصحيح وإنّما نعرف من صفاتها ما ورد في الصحيح كما تقدم، فإنه لم يذكر إلا زمن مجيئها، ولم يرد في القرآن إلا قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ تكلمهم من الكلام بأن الناس الخ، وعلى قراءة كسر «أن» يكون المعنى تكلمهم قائلة: إن الناس كانوا بآيات ربنا الخ، ثم ذكر قيام الساعة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي: واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ «من» للتبيين و«من» الأولى للتبعيض ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون إلى موضع الحساب، والمراد بذلك كثرة عددهم، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ حضروا موقف الحساب ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾ «الواو» للحال، أي: أكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها لتعلموا أبالتصديق أم التكذيب هي جديرة ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: أيّ شيء كنتم تعملون بعد ذلك؟ وهذه الجملة تبكيت لهم إذ لا عمل لهم غير التكذيب ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ حل بهم العذاب الموعود

وهو دخولهم النار بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه لجعل الإبصار حالاً من نفس النهار، يقول الله: ألم يبصروا تعاقب الليل والنهار وكيف جعلنا الظلمة والنور متعاقبين في أوقات محددة، أليس ذلك دليلاً على عظم قدرتنا ووجودنا، أوليس نوم الناس في الظلمة واستيقاظهم في النور مما يدل على أن لهم حالاً بعد الموت مخالفة وذلك بالحياة؟ أليس الموت كالنوم ليلاً والبعث كاليقظة نهاراً، أوليس تسهيل المصالح باليقظة دليلاً على عناية تامة بهم يوم يبعثون فيعطى كل ما يليق له كما يفعل ذلك بعد اليقظة تماماً؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لدلالتها على الأمور الثلاثة المتقدمة وحدانية وبعث وعناية بالمصالح بعد البعث كما يفعل في اليقظة ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ قيل: هو جمع صورة. ويقال: الصور القرن، فهو تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق. يقول الله: واذكر يوم ينفخ في الصور ﴿ فَفَزِعَ ﴾ من الهول، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه ﴿ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ ماتوا، أي: يلقي عليهم الفزع إلى أن يموتوا ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن لا يفزع بأن يثبت قلبه.

ورد في حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من رفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلي؟». وهناك أقوال فيمن استثناهم الله كالملائكة الأربعة وكالشهداء والحور والخزنة، والعلم عند الله، ولا نثق إلا بما يجيء في الصحيح. ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ جاؤوه بعد النفخة الثانية ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين. ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ قائمة واقفة ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتسوى بها، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو مضمون الجملة المتقدمة ﴿ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي: أحكم خلقه وسواه ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ عليم ببواطن الأفعال وظواهرها وهو المجازي عليها ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ من عشرة إلى سبعمائة وما فوق ذلك ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ أي: من خوف عذاب يوم القيامة، وإن كان الرعب المتقدم عند مشاهدة الأهوال لا بد منه، مع أن المحسن آمن من وصول ضرره إليه ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ بالشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي: أبدانهم، أي: كبوا وطرحوا جميعهم في النار ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الشرك، أي: تقول لهم الخزنة ذلك، ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ الله، بعد أن ذكر المبدأ والمعاد وشرح الدول والممالك والقيامة والفزع والثواب والعقاب وهذا تمام الدعوة، أمر أن يستغرق في العبادة وتخصيص مكة بالإضافة لتشريفها وحرمتها ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ وأن أواظب على تلاوته لتتكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ باتباعه إياي ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فإن منافعه عائدة إليه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بمخالفتي ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا

أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ ولا يضرني ضلاله وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة والعلم والتوفيق للعمل ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في هذه الدنيا من الوقائع التي أخبر بها القرآن، كنصر النبي صلى الله عليه وسلم، وكظهور عجائب الكون وغرائب علم الأرواح والكشف الحديث في العلوم الذي أدهش العقول ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ فتعرفون أنها آيات الله، ولقد عرف كثير من الناس في أوروبا وفي الشرق ربهم واليوم الآخر بقراءة علم الأرواح أو باستحضارها وبالاطلاع على عجائب العلم الحديث وظهور حقائق مدهشة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فإن الله عالم به غير غافل عنه، فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه. انتهى التفسير اللفظي.

## لطائف هذا القسم

(١) في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[النمل: ٨٢].

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾[النمل: ٨٨] الخ.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾[النمل: ٩٣].

(٤) وأن في هذه السورة شكرين لسليمان عليه السلام وحمدين لنبينا صلى الله عليه وسلم وما سر ذلك.

(٥) وفي تلخيص كتاب الشكر إجمالاً للإمام الغزالي في الإحياء وتذكير المسلمين بهذه العلوم.

## اللطيفة الأولى: من كتاب الأرواح بالحرف

ومما يدهش العقلاء أن القرآن ربما أشار بطرف خفي إلى حادثة ظهور الأرواح في هذا الزمان في آية: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[النمل: ٨٢]. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾[النمل: ٨٢] أي: شارف الوقوع، وهو قرب قيام الساعة، وحقت كلمة العذاب على نوع الإنسان، فجهلوا المعنويات، وعكفوا على الماديات، وكذبوا الديانات، وشكوا في الآيات، وأصبحوا لا شرف لهم في حكوماتهم ولا أفرادهم، ومرنوا على الكذب والنفاق، وازدادوا بالعلم عمى، وبالفلسفة ظلماً، أخرجنا لهم من الأرض من يطرق الموائد ويحركها، ويمسك الأقلام في أيديهم ويكتب، ويتراءى لهم في أشكال وأزياء مختلفة ووجوه نورية، فتراه أبصارهم تارة ويسمعون كلامه، وطوراً يبصرون أشكالاً، وتارة يقرؤون خطوطاً، وآونة يسمعون صريراً وصوتاً شديداً كالرعد القاصف، وقد يحسون ببرودة تمر عليهم، ثم تتحرك الأيدي بالكتابة، فكان في عمله أشبه بمن يدب على الأرض من الإنسان في تعقله وعمله، وبما يجري فوقها من الدواب في حركاتها وأعمالها الأخرى فهذا يشير له معنى قوله: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[النمل: ٨٢] وهذه الدابة تبين للناس حقائق، وتدرس لهم حكمة، وتريهم أنهم غافلون جاهلون ضالون، فيجلس أمامها أكبر الضالين وأعظم الفاسقين وأشد الغافلين، ومن يدعي أنه ملك مقاليد العلم، وبرع في الحكمة المادية، فيخر ساجداً لربه، خاضعاً لخالقه، موقناً أن روحه ستبقى بعد موته، فهذا معنى: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾[النمل: ٨٢]، وقرأ ابن مسعود: «تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون». وهذا هو الحاصل الآن بعينه، وهذه معجزة للقرآن وحكمة ثابتة للفرقان، فإن الآلاف المؤلفة من البشر اليوم في أنحاء العالم

يوقنون إذا تحققوا مذهب الأرواح، وليس الإيمان بكاف، بل اليقين هو أكمل الإيمان، فتعجب من الآية، وانظر كيف كان هذا مظهرها، وهي مسألة ظهور الأرواح، فالقرآن يشير إليها.

قال شير محمد: يا سيدي إن تفسيرك هذا يخالف ما جاء عن سيد البشر، وكيف نترك قول النبي ونسمع مقالك؟ أوليس النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بالكتاب منك؟ قلت: وكيف ذلك؟ قال: قال الفخر الرازي: إن لهذه الدابة أربع قوائم وزغباً وريشاً وجناحين.

وعن أبي جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير، وإنها تخرج من المسجد الحرام أو تخرج من الصفا، وقيل تخرج باليمن، ثم تخرج من بين الركن حذاء دار بني مخزوم. فقلت: يا شير محمد، اعلم أنه لا دلالة في الآية على ما روي، وقد قال الرازي نفسه: فإن صح الخبر فيه عن رسول الله قبل وإلا لم يلتفت إليه. وهو يريد أن الخبر غير صحيح. أقول: وقد بحثت في كتب الصحاح فلم أعثر على هذا الوصف للدابة، على أنه لو صح فرضاً لدل على أنها مخالفة لكل حيوان. فقال: ولكن كيف تقصرها على مسألة الأرواح وأنى لك هذا؟.

فقلت: يا شير محمد، أنا لم أقل إن هذا هو المعنى، ولكن أقول: إنه رمز له وإشارة، فالآية باقية على ظاهر معناها ترمز إلى ما ذكرنا، فالدابة باقية على المعنى الأصلي نكل علمها إلى الله تعالى وتكون رمزاً لهذا، وهذا قسم من أقسام الكناية في علم البيان، فاللفظ على حاله يشير لما اقترب منه كما أوضحه الإمام الغزالي في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»، فقد جعلهما على حالهما ورمز بهما إلى الشهوة والغضب فافهم. فإذا فهمت هذا فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب، وقطع لسان كل معترض بعدك، فقد سدت في وجهه أبواب الجدال ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[الأحزاب: ٢٥]. انتهت اللطيفة الأولى.

## اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾

لأبين لك في هذه اللطيفة عجيبة من عجائب القرآن وهي أن هذه الآية بديعة الوضع محكمة الصنع، فإن التفسير يناسب المتقدمين من الأمة الإسلامية، وإذا فسرت بأن الأرض دائرة حول الشمس والجبال بالطبع سائرة معها ونراها الآن جامدة وهي في الحقيقة جارية جرياً سريعاً جداً، فإن ذلك يناسب قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٨٨]، فهذا هو الإتقان، وإلا فالقيامة تخريب للعالم، والإتقان يناسب هذا التفسير.

## حكاية

قد ذكرت في سورة «البقرة» أن سيدة روسية تسمى «المدام لبيديف» قد جاءت إلى مصر، وأقول الآن: إن وزير المعارف إذ ذاك قال لها لما سألته عمن يدرس معها علم التصوف: إن الشيخ طنطاوي له إلمام بهذا العلم، ثم إني لما اجتمعت معها في المنزل الذي نزلت به أخذت أدرس معها هذا العلم في الرسالة القشيرية نحو تسع سنين، وهي كانت بعد الفهم تترجمه إلى اللغة الفرنسية، واستمررنا في الكتاب وفيه حكايات كثيرة عن الصالحين، فقرأنا حكاية عن الجنيد رحمه الله تعالى، ذلك أنه كان في مجلس ذكر وهناك قوال ينشد، فطرب التلاميذ طرباً شديداً والشيخ ساكن لا يتحرك، فقال له أحد

التلاميذ: يا سيدي أليس لك حاجة في السماع؟. فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل: ٨٨]. فقالت: ما مناسبة هذه الآية في الحكاية؟.

فقلت: إن للآية معنيين: معنى يليق بالأمم الإسلامية التي قبلنا، ومعنى يليق بأيامنا، والقرآن يحتمل المعنيين، ولكن الثاني أقرب. فقالت: ما هما المعنيان؟.

قلت: أما المعنى الأول فإن الجبال يوم القيامة تمر مر السحاب لأجل أن تصل إلى الأرض فتسوى بها، ولعظم حجمها يراها الإنسان كأنها جامدة غير متحركة، وهذا يناسب مساق الآية.

وأما المعنى الثاني فهو أن الأرض تجري سريعاً والجبال ما هي إلا جزء من أجزائها فهي جارية تمر هي والأرض حول الشمس كما يمر السحاب حول الأرض، والدليل عليه قوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٨]، فعبر بلفظ أتقن لا بلفظ خرب كل شيء، لأن القيامة تخريب لا إتقان للصنع، وفرق بين الصنع والتخريب، وكأن الله أتى بالآية على هذا الشكل لتكون موافقة للعصور الأولى من حيث مساقها، ولهذه العصور من حيث نهايتها، ويكون فهم الناس هو الذي يخطئ ويصيب والحقائق باقية على حالها، وأما الشيخ الجنيد فلم يرد هذا ولا ذاك، بل قال إنه في سكونه أشبه بالجبل الذي هو متحرك ويظن الناس أنه ساكن، يريد أنه يرى ظاهره ساكناً ولكن قلبه متحرك في مشارق الأرض ومغاربها ويجول في المعاني العلية البديعة.

فلما سمعت هذا القول فرحت فرحاً شديداً وقالت: تعس الفرنجة يقولون ليس في القرآن لطائف ولا نكت بديعة، وهاأنا ذا أنقل لك المحاورة التي جاءت في كتابي «جواهر العلوم» الذي هو أول ما ألفته من الكتب العلمية، فقد جاء فيه ما نصه لأنه فيه زيادة فائدة.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٧-٨٨]. معلوم مما قدمنا في المجالس السابقة والمذاكرات أن علماء الهيئة قسمان: المتقدمون: وهم يوافقون ما يظهر للنظر العام من ثبوت الأرض ودوران الشمس. والمتأخرون: وتخالف هيئتهم ما يعرفه العامة فيحكمون بدوران الأرض حول الشمس. وهذا المقام قد أوضحناه سابقاً بما لا مزيد عليه، وقدمنا أن هذه كلها دائرة على الظن، وأن الثاني أقرب إلى الظن من الأول، وأن القرآن لم ينزل لتحقيق مثل هذه المسائل، لأنه جاء لما هو أجلّ من هذا.

إذ هذه الأشياء أقرب شبهاً إلى الصنائع، وقلنا: إن أشكالها على نوع الإنسان دعا إلى نمو الأفكار فهو المقصود، إذ هو في عالم التربية، ثم نقول الآن العجب كل العجب من وضع الآية التي نحن بصددها وضعاً متقناً على حسب ما قدمنا، وبيانه أن قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾[النمل: ٨٧] إلى قوله: ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾[النمل: ٨٧] أي: صاغرين، مسوقة ليوم القيامة. ثم قوله بعدها: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل: ٨٨] حملها العلماء على يوم القيامة، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾[الكهف: ٤٧] ولشدة عظمتها ترى كأنها واقفة، ولا ريب أن هذا التفسير يناسب من علقت في ذهنه الهيئة القديمة من أيام نقل الفلسفة اليونانية إلى الآن، فناسب ما قبل الآية وصدرها أول الأمة، وإذا نظر إلى قوله بعدها: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٨]

نجد أن خراب الأرض ينافي الإتقان، وإنّما الإتقان يناسب سير الأرض وجبالها، ثم يراها الإنسان مع شدة حركتها ساكنة لا تتحرك، فهذا هو الإتقان العجيب. وإنّما لم يقل: وترى الأرض، لأنها على هذا الرأي لا ترى إلا متحركة مع خروج الإنسان بالمرة عنها وهذا مستحيل في الدنيا، أما الجبال فرؤيتها ممكنة.

ثم انظر كيف تسير الأرض بتلك الحركة العجيبة حول نفسها وحول الشمس ونحن نراها ساكنة لم يحس أحد بحركتها من آدم إلى الآن، فهذا هو الإتقان وهذه هي الحكمة وهذا هو الوضع العجيب الذي جمع بين الحركة والسكون، ففيه تنبيه على أن العالم كله في حركة مستمرة مع أنه يرى في سكون، بل الإنسان يرى ساكناً مع أنه لا يقف فكره لحظة لا في اليقظة ولا في المنام، إذ قوته المخيلة لا تقف حركتها لحظة ولا تقف إلا بالموت، وهكذا الأمة في حركة مستمرة إما إلى صعود وإما إلى هبوط وإما إلى استمرار، فالصعود باختراع الجديد، والهبوط بهدم سور المدنية الحقة والاستمرار في الأمور الدنيوية على ما عودهم الآباء بلا فكر جديد، فالعالم كالعالم وكالإنسان والأمة في كل حركة مستمرة، ويرى في الظاهر كأنه ساكن دائم السكون.

ولم نذكر هذا على أنه تفسير للآية ولكن لمناسبة العالم بعضه بعضاً، وإنّما نحن في ذكر الجبال وأنها على الأرض وترى أنها ساكنة مع أنها على الهيئة الجديدة سائرة دائماً معها، وهذا هو غاية الإتقان. ويحق لنا أن نقول: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[النمل: ٨٨]، بعد ما ذكر. هذا ما خطر ببالي الآن، وإني لأعجب من هذا الوضع المتقن في الآيات، وكيف ناسب صدرها صدر هذه الأمة وعجزها متأخريها أي: العصريين المعاصرين للأوروبيين، فلم تصادم الآية مذهب السابقين وأشارت لمذهب المتأخرين ولعمري هذه هي الحكمة العجيبة جعل نظام كلامه كنظام ملكه، فما أتقن الفعل وما أحسن القول، سياستان متشابهتان ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الملك: ٣]. وعندي أن هذا وأمثاله هو الإعجاز والحكم، لا التأكيد بـ «إن» ولا الجناس والطباق ولا غيرهما، ألا فليتق الله العلماء وليبينوا للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون.

ومن عجيب الإتقان نفس هذه الآية فكفى بإتقانها وإحكامها برهاناً ساطعاً ومعجزة لمن درس العلوم وذاق لذة المعارف. ولعمري لا يعقل هذا إلا العالمون، فتأمل كيف ناسب مراعاة مذهب المتقدمين سابق الكلام ومذهب المتأخرين لاحقه، وكيف ثم كيف قال بعد أربع آيات في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]. اهـ.

## اللطيفة الثالثة في قوله تعالى:
## ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾

لأذكر لك ما كتبته في «جواهر العلوم» تحت عنوان: إن القرآن والسنة يتجدد إعجازهما كلما تمادى الزمان. والذي أعلمه من ذلك:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨]، بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل: ٨]. إذ لم يقل: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨] في القرآن كله إلا بعد ذكر ما يركب في هذه الآية وحدها، إشارة إلى ما سيحدثه في المستقبل من مدهشات ما

يركب ويسير بالرسائل من البخار والكهرباء والسفن الحربية والبالون والتلغراف بلا سلك أو به، وكل هذه إما حاملة رسالة أو وقراً وهي تختص بالدواب عادة، وقال أيضاً: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾[يس: ٤١-٤٢]، وقد وضح هذا في سورة «النحل» إيضاحاً تاماً.

(٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾[الفرقان: ٤٥]، وقد سكن الظل بواسطة الفوتغرافية.

(٣) الموازية في ذكر: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠]، بعد ذكر الشمس والقمر والأرض وجعلها بعد الشمس والقمر، وذلك لإجماع الأمم على حركتهما، وأما الأرض فذكرت إيناساً لمن يعتقد سكونها لوجود الفصل بالشمس والقمر ولمن يعتقد دورانها بدخولها في ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾.

(٤) ذكر السفن في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] بعد الكواكب والأرض، إشارة إلى أن الجميع من واد واحد، فالسفن في البحر كالشمس والقمر والأرض في الأثير، وهي المادة المالئة للفضاء، وكأن الكواكب كلها والأرض سفن في بحر الأثير، ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١].

(٥) ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[القمر: ١]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[الرعد: ٤١]، إشارة إلى ما قيل إن القمر انفصل من الأرض فنقصت وانشق هو منها.

(٦) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[الأنبياء: ٣٠]، قالوا: إن الشمس والأرض كانتا شيئاً واحداً فانفصلتا.

(٧) مادة العالم الأثير وهو مالئ للكون لم يعرف إلا بالعقل لدقته عن الحواس، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[فصلت: ١١].

(٨) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠]، اكتشف أن حواس الإنسان وأعضاءه كلها تراب صار نباتاً وحيواناً ودخل في الجسم فصار هو نفس الإنسان.

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[ق: ١٥]، قد اكتشف أن جسم الإنسان يتجدد في كل مدة نحو ثلاث سنين فتذهب مادته ويؤتى بدلها بالمواد النباتية والحيوانية فتصير بشراً سوياً منتشراً، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠].

(١٠) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾[المائدة: ٣]، قد كشف أن الخنزير منشأ الدودة الوحيدة، وقد تقدم رسمها والكلام عليها في هذا التفسير.

(١١) كراهة أكل لحم بعض البقر لأنه منشأ السل.

(١٢) وجوب غسل أثر الكلب سبعاً، فقد كشف أنه سم، ومثله الهر كما في بعض أحاديث الجامع الصغير.

(١٣) المستنقعات منشأ المكروبات القتالة للإنسان، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه»، فبالأول يزيد ضرره وبالثاني يصيب المغتسل بالمكروب.

(١٤) ورد في السنة أن الطاعون من وخز الجن، وقد ظهر أنه حقاً من الحيوانات المكروبية التي هي قسم من أقسام الجن في الحديث الذي في كتابنا «ميزان الجواهر» نقلاً عن الإحياء، حيث قال فيه وصنف كالهواء.

(١٥) الأمر بكثرة الاغتسال والوضوء، وهذا أعظم داع لعدم الدعاوى وامتلاء السجون، كما قاله العلامة «بنتام الإنجليزي» مشرعهم الشهير الذي درس علوم الأمم كلها، وقال: «من واظب على أغسال الدين الإسلامي لم يصدر منه ذنب ولا جريمة»، فالنظافة من محاسنه، كما استحسن أيضاً منع الخمر منعاً باتاً في جميع الكرة الأرضية وعده من محاسن هذا الدين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

(١٦) ظهور الازدواج في جميع النبات ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الرعد: ٣]، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧].

(١٧) ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢]، قد علم مما قدمناه أن الريح هي الملقحة لأكثر النبات.

(١٨) ظهور الجدري في أصحاب الفيل بالمكروب الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[الفيل: ٣] أي: متتابعة مجتمعة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل: ٤] أي: من الطين الذي يتماسك على سطح المستنقعات.

(١٩) ظهر أن كل شيء له مقدار محدود بالتحليل الكيميائي ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨].

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[النمل: ٨٧] الخ، تقدم قبل هذا.

(٢١) اعلم أن الأرض متزنة بالجبال ولولاها لاضطربت في سيرها، لأن الجبال والطبقة الصوانية تحفظ الكرة النارية أن تتصاعد فتختل الأرض، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥].

(٢٢) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾[الآية: ٩٦] قد تقدم في سورة «الأنبياء».

(٢٣) قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[المائدة: ٨٢]، ومعلوم في الأصول أن «الذين» اسم عام لا يخص من نزلت الآية بسببهم، وظهر في كل زمان ولا سيما هذا الزمان، إن كثيراً منهم يدخلون بسرعة في الإسلام بخلاف اليهود بإجماع فلاسفة الأمتين، وفي أمريكا العجب العجاب وكذلك في أوروبا، وسيأتي الزمان المستقبل بأعجب من هذا في الإعجاز، وقال تعالى لعيسى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ٥٥].

(٢٤) تشتت اليهود في أقطار العالم، وعذبهم الفرنساويون في الجزائر وغيرها، وطردهم الروس، وهم مبغضون في كل دولة، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأعراف: ١٦٧].

(٢٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥] قد أجمع علماء اليونان وأوروبا أن علم النفس إنما يكون بعد الرياضيات والطبيعيات، وهاك آخر ما وصل إليه البحث إلى وقتنا هذا من ترتيب العلوم، بحيث إن المتأخر لا يفهم إلا بعد المتقدم:

(أ) العلوم الرياضية . (ب) العلوم الفلكية . (ج) العلوم الطبيعية . (د) علم الكيمياء . (هـ) علم وظائف الأعضاء . (و) علم النفس والمنطق . (ز) علم الاقتصاد السياسي . (ح) علم تكوين الشعوب . (ط) علم تمييز الجمال . (ي) علم ما وراء الطبيعة ، ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح ، وأما علم النفس فإنّما هو ظواهرها لا حقيقتها . (ك) علم الأخلاق . (ل) علم الحقوق (م) العلوم السياسية .

فأنت أيها الذكي ترى من هذا أن علم الروح في المرتبة العاشرة مع العلم الإلهي المعبر عنه بما وراء الطبيعة أو الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى ، والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة العرب ولا ريب أنهم أبعد الناس عن هذه العلوم ، فلا يمكنهم فهم الرياضيات العليا فضلاً عن الروح ، فلذلك قال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥] أي : ولا يفهم الروح إلا من درس علوماً كثيرة ، وما أعجب قوله : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[الإسراء: ٨٥] إذ علم الروح وعلم الألوهية في الدرجة العاشرة .

(٢٦) قال عليه الصلاة والسلام : «صنفان من أمتي في النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يرحن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا» أخرجه مسلم . قوله : كاسيات عاريات أي : يسترن بعض أجسامهن ويكشفن بعضها ، أو يلبسن ثياباً رقيقة تصف ما تحتها فهن كاسيات ظاهراً عاريات حقيقة ، وقوله : مائلات ، أي : زائغات عن طاعة الله فلا يحفظن فروجهن ، وقوله : مميلات ، أي : مميلات الرجال إلى الفتنة ، وقوله : كأسنمة البخت ، أي : يكبرنها من المقانع والخمر والعمائم أو بصلة الشعر كأسنمة البخت ، انتهى من تيسير الوصول لجامع الأصول . وقد ظهرت تلك السياط بعد النبوة بأزمان وهو الكرباج . وأقول : فأما النساء الموصوفات بذلك فقد رأيتهن في زماننا .

(٢٧) ورد أن الذباب فيه داء وقد ظهر بالاستكشاف .

(٢٨) قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:٢٢٨] ، قد قارن علماء أوروبا بين النساء المتعلمات وبينهن حين لم يتعلمن ، فاستنتجوا أن المرأة كلما قدمها التعليم لتلحق الرجل أخرتها الحكمة الإلهية في القوة والإدراك والجسم ، فصارت على الثلث منه في مجموع قواها ، فكلما قدمهن التعليم أخرتهن الحكمة على مقدار ذلك ، لتبقى درجة الزيادة محفوظة بين الرجال والنساء ، وإلا لاختل النظام بتساوي الدرجتين ، ولذلك قال بعدها : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾[البقرة: ٢٢٨] أي : غالب حكيم فيما صنع . اقرأ المرأة المسلمة لصديقنا محمد أفندي فريد وجدي ، فقد ذكر هذا وأنه قامت قيامة فلاسفتهم الآن ينذرون قومهم الخطر .

(٢٩) إن الفونغراف داخل في عموم : ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[فصلت: ٢١] .

(٣٠) قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] أما آيات الآفاق فهي جميع ما استكشف في العلوم الحديثة في الأرض والسماء بعد أن كانت منحصرة في كواكب معدودة من السيارات وهي (٧) مع جهل الثوابت وعناصر محدودة ، فقد كشفت كواكب سيارة أخرى وعرف كثير من الثوابت وهكذا العناصر بعد أن كانت (٤) وصلت إلى نحو (٧٠) ، وأما آيات الأنفس فإن للإنسان جسماً وروحاً ، أما الجسم فأظهرته أشعة رتنجن التي هي عبارة عن أضواء شرر

الكهرباء المنحصرة في آلات تسلط على الجسم فتكشف الأعضاء من الداخل وتظهر الدورة الدموية من وراء الجلد واللحم والقلب والعروق، كأن هذه أجسام شفافة لا تحجب ما وراءها، مما يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقاً لقوله في هذه الآية: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ومعلوم أن «في» للظرفية، أي: الآيات المظروفة في نفوس النوع البشري، والمراد بها هنا ما يشمل الجسم. وأما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسي الذي تناقله الإفرنج عن الهنود. انتهى ما أردته من كتابي «جواهر العلوم».

## اللطيفة الرابعة: إن في هذه السورة حمدين وشكرين

اعلم أن سليمان عليه السلام شكر الله مرتين في هذه السورة: شكر دخل في ضمن الدعاء إذ قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾[النمل: ١٩] الخ، وشكر دخل ضمن قوله: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[النمل: ٤٠].

معلوم أن الله يستجيب دعاء الأنبياء في الأولى، فأما الثانية فإن الأنبياء أقرب الناس إلى الشكر إذا أنعم الله عليهم بنعمة، فاعجب كيف كان له شكران: أحدهما: على نعمة العلم. والثاني: على نعمة الملك. فأما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أمر من الله أن يحمده وأن يسلم على الأنبياء وكل مصطفى، بعد أن ذكر نعمة سليمان بالعلم والملك. ولما انتهت السورة أمر أن يحمده تعالى على أن أمته ستنال العلم والعرفان، وأن الله يطلعها على عجائب هذه الدنيا، هما حمدان، وأنت تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم يبعثه ربه مقاماً محموداً، والمقام المحمود مقام يحمد القائم فيه ويحمده كل من عرفه، فهو مطلق في كل مقام يتضمن كرامته وليس خاصاً بمقام الشفاعة، بل هو مقام أعم منه، ولذلك قيل أيضاً: إنه مقام يعطى فيه لواء الحمد. فهذا المقام أعم وعليه نقول إنه صلى الله عليه وسلم لما أمر أن يحمد الله ويحيي الأنبياء في هذه السورة، وأمر أن يحمد الله على أن الله يعرفنا آياته بعده، دل ذلك على أن هذا أيضاً مقام حمد يحمد فيه العالم على رقي أمته لأنها ستعرف هذه العوالم، ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[النمل: ٩٣]، وستكون لها القدح المعلى في العلوم الكونية، وتعرف علم الأرواح كما تقدم في قصة سليمان، والعلوم الطبيعية من حيوان ونبات، إلى آخر ما تقدم في هذه السورة، وعلم الفلك أيضاً كما عرفت، وستصبح أعلم الأمم وأحسنها نظاماً.

إن الحمد لا يكون إلا بعد معرفة المحمود عليه، والمحمود عليه هو النعم، والنعم جسمية وروحية وغيرهما، وجميع العلوم نعم، فمن جهل شيئاً فإنه لا يحمد الله عليه، وكيف يحمد على ما لم يعرفه. إن الحمد نوع من الشكر، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فمن قال الحمد لله فهو شاكر على نعمه، ويكون هذا الحمد على مقدار ما عرف من النعم الواصلة من الله إلى عباده، وهذا المعنى هو الموافق لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وظهور رحمته للعالمين أن يكون المسلمون أرقى الأمم في جميع فروع العلوم كما يقتضيه القرآن على مقتضى ما بينا في هذا التفسير، ويصبح المسلمون أقوى أهل الأرض علماً وعقلاً وحكمة وعدلاً، ويكونون رحماء بأهل الأرض آباء لهم.

هذا هو المقام الذي يحمد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا . فأما حمده في الآخرة فمعلوم ، فإذا رأينا سليمان صلى الله عليه وسلم أوتي حكمة وعلماً وملكاً وحسن سياسة فليكن أتباعه صلى الله عليه وسلم قائمين مقام سليمان في ذلك وفي غيره من عموم العلم والحكمة ، وليكونوا معلمين لكل الأمم مهذبين لهم .

إن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم أمر أن يحمد الله فهو له مقام محمود يحمد فيه ربه ويحمده كل من عرفه ، وأيضاً له الشفاعة ، ولا جرم أن هذين يستلزمان أن ترتقي الأمة الإسلامية وتكون نوراً لأهل الأرض في مستقبل الزمان ، ألا ترى أن الشفاعة تكون على مقتضى ما وصل للناس من علم ؟ وكذا الحمد يكون على مقتضى نعم ، وأهم النعم العلم .

إذن يكون لواء الحمد ومقام الشفاعة يرجعان لشيء واحد ، لأنه إذا حمد الله على نعمه وحمده الناس عليها فلا حمد إلا عن علم ، وإذا شفع للناس فالشفاعة على حسب مقتضى العلم ، والعلم فيهما يتبعه العمل ، إذن ينتج من ذلك أن هذه الأمة ستكون أمة علم أرقى من سائر الأمم ، فتكون محمودة لعلمها وعملها ، وحامدة لأن الحمد على نعمة العلم والعمل . انتهت اللطيفة الرابعة .

## اللطيفة الخامسة

قال الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام : ٩٠] ، وقد شكر سليمان عليه السلام على نعم العلم والملك ، فلنبحث في الشكر ، وقد أمرنا الله بالشكر ، فلنبحث فيه لما له من العلاقة بهذه السورة وبرقي الإسلام في المستقبل .

واعلم أن الشكر مطلوب ، قال تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة : ١٥٢] ، وقال : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران : ١٤٥] ، وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ : ١٣] . وقد جعل الله الشكر مفتاح أهل الجنة وهو : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾[الزمر : ٧٤] الخ ، ولا نطيل بذلك فالآيات والأحاديث كثيرة .

ولألخص لك بعض كلام الإمام الغزالي في هذا المقام ، لتعرف أن أمة الإسلام الآن لم تقم بالشكر ، ولما لم تقم بالشكر دخلها الفرنجة واحتلوا ديارنا ، فهل يعلم المسلمون أن العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والعمل بها هو شكر الله ، هل يعلم المسلمون ذلك؟ هل يعلم المسلمون أن ما ذكر في هذه السورة من عجائب النمل والهدهد وعجائب العفاريت والملائكة والعجائب التي عددناها كالأنهار والجبال والبحار والسماء والأرض والحدائق والأشجار ، هل يعلمون أن علم ذلك واستعماله وقبوله من خالقه هو الشكر . إن المسلمين لو علموا ذلك لكانوا نبغوا في هذه العلوم ، ولكن قام رجال صغار العقول صرفوهم عنها ، هل يعلم المسلمون ذلك؟ فوا حسرتا على أمة قتلها رجال سموا أنفسهم قادة ، وما هم بعالمين .

يقول الإمام الغزالي : «لابد للشكر من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل ، والحال هو الفرح الحاصل بالإنعام ، والعمل القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويكون العمل بالقلب واللسان والجوارح» . وفي مقام العلم أخذ يشرح نعم الله عز وجل في النفس وفي البدن وفي المال وفي الأصحاب وجعل كل واحد من هذه أربعة أقسام ، فهي ١٦ ولا حاجة إلى تفصيلها ، ولكن نقول إذا نظرنا إلى

صحة البدن وحده عرفنا أنه لا بد له من طعام، والطعام لا يناله الإنسان إلا بالنبات، والنبات لا يتم إلا بالمطر وبالأرض وبالبذر وبالشمس وبالهواء.

ثم إن الإنسان لا يتعاطى الغذاء إلا إذا أعطي أعضاء باطنة وظاهرة، فالظاهرة للجلب والباطنة للهضم وغيره، ولا بد من الحواس الظاهرة والباطنة، فهاهنا علوم التشريح وعلوم النفس وعلوم النبات وعلوم الحيوان وعلوم الكواكب، لما علمت أن الحرارة منبعثة من الشمس إلى الأرض فصح بذلك، إن جميع العلوم لا بد منها في معرفة نعمة الله تعالى، فمتى عرف الإنسان هذه العلوم التي هي مرتبطة ارتباطاً لا انفكاك له فقد عرف النعمة، ومعرفة النعمة ليست شكر الله، بل هي ركن واحد من أركان الشكر. الركن الثاني: الفرح بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، فإذا رأيت جمال الله في السماوات والأرض وأدركت بعض العلوم أحسست بسرور، ولكن يجب أن يكون السرور بمن خلق هذا الجمال. الركن الثالث: العمل بموجب هذا الفرح، وهذا العمل إنّما يكون بالقلب واللسان والجوارح، فأما بقلبه فيقصد الخير لجميع الناس، وأما بلسانه فيكون شاكراً لله به دائماً، وأما بالجوارح فليصرفها كلها في فعل الخير، فالعين مثلاً لا تنظر إلى محرم بل تنظر نظر اعتبار.

أنا لا أطيل عليك ما ذكره الإمام الغزالي، فإني لو ذكرته وشرحته لاحتاج إلى مجلد، ولكن الذي يهمنا في هذه السورة أن تنظر أيها الذكي، انظر واعجب من أمة الإسلام، انظر كيف يقول سليمان عليه السلام: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ويقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، ولما بحثنا عن الشكر وجدنا مبدؤه العلم بالنعمة، ولما بحثنا عن العلم بالنعمة وجدناه دراسة هذه العلوم المذكورة في هذه السورة وفي غيرها من علوم الحيوان من طير وحشرات وغيرها، وعلوم النبات وعلوم الكواكب وعلوم التشريح والطب وغيرها. يا رب عجباً لأمة هذا دينها وهؤلاء علماؤها، ألهذا الحد يجهل المسلمون؟. ألهذا الحد ينامون؟. يذكر الله الشكر ويقول عالم الإسلام: الشكر بعلم، والعلم شمل سائر العلوم التي فازت بها أوروبا علينا وغلبتنا والمسلمون نائمون، ألم يقرأ أحد منهم كتب السابقين، ألم يقرؤوا القرآن، أيها القارئ الذكي بالله أيقظ هذه الأمة وأخبرها أن الله أمرنا بالشكر، وأن الشكر مبدؤه العلم بسائر العلوم التي جاءت في هذه السورة من الأرض والسماء والأنهار والبحار والجبال و الحيوان وكل ما أمكن معرفته، والمسلم إذا لم يعرف هذا وهو قادر فهو غير شاكر، ومتى عرف فإنه يفرح بالمنعم نفسه لا محالة، ومتى فرح به وجب عليه أن يحب الناس كلهم ويشكر الله بلسانه ويعمل الخير لسائر الناس، فالشكر علم تام وإخلاص عام وعمل نافع بجميع الجوارح.

المسلمون غير شاكرين ما لم يفتحوا مدارس ابتدائية ومدارس ثانوية، ويذيعوا تعاليم جميع الأمم من فلك وطبيعة وكيمياء وحيوان ونبات وإنسان وطبقات الأرض، هذا التعليم لا بد منه لسائر الطبقة المتوسطة، أما الطبقة العليا فهم المختصون بعلوم خاصة كالطب والهندسة وغيرهما، كيف جاز للمسلمين أن يناموا أجيالاً وأجيالاً؟ كيف يجهلون شكر النعمة؟ كيف تركوا علم النبات وعلم الحيوان وعلم التشريح وعلم الفلك؟ كيف تركوها والله أمرهم بالشكر؟ والشكر علم وحال وعمل، شكر سليمان وشكر صلى الله عليه وسلم فهذا هو شكرهما.

لقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩١]، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»، ومعناه أن يقرأها ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السماوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح سبلته، فالله في ملكوت السماوات والآفاق والأنفس والحيوانات وعجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى، فإن من أحب عالماً فإنه لا يزال مشغوفاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجب من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. انتهى.

فبهذا عرفت معنى الشكر المذكور في قول سليمان عليه السلام، وأن ملخصه معرفة جميع العلوم والفرح بالمنعم، وإضمار الخير للناس قاطبة، وانطلاق اللسان بالشكر والجوارح بالأعمال الصالحة، وأمر الله للنبي صلى الله عليه وسلم بالحمد على أن الله سيرينا آياته، إشارة إلى أن هذه العلوم ستذاع في الأمة الإسلامية، وهو إخبار بما سيقع لا محالة من سعادة هذه الأمة ورقيها، حتى أمر نبيه أن يحمد الله على معرفتنا، ومعرفتنا لا بد أن تشمل كل العلوم ونظام المدن المذكور في هذه السورة ومعرفة العوالم الروحية من ملك وجن باتساع علم تحضير الأرواح وفهم العوالم كلها وانتظام ممالكنا كما نظم ملك سليمان، وإلا فلماذا قال له بعد تلك القصص: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل: ٥٩]. ذلك إشارة إلى أننا سننسج على منوالهم ونحفظ مدننا ونرقي علومنا ونشكر ربنا حتى حمد الله نبينا على معرفتنا والمعرفة يتبعها العمل، والحمد لله رب العالمين.

## جوهرة في مقال عام في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]

هذا المقال قد وعدت به فيما تقدم، ووعدت أيضاً بأن أكتب هنا في تفسير هذه الآية «رسالة مرآة الفلسفة»، ولكن وجدت المقام لا يسع هاتين الرسالتين، فسأجعل الرسالة الأولى في سورة «فاطر» عند قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[الآية: ٢]، وأجعل «مرآة الفلسفة» في سورة «القتال» عند قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[الآية: ١٩] الخ، والعلم بذلك للأنبياء وهبي ولكنه لنا كسبي، ومرآة الفلسفة فيها ملخص آراء الأمم قديماً وحديثاً وبها يفهم المفكرون قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣].

وملخص الرسالة أن الموجود الحقيقي الكامل هو الله وما سواه هالك، وهذا الذي سميناه هالكاً نوع من الوجود بحيث يكون كله آيات دالة على جمال الله تعالى، وهذه الآيات تتجدد وقتاً فوقتاً، ولا جرم أن «رسالة مرآة الفلسفة» فيها ملخص أصول الحكمة العامة في هذه الدنيا بحيث يطلع الأذكياء قراء هذا التفسير على ما استبان من نظام هذه العوالم بطريق العقل.

فمن نظريات جعلت مقدمة للرسالة بحيث تبين أن النفوس الإنسانية ليست من عوالم الأرض بأدلة عقلية، وأنها باقية بالبراهين الحسية التي توافق عقول جميع الأمم، فهي أشبه بمقدمات علم الهندسة التي تقبلها جميع العقول وتكون لها نتائج فيها اليقين الذي لا شك فيه، وهذه الأدلة والحمد لله لم تكن إلا في هذه الرسالة ليعلم المسلمون قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [النمل:٩٣] الخ، فهذه البراهين من آيات الله المتجددة في زماننا فليفرح بذلك عقلاء الأمم مقدماً.

(٢) ومن آراء لأقدم الفلاسفة وكيف كانوا في بحثهم متدرجين من ماديين ودهريين وسوفسطائيين وعلماء إلهيين من طاليس ومن بعده، إلى فيثاغورس الذي يقول: «أصل العالم العدد»، إلى أنبذوقلس الذي يقول: «أصل العالم المحبة والعداوة»، إلى إنكساغورس الذي يقول: «للعالم إله ولكنه تركه كما يترك الإنسان الساعة تجري وحدها»، إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس الذين يقولون بإله صانع للعالم منظم له مصلح لصغيره وكبيره، إلى من بعد هؤلاء المشائين والرواقيين وعلماء الإسكندرية، ثم انتقال العلم من الإسكندرية إلى أمم الإسلام أيام الفارابي ومن بعده، ثم انتقال العلم إلى أمم أوروبا، وكيف ترى هناك أن علماء أوروبا الحاليين يقولون بأوفى حجة وأجلى بيان: إنهم معرفة الله والنفس ومبدأ العالم لم يصلوا إلى عشر معشار سقراط وأفلاطون ونحوهما وإن المذاهب المنتشرة اليوم في أوروبا لم تخرج عن كونها تكراراً لمذاهب اليونانيين، فمن زعم أن العالم مادي ولا إله له فذلك هو عين مذهب طاليس قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون، ومن زعم أن الحقائق لا تعرف وهو شاك فهو أشبه بالسوفسطائية بأقسامهم الثلاثة التي ستراها، وهم: العندية والعنادية واللاأدرية»، وإذا رأيت قوماً من أوروبا نبغوا في ذلك وأدركوا بعض سر التكوين مثل الفيلسوف «كنت» الألماني الذي تتبعه اليوم الأمم الألمانية، وتتبعهم في قراءة كتبه أمة إيطاليا، فاعلم أن هذا المذهب عينه هو مذهب سقراط وأفلاطون الذي ستقرأ فيه الحكمة البديعة، بحيث إنك حين تطلع على ما نقلته عنهما بنصه وفصه مما لم تنقله أسلافنا بنصه تدهش إذ ترى أن القرآن حقاً وصدقاً نفس آراء هؤلاء الفلاسفة الذين خلقهم الله قبل أن ينزل القرآن.

أما أنا فإني اعتراني الدهش وازداد تعجبي من صنع الحكيم العليم الذي أنزل حكمة على قلوب عباده قبل نزول القرآن بنحو (٩) قرون وجعلها أشبه بتفسير للقرآن المنزل على عبد من عباده في جزيرة قاحلة، وستقرأ في الرسالة المذكورة كيف جاء حب الله على لسان الفلسفة، وكيف يكون ازدراء هذا الوجود المتغير الناقص، وكيف يجب علينا في هذا الوجود أن ننظم دولة، فلا نذر الدنيا الناقصة ولكن ننظمها ونتجه أثناء تنظيمها إلى مبدعها.

كل ذلك ستراه في «مرآة الفلسفة» وستعجب أنت كما عجبت أنا من تفاني هؤلاء الفلاسفة في حب الله والإخلاص له وهذا هو لب القرآن. أوليس هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣].

ومتى قرأت هذه الرسالة أيها الذكي ستقول كما قلت سواء بسواء، لقد رأينا آياتك يا الله في هذه العوالم كما رأيناها ظهرت على قلوب الحكماء من الأمم، إذ تجلت قبل نزول القرآن وخبئت في الكتب وظهرت اليوم، فوجدناها مفسرة للقرآن مجلية للحقيقة موضحة لحقيقة العقل والنفس، بل

فوق ذلك ترى ما كان من الخلاف بين أفلاطون وأرسطاطاليس من قول الثاني للأول : « إن تعاليمك الفلسفية لم يظهر فيها المناسبة والارتباط بين عالم المثال الذي تخيلته وبين هذه العوالم المشاهدة ، إذ أنك اعتبرت أن العلم لا يبنى على أمر ثابت ، ولا ثبات لعالم المادة من سماوات وأرضين ، والثابت في نظرك هو عالم المثال ، وقد قلت إن ما يظهر للناس في الأرض والسماء إنّما هو على مقتضى عالم المثال وهو على صورته أو نسخة من نسخه » ، فهذان العالمان المادي والمعنوي لم نعرف المناسبة بينهما .

ثم قال « أرسطاطاليس » بعد ذلك : أنا أرى أن العلم لا يحتاج إلى المادة والصورة ، والمادة لا توجد إلا بهذه الصور التي نراها في الأرض والسماء ، الخ .

وقد جاء المشاؤون بعد « أرسطاطاليس » أيضاً وفندوا رأيه واعترضوا عليه وقالوا له : « إننا لم نعرف المناسبة بين المادة والصورة وبين الله الذي صنع العالم وأنت برهنت على وجوده ، وأنت لم تبين المناسبة بينهما كما لم يبين أستاذك المناسبة بين عالم المثال وعالم المادة » .

هنالك أخذت الأمم بعدهم تقرأ هذه الآراء وتبين اتحادها تارة واختلافها تارة أخرى ، فهذه المجادلات التي ستراها في الرسالة المذكورة ولخصتها هنا لا يكون لها أثر بعد المقدمات والحجج التي ستراها بمقتضى ما ظهر للناس اليوم في العالم من العلوم في « رسالة مرآة الفلسفة » ، إذ ترى أن البراهين اليقينية التي ذكرتها في أولها لا يرد عليها ما ورد على أفلاطون وأرسطاطاليس ، وستقرأ هناك أن خلق العالم يتضح بما يراه الإنسان في نفسه من العوالم العقلية ، وسترى شرح ذلك وتعلم أن هذا هو قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد : ١٩] ، فهذا هو العلم بانفراد الله بالألوهية ، لأنه أتى بملخص عقول الأمم قديماً وحديثاً ، وهذا يفهمنا قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل : ٩٣] . فهذه الرسالة ظهر فيها كيف كان علم النفس هو المفتاح الذي به فتح ما أغلق على الناس أيام سقراط وأفلاطون ومن بعدهما ، وبه زال الإشكال الذي ورد على طريقتيهما في تبيان أصل العالم وصلة العالم المادي بالعالم العقلي وصلتهما بخالقهما ، فهذا الإشكال كله ستراه قد حل في هذه الرسالة .

ومن أعجب العجب أنها لم تظهر للناس إلا في تفسير القرآن عند آية : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد : ١٩] ، وقد انطبقت على هاتين الآيتين اللتين ختمت بهما هاتان السورتان الدالتان على أن المادة باطلة ، وأن العوالم المشاهدة آيات الله ، والله سيريها لنا ، وهانحن أولاء قد رأيناها في كلام العلماء والحكماء وفي العوالم المشاهدة .

ومن أهم الآيات التي أراها الله لنا إيفاء لعهدة تقسيم العلوم ، وهذه سنختم بها « رسالة مرآة الفلسفة » بحيث يطلع الأذكياء من المسلمين على آثار عقول الأمم البائدة وما تركته لنا من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية ، وتهذيب الأفراد وتدبير المنزل وتدبير المدينة ، والأخير هو علم السياسة ، وهناك تقسم هذه العلوم إلى (١٧) علماً ، ولهذه العلوم فروع تبلغ أصولها مع تلك الفروع نحو (٦٠) علماً وصناعة ، وهناك ترى أن الصناعات كالطب وكالزراعة وأمثالها وهكذا النجارة والحدادة ما هي إلا فروع لتلك العلوم . هذه هي الآيات التي وعد الله أن يريها لنا ، وهي آيات العلوم الحكمية المنقولة

عن الأمم الخالية الموافقة للقرآن حقاً وصدقاً، وآيات هي أقسام العلوم وما يناسبها من الصناعات التي لا بد منها للأمم. هذه هي «رسالة مرآة الفلسفة» التي وعدت بها فيما تقدم والتي ستطلع عليها أيها الذكي في سورة «القتال» عند قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، وقد تضمنت إيضاح الآية في آخر هذه السورة، ونظيرها آية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] والآية التي في أواخر سورة «القصص» وهي: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[الآية: ٨٨].

أما المقال العام الذي وعدت أن أكتبه هنا فيما تقدم وسأذكره في سورة «فاطر» عند قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[الآية: ٢]، لأن الحال اقتضت ذلك فهاك ملخصه إيفاء بما وعدت، ومقدمة لذكرها هناك فهي:

(١) أولاً أن إشراق العوالم التي تحيط بنا على قسمين: إشراق ظاهر وإشراق باطن، فالأول ما تدركه الحواس، والثاني ما تدركه العقول، وهذا الأخير مراتب وراء مراتب، ولن نصل لمرتبة إلا بعد وصولنا إلى مرتبة قبلها، والحمد في الآية تابع لاستكناه الحقائق وظهور المعلومات فلا تكون المعرفة اللاحقة إلا بعد السابقة.

(٢) المسلمون في القرون المتأخرة نظروا العوالم الظاهرة فلم يزيدوا في معرفتها عن العامة مع أنهم يقرؤون في القرآن قصة سليمان إذ سخرت له الريح، وهذه القصة تدلهم أن هناك منافع غير التي عرفها العامة في هذه المخلوقات المحيطة بنا.

(٣) مثل إن الهواء مركب من نيتروجين وأوزوت وأكسوجين ومن مواد أخرى، وهذه المادة وهي النيتروجين أو الأوزوت وجدت مركبة مع مواد أخرى في جزيرة «شيلي» فجعلها الناس سماداً لأن النيتروجين من مركبات السماد المعروف من الدواب في القرى وبلاد الفلاحين في مزابلهم.

(٤) وقد استخدم العالم الألماني «فرتزهابر» الكهرباء في استخراج النيتروجين من الهواء بدل الاتكال على ما يستخرجه الناس من «جزيرة شيلي» وعلى ما يأخذونه من سماد الحيوان وصنع في الهواء بالكهرباء ما يصنعه الناس في الماء من تبريده وجعله ثلجاً، فالناس جميعاً يجدون طريقة لجعل الماء السائل جسماً صلباً وهو الثلج، هكذا العالم «فرتزهابر» جعل النيتروجين بالكهرباء جسماً صلباً بعد أن كان جسماً غازياً كالبخار في الهواء، فالبخار يكون سائلاً ثم صلباً، وهكذا الغاز الذي هو جزء من الهواء يرجع سائلاً فصلباً ويكون سماداً وهو المطلوب، وذلك بواسطة «الفرن الكهربائي» الآتي شرحه في سورة «فاطر» في المقالة العامة هناك.

(٥) كان عند الألمان مصانع كبيرة زمن الحرب يستخرج بها النيتروجين من الهواء، فبه تكون المواد المهلكة ثم حول هذا كله بعد الحرب إلى سماد.

(٦) المسلمون يأكلون الملح ولا يعلم أكثرهم أن علماء أوروبا استخرجوا بالكهرباء من محلوله في ماء البحار مواد مثل الكلور والصودا الكاوية والهيدروجين، والكلور المذكور المستخرج من الملح ينفع في تطهير ماء الشرب من الجراثيم، فيمنع انتشار الحمى التيفودية، وينفع في جعل الورق أبيض، وينفع في إحداث التخدير للمريض عند العملية الجراحية، ويكون سماً للأعداء في الحرب إذ يرسل في الهواء، ويكون في المفرقعات القاتلات للأعداء، ويكون قاتلاً للحشرات، إذن ملح الطعام يأكله المسلم

ولا يعلم أنه أصبح مطهراً لشرابنا قاتلاً للحيوانات الذرية التي تفتك بالناس في الوباء مبيضاً لورقنا مزيلاً لآلام جرحانا مهلكاً لأعدائنا.

(٧) إن المسلمين الذين جهلوا هذه العلوم التي عرفتها الأمم في الأرض يعاقبون في الدنيا والآخرة لأنها فروض كفايات، فإذا أمر الله بقطع يد السارق لأجل ربع دينار أفليس معناه أنه يحافظ على المال النافع لنا، وإذا أمر بقتل القاتل فإنه يحافظ على نفوسنا، إذن هذه العلوم تحفظ أنفسنا وتحفظ أموالنا فكيف يسوغ للمسلمين تركها؟.

(٨) وهناك فوائد كثيرة للكلور وغيره من عناصر الملح وصلت إلى (١٢) فائدة كلها نافعة في الحياة فكيف يجهلها المسلمون وهي فرض كفاية؟.

(٩) وهناك معدن يسمى «الألومنيوم» وله فوائد عظيمة ستذكر لا محل لإطالة الكلام عليها هنا، مثل أنه إذا خلط مع القصدير استعمل بدل النحاس، ومثله أنه يجعل صفائح للتفضيض، ومثل أنه يركب مع النحاس فيكون شبيهاً بالذهب، فكيف يترك معرفة هذا المسلمون وهو من فروض الكفايات؟.

(١٠) إني أنذر الأمم الإسلامية بأنهم إذا أهملوا العمل بما في كتابي هذا فإن هذا القرن يكون آخر قرونهم في الأرض.

(١١) أفلا ينظرون كيف اخترع «المستر بالي» زجاجاً سماه «زجاج بالاس» وهو زجاج لا ينكسر، ومنه تدخل الأشعة فوق البنفسجية من الشمس لتنفعنا في الصحة، بخلاف زجاجنا المعروف، وهو مصنوع من مواد أرخص من المواد التي صنع منها زجاجنا، وسيصنع من هذا الزجاج ألواح بهيئة قشر السلحفاة وأقلام لن تنكسر وهكذا.

(١٢) فيا أيها المسلمون، عليكم أن تجدوا في الأعمال حتى تلحقوا الأمم ثم تكون هناك أجيال بعدنا إسلامية متحدة مع الأمم في رقي أهل الأرض.

انتهى الكلام على ملخص المقال العام الذي سيكتب في سورة «فاطر» كما لخصت قبل ذلك «مرآة الفلسفة» التي ستكتب في سورة «القتال» عند قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. اهـ.

## جوهرة في بعض سر الطاء والسين في قوله تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]

هاهنا «السين» في ﴿وَسَلَامٌ﴾، و«الصاد» و«الطاء» في ﴿اصْطَفَىٰ﴾ والحرفان الأخيران من واد واحد لأنهما من حروف الإطباق، وهي الصاد والضاد والطاء والظاء، فـ«سلام» مبتدأ بـ«السين» و«اصطفى» مبتدأ بحرفين من واد واحد وهما «الصاد» و«الطاء» المذكورة في ﴿طسٓ﴾ في أول السورة، ولا عبرة بالهمزة لأنها زائدة للتوصل للنطق بالساكن، وهذا تذكرة بالسلام للمصطفين وفتح باب لفهم ما سأسمعه لك.

إن الإنسان على الأرض دائماً في اضطراب ما دام جاهلاً بنظام هذا العالم وما مبدؤه وما مبدعه وما نهايته ونهاية الأرواح، وأكثره يشك في مستقبل هذه النفوس الإنسانية ويسمع بالزلزلة وبالوباء وبالحرب وبفتك الحيوانات الذرية في الإنسان.

ويرى هذا العالم كله اختلاطاً واختباطاً ولا نظام فيه ولا أمان، غاية الأمر أن المؤمنون بالديانات يسلمون تسليماً ولا يفكرون، والمفكرون منهم يقعون في هذه المآزق، فإذا فكروا في هذا نشأت لهم وساوس وأحسوا بالألم النفسي وزايلهم السلام والأمان، فنفوسهم في وحشة وإن ظهروا مستأنسين، وقلوبهم في غم وإن كانوا في ظاهر أمرهم فرحين، وهؤلاء متى عرفوا الحقائق واطمأنت نفوسهم إليها وركنوا لها أحسوا بالسلامة والأمان وأيقنوا أن من يسوسهم في الدارين رحمن رحيم لا يجري عليهم إلا ما هو خير لهم عاجلاً أو آجلاً، ويرون الموت والمرض والفقر وأشباهها أعراضاً زائلة كما يعتري الأرض قحول وقحط، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت، فهؤلاء هم المصطفون الأخيار الذين تسلم نفوسهم من تلك المهالك في هذه الحياة وغيرها، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾[الأنبياء: ١٠٣] الخ، وقال فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾[النحل: ٣٢] الخ، وقال فيهم: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٣-٢٤]. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. فهذه الجملة جاءت فيها «السين» و«الطاء» المصاحبة لـ «الصاد» و«السين» و«الطاء» ذكرتا في أول السورة لتوقظنا للآيات الأخرى.

ولما ذكر السلام والاصطفاء أعقبه بالدروس التي يدرسها أولئك المصطفون، فذكر السماوات والأرض والمطر والحدائق والأشجار والأنهار والجبال والبحار والبرازخ بينها، وإجابة دعاء المضطر، والهداية في البر والبحر وإرسال الرياح، فهذه الطائفة التي أفعمت عقولها بهذه العلوم والحكم تكون مصطفاة وأنفسها تعيش في سلام وتموت في سلام، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم: ٣٣]، وهذا السلام هو الذي يقوله المسلم في التشهد، فيسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى الصالحين من الأمم، ومثل هذه النفوس المصطفيات هي التي إذا صلت وقرأت ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة: ٦-٧] لا تفهم معنى الغضب كالذي تفهمه في غضب الناس، لأن غضب الناس انفعال ورحمتهم انفعال، ولكن غضب الله ورحمته لا انفعال فيهما، بل الله منزه عن ذلك، وإنما هذه شؤون النظام والتدبير والإحكام في الخلق، سميت رحمة في حال وغضباً في حال، بحسب مراتب الموجودات لا غير، ويفهمون ذلك من تسبيحهم في حال الركوع والسجود، فالمسلم يقول: «سبحان ربي العظيم»، ويقول: «سبحان ربي الأعلى»، ويفهم من ذلك المصطفون أنه منزه عن الغضب الانفعالي وعن الرحمة الانفعالية عند قراءتهما الفاتحة، ففيها ذكر الرحمة وفيها ذكر الغضب وفيها تقديم الرحمة على الغضب للإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وإلى ما ورد في الحديث: «إن الرحمة سبقت الغضب»، لأن هذا نقص في العباد والله كامل محكم التدبير منظم الشؤون، وهذه الطائفة حين تعرف هذا توقن بأن نفس الصلاة فيها رموز وعلوم وحكم، وكلما ارتقى الإنسان فيها زاد علماً كما قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤].

فالمسلم وهو يقرأ الفاتحة يفهم معنى الرحمة والغضب إجمالاً، فإذا ركع وسجد فهم أن الله منزه عن صفات العباد بالتسبيح.

ومن أعجب العجب أن يقول في هذه الآية: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ ﴾[النمل: ٥٩] الخ، ثم يقول في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]. فهاهنا أمره بالحمد وجعله مصحوباً بالسلام، وأردفه بالدروس التي يتلقاها المصطفون، وفي آخر السورة أمره بالحمد وأتبعه بنفس الدروس إجمالاً، وهي أنه سيريهم آياته وأنهم يعرفونها. ولا جرم أن الدروس التي جاءت في هذه الآيات هنا بعض الدروس المجملة في آخر السورة.

الله أكبر. تبين هنا أن السلام بعد الحمد، ولا حمد إلا على نعمة، والنعمة مذكورة في هذه الآيات هنا مفصلة وفي آخر السورة مجملة، وهذا قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠]. واعلم أن الحمد مصحوب بالسلام المتبوع بالآلاء والنعم فيما نحن بصدده، وبعده الحمد الذي في آخر السورة، وقد بيناهما الآن كأنهما تطبيق أو نتيجة لما جاء في قصة سليمان في أول السورة، إذ حمد الله هو وداود على نعمة العلم، وأن الله فضلهما على كثير من عباده المؤمنين، فهما حمدا الله على نعمة العلم، وههنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله مرتين وذكر بعد الحمد المعلومات، فاعجب لأسرار القرآن، فتبين أن السلام يذكر مع الحمد، والحمد لا يكون إلا على علم بالمحمود عليه، حتى يذعن القلب ويفرح بالمنعم.

إذن فليعلم المسلمون أن ديننا دين حمد، ولا معنى للحمد إلا على نعمة، ولا تعرف النعمة إلا بالتعليم، فليتعلم المسلمون كل علم وليزيدوا على الأمم وإلا فليرحلوا من هذه الأرض لأنهم لا أمان لهم في الدنيا لأنهم بجهلهم نواميس الوجود لا يقدرون على مقاومة الأمم، وهكذا يكون عقلاؤهم مضطربي الآراء في الوجود وفي الأنفس الإنسانية ونهاية هذه الدنيا. هذا ما فتح الله به يوم الجمعة ٣١ مايو سنة ١٩٢٩.

## المستنبطات التي وجدت بين سنة ١٧٠٠ وسنة ١٨٠٠ ترجع إلى الأدوات والآلات الميكانيكية

## فأما مستنبطات العصر الحاضر فأكثرها كهربائي أو كيمائي أو كيميائي معدني

كتب كاتب أمريكي في مقتطف أكتوبر سنة ١٩٢٨ يقول ما نصه:

(١) في الولايات المتحدة خمسة ملايين آلة لاسلكية مستقبلة.

(٢) ألفت فيها شركات لنقل الصور الفوتوغرافية بالتلغراف السلكي واللاسلكي.

(٣) وقرب الوقت الذي تتقن فيه إذاعة الصور المتحركة كما تذاع الخطب والأغاني والقصص وتستقبل.

(٤) وقرب الوقت الذي يمكن فيه توزيع القوى الكهربائية فتلتقطها البواخر في عرض اليم والطيارات محلقة في الفضاء.

(٥) والأشعة التي فوق البنفسجية قد كمن في أمواجها فوائد صحية جزيلة، وقد ألفت شركات لتوزيعها بعد إتقان آلاتها فتضاء بها المصابيح في الدور والمكاتب والمعامل والمدارس فتعطي الناس قوى حيوية جديدة.

(٦) وسيسمد الناس زرعهم من الأسمدة المستكنة في الهواء بسبب الكيمياء .

(٧) وسيصنعون جوارب حريرية وأدهاناً مختلفة من الأشجار .

(٨) والمادة التي تصبغ بها السيارات تصنع منها الجوارب الحريرية والمفرقعات والجلد الصناعي وهكذا .

(٩) ثبت أن «معدن الكروم» إذا أضيف إلى الصلب صار الصلب قاسياً جداً لا يصدأ فاستعماله يوفر على الناس ملايين يخسرونها بسبب الصدأ .

(١٠) والنفط يستخرج الآن من الفحم الحجري ومن القار بأسلوب كيماوي ، وذلك في ألمانيا بأسلوب «برجيوس» .

(١١) وقطران الفحم الحجري يستخرج منه الآن أصباغ عجيبة تفوق التصور ، فهذه ملابس السيدات الزاهية الألوان تصبغ بأصباغ تستقطر من الفحم الحجري ، وفي المستقبل عجائب أكثر من هذه الألوان .

(١٢) مستقبل الطيران : إن الطيران سيوصل الناس إلى أخصب بقاع الدنيا وإلى حراج غبياء لا يقيم الناس لها وزناً وستزيدهم ثروات طائلة بسبب الطيران .

(١٣) النور الآن متحد مع الحرارة فنحو ٩٦ في المائة من القوة يذهب في الحرارة و٤ في المائة يعطي ضوءاً ، وسيتمكن الناس من قلب الوضع فتكون ٩٦ للضوء و٤ للحرارة ، وإذن تنار المنازل بجزء من عشرين جزءاً مما نستعمله الآن من الكهرباء ويتم ذلك بعد مائة سنة ، وفي ذلك الوقت تتولد الكهربائية من ضوء الشمس رأساً ، لا من الفحم الحجري ولا من الماء المنحدر أو من قوة المد والجزر أو من حرارة باطن الأرض .

(١٤) في كثير من البلاد ينابيع حارة ، ففي هذه الأماكن ستصير هناك مدن عظيمة ، لأن حرارة باطن الأرض تستخدم حينئذ لتوليد الكهرباء ، والكهرباء هي سر الصناعة الحديثة .

(١٥) وفوق هذا وذاك قوة الشمس ولا يعوزها إلا آلة تمتص الحرارة ولا تشعها ، ولم يوفق الناس إلى الآن لاختراع آلة تمتص الحرارة ولا تشعها ، ومتى وفق الناس لها أصبحت هذه مصدراً هائلاً للقوة الهائلة الرخيصة الثمن .

(١٦) إن المستنبطين إلى الآن لم يعكفوا على استخدام المد والجزر في توليد القوى بجد وعزيمة .

(١٧) قد استحدث الناس آلة لاستحداث أصناف جديدة من النبات والخضراوات والأثمار والأزهار والأستاذ «بربنك» أكبر مستنبط في هذا الميدان ، كما أن «أديصن» أكبر مستنبط في الكهربائية .

(١٨) استنبط «بربنك» مئات من الأنواع الجديد من الأثمار والأزهار وأدخل فيها صفات لم تعرف من قبل مثل البرقوق «خوخ» لا قشرة قاسية لفواته ، ومثل التين الشوكي الذي لا شوك في أغصانه وعنده أن الاستنباط هنا يفوق ما استنبطه «أديصن» و«ماركوني» و «بل» و«فورد» وغيرهم .

(١٩) وسيبتدع الناس وسائل تغير الجو فتجعله صالحاً لأحوال زرعهم بإدارة زر كهربائي ، ولا مانع يمنع علماء الزراعة من أن تكون أثمار الفراولة حجمها كحجم البطاطس ، وحجم الكرز والبرقوق «الخوخ» والتفاح كحجم رؤوس الكرنب .

(٢٠) وعند المهندسين الآن آلة لاسلكية تبعث في الفضاء أمواجاً صوتية خاصة فتفجر مقداراً من الديناميت على بعد (٢٠ ميلاً أو ٣٠)، بشرط أن يكون في الديناميت آلة تقبل هذه الأصوات، وأمثال هذا الجهاز يستعمل في البحث عن المعادن بحيث تكون الأرض التي لا معادن فيها لا تعوق الأصوات المذكورة، فتصل في الوقت المعين لها، وإن أبطأت دل ذلك على رواسب المعادن التي أخرجت هذه الأصوات.

(٢١) وسيفوز الإنسان بالطعام المركب تركيباً كيماوياً. قال: وفي السنة الماضية أدب أحد أصدقائي مأدبة لجمهور من معارفه وجميع طعامها مرتبة في العمل الكيماوي مثل: «الأوردوفر» و«اللبن والقشدة» و«اللحوم» و«الخضراوات المختلفة» و«الشوربة»، وهكذا الأثمار والمثلوجات وأصناف الحلوى ولم يكن للفلاح ولا للبستاني أثر في هذه المأدبة.

(٢٢) إن في الجوهر الفرد قوة هائلة مدخرة. ويقال: إن الهيدروجين في الماء الذي يملأ ملعقة شاي واحدة يولد مائة ألف كيلو من الكهربائية وتساوي قوتها ١٣٣ ألف حصان، فإذا أطلقت هذه القوة واستخدمت استغنى الناس عن الفحم استغناء تاماً، وحينئذ نقطر القوة اللازمة لإدارة معمل كبير كما نقطر القطرة في العين.

(٢٣) إن الغدد في الأجسام لها علاقة بالحياة وبالصحة وبالعواطف والصفات الأدبية كالشجاعة والمضاء، ولا بد أن يصلوا إلى إطالة الحياة، وربما يكون الرجل في نشاطه الجسدي وعقله الذكي حينما يبلغ المائة من العمر. انتهى ما أردته من مجلة المقتطف، وبه تم تفسير سورة «النمل»، والحمد لله رب العالمين.



تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث عشر من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

يليه الجزء الرابع عشر

وأوله تفسير سورة «القصص»



# فهرس الجزء الثالث عشر

# من كتاب تفسير الجواهر


سورة الشعراء مكية، وهي سبعة أقسام ........ ٣
القسم الأول: في الاستدلال على الله بعجائب الطبيعة، وفيه لطيفتان ........ ٣
اللطيفة الأولى في معنى: (طسم)، ومعنى: (كهيعص) ........ ٤
اللطيفة الثانية، في إن هذا القرآن نزل لارتقاء العقول ........ ٧
الآية الأولى: تنفس النبات ........ ٨
الآية الثانية ........ ٨
الآية الثالثة ........ ٩
الآية الرابعة: الزهرة ........ ٩
الزهرة الكاملة ........ ١١
الزهرة القانونية ........ ١١
الزهرة المنتظمة ........ ١١
زهر العليق ........ ١١
الخبازى ........ ١٢
جمال العلم والحكمة ........ ١٢
الآية الخامسة: اهتزاز النبات عند التلقيح ........ ١٢
الآية السادسة: النبات يحس ويتحرك ........ ١٢
الآية السابعة ........ ١٣
الآية الثامنة ........ ١٣
الآية التاسعة: شجر المسافرين ........ ١٣
الآية العاشرة وهي الأخيرة: شجرة اللبن ........ ١٣
الحروف الهجائية والزهرة ........ ١٥
القسم الثاني: في قصة موسى عليه السلام وفرعون، وفيه أربع لطائف ........ ١٦
جوهرة في قصص القرآن ........ ٢٣
ما يقوله الإمام الشافعي في قصص القرآن ........ ٢٣
ما يقوله علماء العصر الحاضر في علم التاريخ ........ ٢٥

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ( أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ) ........ ٢٧
اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : ( قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ) ........ ٢٧
اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ( وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) ........ ٢٧
اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : ( إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ) ........ ٢٧
أعجوبة حصلت أيام الملك نيقا ........ ٢٩
أعجوبة وقعت في أيام الملك خوفو نفسه ........ ٢٩
أعجوبة وقعت في أيام الملك سنفرو ........ ٣١
تقديس كتب السحر وأكابر السحرة عند قدماء المصريين ........ ٣٣
جمال العلم وبهجة الحكمة ........ ٣٤
القصة الأولى : في كشف أسرار من ادعى النبوة ........ ٣٩
القصة الثانية : في قصة سنان ........ ٤٠
القصة الثالثة : في كشف أسرار من ادّعى النبوّة أيضاً ........ ٤١
القصة الرابعة : الشيوخ الكاذبون ........ ٤١
القصة الخامسة والسادسة : في المشايخ أصحاب الزوايا ........ ٤٢
القصة السابعة : في المشايخ أصحاب الزوايا أيضاً ........ ٤٣
القصة الثامنة : في كشف أسرار كذبة الوعاظ ........ ٤٣
القصة التاسعة : في كشف أسرار كذبة الرهبان ........ ٤٣
القصة العاشرة : أهل الكيمياء ........ ٤٤
حقيقة ........ ٤٧
جبابرة العقول : أينشتين ونظريته : الزمان والمكان ........ ٤٨
خطاب للأمم الإسلامية : إن هذه العلوم واجبة وجوباً كفائياً ........ ٤٩
القسم الثالث والرابع : في قصة إبراهيم ونوح عليهما السلام ........ ٥١
جوهرة في قوله تعالى : ( وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ) ........ ٥٥
الحال الأولى : في التجربة ........ ٥٦
الحال الثانية : في الإلهام ، وذلك بالرؤيا الصادقة ........ ٥٦
الحال الثالثة : في الاتفاق والمصادفة ........ ٥٨
الحال الرابعة : في ما يشاهده الناس في الحيوان ........ ٥٨
الحال الخامسة : في الإلهام ........ ٥٩
مخطوطات هيروغليفية ........ ٦١
من بدائع وعجائب الإسلام في الطب « السواك » ........ ٦٥
فوائد السواك ........ ٦٥

أوقات السواك ........ ٦٥
خطر لا يفطن إليه كثير ........ ٦٦
الكلام على التعليم الذي يختص بمعرفته الأطباء ........ ٦٧
الوقاية أفضل من المعالجة : أعداء الإنسان ........ ٦٨
الوقاية أفضل من المعالجة أيضاً : داء الكزاز ........ ٧١
تحريم الخنزير، أصله من الأساطير المصرية ........ ٧٢
أسطورة الخنزير الأسود ........ ٧٢
إشراق النور الإلهي في هذا التفسير ........ ٧٣
الكلام على مداواة المرض ........ ٧٥
الباب الأول : العلاج بالهواء ........ ٧٥
الباب الثاني : العلاج بالماء ........ ٧٦
الباب الثالث : العلاج بالتراب ........ ٧٩
الباب الرابع : الحمى وعلاجها ........ ٨١
الباب الخامس : الإمساك والدوسنطاريا والمغص والبواسير ........ ٨٢
فوائد صحية عامة من كتاب ويلكوكس في الطب ........ ٨٣
لطيفة في إزالة سوء الهضم ........ ٨٤
محاورات طيماوس الحكيم مع سقراط ........ ٨٧
هذه تذكرة ما جربته في حياتي من الأعمال الطبية ........ ٨٩
الاستشفاء بنور الشمس ........ ٩٢
الاستشفاء بأشعة الشمس ........ ٩٤
تجربتي في هذا المقام ........ ٩٥
جوهرة في قوله تعالى : ( إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) ........ ٩٧
فكرتي في خلق هذا الإنسان بمناسبة هذه الآية ........ ٩٧
اللذة تلازم الألم ........ ٩٨
إيضاح الكلام على اللذات ........ ٩٩
الإبداع في هذا الوجود ........ ١٠١
اعتراض على المؤلف بأنه لا مسبح إلاّ من يعرف هذه المعاني ........ ١٠٢
القسم الخامس : في قصة هود وعاد وثمود وصالح عليهم السلام ........ ١٠٤
القسم السادس : في قصة قوم لوط وشعيب عليهم السلام ........ ١٠٦
لطيفة في قصة قوم لوط عليه السلام ........ ١٠٧
قصة سدوم وعمورة ........ ١٠٧

البحر الميت أو بحيرة لوط ........ ١١٠
القسم السابع : خاتمة السورة ، في وصف القرآن ........ ١١٣
جوهرة في قوله تعالى : ( وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ) وفيها أربعة فصول ........ ١١٤
الفصل الأول : في انحطاط ديانة قدماء المصريين ........ ١١٦
الفصل الثاني : في نبوة الفيلسوف هرمس ........ ١١٧
الفصل الثالث : فيما حل بالأندلس من احتجاب الخلفاء ........ ١١٨
للعبرة والتاريخ ........ ١١٩
الفصل الرابع : فيما توقعه العقلاء من زوال ملكهم ........ ١٢٠
معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ........ ١٢١
بيان ما توقعه العقلاء والمصلحون ........ ١٢٢
الحديث الرابع عشر ........ ١٢٧
حكاية ومعجزة ........ ١٣٣
الكلام على الشعراء ........ ١٣٣
الشعر والتاريخ ........ ١٣٥
نتائج الغرام بالشعر والسياسة في الأندلس ........ ١٣٩
خاتمة السورة ........ ١٣٩
كيف يعلم الشعر في الإسلام ........ ١٤٠
في تعليم الشعر ........ ١٤٠
سورة النمل ، مكية ، وهي أربعة أقسام : ........ ١٤١
القسم الأول : في مقدمة في الإيمان ، وفي قصة موسى عليه السلام ........ ١٤١
بهجة العلم في بعض أسرار (طسٓ) ........ ١٤٤
الفصل الأول : في أن الأمراء يجب عليهم مراعاة صغيرات الأمور وكبيراتها ........ ١٤٧
الفصل الثاني : في بيان أن الطيور وسائر الحيوان معلمات للإنسان ........ ١٤٧
الفصل الثالث : في أن هذه المخلوقات الحيوانية فيها مضار ومنافع ........ ١٤٨
الفصل الرابع : في قصة بلقيس ........ ١٤٩
سر من أسرار النبوة المحمدية قد ظهر في الطاء والسين ........ ١٥٠
أكبر الجماعات في الكائنات الحية ........ ١٥١
القسم الثاني : في قصة سليمان عليه السلام ........ ١٥٢
عجائب النمل ........ ١٥٦
قياس نظام الأمة على نظام النمل ........ ١٥٦
دقة النمل في عمله وحرصه ........ ١٥٧

موازنة بين شرائع النمل والأمم المتمدينة ١٥٧
حكاية عن النمل ١٥٧
في مساكنه ١٥٨
أحواله المعيشية وزراعاته وتربيته ماشيته ١٥٩
وحربه وأسره ١٥٩
تربية الصغار ١٥٩
حكاية عجيبة عن النمل ١٦٠
الجمهوريات في الحيوان ١٦١
حرب بين قبيلتين من النمل ١٦٤
مسامرة في النمل ١٦٥
متفرقات عن النمل، النمل أعجب الحيوانات ١٦٩
النمل يربّي صغاره ١٧٠
النمل أقوى من الإنسان ٣٠٠٠ مرة ١٧٠
النمل فلاح ١٧٠
بقر النمل ١٧١
النمل جراح ١٧١
للنمل مقبرة ١٧١
النمل الغازي ١٧١
الكلام على عين النملة ١٧١
عجائب عين النملة وغرائبها ١٧٥
جوهرة بديعة ١٧٦
العين المركبة ١٧٦
النحل بعد النمل ١٧٩
لطيفة في قوله تعالى: (قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ) ١٧٩
التلغراف اللاسلكي وتبادل الخواطر ١٨٠
الحشرات والنمل ١٨١
النمل ١٨١
مساكن النمل ١٨٢
أعمال النمل ١٨٢
لطيفة في الهدهد الذي أحاط علماً بما لم يحط به نبي ١٩٣
كيف يتفقد مؤلف هذا التفسير ١٩٤

تذكرة بما اتفق لي أيام تلقي العلم ........ ١٩٥
ذكر بعض الطيور، ثم ما هو شبيه بها........ ١٩٦
الطيور ........ ١٩٦
الطيور الدجاجية ........ ١٩٦
الطيور ذات الأرجل الكفية ........ ١٩٦
الطيور الشاطئية ........ ١٩٧
الطيور المتسلقة ........ ١٩٧
الطيور الدورية ........ ١٩٧
الطيور الجارحة ........ ١٩٧
الحيوانات الثديية ذات الأيدي الجناحية........ ١٩٨
تفقد طيران الطيور كي يفتح باب الطيران في الأمم الإسلامية ........ ١٩٨
طير الإوز العراقي الذي هو معجزة من معجزات الطبيعة ........ ١٩٨
الحرف والفنون والصناعات عند الطيور ........ ١٩٩
هجرة الفيران من إنجلترا بقيادة فأر أعمى ........ ٢٠٠
سر من أسرار الطاء والسين ........ ٢٠٠
تحريم صيد هذه الطيور........ ٢٠٢
من أعجب أسرار الطاء والسين (طسٓ) ........ ٢٠٢
الكلام على الهدهد تفصيلاً وعلى فن الطيران في عصرنا الحاضر ........ ٢٠٣
الاحتفال بهذين المخترعين في هذه الأيام ........ ٢٠٤
جوهرة في قوله تعالى بعد آية الهدهد: ( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ) ........ ٢٠٥
لطيفة في قول بلقيس: ( مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ) ........ ٢٠٧
لطيفة في قوله تعالى : ( فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ) ........ ٢٠٧
جوهرة في قوله تعالى: ( قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً ) ........ ٢٠٨
مزاج هذه الدنيا محرق........ ٢٠٨
الكلام على النبات........ ٢١٢
الذرات في عالم الحيوان ........ ٢١٣
الحيوان ........ ٢١٣
الإنسان ........ ٢١٤
ذكر نظام الإنسان في مدينته ........ ٢١٥
أهل المدينة الفاضلة ........ ٢١٧
آراء أفلاطون في سياسة الإنسان ........ ٢١٨

التعاليم الإسلامية........................ ٢٢٢
الكلام على تخريب الفاتحين للممالك ........................ ٢٢٥
سر ارتقاء العرب ثم انحلال دولتهم ........................ ٢٢٧
نبذة من أسباب ذهاب دولة أمة العرب ........................ ٢٢٨
كيف يحصل الفساد والحرب في الأمم المغلوبة على أمرها........................ ٢٣٠
فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم ........................ ٢٣٢
فصل في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ........................ ٢٣٢
فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ........................ ٢٣٢
فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ........................ ٢٣٣
فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران ........................ ٢٣٤
كيف تقع الأمم الظالمة في سوء أعمالهم وتذهب دولهم........................ ٢٣٥
جوهرة في ما قاله العلامة ابن خلدون ........................ ٢٣٥
خطاب الأمم كلها شرقاً وغرباً........................ ٢٣٥
جوهرة في ذكر بعض الممالك التي أعدها فاحتلت بلاد بعض المسلمين لما ذهبت دولهم ........................ ٢٣٦
دولة إنكلترا ........................ ٢٣٦
دولة الفرنسيس ........................ ٢٣٧
دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك ........................ ٢٣٧
دولة إسبانيا ........................ ٢٣٧
استعمار الفرنجة لبلاد الإسلام وهل يدوم ؟ ........................ ٢٣٨
لطيفة في هذه الأمم ........................ ٢٣٨
الذي أراه في إسعاد هذه الأمم الإسلامية في المستقبل ........................ ٢٤٠
اجتماع الأمم بالعلم بعد الاجتماع بالعصبية ........................ ٢٤٠
الطريق الأقوم لسعادة الأمم الإسلامية المستقبلة ودوام ممالكها........................ ٢٤٠
عبرة تاريخية في آية : ( إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ) ........................ ٢٤٢
اللطيفة الثانية : في نقل عرش بلقيس ونحوه ........................ ٢٤٣
القسم الثالث : في قصة ثمود وقوم لوط ........................ ٢٥٠
جوهرة : في قوله تعالى أيضاً : ( فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ) ........................ ٢٥١
رأي فيلسوف الصين « كونفوسيوس » في دولية العالم ........................ ٢٥٢
اللطيفة الثانية ........................ ٢٥٢
عواطف كريمة........................ ٢٥٢
القسم الرابع : في قصة موسى وثمود وقوم لوط ........................ ٢٥٣

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ ﴾ وفيها لطيفتان ........ ٢٥٩
اللطيفة الأولى: في شرح هذه العجائب ........ ٢٥٩
المطلب الأول: في الحدائق ذات البهجة ........ ٢٥٩
تطبيق المذاهب الفلسفية في جميع الأمم على نظام النبات ........ ٢٦٣
المطلب الثاني: في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ ........ ٢٦٤
المطلب الثالث والرابع في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ ........ ٢٦٤
المطلب الخامس في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ........ ٢٦٥
البهجة في: ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ........ ٢٦٥
اللطيفة الثانية: في بهجة الحدائق ........ ٢٦٧
مغاني النمل ........ ٢٦٩
مغازلات الحيوانات والطيور وهدايا العشاق ........ ٢٧١
حب العنكبوت المبصر ........ ٢٧١
حب العنكبوت الأعمى ........ ٢٧١
حب الفراش ........ ٢٧١
غناء الحشرات ........ ٢٧٢
دموع التمساح ........ ٢٧٢
الحب بين الطيور ........ ٢٧٢
بهجة الإبصار في أوراق الأشجار ........ ٢٧٢
الكلام على تكوين الأوراق ........ ٢٧٣
نسبة الأوراق بعضها إلى بعض ........ ٢٧٥
ذكرى الجمال والحكمة ومخاطبة المؤلف لصانع العالم ........ ٢٧٥
سعادة مؤلف التفسير وسعادة قرائه ........ ٢٧٧
لطيفة من كتاب الأرواح ........ ٢٨١
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ........ ٢٨٢
حكاية ........ ٢٨٢
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ........ ٢٨٤
لطيفة في أن في هذه السورة حمدين وشكرين ........ ٢٨٨
اللطيفة الخامسة: في تلخيص كتاب الشكر إجمالاً للإمام الغزالي في الإحياء ........ ٢٨٩
جوهرة في مقال عام في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ........ ٢٩١
جوهرة في بعض سر الطاء والسين ........ ٢٩٥
المستنبطات التي وجدت بين سنة ١٧٠٠ وسنة ١٨٠٠ ........ ٢٩٧